
دراسة
إيريك دورتشميد
عامل المناخ
كيف غيرت الطبيعة مجرى التاريخ
ترجمة: أحمد الزبيدي

عامل المناخ

كيف غيَرت الطبيعة

مجرى التاريخ



Author: **Erik Durschmied**	اسم المؤلف: **إيريك دورتشميد**
Title: **The Weather Factor: How Nature Has Changed History**	عنوان الكتاب: **عامل المناخ: كيف غيّرت الطبيعة مجرى التاريخ**
Translated by: **Ahamed Al-Zubaydi**	ترجمة: **أحمد الزبيدي**
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**
P. C.: **Al–Mada**	الناشر: **دار المدى**
First Edition: **2020**	الطبعة الأولى: **2020**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www. almada-group. com _ email: info@almada-group. com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group. com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net. sy
ص. ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

إيريك دورتشميد

عامل المناخ

كيف غيّرت الطبيعة مجرى التاريخ

ترجمة : أحمد الزبيدي



إيريك دورشميد

ولد إيريك دورشميد في فيينا عام 1930. وبعد الحرب العالمية الثانية، هاجر إلى كندا. عمل مراسلاً حربياً تلفزيونياً للمحطتين التلفزيونيتين BBC وCBS قام دورتشميد بتغطية جميع الأزمات الكبرى التي شهدها العالم في فيتنام وإيران والعراق وبلفاست وبيروت وشيلي وكوبا وأفغانستان، حاز على العديد من الجوائز. كتبت عنه مجلة نيوزويك (دورتشميد مراسل موهوب للغاية وحقق نقلة نوعية في وسائل الإعلام التي عمل بها. «أما صحيفة» اللوموند فقد كتبت عنه قائلة إنه نجا من معارك عدة أكثر من أي جنرال على قيد الحياة، وهو يعيش حالياً مع عائلته ما بين باريس ومنطقة بروفنس جنوب فرنسا.

إهداء المؤلف:

إلى ويليام وألكسندر

المقدمة

لا يعمل المؤلف، وهو يصف الأحداث الحقيقية، في فراغ. إن نقده للأحداث التي تتسبب في (أو أحياناً تمنع) حدوث نتائج مثيرة، يعتمد على أعمال من سبقوه، ابتداءً من الكتبة اللاتينيين القدماء إلى المراسلين الصحفيين في وقتنا الحاضر، على الرغم من تعرضهم إلى محاولات التقليل من شأنهم أو قمعهم في كثير من الأحيان. ومع ذلك، فقد تم سرد كل شيء جرى بعد الحدث!

يمكن مقارنة التأثير التاريخي الذي أحدثته بعض الأحداث، على الرغم من أنها كانت صغيرة نسبياً، بتأثير المعارك الضخمة التي لا تزال تختزنها الذاكرة الحديثة. وعلى سبيل المثال، في حين أن معركة غابة تويتوبورغ، الحاسمة بين الألمان والرومان التي جرت وقائعها في سنة 9 م شهدت مواجهة بين حوالي أربعين ألف محارب قاتل بعضهم البعض الآخر، لكن معركة موسكو في عام 1941، شهدت تدمير أربعين ألف مدفع، وموت الملايين من الجنود. ومع ذلك، وسواء كانت تلك الأحداث كبيرة أم صغيرة، فإن كل واحد منها شكل منعطفاً تاريخياً.

لقد طلبت النصيحة من المؤرخين البارزين في الوقت الحاضر لتوجيهي في خياري. واعتمدت على أعمال أخرى، مثل أعمال المؤرخ الروماني تاسيتس، فهي محفوظة جيداً ويمكن العثور عليها في المكتبات الرئيسية. أود أن أعرب عن امتناني للكتّاب الذين قدمت جهودهم أساساً مهماً لي وألهَمتني في عملي، ولا سيما الجنرال الجيوستراتيجي

بيير غالوا (الضابط المتقاعد من القوة الجوية الفرنسية،) والمؤرخ في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في وست بوينت، العقيد كين هامبورغر (ضابط متقاعد من الجيش الأمريكي)، وقائد الكوماندوز الألماني السابق، الكولونيل أوتو سكورزيني (المتوفى)، والخبير في التاريخ الأيرلندي، روبرت كي، الذي نجا من الإعصار الرهيب، وربان المدمرة الأمريكية ديوي، الكابتن ريمون كالهون، (ضابط متقاعد في البحرية الأمريكية). فقد كانت رواياتهم الشخصية حاسمة في جعل هذا الكتاب حقيقة واقعة.

وأود أيضاً أن أشكر الأعضاء العديدين في مختلف معاهد البحوث التي استشرتها، فلولا مساعدتهم، كان من المستحيل القيام بهذا المشروع: المعهد الألماني للتاريخ (باريس)، المعهد الثقافي الياباني (طوكيو)، مكتبة مدينة باريس المعهد الهولندي (باريس)، مكتبة الأكاديمية العسكرية الأمريكية (وست بوينت)، المحفوظات الوطنية (باريس)، محفوظات الكلية الأيرلندية (باريس) قسم بحوث التاريخ العسكري (فيينا)، وغيرها من المؤسسات البحثية.

تمهيد

رياح خفيفة إلى متغيرة السرعة...
عندما تمطر، يتبلل الجميع

• مثل شعبي

عندما تتحدث عن الطقس، يصغي إليك الجميع.

«كيف تبدو الأجواء اليوم؟» يسأل الصوت العذب عندما يتوقف جرس المنبه. تقفز خارج السرير، تتلمس طريقك إلى النافذة، وتحدق وأنت نصف مستيقظ في السحب الرمادية وفي برك المياه التي انتشرت على الأرض، وتتأوه قائلاً: «إنها تمطر». ويتأوه الكثيرون في الوقت نفسه. منهم المزارع، لأن العاصفة المطرية تسببت في تلف محصوله من القمح، ويتأوه الزوجان الشابان اللذان كانا على وشك أن يعقدا قرانهما حين يعرفان أن المطر سيتسبب بإلغاء حفلتهما، أو الجنرال الذي قيل له للتو إن دباباته غارقة في الوحل. لقد كان يومهم سيئاً بالفعل.

«... الرياح خفيفة إلى متغيرة السرعة...» أصبحت الحالة الجوية هي المعلومة الصباحية الرئيسة للملايين. تتغير روح الدعابة عند المواطنين مع تغير الطقس، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين لا يعملون في بيئة محمية. مثل الصيادين، وعمال البناء ومتسابقي الدراجات الهوائية، كلهم يجب أن يعانوا من نزوات إله الطقس. ينطبق ذلك على الجنود أيضاً. ولا ننسى كذلك مسؤول التأمين الذي يرتعد عند مجرد التفكير

في الفيضان. وحين يتعلق الأمر به فإن الحكمة تشير، إلى أن أي كارثة طبيعية يشار إليها ببساطة بأنها «عمل من أعمال الخالق».

كان لأعمال الخالق والطقس تأثيرهما العميق على التاريخ. من تدمير جيوش إمبراطورية روما القديمة إلى إلقاء أول قنبلة ذرية، والقائمة لا حصر لها. وستظل كذلك في المستقبل.

يحدق الرجل العجوز في الغيوم التي تتجمع. ويقول: «ليس أمامنا سوى شيء واحد نفعله الآن».

فتسأله زوجته: «ما هو؟».

فيجيبها: الصلاة.

ثم جاءت الريح ودمرت كل ما بناه ذلك الرجل بمثابرة.

هذا ما أخبرنا به الكتاب المقدس
إنه قضاء وقدر

«وها أنا أحمل طوفاناً من الماء ليغرق الأرض، ولكي أدمر كل جسد، يتنفس الحياة، في هذا العالم».

- سفر التكوين 6: 17

«في اليوم نفسه تفجرت جميع ينابيع الجب العميق، وفتحت نوافذ السماء».

- سفر التكوين 7: 11

قال الخادم لسيده «يجب أن تبني قارباً»، وأن تضع فيه كل الأشياء التي تريد الحفاظ عليها. الأمطار الغزيرة ستغرق الأرض.

- من حكايات قبيلة
الهنود الشيروكي في أمريكا[1]

قد لا يتخيل المرء مدى الإثارة، التي حدثت في ذلك اليوم في نينوى، وفي بابل، عندما اصطدم معول عالم الآثار بشيء صلب وأخرج أول لوح طيني من بين آلاف كانت تحوي خطوط الكتابة المسمارية. مطمورة في

1- كانت قصة الطوفان التي ذكرتها الحضارات السومرية والأكدية واليونانية مشابهة لهذه القصة.

الأرض منذ آلاف السنين[1]، أطلق عليها اسم «ملحمة جلجامش تكريماً لملك سومري أسطوري، حكم سنة 3000 قبل الميلاد». هل يمكن أن تكون هذه الملحمة جزءاً من الكتاب المقدس الأصلي؟ الذي ترجمه جورج سميث عام 1872 وتبين أنه أول وصف مسجل لقصة نوح والفيضان:

... صحبت معي على متن السفينة جميع أفراد عائلتي وأقاربي، والبهائم، والماشية، والحرفيين، وبعد أن صعدوا جميعاً. دخلت السفينة وأغلقت الباب...

من قلب السماء خرجت سحابة سوداء...

تحول كل ما هو مضيء إلى ظلام ظلت الرياح والفيضانات تزحف قدماً لمدة ستة نهارات وليالٍ، امتثلت الأرض لقوة العاصفة. عندما بزغ فجر اليوم السابع، خفتت العاصفة، وهجم الفيضان مثل جيش جرار، وتلوث جميع الرجال بالطين[2]...

تشير الأبحاث الحديثة إلى أن الفيضان المذكور في الكتاب المقدس قد حدث في حوالي سنة 5600 قبل الميلاد، في منطقة البحر الأسود. في ذلك الوقت، كان هناك جدار صخري صلب، يدعى البوسفور، يحجز المياه العذبة لبحيرة داخلية عن البحر الأبيض المتوسط. أدى التغير المفاجئ في درجة الحرارة - مفاجئ بالنسبة للساعة الأرضية، لكنه يعني عدة آلاف من السنين - إلى ذوبان الطبقة الجليدية الأوراسية.

أدى ذلك إلى ارتفاع منسوب مياه المحيط وانهيار حاجز البوسفور قبل 7600 سنة[3]. اندفعت المياه في البحر الأسود بلا حواجز وبسرعة مخيفة. وغمرت مساحة تقدر بحوالي 155 ألف كيلومتر مربع. أجبر الطوفان عائلات الصيادين وجامعي ثمار الأشجار على الهجرة إلى

1- ربما تمت كتابته حوالي 700 قبل الميلاد، ولكن يمكن أن يكون أقدم من ذلك بكثير.

2- تشارلز بيرتز، البحث عن سفينة نوح.

3- تم تحديد التاريخ وفقاً لأعمال الحفر التي أجريت في جزيرة غرينلند، ودراسة الطبقات الأرضية.

أقصى الجنوب نحو بلدان مثل مصر وبابل، وهذا ما يفسر كيف أن القبائل الشمالية البدائية انتهى بها المطاف في الأرض التوراتية للفراعنة. تناقل الناس قصة معجزة هروبهم (في سفينة نوح) من جيل إلى جيل، وكتبت في نهاية المطاف في سفر التكوين وملحمة جلجامش.

تؤدي التغيرات المفاجئة في الظروف الجوية إلى حدوث الكوارث. التي تتسبب بها الرياح والفيضانات والعواصف الممطرة والجفاف والحرارة الحارقة والبرد القارس، وقائمة لا تنتهي من مصائب الطبيعة. إن تأثير التقلبات الجوية الحادة التي تحدث فجأة، ولا يمكن التنبؤ بها، بالاقتران مع قوى الطبيعة الهائلة التي تصب جام غضبها علينا، يؤدي إلى حدوث الكوارث. يتغير العالم الذي نعيش فيه على حين غرة فيضطر الإنسان إلى أن يركع على ركبتيه ويصلي طلباً للغوث الإلهي. غالباً لا يستجيب لصلاته أحد إلا في مرات قليلة.

منذ غابر الزمان، وأحداث التاريخ تتأثر بعناصر الطبيعة. اندثرت الحيوانات الضخمة التي كانت تنتشر في مختلف أنحاء الأرض بسبب التغيرات المناخية. وأدى الانخفاض المفاجئ في درجة الحرارة إلى هلاك الحيوانات المفترسة والديناصورات الشرسة. ثم ظهر مخلوق نجح في المشي منتصباً، وكان يتجول في كل مكان عارياً، يعاني من واحد من اثنين، إما برد قارس أو حرارة عالية. كان أول عمل قام به هو قتل بعض الحيوانات ذوات الفرو ويدّثر جسمه بجلد ضحيته. ويقوم بقطع غصن محترق من شجرة ضربها البرق، ويحمل الشعلة إلى كهفه لإشعال النار في مأواه الأصلي. أعقب عصر النار هذا «عصر الأدوات»، عندما بنى الإنسان أماكن بدائية تأويه من الشمس والثلوج والرياح والأمطار. وتحميه من التغيرات الجوية اليومية والموسمية.

تعتمد حياة أو موت الأشخاص على كوكبنا دائماً على بضع درجات حرارة مرتفعة أو منخفضة. يمكن للمرء أن يتخيل رعب رجل بدائي، عندما يصبح النهار أقصر وأبرد ويدوم الليل لفترة أطول. لا بد أنه كان

يتساءل: هل ستعود الشمس للشروق مرة أخرى؟ هل من العجيب إذاً أن ينظر الإنسان إلى الطقس على أنه شيء خارق للطبيعة، يقع في مجال عمل الخالق أو الشيطان؟ لطالما كانت ظواهر الأحوال الجوية مرتبطة بالقدرات الشيطانية أو الإلهية. كان أجدادنا يناجون السماء، ويتضرعون للقديسين، ويعانون من الكوارث التي تصبها السماء عليهم. تحولوا إلى الضفادع والتقاويم للحصول على معلومات حول المطر وشروق الشمس. كانوا يركعون أمام صور القديسين ويتضرعون لهم لكي يجلبوا لهم الماء الذي يمنح الحياة، أو يدعوهم بدلاً من ذلك لمنع هطول الأمطار والفيضانات حتى لا تغرقهم. كانوا يذهبون إلى أبعد حد في مناشدتهم السماوات.

نعلم اليوم أن الربيع يأتي بعد الشتاء كما هو الحال في النهار الذي يتبع الليل. نحن نعرف أكثر من ذلك بكثير. على سبيل المثال، يزداد معدل الخصوبة خلال فترة معينة من دورة القمر[1]. وفيما بعد سيشرح أحد العلماء كيف أن هذا الأمر مرتبط بالجاذبية، والضوء، والتغيرات في المجالات المغناطيسية للأرض، والتي تؤثر أيضاً على السلوك الجنسي للبشر هذه الحقائق كان يعرفها الفلاحون في قريتي قبل وقت طويل من ظهور الحواسيب العملاقة. هل يعني ذلك أن خبراء الأرصاد الجوية الذين يحدقون بأعينهم في صور الأقمار الصناعية من الفضاء، والتي تخبرهم كل شيء عن التكوينات السحابية على غرينلاند، ومضادات الأعاصير فوق جزر الأزور ورطوبة الهواء في بورنيو، هم على علم أفضل من الفلاحين في قريتي؟ يستمع مزارعونا إلى توقعات الأرصاد الجوية ثم يلتزمون بما كان يقوم به أسلافهم؛ يشمّون الهواء، ويبرزون إصبعهم لاختبار اتجاه الريح، ويدرسون الحالة العصبية للماشية والطيور. وإذا كان كل شيء على ما يرام حينها فقط سيغرسون أشجارهم أو يبذرون محاصيلهم. وعندما تتمايل رؤوس نبات عباد الشمس في شهر تموز، فهذا يعني أنها بحاجة إلى المطر. وعندما تمطر

1- الدورة الشهرية للمرأة مساوية لدورة اكتمال القمر والتي تبلغ ثمانية وعشرين يوماً.

في شهر آب، يصبح محصول القمح مستوياً، ولكن لماذا يكون لدينا الكثير من الكمأة في شهر كانون الثاني حتى كهنتنا ليس لديهم إجابة على هذا اللغز.

كل من يصغي باهتمام إلى نشرة الحالة الجوية اليومية تتكون لديه فكرة عامة حول ما سيحدث في الساعات أو الأيام القادمة. لكن هناك شيئاً واحداً لا يمكن للعالم ولا للمزارع التنبؤ به - وهو موعد وصول الكارثة الطبيعية. فهي عندما تصل، فإنها تفعل ذلك بكل قوة الطبيعة الجامحة، وتكون مفاجئة وقاتلة سواء كانت على سبيل المثال لا الحصر أعاصير أو فيضانات أو انهيارات ثلجية، أو قضمة الصقيع، أو حرائق الغابات الجهنمية أو ضباب قاتل، لقد كان لأحوال الطقس تأثير عميق ودائم على تاريخ البشرية. فكانت العواصف الرعدية تدمر جحافل الجيوش، والأساطيل الحربية تغرق بسبب الأعاصير، والدبابات تعلق في الوحل، ويتجمد أفراد الجيش الغازي حتى الموت، وانتهت الحرب الذرية حتى قبل أن تبدأ.

لا يحمل الطقس السيئ دائماً أخباراً سيئة. فالرؤية الجيدة، مثل ضعف الرؤية، هي عامل حيوي لمخططي العملية العسكرية. إن أي تغيير مفاجئ في «الظروف الجوية المواتية» يمكن أن يحول خطة مدروسة إلى كابوس. يمكن أن يتحول الهجوم، الذي تم شنّه تحت غطاء الضباب، إلى رعب إذا ما انقشع الضباب وأمكن لرجال المدفعية تحديد أهدافهم. لكن بالنسبة لجماهير المتدينين الورعين، استمرت النبوءات الكئيبة للكوارث المتتالية تحمل تلك السمات المألوفة بشكل مثير: شلل في حركة الحياة وذعر يخطف القلوب. على مدى قرون ظل أهل الفكر والعلم يسخرون من أولئك الخائفين والمذعورين. وفي الوقت الحاضر فإنهم أول من يلوذ بالفرار.

كانت توقعات الأحوال الجوية في الماضي مجرد تخمينات مبنية على مجموعة من المعلومات، أما صفاتها السائدة هي التي يقررها الله

أو الحظ السعيد. إن التنبؤ بالطقس كان دائماً مشروعاً محفوفاً بالمخاطر، ولا تزال معرفتنا مقتصرة على أحدث تقارير الطقس. اليوم يستمع العالم إلى مذيعي النشرات الجوية على وسائل الإعلام العالمية. وتعد تنبؤاتهم الجوية ذات تأثير اقتصادي: فالمزارعون وسائقو الشاحنات والملاحون والطيارون وحتى سماسرة البورصة يتابعون هذا المذيع وهو يعلن «... هناك احتمال لهطول الأمطار، مصحوبة برياح عاتية، عند الظهر...».

قد يكون الفيضان الذي ورد في الكتاب المقدس أول ظاهرة مناخية سمعنا بها أحدثت تغييراً عميقاً في التاريخ البشري. إذا كنا نصدق المؤرخين ورواياتهم المعاصرة، فإن العالم منذ تلك الفترة بدأ يتجه نحو الأسوأ. كانت معارك البشر مع الطبيعة أكثر عدداً من معاركهم فيما بينهم. لكن حينما تصطدم القوتان - الطبيعة مع حروب البشر - فإن ذلك يؤدي بلا جدال إلى حدوث كارثة.

ويقال حينذاك إنه قضاء وقدر.

عندما هلكت جحافل الجنرال الروماني فاروس الحادي عشر من أيلول، سنة 9 ميلادية

فاروس، يا فاروس، أعد لي جيوشي.

• الإمبراطور أغسطس، سنة 9 ميلادية![1]

إنها السنة التاسعة بعد الميلاد، في إحدى أماسي الخريف في أرض قبيلة الشيراسكيون[2][3] فوق أشجار الصنوبر المهيبة، السماء الذهبية مليئة بأسراب الطيور الجارحة، وهي تتبع رتل الجنود الذي يتمايل مثل أفعى عملاقة على طول الطريق الذي يمر من خلال الغابات البدائية... ظلت ثلاث فيالق رومانية تقاتل لساعات على طول هذا الدرب الضيق، والذي كان طريقاً صالحاً لسير الماعز أكثر منه طريقاً صالحاً لسير العربات. اضطر جنود الوحدات المتقدمة أن يشقوا طريقهم وسط الأعشاب الكثيفة والأشجار الضخمة التي كانت أغصانها تعلق بهم. مما تسبب بجروح وخدوش في أذرعهم وسيقانهم العارية، وبات البعوض يستقر على تلك الجروح المتقيحة. كانت هناك أكوام حجارة مكدسة بشكل غير مرتب تعلوها جماجم تغيّر لونها، تمثل قرابين كانت تقدم إلى

1- عن كتاب المؤرخ سويتونيوس Tranquillus صدر في القرن الثاني الميلادي

2- قبيلة جرمانية قطنت أجزاء من شمال وادي الراين وسهول وغابات شمال غرب ألمانيا، في المنطقة الواقعة حالياً بين أوسنابروك وهانوفر، خلال القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي. المترجم.

3- براونشفيك أو براونسفيك.

إله وثني، مما يشير إلى وجود قبائل محلية في تلك المنطقة. لم تستطع طليعة الفيلق الروماني، سوى رؤية سوى جزء صغير من الطريق أمامها، كان كل شيء ساكناً وهادئاً. لم يكن سوى سنجاب أو أرنب يتحرك من حين لآخر في أرجاء الغابة. ومع ذلك، فإن الجميع، من التريبونيون[1]، الموجودين في الفيلق، يشعرون بعدم الارتياح في هذه الأجواء غير المألوفة، وهم محاطون من الجانبين بالأشجار العالية. ومسارهم يشبه نفقاً، تتدلى منه شبكة متداخلة من الفروع التي تشكل سقفاً مقبباً مع شبه ظله الطبيعي. كان ممراً ضيقاً بين الأشجار المتقاربة للغاية بحيث لا يستطيع الرماة استخدام أسهمهم في حالة تعرضهم إلى كمين. لم يكن يجرؤ السينتوريون من ذوي الخبرة على إخبار قادتهم من التريبونيين الذين كانوا يلبسون دروعاً وملابسَ فاخرة، كونهم من أقارب الإمبراطور أغسطس[2]، إنه ليس من الحكمة أن يسيروا في هذه البرية المعادية دون إرسال دوريات لاستطلاع مقدمة الطريق أو حماية أجنحتهم. كان هناك منعطف آخر في طريقهم، كانوا يأملون أن يكون ذلك هو الأخير، ويجب عليهم بالتأكيد الخروج إلى سهل مفتوح. لكن وراء هذا المنعطف كان آخر، ثم آخر. كان الدرب متعرجاً على طوله مثل جدول، من غابة إلى مستنقع ومن مستنقع إلى غابة. شعر الرومان بأنهم فقدوا السيطرة، كما لو كان تيار نهر شديد القوة يحملهم. كانت المستنقعات تحيط بهم. وأي خطوة غير مدروسة إلى الجانب ستعني موتاً محققاً لأنهم سيعلقوا في المستنقع بسبب وزن سلاحهم الثقيل. وإذا لم يكن عليهم أن يعبروا مستنقعاً، فهناك دائماً تلك الغابة الكبيرة والمظلمة والمخيفة.

كان يسير في أعقاب تلك الجحافل من الجيش الروماني موكب تسوده الفوضى من عربات الخيل والحيوانات الأليفة وعربات الدفع؛

1- رتبة لضابط في الجيش الروماني تصنف دون الليغاتوس وفوق السينتوريون والسينتوريون ومعناها قائد المئة وهي رتبة لضباط في الجيش الروماني. المترجم.

2- في سنة 12 قبل الميلاد، عند وفاة ليبيدوس، أصبح أغسطس كبير أعضاء مجلس الكهنة الأعلى في روما القديمة.

والنساء اللواتي يهذرن، والأطفال الرضع، والطهاة، والصيارفة، والبغايا، وجميع المشردين الذين كانوا يتجمعون عند القواعد العسكرية والذي يمكن العثور عليهم في أي مكان في مملكة الإمبراطور أغسطس.

AD 9, Teutoburger Wald

Projected Roman border by Emperor Tiberius

Roman (limes) border

Recorded site of battle (Dacitus)

وسط صرخات الألم والشتائم، كان هؤلاء الغوغاء يسحقون ما يجدونه أمامهم ليستمروا بالسير مع فيالق الجيش. وعرباتهم التي تحمل أشياء كثيرة تصدر ضجيجاً إلى جانب الهزات المؤلمة لجذوع الأفخاذ المكتنزة، والتي لا تفعل سوى النبش في أعماق المخلفات التي كانت تتركها وراءها عربات مواد التموين الخاصة بالجحافل. كان الجميع يصلي من أجل أن تنتهي هذه الغابة اللعينة.

تقتل الغابة كل إحساس بالزمان والمكان. تتقدم طليعة الجيش، المؤلفة من سكان روما الأصليين تحت قيادة أرمينيوس أحد نبلاء قبيلة الشيروسكي، حول المنحنى؛ عندما تتحول أولى الأفواج الرومانية إلى الزاوية نفسها، يختفي أفراد قبيلة الشيروسكي وتبتلعهم الغابة. وبما أن أرمينيوس والكشافة المحليين هم الوحيدون الذين يعرفون طريقهم حول هذه الغابات، فإن الرومان يصابون بالارتباك عندما يصلون إلى مفترق الطرق. لقد أنهكهم مسير ذلك اليوم حتى لم يعد بمستطاعهم سماع صوت تكسر أغصان الأشجار، فجأة، تظهر عدد من المخلوقات المخيفة المكسوة بالفراء أمامهم. وهي تحمل الرماح والصولجانات، كانوا رجالاً رؤوسهم حليقة وعيونهم تقدح بنيران الشرر. يصاب الرومان بالذهول جراء المفاجأة لدرجة أنه لا أحد منهم يتحرك إلى أن تختفي تلك المخلوقات الغريبة في منطقة نائية. قامت وحدة عسكرية من أحد فيالق الجيش الروماني بتعقب أثر الهاربين، لكن أثرهم تلاشى. كان ظهورهم حيلة ذكية: إنها تجذب التشكيلات الرومانية إلى الدرب، الأمر الذي يقودهم مباشرة نحو الكمين.

«كان يهمس جنود الفيلق الروماني أنهم هنا... قريبون جداً». لكن أين؟ سوف نكتشفهم قريباً[1].

قبل نصف قرن من ذلك التاريخ، وبالتحديد في عام 59 قبل الميلاد،

1- نقلاً عن الكتب التي ألفها الكتبة الرومان آنذاك أمثال تاسيتوس وفيليوس وباتيركولوس، وديوكاسيوس.

كان يوليوس قيصر - الحاكم الشجاع الذي يؤمن بالقضاء والقدر، ويشك بنوايا الآخرين على الدوام، والقاسي الذي لا يرحم - قد بدأ إجراءات «الهدنة» مع أقوام الغاليين سكان بلاد (الغال)، وبالتالي دفع حدود روما الخارجية إلى نهر الراين. كان مشروعه الطموح التالي هو توسيع حدود الإمبراطورية عبر نهر الراين، لتصل إلى الأنهار الكبيرة في وسط ألمانيا، وبالتالي ضمان حماية «الأكروبوليس الإيطالي» (الذي يضم إيطاليا العليا ومدينة روما) ومنطقة بروفنس من توغل القبائل الألمانية[1] والتي وصفها المؤرخ كاسيوي ديو بأنها قبائل همجية ودنيئة للغاية».

بعد أن نجح في وقف غزو 250 ألف فرد من الهلفيتيون وهم قبائل كلتية عن طريق قطع الجسور المارة عبر نهر الرون في مدينة جنيف، تحوّل يوليوس قيصر إلى الشمال لتحطيم الملك أريوفستس ومناصريه من القبائل السويبية في سهل الألزاس. بعد ذلك، قاد قيصر ثمانية أفواج من الجنود عبر نهر الراين وقام بإحلال السلام في المنطقة المحيطة بكولونيا وبون. عند مدينة ترير كان المقاتلون البالغ عددهم مئتا ألف لا يستطيعون مقارعة خمسين ألف فرد، هو تعداد أفواج جيش يوليوس قيصر التي تتميز بانضباطها العالي وفي مواجهة القوة العسكرية لروما، هرب العديد من زعماء القبائل خشية الوقوع في الأسر. وعد قيصر بالرأفة بهم ومنحهم العطايا، وأقام وليمة كبيرة دعا إليها جميع الزعماء الذين كانوا مختبئين. وبمجرد أن جلسوا على مائدته، قام جنوده بقطع رؤوسهم. بعد تلك الحادثة قام بمهاجمة القبائل التي أصبحت بلا زعماء ومارس بحقهم عمليات قتل جماعي[2].

ماتت الجمهورية الرومانية مع شيشرون وبدأت الإمبراطورية مع يوليوس قيصر، الإمبراطورية القائمة على روح الغزو والتي تدين بوحدتها

1- مقتبس من كتاب أسينيوس كوادراتوس (ألمانيا لجميع الرجال، ورابطة فضفاضة من القبائل).

2- عن كتاب ديو كاسيوس تاريخ الرومان.

إلى الوجود الدائم لجنودها في أراضيها الشاسعة. كانت هيبتها العسكرية هي الدعامة للقوة العسكرية. كانت جحافل روما حاضرة في كل مكان، تضرب أعداءها بدون رحمة، مما جعل حلفاءهم يشعرون بالاطمئنان، فقد قطعت الطريق على البرابرة. وبسبب نفوذها الكبير، كانت روما هي من تقرر أوقات الحرب والسلام. وبدأت فترة *Pax Romana* باكس رومانا[1].

في أيام حكم يوليوس قيصر، انتقلت العديد من القبائل الجرمانية من معاقلها في الغابات إلى السهول المفتوحة، وأنشأت قرى في السهول الزراعية، كانت في المقام الأول على طول الأنهار الرئيسية. وكان من المحتم أن يقودها هذا الأمر إلى صراع مع الرومان؛ أثبت البرابرة عندما يحين وقت المواجهة، أنهم لا يستطيعون مقارعة آلة الحرب الرومانية المنظمة بشكل جيد. وعندما، عبر يوليوس قيصر في السنة التالية، نهر الراين بالقرب من مدينة كوبلنتس، تمكن من هزيمة قبيلة سيكامبريون التي وصفها بهذه الكلمات: «تتكون حياتهم من أعمال الصيد والأنشطة القتالية، مجدون ومثابرون في العمل. يتناولون الحليب والجبن واللحم، ولا يظهرون أدنى اهتمام بالزراعة. كان قادتهم قلقين للغاية من أن مواطنيهم استعاضوا عن الزراعة بالقيام بغزو الآخرين[2]. من هذا الوصف، قد نخلص إلىٰ أن غالبية القبائل الجرمانية كانت من أصل بدوي. استطاع يوليوس قيصر أن يكتشف سريعاً أن القبائل الوثنية كانت تكره بعضها البعض، واستغل هذا السياسي الانتهازي والداهية باقتدار هذه المعطيات لممارسة سياسة فرّق تسد. وضع اغتيال قيصر نهاية لخططه لغزو ألمانيا في نهاية المطاف. بعد وفاته، تم التخلي عن دبلوماسيته القائمة على سياسة فرق تسد، وبدلاً من ذلك، رفعت قوة القمع، المدعومة بالرماح الرومانية، رأسها القبيح.

1- كانت فترة طويلة من السلام والاستقرار النسبيين حدثت في الإمبراطورية الرومانية. المترجم.

2- من سجل يوليوس قيصر، عن حروب بلاد الغال.

القبائل الجرمانية، وفقاً للمؤرخ تاسيتس[1] الذي كان شغوفاً بأخبارها: كانوا يتميزون بأجسامهم الفارعة وشعرهم الأشقر وعيونهم الزرق. لم يكونوا يرتدون أية دروع، لكنهم كانوا يتسلحون بالرماح القصيرة القاتلة، ويحاربون كرجل واحد، وبالتالي كان يمكن بسهولة تدميرهم بوابل من السهام من الرماة الرومان.

ما جعل البرابرة يختلفون عن غزاتهم الرومان كان إيمانهم الذي لا يتزعزع بآلهتهم القاسية، وهو إيمان يتعارض مع الاقتناع العميق بالروح البشرية: «الآلهة مقدر عليها الفشل والنتيجة هي الموت»[2] والفالهالا[3]، التي كانت موطناً لآلهتهم، كانت تجمعاً مخيفاً حقاً لخوذات المحاربين، الذين يكمن نشاطهم الرئيس في السعي وراء الحرب.

فالهالا كانت مكاناً بشعاً، من الحرائق المشتعلة والظلمة المطلقة. لم تكن جنة المقاتلين هذه تحوي مكاناً لإلهة الحب أو واحدة من آلهات الجمال؛ كانت نسائهم من الفالكيريات[4]، يركبن الخيل أثناء المعركة لتنفيذ إرادة الإله أودين. الذي كان يقرر من ينبغي أن يموت، ويقمن الفالكيريات بحمل الأبطال الذين سقطوا إلى المجد الأبدي من خلال أبواب الفالهالا ويملأن لهم أكواب (الخمر)، كان هناك إله النور بالدور، الذي قتل على يد أخيه الأعمى هود. وفريككا، إلهة الزواج، التي كانت ترعى الأخلاق الدنيوية. وأودين (أو ووتان)، إله المحاربين والملوك، الذي كان لا يرحم[5]، حتى إنه نفى ابنته المتمردة برونهيلد إلى صخرة نارية. كان هناك تراي إله الحرب، وكانت هناك فريا إلهة رائعة الجمال ذهبية الشعر، التي ادعت أن نصف الذين قُتلوا في المعركة، كان بسببها

1- عن كتاب المورخ تاسيتوس (55 – 101م)، جرمانيا.

2- قصائد ايدا القديمة، وهو يشبه كتاب رؤيا يوحنا

3- فالهالا (من اللغة النوردية القديمة) وتعني «قاعة المقتولين». المترجم.

4- اثنان من مجموعة آلهة يخترن المقتولين في المعركة، ويأخذن من ماتوا بشجاعة منهم إلى قاعة الأبطال فالهالا حيث ينضمون إلى معبودهم أودن. المترجم.

5- سبق أن ذكره المؤرخ تاسيتوس في عام 98 بعد الميلاد.

وهو أمر طبيعي بالنسبة للمحارب أن يموت بسبب جمال المرأة. لكن أعنف كل الآلهة كان هو ثور صاحب المطرقة، إله الرعد. مع مطرقته القوية التي تدعى مولنير، التي كانت ترمز للبرق، كان يقذف بالصواعق ليضرب أعداءه[1]. وهكذا، أصبح البرق والرعد صوتا الإله وفأل خير للانتصار في المعركة.

خلال المعركة، كانت العادة القبلية تقتضي بأن يكون البرابرة على المستوى نفسه من الشجاعة والإقدام مع زعيمهم، وأن يضيفوا بأفعالهم الشجاعة مجداً جديداً إلى أمجاده. وكان الزعيم القبلي المنتخب بشكل حرٍّ «أباً لشعبه»، وكانت كلمته قانوناً، وكان يتمتع بالسلطة على الحياة والموت. ومع ذلك، لم يكن ديكتاتوراً [2]، وكان أي قرار يؤثر على القبيلة بأكملها، مثل الذهاب إلى الحرب ضد جيرانهم، يتوقف على رأي مجلس الشيوخ. حالما يتم منح هذه الموافقة، يصبح الزعيم القائد الأعلى وبهذا المعنى، كان الحكم في القبائل الألمانية مزيجاً غريباً من نظام الحكم الديمقراطي والإقطاعي.

كان سلاح زعيم القبيلة الرئيس الناجح خفياً وخادعاً. وكان التغلب على العدو، وخاصة الروماني، بأي وسيلة كانت أمراً مقبولاً ونزيهاً. وكما قال المؤرخ سترابو «في مواجهة رجال القبائل هؤلاء، كان انعدام الثقة هو وسيلة الدفاع الأوثق - فبالنسبة لأولئك الذين كانوا يثقون بهم كانوا يتعرضون لأكثر الأذى». وستثبت الأيام مدى صحة توقع سترابو[3].

كان الليغاتوس legat [4] الذي تقدم جيوش روما المتوجهة إلى

1- تغير اسم ثور إلى ثورداج، ومنه جاء اسم يوم الخميس (thursday). تم العثور على رمزه وهو المطرقة، كمجوهرات في العديد من مقابر المحاربين.

2- كان هتلر يحب أن يصور نفسه كقائد لقبيلة جرمانية، لكنه لم يكن كذلك.

3- سترابو أو سترابون، جغرافي يوناني (58 ق. م - 25 ب. م)، مؤلف كتاب «مذكرات تاريخية وجغرافية».

4- هو منصبٌ لضابط في الجيش الروماني، يماثل بسلطته ضابطاً عادياً في الوقت الحالي. المترجم.

نهر ألبه هو القنصل دوميتيوس أهينابار بوس (ولد في سنة 1 ميلادية) ولأجل هذا العمل الفذ، قام الإمبراطور أوغسطس بتزيينه بحلية النصر. كان خليفته هو القائد ماركوس فينيسيوس (ولد سنة 4م)، الذي قاتل تحت قيادة القائد تيبيريوس في طريقه إلى نهر فيزروغيس (فيزر). ثم تبعه القائد بوبليوس كوينكتيليوس فاروس الذي كان قد ارتقى إلى رتبة قنصل عام 13 ق. م وأصبح قائد جيش الراين في 6 م. وقد عبرت جيوشه النهر الحدودي «للحفاظ على السلام». لكنهم بدلاً من ذلك انتقلوا مثل الطاعون عبر الريف، وقاموا بإطعام أنفسهم من خيرات الأرض دون أن يتركوا أي شيء لأولئك الذين حرثوا الأرض. لقد قاموا بالاستيلاء على مؤونات الشتاء، وحكموا بعدها على القرويين وأسرهم بالموت جوعاً. وكأن سرقة الطعام لم تكن كافية، فبدأ جامعو الضرائب الرومانيون بمضايقة السكان المحليين، وسرقوا أي شيء ذي قيمة. وتمت مصادرة الخواتم والحلي والأسلحة الشخصية وتوزيعها بين القادة والجنود. وعندما كانت تجرؤ قبيلة على الاعتراض، أو رفض دفع الضرائب، فإن جنود فاروس كانوا يعلقون سكان قرى بأكملها من رقابهم على الأشجار. أما الناجون منهم فقد كانوا يفرون إلى الغابات الكثيفة ويشكلون العصابات وقد عاشوا متخفين (لكنهم لم يفعلوا سوى القليل للتخفيف من معاناة القرويين). كانوا يهاجمون دوريات الجيش الروماني، فيرد عليهم الرومان بإرسال بعثات عقابية تصبّ جام غضبها على القرويين العُزَّل الأبرياء. لكن مثل كل الجنود المكلفين بواجبات عسكرية بسيطة ويواجهون عدواً ضعيفاً، انهارت معنوياتهم. وبينما كان الجنود العاديون يقومون باغتصاب النساء، كان ضباطهم يقومون بحشو بطونهم بالطعام، بل وأجبروا القرويين على إعطائهم أموالهم. نعم، كان هناك الكثير من الظلم، لكن روما كانت بعيدة، وكان تركيز الإمبراطور منصباً على غزواته في الشرق، أو على المؤامرات التي كانت تُحاك في البلاط الملكي.

في عام 17 قبل الميلاد، شنت قبيلة سوغامبري هجوماً وأسرت الضابط (التريبيون) ماركوس لوليوس في أرض سبخية عشبية، حيث ألحقت هزيمة مكلفة بجنوده، على الرغم مما كان يبدو أن رجال القبيلة مهتمين بالسخرية من قائد عسكري لجيش روما أكثر من اهتمامهم بالإضرار الدائم بقدرة روما العسكرية. وقد أشار المؤرخ فيليوس باتركولوس إلى ذلك قائلاً: «في جميع حروبه، لم يتلقَ الإمبراطور أغسطس أبداً أي هزيمة مخزية إلا في ألمانيا، على يد مساعديه لوليوس وفاروس».

بعثت هذه الهزيمة رسالة واضحة إلى الإمبراطور أوغسطس الذي كان يركز اهتمامه على حدوده غير المكتملة، وأنظمة الليمس *limes* [1]، فقد كان يحد روما من الجنوب نهر الدانوب ومن الغرب نهر الراين. لفتت هذه الهزيمة الانتباه إلى مسألة مهمة جداً، وهي التركيز على أهمية إنشاء علاقة مناسبة بين قوات روما الموجودة على نهر الراين وتلك الموجودة قرب نهر الدانوب[2]. تضمنت الخطة الاستراتيجية للإمبراطور إنشاء خط حدودي نهري جديد ومحصّن، يمر بما يعرف اليوم بمنطقة بريمن عبر بوهيميا إلى فيندوبونا (فيينا)[3]. وقام بإرسال مجموعة كبيرة من القوات لدفع حدود إمبراطوريته إلى أقصى الشرق، إلى نهر فيزر، وبالتالي منع أي تهديد بشن البرابرة هجوماً على بلاد الغال أو الجنوب عبر جبال الألب.

أوكل هذه المهمة إلى أبنائه بالتبني الضابط دروسوس وشقيقه الضابط

1- وهي الأنظمة العسكرية والدفاعية والاقتصادية التي شكلت حزاماً واقياً للإمبراطورية الرومانية في وجه الثورات وتثبيتاً لهيمنة روما الاستعمارية. المترجم.

2- لم يتحقق ذلك حتى أنشأ الإمبراطور دوميتيان عدداً من النقاط القوية في عام 90م.

3- هي مماثلة لخطط نابليون الاستراتيجية لاتحاد نهر الراين (1806) لحماية حدود فرنسا الشرقية مع روسيا والنمسا.

تيبيريوس[1]، كان دريوسوس رجلاً ذا طموح جامح، لم يكن يكتفي بمجرد معاقبة قبائل سوغامبري المنشقة، لكنه قام أيضاً بضم كامل الأراضي البارزة التي تقع بين نهر الدانوب والراين. وأقام مقره في مدينة (ماينتس). في سنة 11 قبل الميلاد، انطلق جيشه إلى المنطقة المجهولة من موقعين محصنين بشدة على طول نهر الراين. أخذه تقدمه شرقاً نحو غابة هارتس، الواقعة في تورينجيا، أرض قبائل الماركومانيون الجرمانية، ثم انحرف شمالاً ودخل أراضي قبيلة الشيراكسيون الجرمانية. وبعد أن «تصالح» مع تلك القبيلة، عبر مدينة بروانشفيك متوجهاً إلى نهر ألبه، عندها وصل طموحه إلى النهاية المفاجئة. في عام 9 قبل الميلاد سقط دروسيوس عن حصانه وكسرت رقبته. تولى تيبيريوس قيادة جحافل جيش الرومان. ومثل سلفه اللامع، يوليوس قيصر، استغل تيبيريوس الضعف الكبير في أوساط البرابرة، ومشاعر الغيرة التي تسود بين القبائل. فقام بتحريض مختلف القبائل ضد بعضها البعض مستخدماً الوعود والهدايا، وفشل محاربوها، على الرغم من ضخامة أجسامهم، وشعرهم الأشقر، ونظراتهم المخيفة في التوحد في جبهة مشتركة ضد المغتصب. وأصبح هذا هو العامل الحاسم، الذي استخدمه الجنرال الروماني على نحو ملائم ليحقق لحملته الألمانية خاتمة مظفرة. تعرض البرابرة المنقسمين إلى هزيمة تلو الأخرى، على يد جيش الإمبراطورية الرومانية.

بحلول عام 7 ق. م، أصبحت معظم أراضي ألمانيا الشمالية خاضعة لحكم الرومان. وتم قمع القبائل، ومع ذلك لم يتحقق السلام: ففي عام 1 ق. م، أعلنت قبيلة الشيروسكي تمرداً صريحاً وكان خطيراً بما يكفي لأن يأمر الإمبراطور أوغسطس الليغاتوس[2] تيبيروس بالعودة إلى

1- أبناء ليفيا، الزوجة اللاحقة للإمبراطور أوغسطس، اللذين تآمرا ليتبناهم الإمبراطور أوغسطس كأبنائه. وقد خلف تيبيريوس الإمبراطور أوغسطس على العرش في العام الرابع ميلادي.

2- وهو منصبٌ لضابط في الجيش الروماني. المترجم.

ألمانيا[1] وتأكيد سلطة روما عليها. جمع تيبيريوس جيشاً انطلق في سنة 4 ميلادية. تمكن من هزيمة الشيروسكيين ثم جيرانهم، قبائل اللانغباردي (اللومبارد)، مستخدماً الأساليب الوحشية المعتادة لدى الرومان، قبل أن يبحر إلى أقصى الشمال إلى يوتلاند[2]، حيث علقت قواته في ثلوج الدول الإسكندنافية. وبعد أن جمّع جيشاً جديداً في منطقة كارنانتوم[3] عبر تيبيريوس نهر الدانوب لمهاجمة قبائل الماركوماني في منطقة بوهيميا، في حين كانت قوة عسكرية أخرى تحت قيادة الضابط (تريبيون) ساتورنينيوس، تتقدم من نهر الراين. نجت قبيلة الماركوماني من الانقراض بسبب اندلاع تمرد في مقاطعتي إيليريكوم وبانونيا البعيدتين، وتم إصدار الأوامر إلى تيبيريوس لترك الحملة في منطقة بوهيميا والاندفاع جنوباً لسحق التمرد.

لقد أدرك تيبيريوس أنه من غير الحكمة ترك المناطق التي غزاها حديثاً بدون حماية. فأبقى خمسة أفواج للسيطرة على الحصون التي أنشأها على طول الأنهار الكبيرة وسط ألمانيا. وتم تسليم القيادة على قوات الاحتلال هذه إلى الضابط (تريبيون) بوبليوس كوينكتيليوس فاروس، الذي كان مسؤولاً عن شؤون البلاط الإمبراطوري وبقدر ما كان كسولاً كان غبياً أيضاً، وقد اعتاد على تمضية وقته في اللهو بدلاً من المشاركة الفعلية في الحروب[4] لقد كان فاروس حفيد مارك أنطوني من ابنته أنطونيا، وقد تمكن بذكاء من أن يتزوج من حفيدة شقيق الإمبراطور أوغسطس. وباعتباره حاكم روما الفاسد في سوريا، وقد جمع ثروة شخصية، وكان يحابي التجار ويجمع الجزية من السكان. وقد خضع السوريون لمطالبه، لكن الألمان لم يفعلوا.

1- تم ترقيته إلى رتبة أعلى.

2- شبه جزيرة أوروبية، تشكل الجزء القاري من الدنمارك والجزء الشمالي من ألمانيا. المترجم.

3- هاينبورغ، تقع بالقرب من فيينا.

4- المؤرخ فيليوس بيتراكولوس.

مع الهدوء الذي خيّم على بلاد الغال، وانتصارات تيبيريوس في حملاته التي تركت القبائل الألمانية بدون زعيم، كانت مهمة فاروس «سهلة»: كانت حياته العسكرية سلسلة طويلة من الحفلات وتناول الطعام بشراهة ومعاشرة البغايا من الصنف الممتاز، وكانت مصاريفه جميعاً تدفع من الضرائب المفروضة على السكان المحليين، وبذلك كان مثالاً سيئاً لجنوده، الذين تحولوا إلى أشخاص خاملين ومتراخين. لم تخضع أي واحدة من الفصائل الخمس التي كانت تحت قيادته للتدريب العسكري المنتظم، وكانت مهمة الجنود هي سرقة الماشية والاستحصال على الضرائب. كان المقاتلون مشغولين بالحصول على زوجات لهم أو ببساطة اختطاف نساء القبائل لجعلهن محظيات لهم، وباتت معسكرات الجيش أشبه بمدن الصفيح.

طوال مدة توليه منصب حاكم ألمانيا، فشل فاروس في اكتشاف الفرق بين السوريين المذعنين الذين رضخوا له من قبل والبرابرة الشرسين الذين كان يحاول أن يحكمهم الآن. وسواء كان مجرد حاكم ضعيف أو مستبد ظالم، فإن هذا الأمر لم يتم التحقق منه أبداً بشكل تام. ومهما كان السبب، فقد حفر قبره بيده في اللحظة التي بدأ فيها بفرض الجزية على القبائل لملء خزائنه الشخصية. كان الذهب نادراً، ولم يكن الألمان على وشك التخلي عنه عن طيب خاطر. كما أنهم لم يستسيغوا إجبار زوجاتهم أو بناتهم على خدمة المقاتلين وأن تحمل نساؤهم في بطونهن ذريتهم غير الشرعية

في عام 9 م، بينما كان انتباه الإمبراطور أوغسطس منصباً على مؤامرات البلاط في مبنى الكابيتول، وكان تيبيريوس مشغولاً في دالماسيا، وصلت رسالة إلى قائد منطقة فاروس. ففي أوائل أيلول، اندلعت الاضطرابات في المنطقة الواقعة بين نهري فيزر وإيمس، في منطقة غابات كثيفة كانت تسكنها قبائل الشيروسكي. وكان القرويون الغاضبون قد ألقوا بجامعي الضرائب في النهر، وهذه الأخبار لم يأخذها فاروس على محمل الجد، حيث كان يعلم أن زعيم قبيلة الشيروسكي، سيغيمور، كان شخصاً يرغب

بالسلام دائماً. لكنه كان لديه تصفية حساب مع ابن الزعيم، أرمينوس، وهو شخص مثير للقلاقل، أطلق عليه تاسيتوس لقب «مثير الفتن في ألمانيا». وكان يستحق تلك السمعة السيئة تماماً.

ولد أرمينيوس في سنة 17 قبل الميلاد. وقد برزت شجاعته منذ سنوات صباه المبكرة وحاز على احترام قبيلته. وقد خدم مع أخيه فلافيوس في الجيش الروماني، ولكن لا يُعرف عنه سوى القليل، إلا أنه كان طويلاً وذا بنية قوية، كما أنه أرستقراطي من أعلى الرتب وقد رافق الحكام الرومانيين لعدد من السنوات. في السادسة والعشرين، من عمره كان قد أظهر أكثر من مرة شجاعته وذكاءه في خدمة تيبيريوس أثناء الحملة في إقليم إيليريا. وبسبب شجاعته وصفاته القيادية تمت ترقيته إلى رتبة الفروسية في طبقة النبلاء الرومان وصدر الأمر التالي:

(*'Iuvenis nominae Arminius assiduus militiae nostrae prioris comes iure etiam civitatis Romanae*)[1]

يعين الشاب أرمينيوس المرافق الحربي الأول ويمنح الحق في تحرير المدن الرومانية)، وأصبح برتبة بريبفكتوس في الجيش الروماني. ومع ذلك، كان هناك شيء واحد لم يكن الرومان يعرفونه: كان أرمينيوس متعصباً لوطنه ألمانيا بشدة. منذ أيام الطفولة، بعد أن كان شاهداً على مذبحة في إحدى قرى قبيلته قام بها الفيلق الروماني، حمل هذا الزعيم المتمرس في داخله كراهية شديدة لكل ما هو روماني.

ظل أرمينيوس لعدة سنوات، بينما كان يخدم تحت إمرة مختلف القادة الرومان، ينظر على نحو عاجز في المأساة التي حلت بشعبه. أصبح مصيرهم الحزين جراء الهزيمة هاجسه الأوحد. وكان يسبب ضيقاً وإزعاجاً له. ودأب على تذكير والده مراراً وتكراراً، بالمصير الذي كان ينتظر أمة شيروشكسية ضعيفة ومقهورة. وفي حين كان والده ينصحه بالصبر، كان الغضب يعتمل في صدر الشاب؛ ومن تجربته العسكرية

1- المؤرخ تاسيتوس.

الخاصة بحث عن طريقة لدعم شعبه ليقف في وجه العبودية الرومانية المستمرة، على الرغم من أن هذه لم تكن مهمة سهلة.

كانت الإمبراطورية الرومانية مبنية على روح الغزو وتدين بوحدتها بشكل حصري إلى التواجد الدائم لجنودها وهم يحرسون حدود أراضيها الضخمة. وكان الجيش الروماني يتكون من جنود محترفين، كل واحد منهم مواطن روماني (على الرغم من أن قلة قليلة منهم كانت من الإيطاليين)، كانوا يتسلحون بالبيلوم[1] وهي مثل سيف قصير يستخدم للقتال القريب ودرع بيضوي مصنوع من جلد البقر بلون الفيلق. كان يتم تقسيم الفيلق (الوحدة)، التي يقودها أحد الآمرين (الأطربون)، إلى عشر مجموعات (كتيبة) مؤلفة من ست وحدات، يتألف كل منها من مئة محارب، بقيادة سينترويون، وهي التسمية الرومانية لكل قائد مئة من المحاربين. كان الليغاتوس حاكماً معيناً من قبل البلاط الملكي، ومتفوقاً في الرتبة العسكرية.

كان أرمينيوس يدرك من التجربة أن مواجهة آلة الحرب الرومانية في معركة مفتوحة لا بد أن تؤدي حتماً إلى كارثة. وكان قد درس مصير فارسانجيتوراكس[2] وأبناء قومه الشرسين الشجعان، الذي تلقى الهزيمة أمام جحافل القيصر المنضبطة والمدرّبة تدريباً عالياً. عام 52 ق. م كانت القبائل الجرمانية تمتاز بكل شيء ما عدا الانضباط، فكان لا يمكن الاعتماد عليها تماماً، وكانت تشارك في المنافسات التافهة، ولم يكن بإمكانها أن تواجه تفوق وحدات المشاة والرماية وسلاح الفرسان عند الرومان. وأخيراً، لم يكن زعيم القبيلة بإمكانه أن يأمر أبناء قبيلته مثلما يفعل القادة العسكريون الرومان حينما يأمرون جحافلهم؛ كان على رئيس العشيرة أن يرسل خفية أشخاصاً يحملون رسائل منه (يمكن أن يتم اعتراضهم من قبل الرومان أو زعماء القبائل الذين يغارون منه)،

1- وهي حرابٌ قصيرة كثيراً ما استعملها الجنود الرُّومان القدماء في المعارك. المترجم.
2- هو ابن زعيم غالي. جمع بين أكثر أقوام بلاد الغال وقادهم في محاولة لدحر الغزاة الرومان. المترجم.

ثم يدعو الله أن يلبي دعوته ما يكفي من المحاربين حتى يتمكن من اتخاذ موقف. وكان عليه أيضاً اختيار الأرض المناسبة للمعركة حتى تكون المواجهة في صالحه. كانت حامية روما عبارة عن حصون مسوّرة بجدران محكمة، ولا يمكن مهاجمتها. ولكن خارج الحصون، كانت جحافل الإمبراطور، مكشوفة خاصة إذا تم محاصرتها في مكان لن تتمكن فيه من الانتشار في صورة تشكيلاتها الحربية المنظمة.

في عام 8م. انضم أرمينيوس إلى القائد فاروس الذي كان يحمل رتبتي الليغاتوس والأطربون[1] بمنصب قائد لوحدة من المتعاونين من قبيلة الشيروسكي. وفي الوقت نفسه، بدأ بوضع خطة ماكرة، والتي من شأنها أن تجعل فاروس مكشوفاً في العراء وصيداً سهلاً. ولإغراء الدب للخروج من مخبئه يجب أن يكون هناك سبب وجيه يحفزه، مثل حدوث انتفاضة، أو كما حدث آنذاك، انتشار شائعة معينة.

سرعان ما اكتشف أرمينيوس أن فاروس لم يكن مثل تيبريوس. وكان يحمل نحو هذا (القائد) مشاعر ازدراء مبررة، وكان على استعداد لاستخدام إهمال الجنود الرومان كفرصة للخيانة، وكان يرى بشكل ذكي أنه لا يمكن التغلب على أي شخص بسهولة أكثر من الرجل الذي لا يخشى شيئاً، وأن بداية الكارثة هو الشعور بالأمان[2]. كان فاروس يفشل دائماً في اتخاذ الاحتياطات المهمة والأساسية، حيث كان يخرج من المخيم دون الاستطلاعات اللازمة، ولم يكن هناك أي سبب يجعل المرء يفترض أنه سيغير أسلوبه. حدث ذلك في وقت مبكر من فصل الخريف، وحينها كان الوقت قد حان لعودة جحافل فاروس الثلاثة من معسكراتها الصيفية على ضفاف نهر فيزر إلى مقراتها الشتوية في أليسو (التي تسمى حالياً هالترن) على ضفاف نهر ليبه. ولكونه حاز على ثقة القائد فاروس، كان يعلم أنه يخطط للقيام بالتفاف، لتلقين «القرويين

1- كلا لقبيه الإداري والعسكري.

2- المؤرخ فيليوس بيتراكولوس.

المتمردين» درساً. كان قلق أرمينيوس الوحيد من تفوق الرومان العددي، ولهذا السبب احتاج إلى خطة جريئة، لأن هدفه لم يكن أقل من إبادة قوات الاحتلال التي قدمت من روما. كان عليه تكوين تحالف من جميع القبائل. وبينما كان يفكر في ذلك الأمر، وضع جانباً حذره، وبدأ في التحريض ضد فاروس، وشرع يتصل سراً بالقبائل.

كان لدى أرمينوس عم يدعى، سيغيستيس، وهو شقيق سيغيمور وكان يعتقد أن زعامة القبيلة يجب أن تكون من نصيبه، وحينما فشل في الحصول على أصوات أفراد القبيلة، تحول إلى العمل مخبراً لدى فاروس، والرومان. ومما زاد الطين بلة، أن أرمينيوس قد وقع في حب تسنيلدا ابنة سيغيستيس، وهي فتاة جميلة ذات ضفائر ذهبية. وقرر العاشقان الشابان أن يهربا معاً ويتزوجا، وبسبب هذه الإهانة، كان سيغيستيس يكره هذا المحارب الشاب.

أدرك أرمينيوس أنه ليس من الممكن إرضاء الجميع في أرض ذات تاريخ طويل من الصراع القبلي. فقام بعقد لقاءات سرية مع حكماء القبائل، ليس في قبيلة الشيروسكي وحدها، ولكن أيضاً في قبائل أمسيفاري، ومارسي، وبوهرتي، واللانغباردي وشاتي. بعد الكثير من الجدل والمساومة، أقنعهم بأن ينحّوا جانباً خلافاتهم حول الأخذ بالثأر فيما بينهم وينضموا إليه في جهد مشترك من أجل تخليص أوطانهم من الغزاة. على الرغم من الشكوك والعداوة من جانب بعض القادة، فإن ملامح المؤامرة بدأت تتشكل. طرح أرمينوس خطته، التي تم التصويت عليها وقبولها. الأمر الذي لا بد أنه سيشكل مساراً فريداً في تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى المبكرة، طهرت القبائل من قياداتها جميع العناصر المشاكسة التي لا يمكن الاعتماد عليها عن طريق انتخاب أرمينيوس زعيماً وحيداً لها. ولكن مثل هكذا مؤامرة كانت ذات حجم كبير، ولم يكن بالإمكان إبقاؤها سرية، وبالتأكيد لم يكن هناك من شخص له اتصالات جيدة بالرومان أفضل من عمه سيغيستيس. حاول سيغيستيس

أن يحذر فاروس «لا تثق بأرمينيوس»، «إنه يتآمر عليك ويجب أن تلقيه في السجن وإلا فسوف يدمرك». اعتقد فاروس، وقد كان يعلم جيداً مدى مشاعر المرارة التي تطبع العلاقة بين سيغيستيس وابن أخيه أرمينيوس، الذي صادف أن يكون واحداً من أعوانه الأكثر موثوقية، إن هذا الاتهام هو مسألة انتقام من رجل عجوز لتصفية حساباته الشخصية، وبالتالي تجاهل هذا التحذير، بل إن ذلك الأمر أقنع فاروس أنه لا يوجد أي خطر على الإطلاق. وكمفارقة في نهاية المطاف، تم تسليم أرمينيوس «الجدير بالثقة» منصب القيادة على الأفواج المتقدمة من الجيش والتي ستقوم بتوجيه المحاربين خلال منطقة الغابات القاسية. وهكذا، وفر فاروس للقائد أرمينيوس فرصة قيادة ثلاثة جحافل رومانية وإيقاعها في الفخ.

بدأ الأسبوع الأول من شهر أيلول، عام 9م، دون أن يحمل أية إشارة إلى الكارثة القادمة. بعد أن قضت جحافل الرومان صيفها بسرور بما فيه الكفاية على ضفاف نهر فيزر، كان من المتوقع أن تصل إلى مقراتها الشتوية في غضون أسبوع من المسير. وقد قيل لهم إن قائدهم (الأباطرون) كان يخطط للقيام بانحراف بسيط عن خط السير لتعليم بعض القرويين المتمردين درساً. قبل أن تنطلق الأرتال الطويلة، أرسل أرمينيوس رسلاً إلى حلفائه، ليحتشدوا مع محاربيهم في غابة تويتوبورغ[1].

في صباح يوم خريفي، خرج فاروس من المخيم الصيفي على رأس قوة جبارة، تضم الفيلق السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، بالإضافة إلى ثلاثة فصائل من سلاح الفرسان وستة من سرايا الإسناد. كانت مجهزة بسلاح الكاتافراكت والكليباناري[2] وبكامل دروعها[3] وهي تتبع جنود المشاة والرماة مع الدروع الملونة الخاصة بهم (لون

1- سميت على اسم قبيلة تيبتونوس الاسم الأصلي لدويتشلاند أو أرض الألمان وتقع بين نهري ويسر وإيمز في مثلث تشكله اليوم مدن ديتمولد وأونسبروك وميندن.

2- هي أنواع من أسلحة الفرسان الثقيلة المدرعة التي كانت تستخدم في الحروب القديمة. المترجم.

3- ركوب الخيل بدون مسند القدم كما يفعل الفرسان في سنوات ما قبل القرون الوسطى.

لكل وحدة وفيلق). إجمالاً، كان هناك أكثر من عشرين ألف رجل مدججين بالسلاح يسيرون في أثر رتل فوضوي ومرتبك من الأزواج وعوائل الجنود والعاملين في أمور الخدمة في المعسكر.

كان الفخ جاهزاً.

في تلك الأيام البعيدة، كانت الغابات الممتدة بين نهري فيزر وإمس تتكون من أعشاب بدائية مع شجرات صنوبر يبلغ طولها أكثر من مئة قدم. خلال هذه الحياة البرية المظلمة والشريرة، لم تكن هناك سوى طرق بدائية، داستها الوحوش البرية طوال فترة عيشها. وكانت هذه الطرق ضيقة وزلقة، تغزوها الجذور السميكة للأعشاب والنباتات، والتي كان لا بد من قلعها للسماح بمرور العربات الثقيلة. بدأ الجنود يسيلون عرقاً تحت جركيناتهم[1] الجلدية بسبب وزن الدروع الثقيل والرطوبة الخانقة. ومع ذلك، وعلى الرغم من الحرارة المرهقة، كانوا يشعرون بقشعريرة تتسلل إلى عظامهم. كانوا يعرفون أن البرابرة كانوا موجودين، من حولهم ورغم أنهم غير مرئيين لكنهم يراقبونهم. وقد دعاهم قادتهم، الذين تميزوا بستراتهم القصيرة الضيقة القرمزية اللون، إلى مزيد من السرعة في المسير، وكانت الأبواق تصفر، وكان المحاربون يزيدون من إحكام أربطة خوذاتهم، ويهيئون أنفسهم لأية محنة تتربص بهم.

من اللحظة التي اختفى فيها أرمينيوس وجنود الاستطلاع من أبناء قبيلته الشيروسكي، فقد الرومان بوصلتهم. تعثرت الجحافل في عمق برية من الأشجار المتساقطة والمستنقعات الكريهة الرائحة. وعلى الرغم من التقارير السابقة عن القبائل المعادية في المنطقة والاختفاء الغامض لمرشده للطريق، كان فاروس لا يزال يرفض إرسال طليعة الدوريات على الرغم من تفوقه العسكري الهائل، إلا أنه أخطأ بشكل أعمى. أي قائد يرتكب مثل هذه الحماقة يكون مذنباً بالإهمال الجسيم. وفي حين كان أرمينيوس على علم بخطط القادة الرومان - فإن طريق مسيرته لا بد

1- سترة رجاليّة ضيقة، عادةً مصنوعة من الجلد وبلا كمين. المترجم.

وأن تقوده حتماً لأن يسلك ممرات دورينشلوخت. لم تكن لدى فاروس أي فكرة عن أماكن وجود الشيروسكي.

في 9 أيلول عام 9 ميلادي، وضع أرمينيوس خطته موضع التنفيذ. كان تكتيكه هو الهجوم على الوحدات الأمامية والخلفية المعزولة، وتدميرها، ودفع القوات الرئيسية إلى عمق أكبر في الغابة، حيث ستكون محرومة من القدرة على المناورة. كانت الوحدة الأمامية الرومانية أول من دفن تحت وابل من الرماح والصخور. حدث الهجوم بشكل غير متوقع لدرجة أن معظم المحاربين ماتوا على الفور، أو قتلوا على يد جحافل من المحاربين الذين كانت عيونهم تنطق بالشرر، كانوا يثبون على ضحاياهم التعساء من المنحدرات والأشجار. أما أولئك الذين هربوا من المذبحة فقد هرعوا عائدين ليحذّروا الآخرين وهم يصيحون. «شيروسكيون! شيروسكيون» لقد أحدثت صيحاتهم ذعراً بين الآلاف من الخدم العاملين في المعسكر والذين أصبحوا الآن يتدافعون نحو الوحدات العسكرية طلباً للحماية. «لم تكن الجحافل تسير وفق أي ترتيب منظم، بل امتزجت الواحدة بالأخرى وساد الهرج والمرج وسط العربات والأشخاص العزل من السلاح[1] إضافة إلى الارتباك السائد، تسببت هجمات متقطعة أكثر كانت تنطلق من أستار الغابة الكثيفة في زيادة الاضطراب وعدد الإصابات بين أفراد الجحافل. استمرت هجمات الكرّ والفرّ في معظم أوقات اليوم الأول. قام رجال القبائل بضربتهم، ثم تلاشوا في ثنايا الغابة. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، وصلت الجحافل إلى سهل مفتوح. أمر فاروس قواته أخيراً بالتوقف. انتشر الحراس وتم إشعال النيران من حول المعسكر. لم يشن رجال قبيلة الشيروسكي هجوماً في تلك الليلة.

في الصباح الباكر لليوم التالي قام الرومان باختراق المخيم. أمر فاروس بإشعال النار في المكان المخصص لوقوف عربته الفخمة، كان الطريق يؤدي مرة أخرى إلى الغابة الكثيفة. ما إن دخلت الأرتال إلى الغابة حتى هاجمها

1- عن كتاب تاريخ الرومان للمؤرخ كاسيوس ديو.

البرابرة. أصدر القادة أوامرهم بالتراجع. كان هذا طعماً، عرف أرمينيوس كيف يقوم بالخدعة. ومع ذلك، قبل أن يتمكن من إيقاف محاربيه الغاضبين، كان عدد من مقاتلي قبيلة الشيروسكي قد قاموا بالفعل بمطاردة الرومان نحو السهل المفتوح. وبذلك، فقد الشيروسكي ميزة التضاريس التي اختاروها. وفي ذلك العراء، سرعان ما أحدثت التشكيلات الرومانية المنضبطة وتشكيلات سلاح الرماية الدقيقة المنضوية معها تغييراً في مسار المعركة.

تم إجبار أرمينيوس، على الدخول في وضع ليس من اختياره، ووقف المعركة. تم تنفيذ الانقضاض الأولي للمحاربين وسط حالة من الهياج لدرجة أنهم كانوا على وشك اختراق خطوط الرومان. هذه الطاقة والروح التي كان يملكها هؤلاء الهمج ألقت الرعب في قلب فاروس الموهن والضعيف الذي كان يقبع محمياً خلف دروع جحافله. كان مشلولاً من الخوف وغير قادر على التوصل إلى قرار، ولكن سرعان ما تمكن مساعدوه من جعل الوضع تحت السيطرة. سرعان ما تشكلت الجحافل على شكل كتائب. كان محاربوها يشبهون حيوان الشيهم القاتل، كانت أجسادهم تعجّ بالرماح والسيوف والدروع الواقية التي تعلو فوق رؤوسهم تحميهم من وابل الرماح التي كانت تسقط عليهم، بينما كان الرماة الرومان في أحسن حالاتهم. فإضافة إلى النتائج المدمرة التي أحرزوها، أطلقوا مجموعات من النبال نحو المهاجمين المحصنين بكثافة. وبمجرد أن تم إضعاف هجوم البرابرة، صدحت الأبواق، وتقدم الترياريون الرومان[1] والبرينسايبس[2] في ترتيب نموذجي. هاجمت

1- من العناصر المهمة في الفيالق الرومانية خلال العهد المبكر للجمهورية. كان الترياري أكبر الجنود عمراً في الجيش الروماني، وكانوا أيضاً من أكثرهم ثراءً، لذلك كانوا قادرين على شراء معدات قتالية غالية الثمن، فارتدوا الدروع المعدنيَّة الثقيلة وحملوا تروساً ضخمة. المترجم.

2- قوات مشاة من حملة الرماح ولاحقاً السيوف في جيش الجمهورية الرومانية الأول. كان معظم جنود فئة البرينسايبس رجالاً في منتصف العمر بمقدارٍ متوسّط من الثراء، وكانوا قادرين على توفير عتادٍ جيّد لأنفسهم. كانوا أثقل المشاة في الفيلق الروماني، إذ حملوا تروساً كبيرة وارتدوا دروعاً عالية الجودة. المترجم.

الجيوش الأكثر انضباطاً القبائل بقوة ومع الالتحام العنيف بالأسلحة، أظهر مقاتلو قبيلة الشيروسكي شجاعة وعناداً واختاروا الموت على أن يتراجعوا خطوة واحدة.

وبينما بقي القادة الرومان في أمان في المواقع الخلفية، كان أرمينيوس في خضم المعركة، يمسك بسيفه العريض. لكن عزيمة رجاله وصلت إلى حدها الأقصى؛ حتى أفضل مقاتليه وصلت قوتهم إلى نهايتها. كأن بقاءهم في الميدان تقديراً لزعيمهم ذي الإرادة الحديدية الذي أمرهم بسحق الرومان. في ذلك السهل المفتوح، لقي العديد من المحاربين الشجعان مصرعهم قبل أن تعلن أبواق الحرب الأوامر بالانسحاب، ويعود من تبقى من المحاربين إلى الغابات. أما بالنسبة للرومان، الذين كانوا منهكين بالدرجة نفسها، فقد فشلوا في تعزيز نصرهم وتدمير الخطر الكامن لهم.

أصبح أرمينيوس في مأزق. فقد تعرض للتوبيخ بسبب دعوته للانسحاب، وهو أقصى قدر من العار بالنسبة لأي مقاتل. وتجرأ البعض على وصفه بالجبان. واستاء آخرون منه كذلك لأنه لم يمنحهم الفرصة لنهب عربات الكنوز التي كانت بلا حماية. وفي السهل المفتوح، فقد عدداً كبيراً من أشجع مقاتليه، والعديد منهم كانوا متجانسين مع بعضهم، والآن أصبح مسؤولاً عن فقدانهم. واتهمه عدد من رؤساء القبائل بمحاولة تقويض سلطتهم. بطريقة ما، كان لدى أرمينيوس الكثير مما يخشاه من حلفائه بالقدر نفسه الذي كان يخشى فيه رماح الأعداء. كان يداهن ويدعو إلى الصبر ويوضح استراتيجيته. كان يطلب يوماً واحداً آخر، يوماً واحداً فقط، وسوف يدخل موتاهم إلى الفالهالا[1] بعد أن ينتقم لهم. وسوف يشنون هجوماً مرة أخرى في اليوم التالي، ولكن هذه المرة في أعماق الغابات، على أرض مناسبة لهم.

1- قاعة المقتولين في الأساطير النوردية وهي القاعة الموجودة في العالم الآخر التي يذهب إليها من مات في المعارك ويعيشون فيها بسعادة. المترجم.

بالنسبة إلى الرومان، فإن الأجواء فيما تبقى من اليوم الثاني كانت هادئة. كان القائد فاروس مقتنعاً بأنه ألحق هزيمة ساحقة بأعدائه، وأن البرابرة نالوا ما يستحقونه وأصبحوا بعيدين عنهم. وبينما كان محاربوه يوقدون النيران ويعتنون بجراحهم ويحتفلون بانتصارهم، أخطأ فاروس مرة أخرى في عدم إرسال دوريات للاستطلاع.

أبحر القمر الفضي عبر السماء وكان الليل بـارداً. لم يستطع أرمينيوس أن يبعد عن رأسه أفكاره اليائسة. كم محارب جيد قد ضحى به! هل يمكن للمتبقين شنّ هجوم آخر؟ مهما كان الوضع، يجب أن يكون الهجوم الأخير. لم يكن لديه المزيد من المقاتلين الاحتياط تحت تصرفه. هل كانت هذه هي النهاية؟ تكون لدى الرجل الشجاع دائماً فرصة لأن يضحي بحياته بثمن غال. في ساعة النهاية هذه، كان أرمينيوس لوحده. وسيكون عليه مرة أخرى قيادة شعبه إلى المعركة، وربما سيلاقي الموت. استند إلى جذع شجرة صنوبر ملتوية. نما قرص القمر قبل أن يختفي خلف سحابة رقيقة. تسربت أشعة الشمس الأولى من خلال مظلة من قمم الجبال المتعرجة. لقد بزغ فجر اليوم الثالث.

ساهم تفوق الرومان العددي، وسكون المناطق المحيطة بهم، في أن يشعروا بأمان زائف. بعد الفجر بقليل، تركوا معسكرهم. ولأجل الوصول إلى حصنهم المقام على نهر إيمس، كان الدرب الوحيد الذي كان مفتوحاً أمامهم هو من خلال «غابة توتيوبورغ»، وعبر ممر «دوغينشلوخت» المشؤوم[1]، وسارت الجحافل التي طمأنها الشعور بأنها تمكنت بالفعل من تحقيق النصر في نسق جيد مكون من خمسة مواكب على طول الطريق الملتوي. ما تلا ذلك كان أقل تنظيماً، مجموعات من الغوغاء الغاضبة، والصاخبة، والخائفة للغاية. أما القوة

1- الحوليات كتاب ألفه تاسيتس المؤرخ والسيناتور الروماني، لايزال الموضع الدقيق لمعركة فاروس التي جرت ما بين 9 - 11 أيلول من سنة 9 ميلادية محل جدل حتى يومنا هذا وهو يقع على الأرجح بين دورينشلوخت (وادي الدورين) وهرمانسبيرغ في ألمانيا.

الرئيسية المرافقة للقائد فاروس التي تراجعت للسماح لطلائع القوات بالوصول إلى الوادي، فقد أصبحت غير منظمة كلياً عندما اجتاحتها مجاميع من الغوغاء رثة الثياب [1].

وضع أرمينيوس محاربيه على جانبي ممر دوغينشلوخت، وهو واد تحده المنحدرات الشجرية الحادة. من أعلى المنحدر، شاهد الرومان وهم يقعون في الفخ. كان على وشك أن يشير إلى البدء بالهجوم عندما وقع حدث كان هو من قرر نتيجة المعركة. جاءته المساعدة بطريقة غير متوقعة في اللحظة التي كان يحتاجها بشكل أكبر تماماً. أول إشارة جاءته كانت ظهور سحابة رمادية. سرعان ما أصبحت الشمس مختبئة وراء كتلة سوداء قبيحة.

بالنسبة إلى الرومان لم يكن ما حولهم سوى الصمت فقط، ذلك الصمت الثقيل الرطب الذي يسبق العاصفة. كانت السماء قريبة جداً لدرجة أنها تلاشت في الأرض. ترشح ضوء معدني من خلال الغيوم وكشف بشكل حاد عن مدى تشابك الأشجار، مما حول المشهد إلى اعلان عن فوضى الطبيعة. تسابقت الكتلة السحابية المظلمة بشحناتها الكهربائية المليئة بالمطر لتجعله يتساقط على جحافل المحاربين، وكان ذلك -بالنسبة لهم- فألاً سيئاً. أصغى المحاربون إلى لوعاتهم التي

1- من كتاب المؤرخ سويتونيوس Tranquillus. الجزء 56: «وهكذا تكشفت الخطة. كان الزعيم [أرمينيوس] يرافق [فاروس] عندما انطلق، ثم بدأ يختلق الأعذار للتغيب... اصطحب الرومان معهم العديد من العربات والحيوانات كما كانوا يفعلون في أوقات السلم... وفي تلك الأثناء، هطلت الأمطار الغزيرة وهبت العواصف بينما كان الرتل يتحرك إلى الأمام. كما تسبب هذا في جعل الأرض حول جذور الشجر وجذوعها المقطعة زلقة، مما جعل الحركة شديدة الخطورة، وأصبحت قمم الأشجار تتكسر وتتحطم عليها، مما سبب الارتباك. بينما كان الرومان يكافحون ضد الطبيعة، أحاط البرابرة فجأة بهم من جميع الأطراف في آن واحد، وكانوا ينسلون من خلال الأشجار الكثيفة الكثيرة وقد كانوا على دراية بالممرات... قام خصوم الرومان باجتياحهم وأحاطوهم من كل جانب، وسقط الكثير من الضحايا في صفوف الرومان وكانوا غير قادرين على شن هجوم مضاد».

بدأت تكبر. ولطمأنة أنفسهم، أمسكوا بسيوفهم. لقد كان عدوهم من الآلهة، لو كان من البشر لكان أمكن لهم أن يواجهوه؛ لكنه كان الإله عطارد، الذي يسيطر على الطقس.

فجأة انفجرت شرارات البرق في الأفق. واشتعلت السماء بالنيران. أطلقت ومضات من البرق لمحات شبحية خاطفة للأشجار التي كانت تميل للزرقة، تليها أصوات تشق الآذان. عندما ضربت العاصفة المكان، كانت مصحوبة بعنف غير مألوف، ولم تترك أي شك حول قوة الطبيعة. بالنسبة إلى الرومان، فات الأوان على تفسير الأسباب الطبيعية. صدمهم الرعد الهائج وجعلهم يتجمدون في أماكنهم. تضرعوا إلى آلهتهم ورفعوا دروعهم لتدرأ عنهم الشياطين الشريرة. اهتزت الأرض. وعندما شعرت النساء بالرعب من هذا الهجوم الذي لا يقاوم من ومضات البرق السماوية، بدأن بالصراخ، أما كبار السن فقد جثوا على ركبهم، فهم لم يشهدوا مثل هذا الغضب من قبل. ومضات من البرق تليها زخات من الشرارات التي تحطم الأشجار وتقطعها إرباً. أما أولئك الذين هربوا طلباً للحماية تحت أشجار الصنوبر فقد تقطعت أوصالهم عندما ضرب البرق رؤوس الأشجار. اقتلعت العواصف العاتية جذورها الضخمة، ودفنت المحاربين وأتباع المعسكر على حد سواء. ضربت العاصفة الثلجية جحافل الجيش الروماني، وكانت ترمي حجارة بحجم بيض طير أبي الحناء تصطدم بالخوذات المعدنية مصدرة صوت ارتطام. ولحماية أنفسهم من هذا القصف المتواصل، رفع المحاربون دروعهم. وسرعان ما تشبعت الأغطية الجلدية للدروع بالماء بشكل كامل وأصبحت ثقيلة للغاية لدرجة أن الجنود لم يعد بإمكانهم حملها. ألقت الخيول المصدومة بالهلع براكبيها عن ظهرها ورمت بهم فوق أفواج الإسناد التي كانت تسير على طول الطريق الضيق. قام الجنود المرعوبون بإلقاء أنفسهم بسرعة على الأرض وغرسوا أصابعهم فيها وبدؤوا بالصلاة من أجل

أن يتوقف الرعد والبرق. ولكن لا شيء كان يستطيع أن يوقف النار التي صبتها الآلهة من السماء على جحافل الرومان المؤمنين بالخرافات. لم يقف إله المشتري[1] معهم في ذلك اليوم؛ يبدو أن السماء نفسها سيطر عليها جنون تدمير كل ما كان رومانياً[2].

كان الوضع مختلفاً تماماً بالنسبة لمحاربي قبيلة الشيروسكي. لقد حانت لحظتهم، فقد بعثت لهم السماء برسالة. وبينما فسر الرومان العاصفة الهوجاء كغضب من الآلهة، كانت بالنسبة لمحاربي الشمال علامة على وقوف الآلهة إلى جانبهم. قال أرمينيوس بصوت مرتفع ما كان يفكر به الجميع: «باسم الثور!»[3] ورفع سيفه. ونفخ في البوق إيذاناً ببدء المعركة، وكان وراءه عدة مئات. تصاعدت الحركة في ما كانت، قبل لحظات، عبارة عن غابة كثيفة. تحركت الشجيرات، وقفز الرجال من وراء الأشجار والصخور. وعلى حين غرة، أصبحت المنحدرات المتقاربة على الطريق مكتظة بالبرابرة. كانت الصواعق تنفجر من السماء وحولت الغابة المظلمة إلى وعاء كبير تتساقط فيه الومضات الرائعة، وامتلأت الغابة بحشود من المحاربين المخيفين وطوال القامة، وهم يصرخون بأعلى أصواتهم «ثور!» وينزلون على المنحدرات. كانت تتعالى صرخات «ثور! ثور!» بينما كان نزولهم من المنحدرات يشحن قواهم ويمنحهم زخماً إضافياً من الغضب (ثور). ثم اشتبكوا وهم يحملون رماحهم المنخفضة وهراواتهم المتأرجحة مع المحاربين الرومان الذين كانوا مرتبكين تماماً وغير منظمين، ويترنحون على طول طريق الغابة الضيق.

كتب مؤرخهم كاسيوس ديو يقول: «تم منع جحافل فاروس من المضي قدماً أو حتى من الوقوف بشكل آمن، وعلاوة على ذلك تم

1- وهو إله السماء والبرق. المترجم.

2- هذا الوصف من كتاب الحوليات للمؤرخ تاسيتوس.

3- أحد شخصيات الأساطير الإسكندنافية، وهو آله الرعد والبرق والعواصف. المترجم.

حرمانهم من استخدام الأسلحة. لأنهم لم يتمكنوا من استخدام أقواسهم أو رماحهم، ولا حتى دروعهم، التي كانت منقوعة بالكامل»[1].

اجتاحت الصدمة جحافل الجيش الروماني جرّاء هذا الانهيار غير المتوقع، والذي عزته خرافاتهم إلى غضب الإله عطارد، الذي كان يحدق فجأة في الغابة وهي تحترق، تجمعت أمة بأكملها لتغرق في الدم، كل هؤلاء الرومان الذين اضطروا إلى تحمل العيش تحت نير الحكام الرومان. تلك الومضات الزرقاء المتقطعة أعطت انطباعاً لدى الرومان عن الأعداد الكبيرة جداً من البرابرة الذين يندفعون إليهم، وهم يطلقون صرخاتهم الرهيبة المفزعة، ويحملون رماحهم وهراواتهم، تعينهم في ذلك الحمم المتساقطة من السماء. على طول الوادي الضيق كانت الصورة مماثلة، وفي قفزات كبيرة ومتوحشة، كان الآلاف من محاربي قبيلة الشيروسكي وحلفائهم ينزلون إلى أسفل المنحدر وهم يصرخون ويشتبكون مع الرومان المذهولين، وبرماحهم جعلوا من محاربي الرومان التعساء مثل الدجاج في المفرمة. كانت قوة هذا الهجوم الوحشي الذي لا يوصف أكثر من اللازم حتى بالنسبة إلى أكثر المحاربين الرومان شجاعة؛ كان تأثيره الأولي مدمراً بالقدر نفسه الذي أثبت فيه أنه قد حسم المعركة.

لقد تدفقت الدماء في الأنهار. ظن محاربو جحافل الجيش الروماني، التي تعرضت بالفعل لصدمة من الغضب العنيف غير المبرر للطبيعة، أن آلهتهم قد تخلت عنهم. كانت الأمطار تتساقط على شكل ألواح صلبة، تضرب وجوههم وجعلتهم أشبه بالعميان تقريباً. كانت نوبات الرعد المتواصلة تشل آذانهم. لكن جحافل روما تم تدريبها على الطاعة العمياء. تشكلت بعض الوحدات، ثم استدارت لتواجه العدو. لهذا كان المسار مكتظاً للغاية، ولم يسمح بأي مجال للمناورة ولم يعد تفوقهم العددي ينفع في أي شيء. قام الرماة الرومان برمي السهام، ولكن

1- ألّف كاسيوس ديو كتابه تاريخ الرومان في نهاية القرن الثاني الميلادي.

أذرعهم كانت مبتلة وواهنة، والمسافة بين الطرفين قريبة جداً فلم تثبت فاعليتها. حولت الأمطار الغزيرة والدم المسكوب أرض المعركة إلى طين زلق. بسبب ذلك افتقر المحاربون إلى أرض صلبة، مما حرمهم من اتخاذ موقف دفاعي عادي خلف جدار من الدروع والرماح المثبتة. ازداد عنف الاشتباك بالأيدي. قاتل الرومان بآخر ما يمتلكون من قوة، لكن تشكيلاتهم المفتوحة لم تستطع مجاراة روح القتال الشرسة لدى البرابرة. لا أحد يستطيع أن يصمد أمام هجوم تمّ شنّه بمثل هذه المشاعر الغاضبة لفترة طويلة. الرومان لم يفعلوا ذلك. انفصلت فصائل المحاربين عن طوابير الجيش، وتم عزلها، وحوصرت، وهوجمت بوحشية حتى الموت.

خرجت المعركة عن السيطرة تماماً، كل شيء قد حدث بسرعة كبيرة بالنسبة لأرمينيوس مما أثر على نتائجها. كان يراقب مصرع قادته السابقين وهو متجهم لا يمكن أن يتوقع منه أحد شعور الشفقة ولا أن يمنحه لأحد. خلفت وحشية الهجوم ثغرات كبيرة في طوابير المحاربين الطويلة. أدى الحماس والغضب الذي كان يعتمل في نفوس البرابرة إلى أن يتفكك الجيش الروماني إلى وحدات صغيرة لم تعد قادرة على دعم بعضها البعض. ومع غياب التنسيق، ازدادت مصاعب المحاربين الرومان من جديد. بدؤوا يخبطون البرابرة بسيوفهم ويرمون عليهم رماحهم. ولكن دون جدوى. كان البرابرة عند صعودهم ونزولهم في مسار الغابات الضيقة، يهوون بالهراوات والفؤوس على خوذ الرومان، الذين كانوا معزولين في دوائر ضيقة تماماً. تلاشى صراخهم للحصول على المساعدة وسط هدير العاصفة العاتية. أكملت الرماح الحادة والقصيرة والمطارق الحجرية لمقاتلي القبائل مذبحة المحاربين الرومان المترنحين غير المنظمين. تاهت جحافل الجيش الروماني، وتراجعت أصوات الأبواق، لكن حتى ذلك لم يعد ممكناً. ووصلت الأمور إلى نهايتها عندما هرب فالا نومونيوس قائد سلاح الفرسان

الرومان من ميدان المعركة، مما أدى إلى خلق ثغرة كبيرة بين صفوف جحافل الجيش الروماني وبات يتدفق من خلالها رجال القبائل[1].

وتحولت بقية أجزاء اللقاء الدموي إلى مجزرة أشد فظاعة. قطعت أعناق الآلاف من رجال فاروس، وكانت أكوام القتلى تتناثر في كل مكان محاطة بأعداد كبيرة من الجثث، كان كل روماني يقاتل حتى النزع الأخير على الأرض التي باتت زلقة جراء الدماء والأمطار. حاول بعض المحاربين إيجاد منفذ لهم، لكن الضغط الذي سلط عليهم لم يسعفهم. نجا عدد قليل جداً منهم بحياته. معظم أولئك الذين حاولوا، ودخلوا في الغابة مثل الخيول المجنونة، مستخدمين آخر ما تبقى لديهم من قوة في مسيرتهم اليائسة، تعثروا بجذور الأشجار وأمسك بهم مطاردوهم. أما بالنسبة للمصابين، الذين كانوا يعانون من جروح أو طعنات بسيطة، فلم تكن هناك فرصة لمساعدتهم. سرعان ما كانوا يسقطون صرعى، بسبب قطع أعناقهم، أو تلوث جروحهم.

وهدأت العواصف الرعدية بسرعة كما جاءت، واكتسحت الشمس الغيوم. وقف القائد بوبيليوس كوينتيلوس فاروس في فسحة صغيرة من الأرض، تحميها دروع آخر من تبقى من ضباطه، كان واضحاً للعيان وهو يرتدي التوغا البيضاء العتيدة[2]، ورداء أحمر على الكتفين والخوذة الذهبية. كل من حوله قد سقط صريعاً - بلا حياة، يحدق بعينيه وفمه مفتوح - بينما الأقنعة المتوحشة للرجال الذين بلا شفقة تبعث نظرات متجهمة بشراهة وترسم من حوله دائرة محكمة. وهي تصرخ «ثور! ثور» كان بإمكانهم أن يطلقوا رماحهم للتخلص من فاروس، لكن لا، لقد أرادوه حياً. سيصبح غنيمتهم، وسيجعلوا منه قرباناً على المذبح الوثني لإرضاء آلهتهم الفظيعة. بالنسبة للقائد الروماني، فقد انتهى كل شيء،

1- المؤرخ فيليوس بيتراكيليوس.

2- هو زي كان أهل روما القدماء يلبسونه عدا العبيد، ويتكون من رداء أبيض متفاوت الطول يلف حول الجسم. عادة ما يكون التوغا معمولاً من الصوف ويلبس فوق التونيك الذي هو بدوره يكون مصنوعاً من الكتان. المترجم.

فقد فاقه رجال الشيروسكي دهاء وحطموا سلطته. لن يعيده إمبراطوره إلى السلطة ولن يحصل على عفو من أعدائه. أطلق صرخة مؤلمة، غرس مقبض سيفه القصير في الأرض، وارتمى فوقه. وقد حذا الضباط حذوه وفضلوا أن يفقدوا حياتهم بدلاً من أن يقعوا في أسر البرابرة[1]. ارتفعت هتافات الانتصار الوحشية من قبل رجال الشيروسكي وحلفائهم.

الآن أصبح النصر ملكهم، بدأت تظهر أولى علامات العملية المشؤومة للانهيار في الانضباط القبلي على شكل نوبات مفاجئة من المزاج المتوحش. بدأ البرابرة في القتال فيما بينهم، قبيلة ضد قبيلة، وعشيرة ضد عشيرة، ورجل ضد رجل. كانوا يتقاتلون من أجل الفوز بالحلي، والسيوف والدروع، والنساء والغنائم وكنوز فاروس. أصابت بعضهم حالة من الهيجان، وذبحوا الرومانيين الجرحى وجردوهم من ثيابهم وتركوهم عراة - كل ذلك دون أدنى انفعال. كانت النساء وهي تحمل الأطفال، تتوسل بهم طلباً للرحمة. لم يستجب أحد. أما المحاربون الرومان، ممن جعلهم حظهم السيئ يقعون في الأسر، فقد تم دفنهم وهم أحياء، أو تم صلبهم، أو التضحية بهم كقرابين على المذبح الوثني. وأخيراً، التقط البرابرة رأس القائد الروماني الميت، ووضعوه على طرف رمح وقدموه إلى زعيمهم.

كان الدرب ملطخاً بالدم ومكدساً بالجثث، ولم يهرب رجل واحد[2]. كان أرمينيوس يقف جانباً ولم يفعل شيئاً لمنع محاربيه من مواصلة سلوكهم البربري. كان النهب والاغتصاب جزءاً من طقوس الحرب. لقد عانى رجاله وانتصروا في نهاية المطاف. لكنه لم يشاركهم فرحتهم. رفع بصره إلى السماء، ليقدم الشكر لأنه كان يعلم أن إله الحرب القاسي هذا هو من منحه النصر، فقد وقف بجانبه عندما أرسل تلك العواصف الرعدية المفاجئة والعنيفة.

1- كاسيوس ديو، تاريخ الرومان.

2- تاسيتوس، كتاب الحوليات.

«بينما كان يتعثر في الغابات والمستنقعات، التي أصابها الاضطراب العنيف للطبيعة، تم القضاء على الجيش الروماني إلى آخر رجل فيه تقريباً على يد العدو نفسه الذي كان يذبحه دائماً مثل الماشية». هكذا وصف المؤرخ الروماني فيليوس باتيركولس واحدة من المعارك الحاسمة في العصور القديمة.

عندما وصلت أخبار كارثة (معركة فاروس) إلى روما، مزّق الإمبراطور أوغسطس ثيابه وحزن كثيراً لأنه كان يخشى من أن العدو سوف يسير الآن نحو إيطاليا[1]. وفي حالة يأس شديدة، وكما أشيع عنه فقد ضرب أوغسطس رأسه في الحائط وصرخ بصعوبة: «فاروس، يا فاروس، أعد لي جحافلي».

وكنتيجة مباشرة، تمّ التخلي عن العديد من الحصون الرومانية وتحررت ألمانيا من قوات الاحتلال الرومانية. كان الإمبراطور أوغسطس لا يزال يشعر بالذعر. كان يخشى أن أرمينيوس ورجال قبيلته الألمانية سيتمكنون من عبور نهر الراين ويقومون بتحريض قبائل بلاد الغال على القيام بتمرد. لم يكن هناك ما يدعوه إلى الخوف، بقي الألمان في جانبهم من نهر الراين. توفي الإمبراطور أوغسطس في آب من عام 14م، وخلفه ربيبه تيبيريوس في عام 15م، قام الإمبراطور الجديد بإرسال جرمانيكوس، ابن دروس، على رأس حملة تأديبية إلى ألمانيا. عندما وصل الجيش إلى منطقة غابات تويتوبورغ[2] اكتشف جرمانيكوس مشهداً مروعاً: عظاماً متحللة، ورماحاً متكسرة، وجثثاً ملتصقة بالأرض، وجماجم متسمرة على الأشجار[3].

وبينما أدرك الرومان العبقرية العسكرية التي يمتلكها أرمينيوس، استبدله مجلس القبائل الجرمانية، خوفاً من هيمنته المتنامية،

1- كاسيوس ديو، تاريخ الرومان.

2- تاسيتوس، كتاب الحوليات.

3- تم وصف بعثة جرمانيكوس ونتائجها في كتاب جرمانيا للمؤرخ تاسيتوس.

بأنغويوميروس المتهور، الذي قادهم في القتال ضد جرمانيكوس وجحافله الثمانية. جرت المواجهة في عام 16م، في مدينة مندن الألمانية، وانتهت بانتصار روماني. هذه المرة، هاجمت القبائل بحماقة التشكيلات الحربية الرومانية المنضبطة في السهل المفتوح. بعد هزيمتهم، أعيد أرمينيوس «بعد إحالته إلى التقاعد». واستطاع أن يصد اعتداء الرومان وجعل الإمبراطور تيبيريوس يدرك أن قيمة جرمانيا العليا[1]، التي تصل إلى جبال الألب، لا تقارن مع المساعي الضرورية لضمان النصر على قبيلة الشيروسكي.

خلال شتاءعام 16 م، دعا تيبيريوس إلى إيقاف الحملة الألمانية، لأنه كان خائفاً من عودة عدو روما، أرمينيوس. كان الشغل الشاغل لروما هو منع كل من إقليم الليريا (البلقان) وجرمانيا من النهوض في الوقت نفسه لأن روما كانت تفتقر إلى الوسائل الضرورية للقتال على جبهتين.

لقد فهم أرمينيوس أن وحدة ألمانيا تعتمد على إقامة تحالف يجمع قبائلها الشمالية مع قبائل الماركومانيون في وسط ألمانيا والتي كانت واقعة تحت حكم الملك ماروبودوس. وفي الوقت الذي كانت قبائل الشيروسكي وحلفاؤها تقوم بالدفاع عن حدودها عند نهر الراين، كانت قبائل الماركومانيون تقوم بالشيء نفسه على طول نهر الدانوب. وكدليل على انتصاره على جحافل الرومان، أرسل أرمينيوس رأس فاروس إلى حاكم الماركومانيون. أصبح الملك ماروبودوس، وهو رجل شرير كثير الشكوك، قلقاً للغاية بشأن الهيمنة المتزايدة بسرعة لأرمينيوس مما جعله ينحاز إلى روما. وكدليل على ولائه للإمبراطور، أحال رأس فاروس إلى الإمبراطور أوغسطس. استطاع أرمينيوس هزيمة القبائل الشمالية. في معركة دامية حدثت في عام 17 ميلادية. بعد الهزيمة هرب ماروبودوس إلى إيطاليا حيث توفي في عام 41م.

1- سميت بذلك لأنها تقع أعلى جرمانيا الصغرى، كانت مقاطعة رومانية في الإمبراطورية الرومانية. المترجم.

كتب الكثيرون من الكتّاب الرومان عن أرمينيوس، وبالكاد استطاعوا التقليل من شأن المحارب الشجاع دون أن يوضحوا بشكل جلي عدم كفاءة جنرالات روما أنفسهم. لكن من الواضح أنه لم يكن ليحصل على لقب «القائد الأعلى» لو لم يكن يمتلك الصفات المناسبة.

لقد كان قائداً ملهماً لكنه لم يكن غازياً مطلقاً. وبدافع الرغبة في وقف سفك الدماء بين القبائل، وضع أرمينيوس اللبنة الأولى لتوحيد جميع العشائر الجرمانية. وبعد انتصاره على الرومان، أصبح المتحدث الذي لا خلاف عليه باسم القبائل الشمالية. لكن فكرته عن مشاعر وأحاسيس وطنية جرمانية واحدة، كانت في غير وقتها وغير واقعية. بمجرد تحقيق النصر على خصمه العنيد روما، فقد فقدت فكرة الوحدة الألمانية جاذبيتها، ولم تنجح خطته العظيمة، أي توحيد القبائل الجرمانية في بلد عظيم، في تحقيق أي شيء.

في عام 19م، تأججت نيران العداوة القبلية القديمة من جديد ولأجل تسوية هذا النزاع، دعا أرمينيوس إلى اجتماع لمجلس الشيوخ. في يوم الاجتماع لم يكن يرتدي درعه الواقي، وحينها تم إسكات المحارب العظيم إلى الأبد بواسطة طعنة خنجر من أحد أقاربه. وماتت معه الرؤية التي كانت تمثل طموحه طوال حياته وهو توحيد ألمانيا في دولة واحدة كبيرة. استغرق الأمر أكثر من ثمانمئة سنة، وظهور الإمبراطور شارلمان، لإنهاء المهمة التي بدأها أرمينيوس على طول طريق الغابة الزلق.

كان هناك تكريم مناسب له، فقد أقام زعيم آخر دعا لوحدة ألمانيا هو أوتو فون بسمارك تمثالاً لأرمينيوس زعيم قبيلة الشيروسكي تم نحته بالقرب من الموقع التاريخي للمعركة[1].

كانت *clades variana* والمعروفة على نطاق واسع باسم معركة غابة توتيوبورغ، واحدة من أهم المعارك في التاريخ، حيث إنها تمثل

1- عام 1875، بأمر من القيصر فيلهلم الأول، في غروتينبيرغ (أوتوباهن بالقرب من بيليفيلد).

نقطة التحول في اختراق الرومان وسط أوروبا. وعلى الرغم من أن حملات أخرى (كانت تحت قيادة جرمانيكوس) استعادت بعض الأماكن المحصنة، فإن زمن إخضاع القيصر للقبائل الوثنية أصبح شيئاً من الماضي، وحتى حلول أوائل الخريف لم يستقر أمر حملات الفتح الروماني في الأراضي الواقعة خلف نهر الراين. لم يحل أحد محل جحافل الرومان أبداً. ومع وجود إمكانية غزو سهل لألمانيا، فإن جحافل الرومان تراجعت إلى ما وراء النهرين الرئيسيين في أوروبا، الراين والدانوب.

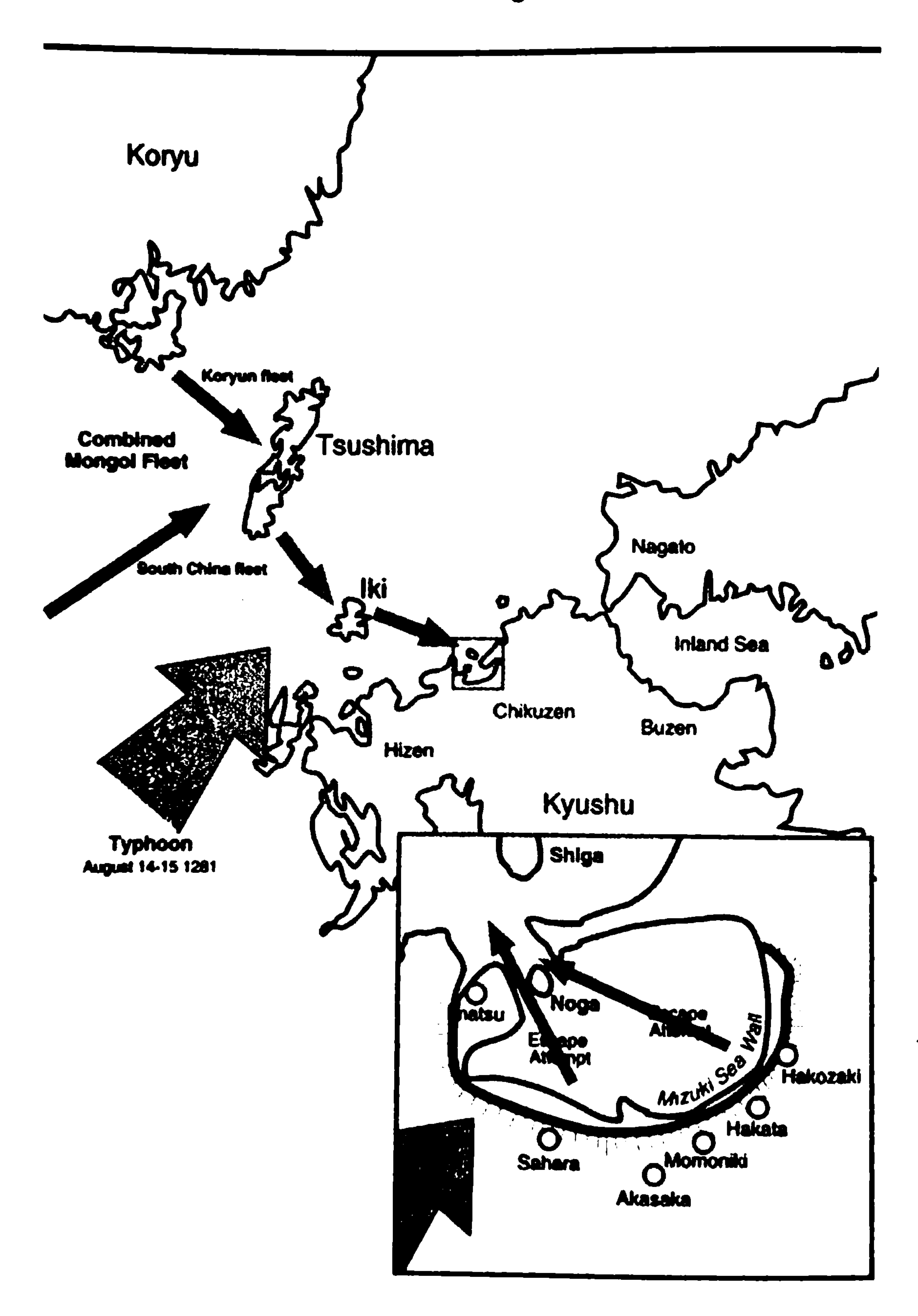
استمر حكم روما لمدة خمسمئة سنة أخرى، ولكنها لم تحكم ألمانيا مرة أخرى. وببقاء حدود إمبراطوريتهم على طول نهر إلبه، فإن مسار التاريخ الأوروبي خضع لتغيير عميق. من خلال توسيع حدود روما إلى البلدان السلافية، فإن كل أوروبا سوف تتحدث لغة جذورها اللغة اللاتينية. وستصبح ألمانيا مملكة القبائل الالمانية، مثلما ستصبح فرنسا بلاد أقوام الغال. وربما كانت الدولتان الكبيرتان في ألمانيا وفرنسا ستعيشان جنباً إلى جنب في سلام، رغم أن هذا يبدو مستبعداً إلى حد كبير. أما بالنسبة لبريتانيا، «هذه الجزيرة لنا ولن يطلق عليها أحد اسم إنجلترا ابداً»[1] والحجاج من شواطئها «سينشئون قارة جديدة» ذات ثقافة تكون جذورها لاتينية.

Dis aliter visum [2] ولكن الآلهة تعتقد غير ذلك.

الحقيقة هي أنه في يوم خريفي قبل ألفي عام، ساعد إله الطقس الإسكندنافي الأمير المحارب في عناده وإصراره، وصنعا معاً تاريخ العالم.

1- من كتاب إدوارد كرسي، خمس عشرة معركة حاسمة في تاريخ العالم.
2- فيرجيل، الإلياذة.

Kamikaze 14 - 15 August 1281



الرياح الإلهية
15آب 1281

... «إن نيبون *Nippon* ما كانت يوماً
ولن تكون طريحة تحت أقدام الفاتحين
الطغاة»

• وليام شكسبير،
مسرحية الملك جون.

في مكان ما شرق الصين، فوق المحيط الهادئ الذي لا نهاية له، يشتعل لهيب الشمس فوق بحر هادئ الأمواج. الهواء ساخن للغاية ويمتص الأبخرة الكثيفة. تظهر أول قطعة رقيقة من سحابة خفيفة في السماء الكئيبة. وتكبر السحابة حتى تتحول إلى كتلة رمادية كثيفة، مما يزيد من الرطوبة، فتمتلئ بملايين الأطنان من الماء. ترتفع الكتلة السحابية أعلى فأعلى، حتى تنفتح مثل بتلات زهرة ضخمة. تبدأ حركة الأرض الدورانية إلى أن تجعل هذه الكتلة المحملة بالماء تتحرك حركة دائرية، تتسارع أكثر، حتى تتحول إلى شيء دوار يمتلك قوة دافعة خاصة به. تجعله يدور أسرع وأسرع وأسرع، قرص دوار يدور بجنون ويجتاز عدة مئات من الأميال. فيولد وحش مصمم على أن يتسبب بالموت والدمار.

في ذلك اليوم الرابع عشر من آب 1281، كان أكبر أسطول حربي على الإطلاق يمخر عباب البحْر؛ وهو يضم 3500 سفينة، تحمل مئات الآلاف من الغزاة المغول على متنها، وجميعها متجهة إلى شواطئ اليابان.

كانت الصين، التي تمثل مركز الكون، تنقسم دائماً إلى إمبراطورية جنوبية وأخرى شمالية. في عام 1234، اجتاحت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان، مملكة الشمال التي تحكمها سلالة كين[1]، في حين قاومت إمبراطورية سونغ الجنوبية هجمة التتار حتى عام 1279، قبل أن تستسلم إلى قوبلاي خان. في الغرب، امتدت الإمبراطورية المغولية إلى البحر الأسود. تمَّ إخضاع الروس إلى العبودية، وتحولت عاصمتهم، موسكو، إلى رماد. ترك قرنان من عبودية المغول بصمته الدائمة على الشخصية الروسية، وخاصة في الحرب. في عام 1241، هزم المغول النظام التوتوني في معركة ليغنتز، وجلبوا ثمانية أكياس كانت مليئة بآذان الفرسان المقتولين[2]. في الشرق، لم يقم جنكيزخان بسحق الصين فحسب، ولكن هزم ملك كوريو أيضاً. كذلك، تم إجبار ملوك تونكين وكوشين-الصين وبيغو والبنغال والتبت على أن يكونوا أتباعاً أذلاء لزعيم المغول. ومن كوريا الأرض التي احتلها لتوه، حدّق الإمبراطور قوبلاي خان في البحر ووضع عينيه على سلسلة من جزر إمبراطورية الشمس المشرقة.

كانت تلك هي اللحظة التي شهدت فيه الأرض تساقط وابل من النجوم. فسر منجّم البلاط المغولي هذا الحدث باعتباره فألاً ميموناً، بينما رأى اليابانيون في الصواريخ السماوية تلك نذير شؤم باقتراب كارثة كبيرة. كانت طريقة قوبلاي في العمل ارتداء قفاز فولاذي مغطى بالمخمل[3] ومع أنه كان يضع في باله أن هناك انتصاراً سهلاً، أرسل وفداً إلى بلاط كيوتوالخاص بالإمبراطور الياباني كامياما. لم يصل الوفد إلى هناك أبداً. فقد اعترضه القائد كاماكورا الذي يطلق عليه اسم باكوفو

1- ولد في تيموجين بجانب بحيرة بايكال، في سيبيريا وعاش للفترة من 1167-1227.
2- غيبون.
3- كناية عن استخدام القبضة الحديدية ولكن مغلفة بنعومة. المترجم.

شوغون[1]، القائد العسكري القوي والمقرر الحقيقي لمصير اليابان. كانت رسالة الصين تحمل تهديداً بقدر ما تحمل من إهانة.

نوجه نحن ملك منغوليا، وبنعمة وفضل من السماء، هذه الرسالة إلى ملك اليابان[2].

لقد فكّرنا ملياً في كون حتى أمراء الدول الصغيرة كانوا منذ العصور القديمة، يسعون جاهدين لبناء علاقات ودية مع المناطق المجاورة.

... إن أمير كوريو، الذي يشعر شعبه بالامتنان تجاهنا، قد زار بلدنا، ورغم أن العلاقة بيننا وبينهم هي مثل علاقة السيد والتابع، لكن طبيعة هذه العلاقة تبعث على السعادة مثل علاقة الوالدين بطفلهم. وبلا شك، أنت مدرك بشكل جيد لهذا الأمر.

لذلك فنحن نتوسم بعد ذلك أنك ستقيم علاقات ودية معنا. هل من المعقول رفض إدامة الصلات مع بعضنا البعض؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنه سيؤدي إلى الحرب، وهل هناك من يحب أن تكون الأشياء على هذه الحال؟

فكر بهذا، أيها الملك!

أغضبت نغمة رسالة قوبلاي خان كثيراً أعضاء الفريق الحكومي من الساموراي، مما أوجب على القائد العسكري (شوغون) التدخل ومنعهم من قتل مبعوثي إمبراطور المغول.

لقد تضاءل حجم البلاط الإمبراطوري الياباني إلى بقايا متداعية لإمبراطورية عمرها ألف سنة. ومع ذلك لم يكن يعاني من نقص في مهرجي البلاط الفاسدين والمستشارين التشريفيين لإمبراطور عاجز. كانوا خائفين من «الخطر الأصفر»، الذي جعلهم شبحه المتجهم

1- شوغون هو اللقب الذي كان يطلق على الحاكم العسكري لليابان منذ 1192م وحتى نهاية فترة إيدو. كان شوغون رئيس حكومته التي تسمى «باكوفو». المترجم.

2- يركز الإيطاليون على العبارات المسيئة، على سبيل المثال: «الملك» الياباني كان إمبراطوراً.

الوحشي المرير يتخيلون صوراً مؤرقة ومضطربة، ونصحوا (الإمبراطور) بأن يقبل شكلاً ما من أشكال الخضوع الاسمي. لحسن حظ اليابان، لم تعد السلطة الحقيقية في أيدي النسل المهيب لإلهة الشمس أميتراسو، بل آلت إلى كاماكورا، مع باكوفو شوغوناتي[1] وحكامها العسكريين المعينين.

كان الشوغون (القائد العسكري) حينها هو الشاب هوجو توكيمون الذي وقف بوجه التحدي الصيني بمثاله الشخصي. وكان لإملاءات شوغون توكيمون ذي القبضة الحديدية آثار عميقة على مستقبل اليابان.

كخطوة أولى، استدعى توكيميون «كل الرجال القادرين على حمل السلاح، وقتل جميع الذين يرفضون»[2]. قام المغول باختطاف اثنين من النبلاء اليابانيين[3] من جزيرة تسوشيما[4]، وسلموهم إلى بلاط قوبلاي خان في بكين حيث أظهروا «كياسة عظيمة وتغنوا بروعة إمبراطور المغول»؛ وبعد ذلك تمت إعادتهم إلى اليابان لإقناع مواطنيهم بنية الخير التي تحملها بكين. لم تغيّر أحاديثهم عن الجنة الصينية ولا اللطف الذي رافق كلمات قوبلاي خان المزاج العدواني لليابانيين. بقي الفرسان الشرفاء المتمسكين بالبوشيدو[5] صامدين في إرادتهم للدفاع عن استقلالهم حتى الموت. و مثل أي دولة تقع داخل جزيرة يحميها البحر، كان هناك دائماً توقع أن يتمكنوا من تحقيق ذلك. كان من المعروف جيداً أن المغول لم يكونوا شعباً بحرياً مثل الصينيين بخبراتهم

1- أقامه مانيموتو وليس توريتومو في عام 1185 والذي نال لقب سيجي توشيغون أو مدمر البرابرة.
2- من كتاب أزوما كاغامي. وقائع باكوفو.
3- عرفوا بأسماء توجيرو وياجيرو ولكن لم يعرف عنهم شيء آخر.
4- اشتهرت تسوشيما في المعركة البحرية التي خاضتها اليابان مع روسيا عام 1904.
5- هي مجموعة من القوانين الأخلاقية التي كان يتبعها المحاربون (بوشي) في اليابان أثناء العصور الوسطى، تم تدوينها أثناء فترة إيدو (1603-1867م)، تأثرت هذه التعاليم بمذهب زن البوذي والعقيدة الكونفشيوسية. المترجم.

العريقة في التجارة عن طريق البحر. كان على المغول الاعتماد كلياً على بناة السفن والبحارة الصينيين والكوريين، وكلاهما بلدان تابعان لا يمكن الوثوق بهما. وسيصبح هذا الوضع المعقد، وهو أن قادة الجيش المنغولي مرتابون من ملاحيهم الصينيين، هو مفتاح الأحداث اللاحقة.

في عام 1273، أصدر قوبلاي خان أوامر لملك كوريو ليصنع له ألف سفينة. لم يستطع ملك كوريو تلبية طلب كهذا، ولم يصدر الأوامر بذلك. أرسل إمبراطور المغول 5000 فرد من فرقة المشاة الخيالة للمساعدة في إقناع ملك كوريو. جمع قوبلاي، الواثق من تحقيق نصر سهل، 40 ألف جندي. لقد تسبب الشتاء القارس والمجاعة في كوريو في تأخير خطط الغزو، وكان عليه الانتظار حتى الربيع. تم إهدار المزيد من الوقت على بذل الجهود الدبلوماسية الأخيرة. طالب سفيره سكان الجزر العنيدين بالقبول أو مواجهة الغضب الرهيب من قوبلاي خان المقتدر. تم طرد المبعوث الشخصي للإمبراطور قوبلاي خان بشكل غير رسمي، وكانت الحرب على وشك أن تندلع.

جعل قانون الشرف (بوشيدو) من المحاربين الساموراي اليابانيين متساوين مع أفضل ما كان يمتلكه المغول من محاربين. خاض المحاربون اليابانيون القتال بموجب قواعد الشرف التي تحددها قوانين البوشيدو. «لقد كان من عادة البوشي [الفارس] أن يقوم بإعلان اسمه ولقبه وهو في المنازلة أمام العدو ليوقع الرعب في قلب خصمه، ويتقدم خصمه ليشتبك معه، ويؤدّي الطقوس ذاتها من تقديم نفسه. ومع ذلك، لم يكن المبارز الماهر يبحث بالضرورة عن قتال منفرد؛ كان على استعداد للدخول في الاشتباك وسط صفوف العدو دون أن يحاول تمييز نفسه. لكن السمة العامة للمعركة تبقى منافسة فردية، وعندما يتوقف القتال، ينتقل كل بوشي إلى خيمة سيده ليتفحص رؤوس أولئك الذين قتلهم[1].

1- مقتبس من كتاب النقيب برينكلي، اليابان.

وكانت القوات البرية اليابانية تعاني بشدة من آلة النشابية المخيفة[1] التي كان يمتلكها المغول، والتي كان يستخدمها فرسان التتار ببراعة تامة[2]، حتى لو كانت الخيل تجري بكامل سرعتها. كان كل خيال يدخل إلى المعركة حاملاً 60 سهماً، 30 منها مصنوعة من رماح خفيفة لكي تصل إلى مسافات طويلة، و30 ذات رماح ثقيلة لكي تستطيع اختراق الدروع من مسافة قريبة[3]. ولكن عندما يتعلق الأمر بالشجاعة المطلقة والروح القتالية، لم يكن اليابانيون مثلهم. ففي القتال من مسافات قريبة، كانوا متفوقين بالتأكيد على عدوهم.

وبينما كان بإمكان القائد العسكري الياباني (الشوغون) استدعاء 400 ألف محارب للقتال تحت راياته من شتى الجزر اليابانية، كان قوبلاي خان لا يستطيع تجميع سوى 25 ألف فرد فقط من النخبة من «فرسان البحرية المغولية»[4]. أضف إلى ذلك 15 ألف فرد من الكوريين غير الموثوقين الذين لا يحملون وداً كبيراً لأباطرة التتار. لقد أخطأ قوبلاي كثيراً في الحكم على جيشه. فقد كان قتل القرويين الصينيين والكورديين العزّل شيئاً، ومواجهة الساموراي الياباني، المستعدين للموت من أجل الشرف والوطن، شيئاً آخر. وقد ذاق أولى تجاربه في تشرين الثاني عام 1274. فقد نزل الأسطول البحري المغولي في جزيرة تسوشيما الساحلية اليابانية، حيث خاض قائدها المحلي و200 فرد من سكان الجزيرة قتالاً شجاعاً وأوقفوا زحف الجنرال لين فوك هنغ ومقاتليه البالغ عددهم 25 ألف فرد لعدة أيام. بعد سقوط خط الدفاع الأخير، ذبح الغزاة جميع

1- آلة حربية قديمة؛ سلاح صغير يشبه القوس يستخدم في إطلاق القذائف القصيرة. المترجم.

2- المؤرخ تشارلز أومان، فن الحرب في العصور الوسطى. لقد ظهر سلاح القوس المستعرض عند المغول قبل ظهور القوس الطويل عند الإنجليز في حرب المئة عام قبل قرن من الزمان.

3- رحلات ماركو بولو.

4- بخلاف القوات الخاصة، احتفظ المغول بخيولهم، حتى عند عبور المحيط.

سكان تسوشيما، وارتكبوا خطأ كانت له عواقب معنوية خطيرة، لأن هذا العمل الوحشي أظهر لشعب اليابان أنهم لا يتمتعون بالرأفة. وهذا لوحده عزز إرادتهم في القتال وجعله أكثر شراسة. بعد أسبوع، نزل المغول في جزيرة إكي، ومن هناك عبروا القناة إلى كيوشو[1]، وهي واحدة من جزر اليابان الرئيسة.

في 18 تشرين الثاني من عام 1274، دخل أسطول الغزو خليج هاكوساكي، على بعد أميال قليلة من دازايفو، عاصمة كيوشو. كانت أعداد المدافعين اليابانيين قليلة للغاية فلم يبدوا أية مقاومة طويلة ولذلك كان بإمكان المغول التجول في أنحاء الجزيرة. لكنهم بدلاً من ذلك، ظلوا على الخط الساحلي، حيث انقسموا إلى عدة وحدات هجومية. أبحرت عدة وحدات من الجيش المغولي، وأنزلت خيولها على شريط رملي بالقرب من مدينة هاكاتا الساحلية، وأشعلوا الحرائق في المدينة. ومن هناك توجهوا إلى أكاساكا، وساروا بمحاذاة الساحل نحو إماتسو. وفي طريقهم، قاموا بقتل الصيادين من السكان المحليين. وقد أدى الوعد بالحصول على الغنائم بسهولة إلى صرف الجنرال لين فوك هنغ عن هدفه الرئيس. وقد سمح هذا التأخير لأمراء الحرب المحليين من الشوغون في توكيمون بتجميع جميع الرجال القادرين على القتال في كيوشو، في حين هرع القائد (الشوغون) على رأس جيشه من كاماكورا لتعزيز دفاعات الجزيرة. وقبل أن يتمكن الإمبراطور قوبلاي خان من القيام بأدوار هامة في الأعمال القتالية، كان القادة المحليون[2] قد هاجموا بالفعل جحافل جيشه.

في الرابع والعشرين من تشرين الثاني، وقعت مواجهة كبرى أمام الجدار البحري ميزوكي[3] الذي يقع بالقرب من منطقة هاكوساكي. ما

1- يتكون الساحل الشمالي لكيوشو من مقاطعتي هيزن وشيكوزن والجزر الساحلية غوتو وايكي وتسوشيما.

2- وهي ماتسورا، وشيمادزو، وكيوشو، وكيكوتشي، وشوني وأوتو.

3- بنيت قبل ستة قرون على يد العمال الكوريين.

حدث حقاً في ذلك اليوم ضاع في غياهب النسيان مع مرور الوقت. لا توجد معلومات دقيقة عنه، بخلاف أن المعركة استمرت ثماني ساعات وكانت الخسائر كبيرة على كلا الجانبين. في البداية، هاجم اليابانيون بمشاعر من التعصب الأعمى، في حين تكبد الرماة المغول خسائر فادحة. وحالما أصبح الساموراي على مقربة من عدوهم، استخدموا شفراتهم ذات اليد المزدوجة بكفاءة شديدة. سرعان ما فقد المغول رغبتهم في مواصلة القتال؛ وتخلوا عن تابعيهم من الكوريين الذين ذبحوا مثل الماشية. قبل وقت قصير من حلول الليل، اتخذ قائد التتار قراراً. كان يعلم أن سهامهم تكون عديمة الفائدة في الظلام، في حين كان بإمكان الساموراي الحصول من سيوفهم الحادّة الشائكة على نتائج مميتة، وبينما تدفقت المزيد من احتياطيات الجنود اليابانيين على ساحة المعركة. قرر القتال في وضح النهار في اليوم التالي. وأمر رجاله بأن يصعدوا في الليل على متن المراكب الواقفة في عرض البحر. وللتغطية على عملية تراجعهم، أضرموا النار في ضريح هاكوساكي، وهو هيكل خشبي كان مثيراً للإعجاب. وتحت غطاء من الدخان الكثيف، تمكن المغول من الانسحاب دون مزيد من الخسائر. وبينما هرع اليابانيون لإنقاذ مزارهم المقدس، تغير الطقس، فقد هبت عاصفة هوجاء مدمرة وصدمت السفن وهي تحمل على متنها الجيش المغولي. مُلئت أسطح السفن بالماء، ومزقت الصواري، وسحقت البحارة والجنود، وكافح الرجال الذين يديرون دفة المراكب لكي ينقلوها بعيداً عن المياه الضحلة الخطرة. تحطمت السفن أو تعثرت، وغرق عدداً كبيراً منها. أما أولئك الرجال الذين كانوا يكافحون ليكونوا على متن السفينة ويتشبثوا بالسلالم المصنوعة من الحبال فقد تهشمت أجسادهم على جانبي السفن. أما الآخرون، الذين كانوا ينتظرون على الشاطئ، فإنهم لم يحظوا بأي فرصة للنجاة لأن موجات البحر الوحشية علت فوقهم. حاولت سفينة واحدة أن تجرب حظها. فرفعت مقدمتها، ثم وقعت مباشرة على رصيف صخري ثم تحطمت من الخلف. واندفعت سفينة أخرى نحو

لسان رملي. وقام الصيادون المحليون، الذين اشتعلت النيران في قراهم قبل أيام فقط، بسحب طاقمها وحوالي 300 جندي من البحر قبل أن يعرضوهم إلى موت شنيع. معظم الضحايا من المحاربين المغول البالغ عددهم 13200 فردٍ لقوا حتفهم بسبب إغراقهم بشكل متعمد بعد انتهاء المعركة على الأرض.

عندما انتهت حالة الطوارئ، أعلن الكهنة اليابانيون تحقيقهم النصر. في لحظة الخطر الكبير، كان الجميع من الإمبراطور نزولاً إلى أصغر فرد يصلون ويتضرعون إلى الله لمساعدتهم في تدمير الغزاة، وقد استجاب الله لهم. ولكن ما إن زال الخطر، وتحطم أسطول المغول على الصخور، نسي الكثير منهم إلههم، مما أثار استياء الكهنة، الذين ادعوا، في إشارة إلى العاصفة أن الله قد استجاب لصلاتهم، وأن من أنقذ اليابان لم تكن البطولة الفردية لمقاتلي الساموراي، بل صلاة الرهبان. وطالبوا بأن يتدفق جزء كبير من الأموال المخصصة للأسلحة إلى خزائنهم. وبالفعل، وافق الإمبراطور، كانت الآلهة لا تزال ضرورية؛ وصدرت الأوامر بمنح الأديرة مساحات كبيرة من الأراضي، وطليت معابدها بالذهب وتم تجديدها. أثارت هذه الهبات حفيظة أولئك الذين سيتعين عليهم تحمل أي هجوم في المستقبل، والتعرض لمصاعب ومشاق كبيرة.

على الجانب الآخر من البحر، رفض الإمبراطور قوبلاي خان الاعتراف بالهزيمة. وبينما ألقى مستشاروه باللائمة على غضب الطبيعة، تعلم قوبلاي خان درسه. في المرة القادمة سيكون الأمر مختلفاً، ولأنه، حاكم الكون، فمن المؤكد أنه ستكون هناك مرة قادمة! وهكذا بدأ في التخطيط لغزو ثانٍ أكثر قوة. ولهذا، استلزم الأمر وجود أسطول بحري كبير بما يكفي لحمل جيش يتألف من عدة مئات الآلاف من الأفراد.

أمر قوبلاي خان بالاستيلاء على كل سفينة صالحة للإبحار على طول ساحل البحر، من جنوب الصين إلى كوريا وبعضها كان صغيراً

للغاية ليتمكن من عبور المحيط. كتب المؤرخ ماركو بولو يقول: «كان على كل سفينة أن تحمل على متنها 20 بحاراً، و15 حصاناً مع فرسانها»[1]. منذ محاولة خان الأخيرة للغزو جردت مملكة كوريو من السفن والقوى العاملة، وتم تقطيع غاباتها لغرض بناء الأسطول الذي شارك في غزو اليابان في عام 1274، لم يكن هناك المزيد من الأخشاب لبناء أسطول آخر. استدعى قوبلاي خان ملك كوريو إلى بكين، وأمره بصنع ألف سفينة، تحت طائلة قطع رأس أي شخص يجرؤ على عرقلة إرادته. تم جلب الخشب براً من الصين وتم توفير القوى العاملة من المستعمرات التي تعرضت لعقاب. مات الآلاف من العبيد بسبب المجاعة وسوء المعاملة، لكنه تم تشكيل الأسطول. وكانت النتيجة النهائية غير كافية لخطة خان الضخمة؛ تم سد النقص في أعداد السفن من خلال غزو الإمبراطورية الصينية الجنوبية (1279)، الذي زوده بثلاثة آلاف وخمسمئة، سفينة إضافية[2]. في أواخر عام 1280، أصبح كل شيء جاهزاً وتم جمع جيوش المغول والدول التابعة لهم في نقاط انطلاق مختلفة. كانت تلك هي القوة الأكثر إثارة للإعجاب التي تجحفلت تحت الآلاف من رايات التنين الملونة.

وفي الوقت نفسه، لم يكن اليابانيون خاملين توقف مضيق تسوشيما عن أن يكون مجالاً حصرياً للصينيين. تم نقل السفن المسلحة والمقاتلين اليابانيين إلى البحر بواسطة ما سمي «بأسطول البعوض» لكون سفنه صغيرة، ولكن نجاحاته لم تكن كذلك. وبسفنهم السريعة، سرق اليابانيون التجار الصينيين الأبطأ منهم. وعندما حان الوقت لينخرطوا في الدفاع عن أمتهم، لبوا الدعوة للقتال واعترضوا السفن

1- رحلات ماركو بولو.

2- ربما كان العدد الإجمالي للسفن الرئيسة أقرب إلى 300 أو 400. أما الباقي، إذا كان يمكن إجراء مقارنة، فقد كان يشبه إجلاء القوة الاستطلاعية البريطانية من دنكيرك في عام 1940، حيث استخدم كل شيء بدءاً من الطراد إلى الباخرة البخارية إلى القارب الشراعي لعبور القنال الإنجليزية.

الحاملة للجنود وهي في طريقها إلى نقاط التجمع الخاصة بها. أحرقت السفن التي تم أسرها في عرض البحر، وألقي بأطقمها في البحر وتركوا لتلتهمهم أسماك القرش.

في ربيع عام 1280، نقل جواسيس القائد العسكري (شوغون) للتوكيمون معلومات له عن الاستعدادات النهائية لقيام المغول بشن هجوم جديد. كان الإمبراطور الياباني ذو الشخصية الضعيفة أودا الثاني، البالغ من العمر ستة عشر عاماً، والذي كان يصغي لنصائح المقربين منه الخائفين بينما كان يهرج مع بغايا البلاط، على استعداد للدخول في محادثات استسلام مع قوبلاي خان. ومرة ثانية، منعه القائد ذو الإرادة الحديدية توكيمون من فعل ذلك. وكما نجح في عام 1274، وضع الشوغون أمته في طريق الحرب. كانت اليابان تشحذ قواها إلى الربيع المقبل. لم يعد السؤال: هل سيأتي المغول؟ بل كان: متى؟

وبينما كان قوبلاي خان يعد العدة في بكين لفرض إرادته على سكان الجزيرة، قام القائد العسكري (الشوغون) بمواجهة هذه الخطوة باستراتيجية دفاعية قوية. كان من المفترض أن يختار المغول مسار الغزو السابق نفسه تقريباً ويحاولون الوصول إلى أقرب مصب نهر، عند كيوشو. أمر توكيمون بتعزيز الجدار البحري الموجود في ميزوكي، وخرج السكان طواعية لحفر خنادق عميقة تم تصميمها لمنع جحافل الفرسان من العبور إلى داخل الجزيرة. تم نصب أبراج خشبية خاصة للرماة. أنشأ توكيمون المناطق الدفاعية التي يمكن أن تهرع إلى مساعدة بعضها البعض. وأسس ميليشيا محلية تتكون لأول مرة من أفراد من مهن مختلفة. حدادون يصنعون السيوف وأسلة الرماح ورؤوس السهام؛ وصيادون مدربون على الحرب البحرية، وفلاحون يتدربون على استخدام الأسلحة، وهو فن كان مخصصاً عادة لصنف المحاربين. كان الأمر الأخير الذي اتخذه الشوغون، والذي أثبت أنه ذو فائدة حيوية،

هو أن يتدرب جميع الرجال القادرين على ممارسة الرماية. فأقيمت المسابقات، وتم تكريم الفائزين. وسرعان ما أتقن اليابانيون فن القتال برماية القوس وتفوقوا فيه على عدوهم.

في حزيران 1281 كانت الاستعدادات الأخيرة جارية للغزو المغولي الكبير، صعد الرجال على متن السفن، وانطلق الأسطول من مقاطعة ماسامبو. تحت قيادة الجنرال هوان باكو وكان رجلاً قاسياً، تم احتلال جزيرة تسوشيما بدون ضجة كبيرة. في 10 حزيران، سقطت جزيرة إيكي، وفي 23 حزيران، ظهرت أول أشرعة الأسطول الكبير قبالة ساحل جزيرة كيوشو. ودخلت السفن من خلال ساحل منطقة الشيغا، ووصلت ميناء هاكوساكي. كان من الواضح أن اليابانيين عززوا بشكل حكيم وبعدد من الرجال الجدار الدفاعي ميزوكي الذي تمت تقويته مؤخراً، حيث كانت أي قوة بشرية متوفرة بسهولة، ولكنهم بالكاد كانوا يصدقون عيونهم عندما يرون مجاميع المغول وهي تتدفق إلى الشاطئ. كانوا مستعدين للتضحية بأنفسهم، ويصمدون إلى أقصى حد ضد وقوع أي هجوم مركّز، ومحاولة تأجيل دخول جحافل قوبلاي خان الجزيرة. لكنهم كانوا يعلمون أن الامر كان ميؤوساً منه.

ليس هناك سوى القليل من الوثائق التي تناولت ما حدث بالفعل في فترة السبعة أسابيع، بدءاً من الإنزال الأولي في حزيران، الذي أدى إلى الأحداث الدرامية في منتصف آب 1281. لم تذكر الوثائق سوى أن المغول لم يعبروا، أو منعوا من عبور، جدار ميزوكي، وأنهم فشلوا في الالتفاف على الدفاعات الساحلية اليابانية[1]. يجب الافتراض أنهم قاموا، بتشتيت جهودهم في هجماتهم الأولية على طول شاطئ البحر، دون أن يستغلوا تفوقهم الساحق في شن ضربة واحدة. انقسم المغول إلى مجموعات تقوم بغارات فردية لمهاجمة أهداف سهلة، مثل الأديرة، التي كانت تعد بالحصول على ثروات كبيرة لمقتحميها. أياً كانت الظروف،

1- هذا النجاح أدى إلى سابقة تاريخية خطيرة لاستراتيجيتهم الدفاعية لعام 1944.

فإن المعركة كانت متأرجحة بين الطرفين طوال الصيف. كان هناك تعادل في ميزان القوى. وتظهر السجلات الموجودة حالياً أن الخسائر اليابانية، خاصة في جميع أنحاء شبه جزيرة شيغا، كانت مرتفعة للغاية. وهذا وحده يشير إلى أن المعارك لا بد وأنها كانت كثيرة العدد وشرسة.

في بداية آب، قرر قائد المغول تحشيد جميع قواته لشن هجوم شامل ضد دفاعات ميزوكي. أرسل سفنه لجمع قواته المنتشرة على نطاق واسع. وبعد أن فشل في إنشاء موطئ قدم على الشاطئ، أمر أفراد الجيش بالبقاء على متن السفن الخاصة بهم، التي كانت راسية قبالة جزيرة تاكيشيما (جزيرة هوك)، حتى يوم الغزو المكثف. كانت أعداد اليابانيين في حينها قليلة للغاية لدرجة أنهم لم يتوقعوا أن ينجو أحدهم من هجوم آخر، خصوصاً إذا كان على شكل ضربة مركزة من جانب عدو متفوق عليهم كثيراً.

ولكن عندما يصطدم حتى الخصم الأقوى بالقوى التدميرية الهائلة التي تحملها الطبيعة، فإن رائحة الموت النتنة تغزو المكان. لقد استطاع ذلك اليوم المشؤوم (الخامس عشر من آب 1281) أن يغيّر التاريخ وأضاف تعبيراً جديداً إلى لغات العالم وهو كاميكازي[1] *Kamikaze* في لحظة حاجتهم القصوى، وقف حظ الحرب المتقلب مع اليابانيين: وحين تقرر البدء بالهجوم المغولي في فترة ما بعد الظهيرة كان الإعصار قد بدأ.

تفاقمت شدة الرياح في المحيط الهادئ لعدة أيام، وبدأت ترتفع فوق ذلك المحيط شديد الحرارة، كميات هائلة من الأبخرة من سطحه، لتتحول إلى غيوم شاهقة قبل أن تبدأ الكتلة الهوائية في الدوران حول عين الإعصار القاتلة. كانت التيارات النفاثة المتغيرة باستمرار في الغلاف

1- كامي تعني «الإله» أو «الرب» وكازي تعني «رياح» هي كلمة يابانية، تترجم عادة بالرياح المقدسة أو الرياح الإلهية، وهي كلمة تستخدم للإشارة إلى إعصار يقال إنه أنقذ اليابان من غزو الأسطول المغولي بقيادة قبلاي خان في 1281. في اليابان يستخدم الاسم «كاميكازي» للإشارة فقط لهذا الإعصار. المترجم.

الجوي العلوي تدفع بالعاصفة في اتجاه شمالي غربي باتجاه مضيق كوريا. وصل هذا القرص الدوار إلى اليابان في وقت متأخر بعد ظهر يوم 14 آب. في الوقت نفسه تقريباً الذي كان يتوجه فيه أسطول التتار إلى الشاطئ لإنزال قواته، ازدادت قوة الرياح، واشتد هيجان البحر. وجدت بعض السفن الكبيرة أنه من المستحيل الوصول إلى نقاط النزول الخاصة بها عن طريق الإبحار، وكان يتعين سحبها بواسطة زوارق التجديف؛ وجد آخرون أنفسهم موتى في مواجهة مهب الرياح في قناة تكون المناورة فيها شاقة للغاية، وخاصة حول الساحل الرملي البارز من نقطة شيغا. وكانت هناك مئات من السفن قد انحشرت بالفعل في البحيرة، الضحلة في حين أن المزيد من السفن، التي كانت تواجه تياراً قوياً، سرعان ما ملأت المدخل الضيق في الخليج. وكانت السفن الأقرب إلى الشاطئ قد مدت الألواح الخشبية لنقل الرجال والخيول إلى قوارب إنزال أصغر عندما بدأت أولى العواصف. بدأت أمواج البحر تتلاطم. وحدق القباطنة الصينيون في السماء وحاولوا تحذير أسيادهم المغول من الخطر الذي يلوح في الأفق. لكن محاربي البر لم يكن لديهم أي فكرة عن غضب الطبيعة ورفضوا الاستماع إلى البحارة. كانت أولويتهم هي إنزال رجالهم على الشاطئ من أجل القيام بالهجوم المخطط له.

اتسعت شدة الرياح، واكتسحت موجات أكبر الفم الضيق للمدخل. وتمايلت السفن حوله، تشدها حبال المرساة. تحولت السماء إلى كتلة سوداء من الغيوم المتشابكة، تمزقها إرباً ومضات القصف الإلهي البنفسجية والبرتقالية. ومن خلال سواد الأفق، كان الخط الأبيض الرقيق ينساب على السفن عند المرساة، ممتداً إلى أقصى ما يمكن للعين رؤيته؛ كانت أول موجة وحشية، وقد خلفت البحر وراءها مثل مرجل من الماء المغلي. ووسط قلقهم من الابتعاد عن المياه الضحلة والشعاب المرجانية، رفع القباطنة أصواتهم لإصدار الأوامر؛ شق البحارة طريقهم من خلال حبال المرساة. مع هدير المياه المليئة بالزبد وهي تتدحرج

فوق المياه الضحلة، واللسان الرملي، ومن ثم إلى الخليج. وقد التقطت في قبضاتها العملاقة العديد من السفن الصغيرة وحطمتها ورمتها على الصخور. كانت الموجة تصطدم بمنحدرات الصخور، ثم تعود من حيث أُتت، كانت الأمواج المتلاطمة بقوة تلقي بالسفن وكأنها حطام عائم. وقد وقع كل شيء وسط دوامة العاصفة. حتى أكبر السفن كانت تبدو مثل الألعاب الصغيرة وسط الأمواج الهائلة. غمرت أطنان من الماء المراكب وجعلت أسطحها نظيفة. اهتاجت الخيول وقفزت إلى البحر، وأمسك الرجال بالحبال فقط لتتهشم أجسادهم على جوانب السفن. كانت صواعق البرق تظهر باستمرار وتضيء مشهداً غير عادي، حيث يظهر الأسطول البحري الضخم وهو يتداعى وسط غضب الإعصار[1].

تم اكتشاف مئات السفن التي نجت من الهجوم الأولي داخل مصب لا يوجد به مجال للمناورة، غاصت السفن التي غمرتها الأمواج الهائلة، في القاع أو تداخلت مع بعضها البعض. كانت الأشرعة متشابكة، والصواري مقطعة، والحزم متشققة، وتم سحب السفن والناس من دوامة البحر.

وساد الذعر والإرباك بين أولئك الذين رمتهم الأمواج على الأرض. لقد أمسكت بهم الأمواج الوحشية التي غمرت الشواطئ الضحلة، وأعادتهم مرة أخرى إلى المحيط.

استمر غضب الإعصار بلا هوادة طوال الليل، وفي اليوم التالي، مع خيط الضياء الأول، حاولت السفن التي نجت بأعجوبة من ليلة الرعب، الخروج من مصب النهر. كانت لديها فرصة واحد في المئة، لأنه ببساطة كان هناك الكثير من السفن والكثير جداً من حطام السفن في قبضة تيار قوي، والذي كان يسحبهم لامحالة نحو الممرات الضيقة. في ظل هياجها للهروب من أمواج الغليان، حطمت السفن بعضها البعض، أو انفصلت عن الصخور المغمورة بالماء، أو تقطعت بها السبل على

1- تتعلق بمخطوطات مصورة رسمها الفنانون في تلك الفترة.

الشواطئ الرملية، حيث دفعتها كل موجة متتالية إلى الداخل. أغلقت السفن الغارقة مضيق شيغا، وامتلأ الشاطئ بالأخشاب المحطمة وجثث الرجال والبهائم المشوهة بشكل رهيب. أما أولئك الذين وجدوا لهم منفذاً فقد حملتهم رغوة البحر، ولم يعد يمكن رؤيتهم مرة أخرى.

اكتملت الكارثة. ولم يحصل ضحاياها على قبر يضم رفاتهم.

ارتفعت العاصفة من جهة الغرب وتجمعت السفن كلها في مدخل الخليج. كان المد يتحرك بقوة ويضع السفن بلا مقاومة في قبضته. عندما تقابل الجيشان عند مصب النهر، وقعت كارثة مروعة. كانت المراكب مزدحمة، وكانت جثث الرجال والأخشاب المحطمة تتجمع معاً في كتلة صلبة ولكي يتمكن الشخص من المرور من نقطة واحدة على الأرض إلى أخرى كان عليه السير على كتلة من الحطام. كانت السفن المدمرة تحمل 100 ألف رجل من جنوب الصين. كان هذا هو وصف الكارثة التي ذكرها كتاب تاريخ كوري معاصر[1].

نجح بعض الناجين في الوصول إلى جزيرة تاكاشيما. وقد فقدوا معظم أسلحتهم، وغرق معظم قادتهم. هاجمهم القائد العسكري الياباني شوني كاغاسوكي، الذي كان يقود الساموراي الشرسين من داي ميو[2] من منطقة تشوشين، ولم يقتل منهم سوى ثلاثة آلاف فقط. مع موت جنرالهم الأخير، تشانغ باك، انتهى غزو المغول العظيم. كانت النكبة كبيرة لدرجة أن قوبلاي خان فقد رغبته في مزيد من المغامرات من هذا النوع. توفي قوبلاي خان في عام 1294، وخلفه تيمور خان، الذي تخلى عن كل المحاولات الأخرى لغزو اليابان.

ابتهجت اليابان، وتوافد مؤمنوها إلى معابدهم لتقديم الشكر. كان الأبطال الحقيقيون هم الآلاف ممن ضحوا بأنفسهم، من الساموراي

1- كتاب من تاريخ اليابان: الغزو المغولي.

2- التسمية التي كانت تطلق على كبار الزعماء الإقطاعيين في اليابان منذ القرن الـ12م وحتى إصلاحات فترة ميبجي. المترجم.

المجهولين الذين قاتلوا الجحافل الهمجية لمدة سبعة أسابيع طويلة والإرادة الحديدية للشوغون القائد توكيمون[1]، الذين أنقذوا استقلال اليابان الوطني. لكن الكهنة ادعوا، وكان لهم بعض المبررات، أن إمبراطورية الشمس المشرقة قد تمَّ إنقاذها من قبل إله الطقس. لم ينسَ اليابانيون أبداً أسطورة العاصفة المعجزة. وقد عزز ذلك من إيمانهم بأن آلهة الشنتو حمت أراضيهم. وعلى شرفها، أطلقوا عليها اسم «العاصفة الكاميكازية» والتي تعني الرياح الإلهية.

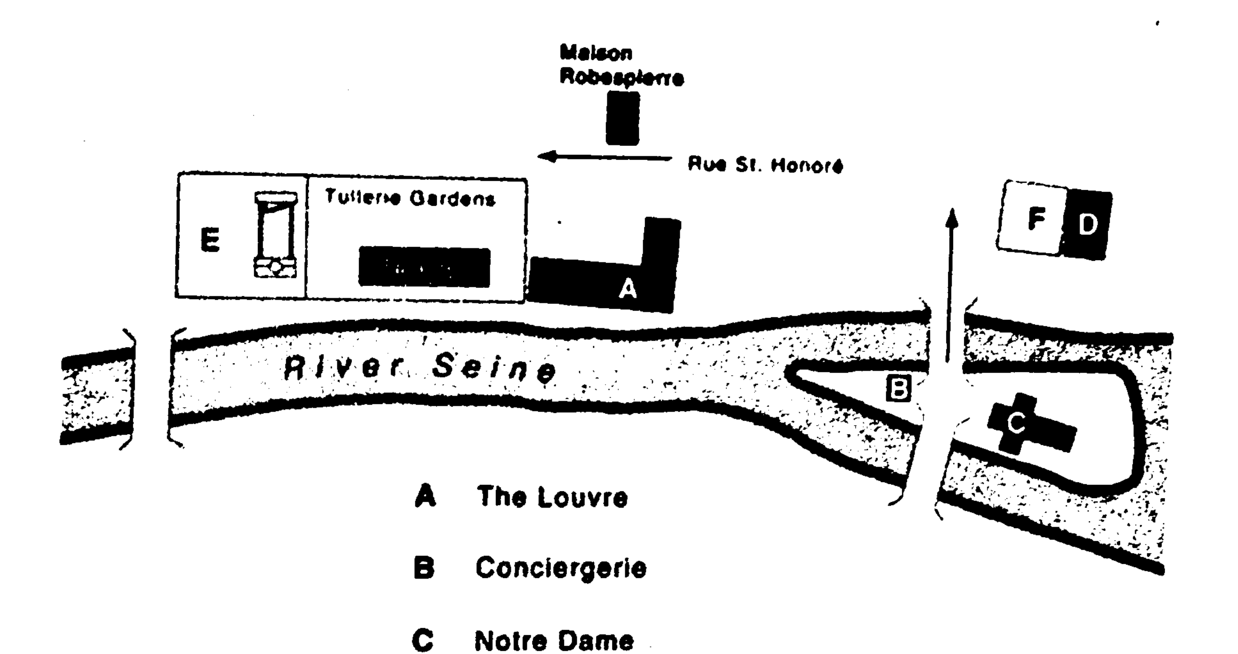
إن المعجزة التي حققتها اليابان من خلال غضب الطبيعة، في ذلك اليوم من عام 1281، كانت لها عواقب بعيدة المدى بالنسبة لآسيا. فقد أصبحت القوة العسكرية الوحيدة في الشرق الأقصى، التي كانت قادرة على موازنة التوسعات القارية للصين، وأبقت بلدهم منيعاً خلف أسواره البحرية المحصنة. وهكذا، أصبحت اليابان أمة تعيش في عزلة. لسبع قرون أخرى، فإن البحار المحيطة بإمبراطورية الشمس الصاعدة أبقتها مصانة، وكان لا بد أن يكون هناك غزو أجنبي واحد آخر، أو هبوب آخر للكاميكازي أو للرياح الإلهية.

وسيحصل هذا الحدث بعد ست مئة وثلاثة وستين سنة.

1- توفي توكيمون في عام 1284، وخلفه في القيادة ساداتوكي ابنه البالغ من العمر أربعة عشر عاماً.

Situation map of Paris

PARIS



A The Louvre

B Conciergerie

C Notre Dame

D Hôtel de Ville

E Place de la Revolution with the Guillotine

F Place de Grêve

ليلة أمطرت السماء فوق باريس
9 ثرميدور، السنة الثانية (27 تموز 1794)

المطر يمثل ثورة مضادة!

• شارل موريس تاليران
(1838 - 1754)

طوال اليوم، كانت السحب تحوم بشكل منخفض فوق باريس، كان يوماً صيفياً حاراً ورطباً، إنه 9 ثرميدور[1]، في السنة الثانية بعد قيام الثورة الفرنسية. كانت شائعات الأحداث الخطيرة تنطلق من المؤتمر الوطني (الجمعية الوطنية). وتسير على طول ممرات المدينة الداخلية إلى أكواخ حقيرة نتنة تقع في الضواحي، التي تمثل مصادر الاضطرابات الدائمة، والتي تعج بالأطفال العراة والعجائز الشمطاوات النكدات اللواتي جعلهن البؤس يصبحن عجائز في وقت مبكر. طريدة كبرى... هناك طريدة كبيرة اليوم. طريدة لا تشير هذه العبارة إلى وجبة لذيذة من لحم الخنزير أو الأيل، بل تعني أن شخصاً مهماً على وشك أن يفقد رأسه. ومنذ شهر نيسان، عندما تم اقتياد «دانتون الدنيء» - قبل سقوطه كان يعرف باسم «دانتون العظيم» - إلى المقصلة، لم تحصل أية حادثة ذات أهمية مماثلة. ، في الأشهر الثلاثة الأخيرة، ذهب الآلاف بهذه الطريقة، لكن جميعهم كانوا من الأرستقراطيين وأعداء الثورة. تبدأ الحشود بالتجمع حول ما يسمى maisons-sections، وهي قاعات التجمع في كل حي من أحياء المدينة الثمانية والأربعين.

1- كان ثرميدور، يمثل في التقويم الثوري، شهر تموز.

بدأت الأكواخ تخلو من الرجال المتجهمين وزوجاتهم البشعات بالقدر نفسه. «Tous à la ville!» كان الجميع في المدينة!، ومثل ينبوع ماء تغذيه النهيرات الصغيرة المتفرعة من نهر عظيم، كان هذا هو الحال مع حشود باريس. كان الطوفان البشري يتعاظم، لا أحد يريد أن تفوته الإثارة، على الجميع أن يكونوا جزءاً منه. وبدون وجود أي زعيم، كانوا يجتمعون من كلا جانبي النهر، وكانوا يسيرون عبر جسر نهر السين. ليس هناك من نسيم يحرك الهواء. كانت درجة الحرارة ترتفع. كان هناك المزيد والمزيد من الضغط في بلدية باريس، والناس يصيبها الإغماء جراء تدافع البشر المتعرقين. فيما كانت السحب الداكنة تتجمع على الأطراف.

في غضون ساعات قليلة سوف تصل هذه الغيوم إلى وسط المدينة، وسيغير عنف هطول الأمطار التاريخ. هذا شيء لم يكن يدركه الآلاف، الذين تجمعوا أمام لا ميزون-كومون، قاعة مدينة باريس في ساحة بلدية باريس[1]، في هذا اليوم القائظ المصادف 27 تموز 1794.

لقد فتحت الثورة الفرنسية الأبواب أمام الشخص العادي ليرتقي بوضعه الاجتماعي. أصبحت الميزات الشخصية، وليس الأصل العائلي أو النفوذ، هو القانون الجديد للرقي. وقد اختار محام شاب من مدينة أراس يدعى، ماكسيميليان ماري إيزيدور روبسبيير، طريقه بحكمة. من خلال تجنب الكمائن والفخاخ بمهارة، وبذلك تسلق للوصول إلى قمة السلطة. ولتحقيق هذا كان الأمر يتطلب أكثر من الصفات العادية. لا يمكن للتاريخ أن يرفضه كونه وحشاً، أو متعصباً دون صفات مميزة. إذا كان قد أراق الكثير من الدماء، فقد حدث هذا في خضم كفاحه المهووس عن الفضيلة، ومن أجل إنجاح الجمهورية الشابة. حتى إن نابليون ذكر أن روبسبيير كان كبش فداء للثورة. عندما يحكم عليه التاريخ، قد يجد أنه ليس أسوأ من الثوار المشاركين، بل على الأرجح هو أفضل من الكثيرين.

في 27 تموز 1793، حل روبسبيير محل غاسبارين عضو المؤتمر

1- يقع في مكانه اليوم فندق دي فيل.

الوطني البارز والذي كان يعاني من وعكة صحية كعضو دائم في لجنة السلامة العامة أو المجلس التنفيذي[1]، حيث بدأ بذلك قصة صعوده إلى السلطة. سرعان ما تمكن من إسكات منافسه الأكبر، جورج دانتون. وحصل الخلاف بين الرفيقين السابقين في الثورة بعد اغتيال جان بول مارا بفترة قصيرة في صالون يقع في منزل رقم 398 في شارع سانت أونوريه[2]. حيث كان يمكن من هذا المكان الشرير، وبجرة قلم، إزهاق حياة الكثير من الناس. في إحدى ليالي عام 1794، اقتحم دانتون المكان وصاح: «يريد أصدقاؤك قتلي!».

فرد عليه روبسبيير ببرود شديد: «وأصدقاؤك يريدون قتل الجمهورية!».

«لقد أسسنا المحكمة الثورية كأداة حماية، وقمت بتحويلها إلى أداة للذبح بلا تمييز. استخدمت قذائف المدافع في ليون، وألقى جزاروك في مدينة نانت بالناس في نهر اللوار. كل الذين وقفوا ضدك، ماتوا!».

ارتسمت على وجه روبسبيير ابتسامة رقيقة: «لكنك مخطئ. والدليل على ذلك هو أنك ما زلت على قيد الحياة»[3].

لم يمر وقت طويل. حتى سقط دانتون ميتاً مثل جميع الآخرين، ضحية لـ«النزيه»[4]. ونجح روبسبيير في هذا ببساطة عن طريق منع المتهم من حق الدفاع عن نفسه! بناء على اقتراح من لويس أنطوان دو سان - دو، الذي كان يعتبر ظل روبسبيير الشرير تقدم بمقترح إقرار «قانون 22 بريريال»[5] من خلال الجمعية الوطنية. لم يسبق على الإطلاق سن مثل هذا القانون المتعسف. فقد تجاهل كل سلطة للقانون، وسلمها

1- تم إنشاء لجنة دي سالو قبل ثلاثة أشهر، في 6 نيسان 1793. وتم إلغاؤها في كانون الأول 1795.

2- توجد اليوم في موقع مقهى روبسبيير.

3- راجع: Weisz, Gespräche der Weltgeschichte.

4- لقب روبسبيير. المترجم.

5- قانون قوّض حقوق الإنسان. المترجم.

إلى هيئة محلفين حزبية تصدر أحكام الإدانة بدون دليل أو محاكمة. كان الاتهام مساوياً للإدانة! لم يكن أحد مستثنى من ذلك، وشمل ذلك أعضاء المؤتمر الوطني. خلق هذا القانون جواً من الرعب، لأنه كان يردع أعداء روبسبيير وخلق قاعدة لسلطته[1]. حاول عضو المؤتمر الوطني غيوم منع تمرير هذا التشريع: فقد تجرأ على الإعلان قبل التصويت النهائي، إذا سمحنا بتمرير هذا القانون «لن يبقى شيء بالنسبة لنا لنفعله سوى تفجير أدمغتنا». صرخ بوجهه اليعاقبة، واقتيد إلى المقصلة.

خلق هذا القانون جواً من الإرهاب، وتسبب في تدفق المزيد من الدماء. وأصبح فوكيه تانفيل، المدعي العام، هو الأداة التي يستخدمها القانون، وأصبحت المقصلة هي آلة التنفيذ. أصبح الخامس من نيسان عام 1794، وهو اليوم الذي اقتيد فيه جورج دانتون مع أصدقائه المقربين وأنصاره إلى المقصلة، إشارة إلى بدء موجة الإرهاب الكبير. على مدار الأشهر الثلاثة التالية، عانى 2085 شخصاً من مصير مماثل. لم تعد محكمة الثورة مكاناً للعدالة بل كانت قبواً تحفظ فيه الجثث. فقد المدعي العام وأعضاء هيئة المحلفين المساعدين كل حس للعدالة، وحتى أي شعور بالإنسانية. تم منع أمّ من إرضاع طفلها وتم أخذه منها من على المنصة؛ قامت أخرى بتسليم طفلها الرضيع وهي في الطريق إلى تنفيذ حكم الإعدام بها. قالت إحدى ربات البيوت إنها تريد مغزلاً (*rouet* بالفرنسية) وتمت إدانتها لأنهم سمعوها تقول (*roi* بالفرنسية) ومعناها ملكة. وقد ماتت حينها. وعندما استنكر فليوري، وهو رجل متقاعد، الظلم الذي وقع على ابنته، والتي اتهمت عن طريق الخطأ بالتعامل في السوق السوداء، صاح به فوكيه تانفيل: «هذا الرجل في عجلة من أمره». يجب أن تلبى رغبته، فضرب بمطرقته على الطاولة التي أمامه وتم قطع رأس الرجل، مع باقي أفراد عائلته. كان لا بد من حفر مزراب خاص أسفل المقصلة للسماح لأنهار الدماء بالتدفق إلى المجاري، بسبب كثرة

1- كان هذا أول قانون يتم رفضه... بعد إعدامه.

أعمال الذبح التي كانت تنفذ يومياً. وبالنسبة لهذه المجزرة الفظيعة، أصبح روبسبيير، الذي كان شعب باريس يهتف له ويصفه بالنزيه، هو المسؤول عنها «هولاء الأوغاد كانوا متعطشين للقتل، ولا يطلبون شيئاً سواه، وها هم يحملونني المسؤولية عنه!».

بعد ثلاثة أشهر من عمليات الإعدام اليومية، كانت الغالبية العظمى من الباريسيين يتوقون لإنهاء الإرهاب. وهكذا، كانوا يشيرون إلى سقوط روبسبيير. إنه درس في التاريخ يشير إلى أن الجماهير ستقبل بأي شيء طالما يتم إعطاؤها شيئاً في المقابل يجعلها تفقد ذاكرتها عن الحرية. لكن المقصلة كانت تنتصب هناك، بطولها المرعب والمخيف، كتذكير يومي بالقمع الديكتاتوري.

وسط الحر الخانق لشهر تموز 1794، كان من الواضح أن اليعقوبي روبسبيير لن يعمر طويلاً بوجود الجيروندان الذين أسقطوه في حزيران 1793. كان جوزيف فوشيه القوة التي تقف وراء ما عرف بالمؤامرة العظمى في الثرميدور[1]. كان سان جوست قد قال ذات مرة عن فوشيه إنه يريد «جعل الحرية مومساً». أطلق الرجل الذي كان سيصبح دوق أوترانتو، ورئيس شرطة نابليون المثير للخوف، تعبير النزيه وبعد أن شاهد روبسبيير يتسلق إلى قمة الهرم بعد أن تبنى مفهوم الربوبية[2] «لقد اخترع الله لكي يصبح كاهنه الأعظم».

انضم جان لامبرت تالين، وقد كان رجلاً دنيئاً، وفساده فاضحاً، إلى المؤامرة. عندما تم اعتُقِال هيثيا كاباروس، عشيقة تالين الجميلة (مع صديقتها المفضلة، جوزفين دو بوهارنايس، الزوجة المستقبلية لنابليون)، عرف أنه لن يجد شفقةً في القلب الحجري لـ (النزيه). وفقط

1- الشهر التاسع من تقويم الثورة الفرنسية. المترجم.
2- مذهب فكري لا ديني وفلسفة تؤمن بوجود خالق عظيم خلق الكون وبأن هذه الحقيقة يمكن الوصول إليها باستخدام العقل ومراقبة العالم الطبيعي وحده دون الحاجة إلى أي دين. المترجم.

إسقاط روبسبيير يمكن أن ينقذ عشيقته. كان بول باراس أحد المتآمرين، مثل كولوت دي هيربوا، «جزار ليون»، و«بيلود فارين»، الذين «يقومون بجز رقاب الناس كلما نما واحد منهم».

قال روبسبيير في تصريح له يشبه إعلان الحرب على نوابها المنتخبين: «لم يعد المؤتمر الوطني الموبوء بالفساد يمتلك سلطة إنقاذ الجمهورية»... ولو تصرف روبسبيير في الوقت المناسب، وابتعد عنهم كما فعل مع منافسه دانتون، لكان قد أنقذ حكمه. بدلاً من ذلك، كان ينتابه التردد والخمول. حاول القديس جوست عبثاً أن يبعث فيه الإرادة لضرب أعدائه. لكن روبسبيير، الذي تغلب عليه الوهن بسبب الاشمئزاز من أنه، النزيه، عومل على الفور بقسوة شديدة من قبل أعضاء المؤتمر الوطني الفاسدين، فشل في الاستجابة لنداءات القديس. حتى اليوم الذي وقع فيه مذكرة الوفاة الخاصة به عندما خاطب المؤتمر الوطني قائلاً: «إننا نؤكد وجود مؤامرة ضد الحرية العامة. وهي تستمد قوتها من التحالف الإجرامي الذي يتأجج في حضن المؤتمر الوطني. حتى إن هذا التحالف لديه شركاء في لجنة السلامة العامة، وإن بعض أعضائه منخرطون في هذه المؤامرة». علت الصيحات داخل القاعة تعبيراً عن تأكيد المندوبين بالولاء الكامل لروبسبيير. لكنه أضاف بعد ذلك عبارة قاتلة أسكتت أنصاره من الرعب. «أنا أعرف جيداً من يكون هؤلاء المفترون». هذا التلميح زرع الخوف في قلوب أعدائه اللدودين. كانت لديه قائمة! فمن كان فيها؟ أثار فوشيه، الرجل الذي يتحرك خلف الكواليس، شكوكاً بين العديد من النواب بأن أسماءهم كانت موجودة في تلك القائمة. فقفز بوردون دو لويز، الذي كان مقتنعاً بأن اسمه كان على رأس القائمة، قائلاً: «يجب توضيح مثل هذه الاتهامات!» عندها حاول روبسبيير الإجابة، لكن المتآمِر كامبون أسكته قائلاً: «يجب إخبار المؤتمر الوطني بالحقيقة. هناك رجل واحد يريد أن يقيد إرادته». ووسط الصمت المفاجئ الذي أعقب ذلك، أشار بإصبعه قائلاً: «هذا الرجل هو روبسبيير!».

صرخ بيلاو فارين: «مزقوا القناع!» سادت الغرفة حالة من الجنون:

«القائمة! أعطونا القائمة!» شحب وجه روبسبيير، كان يتوق لشيء من هواء، وتعثر في وسط الغرفة؛ توجه إلى نادي اليعاقبة ليخاطب أنصاره المخلصين، وأعلن رداً على هتافاتهم المسعورة «سنطهر المؤتمر الوطني من هؤلاء الأوغاد الفاسدين». لقد خسر الجولة الأولى، لكن ليس المعركة. غداً سيكون يوماً آخر، وغداً سيسدد ضربة للمعارضة. بينما كان يعود إلى مسكنه، قابل مالكته، السيدة دوبلاي، عند عتبة الباب. نظر إلى السماء: وقال «غداً سيكون يوماً رائعاً». ولكنه لم يكن يناقش حالة الطقس.

وبينما كان فوشيه وعصبته من المتآمرين يهيئون ساحة المعركة لليوم التالي، كان روبسبيير يذهب إلى النوم، بعد أن ترك لسان جوست مهمة التخطيط لهجوم التاسع من ثرميدور. لم تكن المهمة سهلة، فقد كان على سان جوست مواجهة عضو مؤثر في لجنة السلامة العامة وهو، لازار كارنو، الذي اتهمه صراحة بتدبير مؤامرة ماكرة. أجابه سان جوست بشكل خبيث: «سوف أتصرف معك بطريقة متقنة». ربما كان قد فعل ذلك، ولكن بالنسبة لفوشيه، فقد تفوق ببراعة على الثلاثي سان جوست، وروبسبيير وكوتون، حينما قام بترشيح أحد شركائه في المؤامرة وهو كوليت دي بيغوا كرئيس للمؤتمر الوطني في الجلسة الحاسمة.

في التاسع من ثرميدور في السنة الثانية (الذي يصادف 27 تموز 1794) لم يكن الطقس على الإطلاق كما توقع روبسبيير. كانت السحب تتجمع فوق المدينة وكانت الرطوبة خانقة. افتتح المؤتمر الوطني جلسته في تمام الساعة الحادية عشرة. كان اليعاقبة قد ملؤوا قاعات المبنى بحشود من مؤيديهم، الذين هللوا بشدة عندما وصل روبسبيير، في معطفه الأزرق المخضر الشهير وبنطاله الأصفر، في وقت مبكر، برفقة سان جوست وكوتون. وبينما كان واثقاً من فوزه الوشيك، فقد لوَّح إلى أنصاره. ذهب سان-جوست إلى المنبر لشن الهجوم الأولي، ولكن قبل أن ينتهي من أول جملة له، دفعه تالين بوحشية جانباً، ولوح بخنجر كان يحمله (وهو ما زعم أنه أرسل إليه من قبل حبيبته تريزا):

ردد على الفور بقية المتآمرين «أزيحوا الستار»، وخاصة من قبل بيلود فارين، الذي صرخ قائلاً: «يحاول اليعاقبة قتل المؤتمر الوطني!» ومن وسط الارتباك والاضطراب الذي ساد داخل القاعة، تقدم تالين نحو روبسبيير. فوجئ (النزيه) بالأمر، وحاول الكلام، لكن صوته خانه. «دم دانتون يخنقه» صاح تالين. عندما فتح روبسبيير فمه، لوح المتآمر كولوت دريبوا، بجرس الرئيس، واستخدم صوته ليمنعه من الكلام. ووسط الهرج والمرج صاح صوت أجش: «يا زعيم القتلة، أنت لن تسمعني!» قبل أن يغيب صوت روبسبيير بشكل مؤلم. نظر إلى النواب من حزب الجبل[1] لكنه لم يرَ سوى الذهول، وخاطب نواب حزب السهل[2]، فكان يهيمن عليهم العبوس. ثم صعد فجأة لوشييه، وهو نائب لم يسبق له أن أظهر أي مبادرة أو شجاعة: وقال: «أطالب باعتقال الخائن روبسبيير!» للحظة لم يكن هناك سوى صمت الصدمة، قبل أن تسود القاعة مظاهرة صاخبة. عندما حاول روبسبيير التحدث، صرخ عدد من النواب بصوت واحد: «دع دماء دانتون النبيلة تخنقك!».

ارتمى روبسبيير في مقعده، شاحب الوجه ويتعرق. فقط سان جوست حافظ على هدوئه. تلا الرئيس الأمر الذي تم إعداده مسبقاً لاعتقال ماكسيميليان روبسبيير و«عصابة من الأوغاد». تم اقتياد (النزيه) من القاعة من قبل اثنين من رجال الدرك. وتمتم قائلاً: «الجمهورية ضاعت، وقطاع الطرق انتصروا».

مع نجاح الانقلاب في القصر، وتوقيف روبسبيير، وسان جوست، وكوتون، اتخذ المؤتمر أكثر القرارات جنوناً في تاريخ الثورة: توقف لمدة ساعتين لغرض تناول العشاء. انتقل التوتر الذي استحوذ على المؤتمر الوطني، بسرعة إلى الأحياء الشعبية في باريس. ففي حين خرجت حشود من القاعة إلى جميع أنحاء باريس لجمع الدعم لقادتها

1- أنصار روبسبيير. المترجم.

2- كان هذا الحزب يتبنى موقفاً معتدلاً. المترجم.

المعتقلين، بعث نادي اليعاقبة رسلاً إلى أقسام المدينة لتجميع «مجاميع من الرجال والنساء الأقوياء» في *Place de la Maison – Commune*. قصر لاميسو كومون وبمساعدة من مدافع الحرس الوطني، وزعيمه، هنريوت، سوف يواجهون هذا المؤتمر المتمرد قريباً.

كان فرانسوا هنريوت، الجنرال في الحرس الوطني في باريس، في العادة شخصاً ثملاً ومتبجحاً. بدأ «حياته العسكرية» كخادم لضابط فرّ من البلاد، قبل أن يصبح قاتلاً مأجوراً يعمل لصالح مارات. في 2 حزيران 1793، وبناء على طلب مارات، قام بجمع الحشود لاقتحام المؤتمر الوطني، وإلاطاحة بالجيرونديين، وتثبيت حكم اليعاقبة. وبعد بضعة أيام، مات مارات، وسرعان ما حول هانيوت ولاءه إلى روبسبيير. وبسبب خيانته، تم تسليمه قيادة الحرس الوطني. في الليلة التي سبقت 9 ثرميدور، كان قد أكد شخصياً لروبسبيير أنه سيوجه أسلحته نحو المؤتمر الوطني «وينسف هؤلاء الخونة ويذهب بهم إلى الجحيم». ثم توجه إلى أقرب حانة ليسكر فيها عندما عثر عليه أصدقاؤه أخبروه بصدور أمر إلقاء القبض عليه، فقفز على حصانه وراح يعدو به، وتناول سيفه وصرخ بشدة «سأقتل كل النواب!» واتجه إلى حديقة التويلري، حيث تم إنزاله بشكل فظ من فوق حصانه، وتقييده وإلقائه في غرفة للتخزين. وبمجرد أن سمعت الكومونة باعتقاله، ذهب 200 رجل مدججين بالسلاح لإنقاذه. وحطموا أبواب مبنى المؤتمر الوطني وأطلقوا سراح هنريوت، الذي كان ما زال في حالة سكر وغير متوازن. وبدون أوامر محددة، حمل الرعاع المسلحين «قائد الكومونة المحرر» إلى عربة قريبة ثم غادروا المكان، لكنهم لم يلحقوا أي ضرر بالنواب، الذين كانوا قد عادوا بعد عشاء لطيف. خلال هذا الارتباك، اعتزل فرانسوا هانيوت، مرة أخرى في مسكنه في شوفال فير.

تمكن لازار كارنوت والذي كان قد سيطر على لجنة السلامة العامة من روبسبيير المخلوع، أن يواجه بالفعل أي تحرك ممكن من هنريوت والكوميونات من خلال إصداره أوامر لرجال الدرك الموالين له بحراسة

مخازن الذخيرة. وقد أرسل هجوم الحشود المسلحين برسالة إلى النواب المندهشين عن خطورة الوضع - وقد كانت رسالة حقيقية - مما تعين علاجها على الفور، خاصة وأن روبسبيير لم يعد قيد الاعتقال. وقد سمح له محتجزوه بالرحيل، بعد أن لم يتلقوا أي أوامر محددة لاحتجازه لفترة أطول وعلى الأرجح بسبب الرعب من قبل الحشود المتجمعة. أصدر النواب بسرعة مرسوماً لغرض تصحيح الأمور بإعلان روبسبيير (شخصاً خارجاً عن القانون)، فإن أي شخص يأتي لمساعدته سيواجه اعتقالاً فورياً ويتم إعدامه بدون محاكمة. تم تعيين بول باراس، العضو في المؤتمر الوطني، مسؤولاً عن تنفيذ القرار. وأرسل أعضاء المؤتمر الوطني إلى مختلف مناطق باريس لتلاوة المرسوم. أظهر المرسوم تأثيراً فورياً. من بين الأحياء الـ 48 في المدينة، لبى 13 حياً فقط دعوة اليعاقبة للدفاع عن قصر بلدية باريس، في حين راقب 27 حياً بحذر ما ستسفر عنه نتيجة الصراع على السلطة. عندما لاحظ رؤساء المقاطعات حدوث تأرجح في الموقف العام، بسبب الحيلة الذكية بجعل روبسبيير خارجاً عن القانون، أعلنوا في النهاية وقوفهم إلى جانب المؤتمر الوطني. للمرة الأولى، تجرأ العديد من رؤساء الأحياء البارزين في باريس على إظهار استنكارهم بصراحة لإرهاب روبسبيير. ومع ذلك، فقد أظهر مسلحو هنريوت عزيمة أكبر. فقد قاموا جنباً إلى جنب مع الآلاف من الناس البسطاء، بمسيرة في ساحة قصر البلدية، والذي كان معروفاً أكثر خلال الأيام الثورية باسم *Place de la Maison – Commune*. بحلول الساعة العاشرة مساء، ودون انتظار تعليمات من قائدهم، تم نصب اثنتين وثلاثين قطعة من المدفعية على الطرق المؤدية إلى *Hôtel de Ville* الذي يمثل مبنى البلدية وعلى طول الأرصفة. في ذلك الوقت، لم يكن جميع أعضاء المؤتمر الوطني قادرين على إصدار الأوامر إلا لسرية واحدة من رجال الدرك، مسلحين بالمسدسات فقط. خلال هذه الساعات الحاسمة، كانت الكومونة تحظى بتفوق ساحق في المدافع - وهي ورقة رابحة كان من المؤكد أنها كانت ستحسم القضية - إذا استطاعت فقط العثور

على قائد لتولي المسؤولية! وفي حين كان المؤتمر الوطني يناقش أفضل السبل للتعامل مع هذا الوضع المتفجر، ويعيش خلف أبواب مغلقة في رعب مستمر من حشود الغوغاء في الشارع، تجمعت الغيوم العاصفة فوق سماء المدينة.

أثناء كل هذه الفوضى، أين كان الرجل الذي تسبب في كل هذه الإثارة؟ لم يظهر وجهه في قصر بلدية باريس، رغم أنه كان معروفاً على نطاق واسع أنه قد تم إطلاق سراحه. لقد فر عبر النهر وأخفى نفسه في مقر عمدة الجادة الخامسة في باريس. وللمرة الأولى في حياته، كان خائفاً، يعاني من القلق وغير قادر على التوصل إلى قرار. ما هي فرصة أن يحاكم هو وأنصاره بموجب قانون بريليريال الذي شرعه؟ كانت النتيجة المؤكدة: هي الموت. هل ما زال يعتمد على إنقاذه في اللحظة الأخيرة من قبل هنريوت وحرسه الوطني؟ وفي حين انفجرت باريس وكان أعضاء الكومونة يبحثون عنه في جميع أنحاء المدينة، كان هنريوت مرتمياً فوق إحدى الطاولات في فندق شوفال فيرد[1] في شارع جيوفريه لاسنيه *Rue Geoffrey l'Asnier*، والذي يبعد مسافة قصيرة عن قصر البلدية، وهو يشخر. وهذا لم يترك أمام روبسبيير أي خيار سوى أن يضع مستقبله بين أيدي الغوغاء، أداة الإرهاب المخيفة لمارات. كل هذا أصبح يتوقف الآن على رد فعل رؤساء الأحياء ورعاع الشوارع. ومع كل ما كان ينوء بحمله وإدراكه الكامل أنه قد تم إعلانه خارجاً عن القانون، شق طريقه إلى مبنى البلدية *l'Hôtel de Ville*. ووصل إلى هناك في حوالي الساعة العاشرة والنصف مساءً، وتصرف بحذر شديد، لأنه لا يريد أن يربك أنصاره ويضع نفسه في المعسكر نفسه الذي وضع فيه «المتمردين داخل المؤتمر الوطني» الذين يتهموه الآن بتهمة الخيانة العظمى. لم يضع شيئاً. لكن بدلاً من التصرف والتحرك بشدة، سمح بمرور الوقت الثمين.

تم تجميع كل عناصر الحرب الأهلية الشاملة. كانت جماعة

1- وقد عاش دانتون هناك خلال زيارته الأولى إلى باريس.

الثرمودوريون في المؤتمر الوطني تحظى، بدعم من البرجوازية ونصف أحياء المدينة، والنائب باراس وفصيله من رجال الدرك، وروبسبيير واليعاقبة، ومدافع هنريوت *Hanriot*، وحشود الكومونة من رعاع باريس. أصبحت ساحة قصر البلدية *Place de la Maison-Commune*، التي توجد أمام النوافذ المفتوحة لمبنى البلدية الذي يرفع شعار العدل والمساواة *Salon de l'Egalité*، بؤرة لبث الإشاعات. وازداد بسرعة الغضب في المزاج السائد بين الحشود الغاضبة. رفع الرعاع رأسهم القبيح، وتحطمت النوافذ ونهبت المتاجر. تم تجميع كل مكونات الهيجان الثوري: لن يحتاج الأمر إلا إلى أقل شرارة لإطلاق حمام دم. حوالي منتصف الليل، ذكرت الأخبار أن العديد من قادة الأحياء قد بدؤوا يقفون جنباً إلى جنب مع مندوبي المؤتمر الوطني الذين بدؤوا في الانتشار وسط الحشد المحصن. عندما وصلت هذه الأخبار الخطيرة إلى الحشود، بدأ العديد من أولئك الذين كانوا ينتظرون دون جدوى لساعات رسالة من (النزيه) بالتراجع. اندلعت المعارك والنقاشات، وبدأت المجموعات الأولى في التجول. ولو خاطب روبسبيير على الفور الجمهور من النافذة المفتوحة، لكان بإمكانه تغيير مزاجهم. لكنه لم يفعل ثم حدث ما لم يكن بالحسبان، على حين غرة وجدت باريس نفسها في قبضة عاصفة صيفية عنيفة[1]. ازداد هطول الأمطار بشدة. في غضون لحظات كان الغوغاء ينهارون، كان الناس يسيرون عبر المطر المنهمر وهو يجلدهم مثل السوط متجهين إلى منازلهم، ويخوضون في البرك التي غطت الرصيف. وقد تحولت الأخاديد إلى أنهار، واجتاحت الممرات المؤدية من حي ماريه وصولاً إلى نهر السين سيولاً جارفة، اقتلعت حصى الرصيف وجرفت القمامة وأغرقت الكلاب. ثم انسحب رجال المدفعية، وجروا مدافعهم خلفهم. وقاموا بنقلها من خلال شبكة من الممرات المؤدية صعوداً إلى حي ماريه، وهم يكافحون ضد سيل من المياه المتسارعة. تراقصت أشكال

1- راجع: E. Hamel, Histoire de Robespierre.

غامضة وسط البرك، وكانت تقفز من حجر إلى حجر وفوق الأنقاض التي تم جرفها. حتى الفئران تركت المجاري الفائضة. أغرقت العواصف الممطرة المفاجئة أمل روبسبيير الأخير. وعلى مدار ساعة من الإثارة، تفككت السحب وألقت مليون طن من المياه على المدينة. عندما وقف روبسبيير أمام النافذة ونظر إلى الأسفل نحو مبنى البلدية الذي غاص بالماء وكان مهجوراً تماماً، كان يعلم أن قضيته قد ضاعت. كان درعه، وهي الجماهير من أحياء باريس الموالية له، قد تخلى عنه. وبحلول الساعة الواحدة، كانت الساحة مهجورة تماماً. لم يتمكن هنريوت، الذي استفاق أخيراً من سباته المخمور، من تحديد موقع مدافعه. دمرت الأمطار الغزيرة حلماً ثورياً وأسقطت ديكتاتوراً[1].

ساد الهرج والمرج مبنى البلدية وصل كوثون المنكوب إلى المبنى بعد منتصف الليل بقليل. وشكل مع روبسبيير لجنة الإعدامات، *Comité d'Execution*، وجنباً إلى جنب مع سانت جوس، عمل على إعلان يدعو إلى المساعدة من الكومونة، موجه بشكل خاص إلى حي بيكيه، الذي كانت تعيش فيه الحلقة المقربة من روبسبيير وجاء فيه:

Tous les patriotes sont proscrits... أيها الأخوة والأصدقاء، إن الوطن في خطر مميت. فقد سيطر الأشرار على المؤتمر الوطني، وقيّدوا روبسبيير الفاضل بالسلاسل. *Aux armes citoyens!* هيا لحمل السلاح! الموت للخونة!

في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، بينما كان روبسبيير وكوتون يقومان بكتابة الإعلان، كان عضو المؤتمر الوطني بول باراس يقوم بتحركاته. اقترب فصيل مؤلف من ثلاثين من رجال الدرك،

1- يقول مادلين: فجأة، ازدادت حدة المطر الذي كان قد هطل منذ الظهر، بشكل عنيف مما تسبب في إحداث السيول. وهذا أعطى الحشد ذريعة للتفرق. لم يعد بإمكان هنريوت تحديد مكان أي من مقاتليه. في النهاية قرر روبسبيير التوقيع على النداء لحمل السلاح ولكن الأوان كان قد فات.

تحت قيادة ليونارد بوردون، من ساحة البلدية *Place de la Maison-Commune* بحذر شديد. كانوا يتوقعون مواجهة حشد ضخم ووجدوا بدلاً من ذلك ساحة مهجورة. اقتحم رجال الدرك بقيادة بوردون السلالم الكبيرة في مبنى بلدية باريس. وعندما اندفعوا نحو الصالون، وجدوا حوالي عشرة أشخاص تجمعوا حول روبسبيير. كان الرجل نفسه يجلس على كرسي، بعد أن بدأ للتو في كتابة أول حرفين من اسمه في الإعلان. صاح بوردون: «استسلم، أيها الخائن». رد عليه روبسبيير وهو يصرخ: «أنت هو الخائن. لهذا سأطلق عليك النار». لقد تسبب الهرج والمرج والفوضى التي أعقبت ذلك في إثارة واحدة من الخلافات الكبرى في الثورة الفرنسية. من أطلق النار على روبسبيير[1].

عندما اندفع رجال الدرك التابعون للمؤتمر الوطني الغرفة، أطلق أحدهم وكان يدعى ميردا أو ميدا النار من مسدسه من مسافة قصيرة. أصابت الرصاصة روبسبيير. اخترقت خده وحطمت عظم الفك. سقط وجهه إلى الأمام، فوق المرسوم الذي كان قد بدأ للتو التوقيع عليه. وتناثر الدم الذي كان يتدفق من فمه على الورقة التي كانت تحمل الحرفين الأولين من اسمه *R O* ... بينما سقط رأسه إلى الأمام[2]. وقام أحد أقرب مؤيدي روبسبيير، وهو فيليب لوباس، بسحب مسدس من حزامه. قام سانت جوس، وكان واقفاً إلى جواره، بتمزيق قميصه وناداه قائلاً: «يا أخي، أطلقوا النار عليّ!» لم يفعل لوباس سوى أن يسخر منه قائلاً: «(*Pauvre con* أحمق ساذج)، لدي أشياء أكثر أهمية للقيام بها».

1- هذه واحدة من أكثر الأحداث التي نوقشت في الثورة الفرنسية. هل كان روبسبيير من أمر بذلك؟ أم هل كان الدركي ميدا هو الذي أطلق الرصاص؟ إنه سؤال بقي دون إجابة، حيث إن المشاركين في تلك الأحداث المثيرة لم يتفقوا أبداً على ما حدث بالفعل في تلك الدقائق الأولى. فهل يصور روبسبيير على أنه رجل شجاع أو إنه مات نتيجة أفعاله وقيامه بعمل جبان؟

2- لا تزال الورقة موجودة، وفي الأسفل يوجد أول حرفين... R o من اسم روبسبيير وهي معروضة في متحف Carnavalet. ادعى أحد رجال الدرك أنه هو من أطلق النار من المسدس، لكن روايته لا يعتمد عليها.

مع هذه الكلمات قدح زناد البندقية وفجر دماغه. وألقى أخو روبسبيير الأصغر، أوغستين، بنفسه من إحدى النوافذ وتسبب في كسر ساقه. كان هنريوت أكثر حظاً إلى حد ما، وسقط من نافذة على كومة عالية من الروث. وبقي هناك لساعات، يغط في شخير عميق بسبب إسرافه في تناول الكحول، قبل أن يستمع إليه أحد الدرك في صباح اليوم التالي. أمسك [كوثن] وهو يعرج، بسكين وقطع أوردته. قام أحد رجال الدرك بإلقاء القبض عليه ورمى به على الدرج الرخامي الضخم. تدحرج كوتون إلى الأسفل، وتكسرت عظامه وأخيراً تمدد هناك، فاقد الوعي. تم وضع روبسبيير، الذي كان يغطيه الدم، وقد كانت ملابسه في حالة من الفوضى، على سطح الطاولة، وألقي به في عربة مكشوفة، توجهت إلى مبنى المؤتمر الوطني، حيث قام باراس بعرض درامي قائلاً: «إن الخائن روبسبيير في الخارج». وبعد هذا العرض وقف رئيس المؤتمر وأعلن: «المكان المناسب للخائن والمتواطئين معه هو ساحة الثورة!» وهكذا اقتيد روبسبيير إلى المقصلة.

لم يتم خوض المعركة الحاسمة للثورة الفرنسية في 9 ثرميدور بالمدافع والحراب، ولكن بالكلمات، والخيانة، والخوف، ومفاجآت الطقس.

وجاءت النهاية في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالي، 28 تموز 1794. قام فوشيه بتأخير وقت الإعدام لإعطاء الباريسيين فرصة «ليشهدوا نهاية الغول». في السادسة مساءً، تأرجحت بوابة قصر كونسييرجيري عند فتحها ودخلت عربة تقودها ثلاثة خيول كانت تعود للسيد سامسون، أو «سيد باريس» وهو «الجلاد العام الذي ينفذ أحكام الإعدام» وقد غادرت الشارع يحيط بها العديد من الباريسيين الذين يطلقون الشتائم وعبارات السخرية. شقت القافلة طريقها المعروف جيداً نحو المقصلة، التي كانت تلقب *Via Dolorosa* فيا دولوروسا[1]، كانت كراهية العديد من

1- موجودة اليوم في ساحة الكونكورد. وتنتصب المقصلة أمام مدخل حدائق التويلري.

الباريسيين حتى تلك اللحظة لا تعبر عن نفسها إلا عن طريق النظرات والهمسات، ولكنهم الآن باتوا يعبرون عنها بالصراخ بصوت عال. يسقط الطاغية!، هكذا كانت تصيح بهستيريا الجماهير نفسها، التي كانت قبل أسابيع فقط تجثو على ركبتيها أمام هذا الكائن الأسمى. كان [هنريوت]، ما زال مخموراً ومتكوماً وسط الروث، وتتدلى إحدى عينيه من محجرها، متمدداً قبالة [أوغستين] المتكسرة عظامه في العربة التي تسير في المقدمة. وأجبر ماكسيميليان روبسبيير، وهو الشخصية الأكثر جذباً للجماهير، إلى الوقوف في العربة الخشبية الثانية، وتم ربطه بالحبال لمنعه من السقوط. صفع مساعد الجلاد الحصانان النورمانديان رماديّ اللون اللذين كانا مربوطين إلى العربة، وانطلق الموكب. وكان رجال الدرك يوجهون مسار روبسبيير الأشعث الشعر بسيوفهم. كان عبارة عن حطام إنسان منهك ومنحط، يبصق عليه الناس، يجلله العار والحقد من الجميع، ومجرم معروف في طريقه إلى المقصلة. كان لا بد أن يتضاعف الألم في فكه المحطم كلما قفزت العجلات الخشبية للعربة إثر دوسها على الحصى المتناثرة في شارع سانت أونوريه المؤدي إلى ساحة الثورة[1].

توقفت العربة فجأة أمام مكان إقامة روبسبيير. أحضر رجل دلو مملوء بالدم من المسلخ ورش به الواجهة الخارجية لمسكن عائلة دوبلاي. كانت هناك تلك الحائكات البشعات، وقد أطلق عليهن هذا الوصف لأنهن كن يجلسن حول المقصلة وبشعور بالغبطة كن يراقبن سفك الدماء وهن يقمن بالحياكة والآن يرقصن حول العربة وقد كن مسرورات لقيامهن بسحب عجلاتها، قبل يوم واحد فقط، وهي تحمل أكثر من ألف من ضحايا روبسبيير[2] كان الناس يتصرفون ليس فقط

1- من البوابة الرئيسية لمبنى لكونيجيري، عبر نهر السين على جسر نيوف، وعلى طول شارع سانت أونوريه إلى ساحة الكونكورد.

2- راجع: G. Aubry.

بشكل متعصب وغير متسامح، ولكن بقسوة لأجل التنفيس عن الكراهية التي كانوا يحملونها. قفزت امرأة على جانب العربة، وضربت روبسبيير في وجهه المليء بالضمادات، مما جعله يجفل، وصاحت به: «اذهب إلى الجحيم، ترافقك لعنات كل الأمهات في فرنسا». وعند مفترق طرق، توقف الموكب للسماح لجنازة بالمرور. كانت لإحدى السيدات وتدعى مدام اينييه وقد قتلت نفسها عندما جاء رجال روبسبيير لاعتقالها. ربما كانت هي ضحيته الأخيرة[1].

تجمع حشد من ثمانية آلاف شخص في ساحة الثورة. كان على رجال الدرك استخدام حرابهم ليشقوا طريقهم عبر الحشود. كانت تلوح فوق رؤوس الناس أداة روبسبيير الخاصة بالإرهاب، وهي المقصلة. كان هناك اثنان وعشرون شخصاً يجرون خطاهم الواحد تلو الآخر، لمواجهة سامسون الجلاد ومساعديه. صرخ كوتن وتوسل، وتغوط في سرواله. كان يجب دفع معظم الآخرين إلى المنصة الملطخة بالدماء. وبدأت رؤوسهم تتكوم في السلال وألقيت جثثهم المدماة بلا مبالاة من المنصة إلى عربات الموت المبطنة بالقش. كان سانت جوس هو الوحيد الذي حافظ على كرامته حتى النهاية؛ لم يتحدث أبداً دفاعاً عن نفسه وصعد السلم بخطى حازمة. كان في السابعة والعشرين من عمره، واجه الموت بالإحساس والمشاعر الباردة نفسها التي جعلت منه الرجل الأكثر غموضاً في الثورة.

كان الضحية الحادية والعشرين للمقصلة هو النزيه، ماكسيميليان روبسبيير. تكونت من دم العشرين ضحية التي سبقته بركة قرمزية حول قاعدة المنصة. وللمرة الأولى، خيّم الصمت فوق الميدان: كان يسمع فقط صهيل حصان هنا، وتنهيدة مكتومة هناك. شدد الرجال من قبضتهم على عصيهم، رسمت النساء صورة الصليب على صدورهن،

1- في ذلك اليوم، كان هناك 7,500 سجين آخر ما زالوا في السجون الباريسية، ينتظرون إعدامهم.

وهن يتمتمن: «هكذا تكون نهاية الشيطان». كانت الأبصار تحدق في المنصة المرتفعة والشفرة البراقة. جذب مساعدو الجلاد جسد روبسبيير المحطم فوق السلم. تدلت يداه الملطخة بالدماء على أكتاف الجلادين، وكانت قدماه تخبط بقوة درجات السلم في كل خطوة. برز من وجهه المليء بالضمادات زوج من العيون كانت ترنو نحو السماء الكئيبة. وعندما ارتخت ركبتيه دفعوه نحو لوح المنصة وتركوه ممدداً كرمز لطاغية ساقط، قبل أن يجرجروه إلى لوح المنصة، وقد ملأته الدماء وأصبح أحمر اللون بعد أن مسح بجسده دماء الضحايا الذين ذبحوا قبله. مزق مساعد الجلاد الضمادة المليئة بالدماء من حول الفك الممزق. صرخ روبسبيير من شدة الألم.

أعطى شمشون الجلاد إيماءة وجيزة، قام أحد مساعديه بإمالة اللوح إلى الأمام بحيث يكون وسط اثنين من أشجار البلوط المنتصبتين. ومع صدور صوت مكتوم اتخذ كلّاب الرقبة مكانه. سحب سامسون العتلة وسقط نصل المقصلة. سمع الجميع همسات روبسبيير. وانتشرت الحسرات عبر ساحة الثورة.

لقد دخل هذا الطاغية التاريخ عبر بوابة الشهادة[1].

تم إعدام روبسبيير وفقاً لدستوره (المادة 17):

التي تنص على أن كل شخص يغتصب السلطة يجب أن يقتل على الفور من قبل الرجال الأحرار...

انتهى عهد الإرهاب مع موت روبسبيير[2]، ذلك الثوري الذي استرشدت أفعاله بفضيلة بعض الكائنات الأسمى الغامضة. مع حكم الإرهاب، أراد روبسبيير أن يحافظ على حكم الفضيلة، وأن يحقق

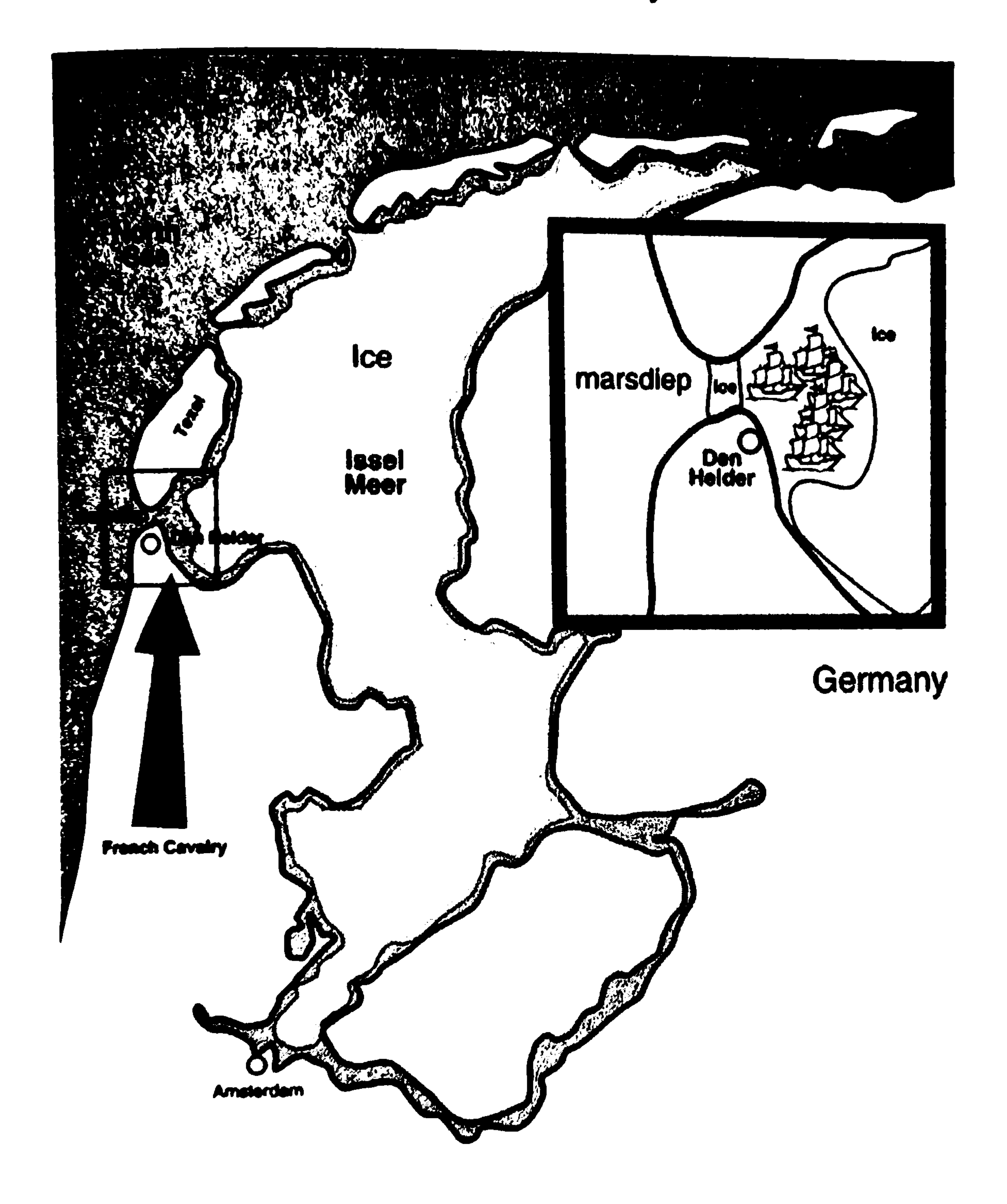
1- من سخرية القدر، تم إلقاء جثة روبسبيير في المكان نفسه. في المقبرة الجماعية التي دفن فيها لويس السادس عشر من قبله.

2- كان للدفعة الأخيرة المؤلفة من اثنين وسبعين من اليعاقبة، وأنصار روبسبيير، موعداً مع الجلاد في اليوم التالي، 29 تموز 1794. أما البقية، فقد فتحت لهم أبواب السجن.

السلام الأبدي من خلال العنف. وإذا كان التسبب في سفك الدماء يخلق المشاكل للشخص العادي، فإن هذا المتطرف سار قدماً في هذا الأمر بطريقة جريئة وإلى أن حان اليوم الذي استطاع فيه بعض من كان يشعر بالرعب منه أن يعيشوا بلا معاناة مروعة، كانوا يطرحون على أنفسهم السؤال نفسه في كل صباح: هل سأكون التالي في القائمة؟ في التاسع من ثرميدور. غرس الخوف في الجبناء شجاعة الأمل الأخير.

وإلى جانب ذلك، فقد أسقطت العاصفة الممطرة المفاجئة رجلاً نزيهاً.

Frozen Dutch Fleet 23 January 1795



Holland

الأسطول البحري المتجمد
23 كانون الثاني 1795

«في نزاع ليست مستعدة له ولن يقف
في وجهها شيء حين تكون مستعدة له».

• الأمير وليام الخامس،
حاكم هولندا العام، 1787

«عليك الاستسلام فوراً!» يصرخ الشاب، وهو يجلس على حصانه متبختراً على حصانه، والشارة الشهيرة ذات الألوان الأحمر والأزرق والأبيض التي تشير إلى الجمهورية الفرنسية بارزة على قبعته ثلاثية الزوايا. تحت معطفه الأسود، وفي منطقة حول الخصر، يظهر زوج من المسدسات ملتصقة بحزامه. وهو يحدق بتحدٍّ، في الأفواه المفتوحة للمدافع البحرية الضخمة. كان يقف على سطح السفينة ضابط برتبة أدميرال، يظهر تجعد عميق على جبهته. وعلى وجهه ابتسامة قاتمة، بدأ يحدق في هذا الفارس الشاب المحبوب. يجب أن يعترف، إن هذا الشخص يتصرف ضمن أجواء الروح الثورية التي تجتاح أوروبا.

فرد عليه «لماذا لا نناقش مثل هذه الأمور الخطيرة عند العشاء على متن سفينتي». قبل الشاب ذو الشارة الدعوة.

إنها الساعة العاشرة صباحاً، من يوم 23 كانون الثاني 1795.

عندما سأله السفير الإنجليزي عن مخاوفه من التدخل الفرنسي في

الشؤون الهولندية، أجاب *Stadhouder* (رئيس الدولة أو راعي شؤون الدولة) بقسوة: «في نزاع ليست مستعدة له ولن يقف في وجهها شيء حين تكون مستعدة له»، حدث ذلك في عام 1787، في وقت كان فيه الأمير وليام الخامس، حاكم هولندا، من بين الشخصيات غير المرغوب بها في بلده. لسبب وجيه: فقد زاد استبداده من شعور التجار الأغنياء وسكان المدن الأثرياء بالإحباط إلى حد بعيد مما جعلهم يقررون نفيه إلى الخارج. في عام 1786، عاد إلى السلطة على ظهر الأسطول الإنجليزي. لم يكن افتقاره إلى الشعبية شيئاً خافياً على الفرنسيين. ولأنهم كانوا دائماً يعملون على الاستفادة من الفرص المتاحة، فإنهم تآمروا للاستفادة من الوضع السياسي المتوتر جراء الهيمنة النمساوية على هولندا. ومع وضع هذا في الاعتبار، أرسل بلاط فرساي مبعوثاً للاتصال بالحزب المعارض، حزب الوطنيين.

لقد صدم ماركيز دي رينيفال بما اكتشفه. حاول تحذير ملكه من العدوى الثورية المحتملة. وكتب في رسالته: «إن حماس حزب الوطنيين هنا قد حقق تقدماً مرعباً وإذا لم يتم إيقافه، فإنه يخشى أن يؤدي ذلك إلى حدوث انفجار ستكون له عواقب لا حصر لها». كان هذا التقييم كافياً لزعزعة كيان الملك الفرنسي. وقد وضع عدم وجود مساعدة من باريس نهاية للانتفاضة الباتافية الهولندية في عام 1787 [1]. بدون مساعدة الفرنسيين، كان التسعة آلاف رجل وهو تعداد قوات الوطنيين يمثلون قوة ميؤوس منها بسبب النقص في العدد والعدة. في 13، أيلول 1787، زحف 26 ألف بروسيٍّ إلى هولندا، وتم إخماد الثورة وكان الفضل في ذلك يعود إلى حرابهم[2].

في أعقاب الانتفاضة الفاشلة، وجدت هولندا نفسها في حالة من

1- كانت اضطراباً سياسياً واجتماعياً وثقافياً في نهاية القرن الثامن عشر التي ميزت نهاية الجمهورية الهولندية وشهدت إعلان الجمهورية الباتافية. ويشار إلى الفترة من التاريخ الهولندي التي تلت هذه الثورة على أنها «العصر الفرنسي الباتافي»- المترجم.

2- راجع: Schama, S. , Patriots and Liberators, New York, 1977.

الارتباك وعدم اليقين. لكن الجزمات البروسية لم تستطع أن تحطم روح هولندا الثورية. تم التقاط شعلة الثورة من قبل حركات شبابية وحملت إلى فرنسا. بعد عامين، في اليوم الذي قام فيه حشد من باريس باقتحام الباستيل، تحققت نبوءة ماركيز دي رينيفال. خلال السنوات التالية، بات الفرنسيون مشغولين بشؤونهم الداخلية. في عام 1792، قام دوق برونزويك وجيش الحلفاء بالزحف نحو باريس. انتهى الزحف في قرية فالمي (أيلول 1792)، تلاها المزيد من الانتصارات الفرنسية في واتيغنيه في (تشرين الأول 1793) وفي فليوروس في (شباط 1794)[1]. هذه النجاحات الثورية أثارت النقاش السياسي في هولندا. ظهرت لجان وطنية للثورة في جميع أنحاء البلاد، وتم إرسال وفد إلى باريس لإجراء محادثات سرية مع الفرنسيين.

في فرنسا، كان الوضع في حالة غليان. كانت الثورة تأكل أبناءها. بحلول صيف عام 1794، قطعت رؤوس دانتون وروبسبيير في المقصلة. وقد تولت حكومة المديرين *Directoire*[2] السيطرة على شؤون الدولة. وكان على رأس جدول أعمالها الحرب المزدوجة ضد إنجلترا وإمبراطورية هابسبورغ. وكان لا بد أن تشمل هذه الحرب هولندا. منذ عام 1713، كانت البلاد واقعة تحت الهيمنة النمساوية، في حين أن العائلة المالكة الإنجليزية كانت تربطها علاقات قرابة عائلية مع العائلة المالكة في هولندا (عائلة أورانيا أو البرتقال)، والأمير وليام فان أورانج الخامس حاكم هولندا.

اختبأ الناجون من تمرد باتافان وانتظموا في فصائل سرية. في ظل القيادة القديرة لهيرمان ويليم داينديلز، الذي كان ضابطاً في الجيش

1- في كلتا المعركتين، انتصر الجنرال جوردان على النمساويين.

2- هو شكل الحكومة الذي اعتمد من قبل الجمهورية الفرنسية الأولى. استمرت هذا الحكومة من 26 تشرين الأول 1795 إلى 9 تشرين الثاني 1799. تألفت من خمسة مدارء أوكلت إليهم السلطة التنفيذية. أنشئت هذه الحكومة من قبل الجمهوريين المعتدلين في أعقاب اتفاق ترميدور. المترجم.

الثوري الفرنسي في معركة فالمي، وربما كان يصل عدد أنصار معاداة الهولنديين إلى أربعة آلاف فرد، ومسلحين بشكل سيئ وغير قادرين على محاولة القيام بانتفاضة شعبية أخرى.

في فرنسا، جعل الصراع من أجل السلطة والأزمة السياسية التي أثارها، ورثة روبسبيير يتجاوبون مع الشعار القائل: «عندما تواجهك مشاكل في الداخل، قم بتصديرها إلى جارك». كان الجيش الفرنسي راغباً وسعيداً جداً في أن يكون محرر هولندا. كانت المشكلة داخل الجيش الفرنسي نفسه؛ كانت شؤونه اللوجستية في حالة من الفوضى وليس هناك حالة شديدة من الانضباط في صفوف أفراده. كان رعب روبسبيير قد ترك بصماته على معنويات القوات الثورية. خلال فترة الاضطرابات، تم وضع الجنرالات في السجن، وأصبح الجنود جنرالات في الجيش. كان الضباط يستمتعون بالرفاهية بينما كان الجنود يعانون من صعوبات بالغة. كانت هناك وحدات كاملة مهجورة. وبحلول عام 1794 لم يعد هناك وجود للمدافعين الأبطال عن «الوطن»، الذين لبوا نداء (الجماهير) عام 1793.

أصبح الشقاء في صفوف الجيوش الثرميدورية حالة أسطورية. ومع ذلك، فقد ظلت روح «العام الثاني» تعيش في واحدة من الوحدات، وهو جيش الشمال تحت قيادة الجنرال تشارلز بيشغرو الذي كان قد تولى القيادة، عندما ألقي بالجنرال السابق، لازار هوشي، في السجن أثناء عهد الإرهاب، بدأ بيشغرو حياته العسكرية كجندي مدفعية خلال حرب الاستقلال الأمريكية. أثبت أنه رقيب كفوء وانتقل بسرعة بين الرتب العسكرية؛ لكنه كان زعيماً متواضعاً بالمقارنة مع مرؤوسه الجنرال جان بابتيست جوردان. كان بيشغرو واحداً من هؤلاء الجنرالات الثوريين البواسل الذين لم يقلقوا فقط بشأن رؤوسهم خلال عهد الإرهاب، ولكن كان عليهم أيضاً منع جيوش أعداء الجمهورية من غزو فرنسا. أو،

على حد تعبير جوردان: «وقت الخطر الأعظم»[1]. لم يكن يدرك كم كان الخطر قريباً.

كان بيشغرو سياسياً انتهازياً وعندما تم إخباره بسقوط روبسبيير، كتب يقول: «نحن نناضل من أجل حرية فرنسا، لكننا لن نصبح أبداً أدوات لطاغية». وقد استقبلت رسالته التي اعتبرت كعلامة على الولاء بحرارة في باريس. لكنه أظهر سذاجة معينة من جانبه. كان من المتوقع أن يعتني الجنرال بمهمته، وهي خوض الحرب، وعدم الانخراط في السياسة. في خريف عام 1794، في حين تقدمت ثلاث جيوش فرنسية تحت قيادة جوردان ومورو وميشود على نهر الراين، تلقى بيشغرو تعليمات من *Directoire* حكومة المديرين الجديدة لأخذ زمام المبادرة وغزو هولندا. كان النصر في الشمال موضع ترحيب، وسوف يؤدي إلى إعادة ترسيم الحدود بين الأراضي وضمها والسيطرة على موانئ القناة الحيوية. ثم استدرك الحكام الجدد وأخبروه «قم بالسيطرة على قواتهم البحرية، إذا سنحت لك الفرصة».

كان الأمر بمثابة صدمة كاملة لحاكم هولندا، وكذلك لقائد الفرقة الإنجليزية، دوق يورك، عندما بدأ بيشغرو ورفاقه في جيش الشمال يزحفون فجأة نحو هولندا. بينما كان اعتماد الإنجليز على الإبقاء على عدد قليل من الفرق العسكرية، وجدوا أنفسهم مع احتمال مواجهة جيش كامل، منتشياً من الانتصار في معركة فليوروس *Fleurus*. لكن الأمر الأكثر إثارة للقلق كان تزايد الاضطرابات داخل البلاد. وبمجرد أن تمكن القائد الفرنسي جوردان من دحر النمساويين في معركة فليوروس، هاجمت مجاميع مسلحة صغيرة من حزب الوطنيين الحاميات وسدت المعابر النهرية الحيوية. لم تسمح الحكومة الهولندية بذلك، فقد أمرت بشن حملة اعتقالات في جميع أنحاء البلاد. ذهب زعيم المتمردين الوطنيين، هيرمان ويليم إلى باريس لمقابلة أعضاء حكومة المديرين.

1- راجع: Jourdan, J. B. , Memories militaires de la campagne de 1794.

وأشار إلى أن الفرنسيين يجب أن يتصرفوا بسرعة أو أن يكونوا مسؤولين عن حدوث مذبحة لجميع أصدقائهم، المستعدين للقيام بالثورة الباتافية.

في المشهد العسكري، تحركت الأمور بسرعة كبيرة. احتل الجنرال بيشغرو بروكسل (10 تموز 1794) وأنتويرب (22 تموز). استسلم حصن ايدليغن وسقطت جميع أراضي الإقليم الفلامندي[1] في أيدي الفرنسيين. تركت النكسة في فليوروس(لعموم الجيش الهولندي) معقلاً واحداً فقط هو مقاطعة برابنت[2]، التي يمكن الدفاع عنها حتى النهاية بفتح بوابات التحكم على السدود على طول الساحل. اندفع بيشغرو إلى الشمال، متوقعاً أن يرمي البريطانيين مرة أخرى عبر نهر الميز[3] قبل سقوط أمطار الخريف. بعد مناوشات وقعت بالقرب من بلدة بوكستل الهولندية، احتجز دوق يورك وقواته البالغ عددها 28 ألف جندي أنفسهم داخل أسوار مدينة سيرتوخيمبوس الهولندية، في حين أخذ 22 ألفاً من المدافعين الهولنديين والنمساويين مواقع لهم حول بلدة بريدا الهولندية. استطاع الفرنسيون الاعتماد على سلاح هائل موجود داخل البلاد: عودة ظهور الوطنيين واستيلائهم بسرعة على السلطة. بحلول منتصف شهر أيلول من عام 1794، ملأت منشوراتهم الأدبية التدميرية الشوارع. وشملت نشيداً وطنياً جديداً:

ما يريده الله، هو الذي يجب أن يكون

الحرية والمساواة!

وأخيراً، في 18 تشرين الأول، خرج الوطنيون إلى العلن وأعلنوا: «قريباً جداً، وبمساندة أصدقائنا وحلفائنا الفرنسيين، سننهض كرجل واحد ضد الطغيان»[4]. لكن حلفاءهم لم يكونوا قريبين حتى يقفوا

1- بالمعنى المعاصر فلاندر هو واحد من الأقاليم الفيدرالية الرسمية الثلاث التي تشكل المملكة البلجيكية، إلى جانب الإقليم الوالوني وإقليم بروكسل العاصمة. يحتل الإقليم الفلامندي الجزء الشمالي من بلجيكا. المترجم.

2- هي مقاطعة في جنوب هولندا. المترجم.

3- من أهمّ أنهار شمال غرب القارة الأوروبية. المترجم.

4- راجع: Jorissen, De Patrioten.

إلى جانبهم. وقد عبر بيشغرو نهر الفال، وبدلاً من التوجه مباشرة إلى أمستردام، تم تحويل مسار الرحلة إلى بلدة نايميخن الهولندية. انهارت ثورة باتافيان، وفي 18 تشرين الأول، تم اعتقال ستة من قادتها. أخطأت الشرطة مع أحدهم، وكان أخطرهم. هرب هيرمان ويليم دايانديلز وانتهى به المطاف في المعسكر الفرنسي. ضغط على بيشغرو Pichegru للتحرك بسرعة شمالاً، لكن ذلك الجنرال الفرنسي تجاهل طلبه. وأثار هذا الأمر دايانديلز ليوجه نداءً عاماً لتسليح مواطنيه الهولنديين، الأمر الذي أغضب الجنرال الفرنسي بشكل كبير.

وفي الوقت نفسه، أصبح الوضع محفوفاً بالمخاطر للغاية بالنسبة إلى الأمير وليام الذي أرسل بالفعل بعثة إلى لندن، يطلب فيها مساعدة عسكرية عاجلة. لم يكن رئيس الوزراء بيت مهتماً بالأمر، ولم يقدم ما يلزم. كان الانهيار المتوقع لهولندا طريقة جيدة للتخلص من المنافسة التي تشكلها البحرية الهولندية في جزر الهند الغربية، وهذا من شأنه زيادة مكاسب التجارة البريطانية إلى حد كبير. كانت مناورة بيت واضحة للغاية، بحيث أشار المساعد الإداري لرئيس برلمان هولندا[1]، في ملحوظة كتبها باختصار وعلى عجل في السجل الرسمي: «إن شخصاً معروفاً حتى الآن بأنه شخصية وطنية شجاعة في إنجلترا، أخبرني أن من يخون وطنه ليس لديه ما يقدمه لإنجلترا».

تم تقرير مصير هولندا في المؤتمر الوطني في باريس. وقد أعلن جان لامبرت تالين، أحد الرجال الذين تسببوا في سقوط روبسبيير، بشكل واضح «نحن بحاجة إلى السفن الإسبانية والهولندية، والتي ستمكننا مساعدتها من أن نسرع في الوصول إلى ضفاف نهر التايمز وندمر قرطاج الجديدة». وصدرت الأوامر إلى جيش بيشغرو بالسير شمالاً.

كانت هولندا محمية، كما كان حالها دائماً، من خلال ثلاث موانع مائية رئيسية وهي أنهار: الميز، والفال، وليك. كان البريطانيون

1- وكان يسمى مجلس طبقات الأمة. المترجم.

المنسحبون قد أحرقوا معظم الجسور، ولم يكن لدى الفرنسيين وسيلة لعبور الأنهار. وكان يتطلب بناء جسور عائمة قوارب كبيرة طولها عشرة أمتار على الأقل. وكان سحب هذه القوارب على طول الطرق من فرنسا أمراً غير عملي ويستغرق وقتاً طويلاً. وقد زادت الأمطار الغزيرة التي هطلت في الخريف من منسوب المياه في الأنهار وجعلت من عبور الجسور المؤقتة أمراً خطيراً. وكان الطقس، وليس الجيوش النمساوية البريطانية، هو من اضطر الفرنسيين إلى التوقف.

لم يفعل بيشغرو شيئاً سوى أن يجلس في المخيم وينتظر. كانت علاقته مع جوردان، الذي كان أدنى منه رتبة ويقود جيش الراين، متوترة. عندما طلب جوردان المساعدة للاستيلاء على مدينة ماينتس، التي كان يسيطر عليها مئة ألف جندي نمساوي تحت قيادة الجنرال وورمسر، تأخر بيشغرو عن مساعدته بلا سبب مقنع. وجادل بأن الخطر الأعظم كان يأتي من أعالي نهر الراين، الذي اتخذه البريطانيون والنمساويون قاعدة لهم في هولندا، ونقطة انطلاق لمهاجمة إقليم الألزاس[1] وبعد مرور أشهر فقط، أصبح السبب وراء مناورة تأجيله واضحاً.

ومع تمكن جوردان ومارسو وبيرنادوت من وقف تقدم النمساويين على نهر الراين، بدأت الثلوج تتساقط في هولندا. اضطر رجال بيشغرو للنوم في العراء بدون أغطية كافية. خضع السبب الذي جعل بيشغرو يقرر عدم مواصلة المسير لكثير من النقاش. فهو أولاً، ألقى باللوم على الطقس، فقد كان غير متيقن فيما إذا كان يمكن تحقيق السيطرة الكاملة على الوضع قبل بداية فصل الشتاء. كذلك كان لديه شعور دائم بالقلق من أن الهولنديين أو الإنجليز، قد يلجآن كملاذ أخير، إلى فتح السدود لإغراق جيشه ليهرب أفراده مثلما تفعل

1- منطقة ثقافية، ولغوية، وتاريخية، وإدارية في شرقي فرنسا وعاصمتها هي ستراسبورغ. كانت تاريخياً محل نزاع مع ألمانيا. تقسم الألزاس من الناحية الإدارية إلى إقليمين، باس ريين في الشمال وهوت ريين في الجنوب. المترجم.

الجرذان عند اشتداد الفيضان. ربما لم يكن على علم بأن الإنجليز قد أمروا بالفعل بالانسحاب. ومع اقتراب حلول فصل الشتاء، كانت الحملة الهولندية تقترب من نهايتها. كان بيشغرو على استعداد للتراجع عندما تلقى المساعدة بطريقة غير متوقعة. فقد بدأ الصَقيع يشتد ولم يحدث من قبل في هذا القرن أن انخفضت درجة الحرارة هكذا. تجمدت الدفاعات الطبيعية لهولندا، مثل السدود والأنهار وأصبحت صلبة، مما تسبب بسعادة كبيرة للأطفال وباتوا يستخدمون الممرات المائية للتزحلق.

كتب دايندیلز إلى بيشيغرو قائلاً: «*La Hollande est maintenant solide*» أرض هولندا أصبحت الآن صلبة، وذلك لتشجيع التقدم السريع في قلب البلد. فالأنهار التي تحيط بها، ومياه الفيضانات التي يمكن أن تحميها في أوقات الأزمات، أصبحت صلبة لأنها تجمدت، وأصبح الطريق ما بين أمستردام وباريس سالكاً[1].

في 2 كانون الأول 1794، ترك دوق يورك قواته وأسرع في الانطلاق نحو إنجلترا. ومع ذلك، لم يسرع بيشغرو واستمر في التقدم بحذر شديد. بحلول 27 كانون الأول، عبر جيشه أسفل نهر الميز، في 8 كانون الثاني أصبح في نهر «الفال»، وفي 15 كانون الثاني، عبر نهر ليك. وطوال مسيره، كانت هناك قوة بريطانية محبطة وموهنة العزيمة بالكامل، مجردة من القائد والمؤونة. وبعد أن تكبدت الوحدة الإنجليزية خسائر فادحة، انسحبت أخيراً من هانوفر. إن التخلي عن الاراضي المنخفضة، نقطة انطلاق لندن التاريخية إلى أوروبا، كان بمثابة كارثة حلت بها. شكلت الحملة الهولندية بالنسبة للفرنسيين، المحبطين على طول نهر الراين، انتصاراً مذهلاً وغير متوقع ورفعت كثيراً من معنوياتهم. في خلال شهر واحد، كانوا قد استولوا على معظم هولندا، وحصل بيشغرو على إشادة من الصحافة الفرنسية واصفة إياه

1- راجع: Ernest Lavisse, Histoire de France contemporaine, Paris 1920.

بالجنرال الرائع والثوري اللامع. ومع ذلك، لم يتم احتلال هولندا، فقد استسلمت ببساطة.

وبمجرد عبور الفرنسيين لنهر الفال، أصبح الوضع بالنسبة للقوات الهولندية الموالية ميؤوساً منه. كانت قوات ما يسمى بالتحالف الأول[1] في حالة فوضى تامة. ولم تسفر دعوة الحكومة لحمل السلاح بشكل جماعي سوى عن تجميع قوة من خمسين رجلاً. في 16 كانون الثاني، أصبح من الواضح أنه لا يمكن تنظيم مقاومة أخرى ضد الفرنسيين المتقدمين، وأن هولندا ستضطر إلى التفاوض من أجل السلام. وألقى الهولنديون باللوم على الإنجليز، الذين «دمروا مصانعنا، ودمروا تجارتنا وجرونا إلى حرب مدمرة تنعكس سلباً على مصالحنا». كان حاكم هولندا يحمل كراهية شديدة تجاه الإنجليز إلى الحد الذي رغب فيه بارتداء الشارة ذات الثلاثة ألوان والاتحاد مع الفرنسيين لإبادة هذا العرق [الإنجليز] الذي لا يوجد لديه شيء مقدس. صدر هذا البيان القاسي عن فولكير بيندينيك Volkier Benedinck الذي عمل ضابطاً في الجيش البريطاني خلال حرب الاستقلال الأمريكية.

دخل الفرنسيون أوتريخت في 17 كانون الثاني، وما إن حل منتصف ليلة 18 كانون الثاني 1795، حتى هرب الأمير وليم الخامس على متن سفينة أقلته من مدينة هارلم الهولندية إلى مدينة هارويتش في إنجلترا. في الليلة نفسها، تم الإعلان عن قيام جمهورية باتافيا. وقد لخص الكونت كليرفايت، الجنرال النمساوي الذي كان يقود قوات هابسبيرج في هولندا، الحدث قائلاً: «لم تحدث ثورة بهذا القدر من السرعة. والحقيقة هي أن الأمير وليم الخامس لم يُمنح أي خيار. ففي حين كان جيش بيشغرو يتقدم بلا هوادة نحو الشمال، كان كل يوم جديد يزيد من قلقه. ولكي يحمي عملية خروجه، فقد اعتمد على أسطوله الحربي

1- التحالف الأول هو أول مجهود رئيسي من عدة ممالك أوروبية بهدف احتواء فرنسا الثورية. المترجم.

لكي يتوجه إلى إنجلترا. لهذا، أمر أدميرال الأسطول، جان هيندريك فان كينسبيرغن، بأن ترسو سفن البحرية الهولندية في مارسديب، وهو مضيق يبلغ عرضه ثلاثة كيلومترات، يقع بين البر الرئيس لمدينة هيلدر، وجزيرة تيسلفي هولندا. وكانت تؤدي إلى الماء منطقة واسعة من الشقق الطينية والمستنقعات المالحة، التي تتصل بالمصبات النهرية[1] والتي يغسلها المد والجزر البحري مرتين يومياً، ومن ثم منعت تقدم أي جيش يستخدم العربات والمدافع. كانت خطة جيدة، ولكن لم يعد حاكم هولندا يعتمد على الطقس.

في بداية كانون الأول لعب الطقس دوراً رئيسياً في الأحداث. بعد أسبوع من الليالي الصافية حدث انخفاض غير عادي في درجة الحرارة. في غضون عدة أيام أصبح بحر وادن[2] ابتداءً من مدينة هيلدر إلى بلدة هارلنغن في هولندا قطعة صلبة من الجليد. أزال هذا الوضع أي أمل في الدخول إلى بحيرة آيسل، وهي بحيرة داخل هولندا. أعقب هذا الصقيع الابتدائي هبوب عاصفة غربية شمالية شديدة. أدى الضباب والصقيع إلى إعاقة حركة الأسطول. ومع ذلك، استطاع الأدميرال، من خلال قدر كبير من مهارة الإبحار، إحضار سفنه إلى مرسى آمن في جزيرة تيكسيل. استمر صفير الرياح وتساقط الثلوج لعدة أيام. وعندما أصبح الجو صحواً أخيراً كان البحارة يحدقون في منظر طبيعي صافٍ جداً، وانتابتهم مشاعر الحزن لاكتشافهم أن الكتل الجليدية المتراكمة ستمنع خروجهم من المضيق إلى المحيط. كان هناك جليد من أمام وخلف

1- مسطح مائي ساحلي يأخذ شكل خليج شبه مغلق، يصب فيه نهر أو مجرى مائي من جهة، ويتصل بالبحر من الجهة الأخرى، تمتزج فيه المياه المالحة بالمياه العذبة. المترجم.

2- منطقة تقع جنوب شرق بحر الشمال في أوروبا وقد أدرجتها اليونسكو عام 2009 على لائحة التراث العالمي، وهي مكونة من أراض رطبة ساحلية ومسطحة نسبياً تتسم بمناخ معتدل. المترجم.

خمس عشرة سفينة من سفن خط المعركة[1]، وسفينتي شحن، وعدة زوارق مدفعية أصغر وقد أصبحت جميعها محتجزة في المضيق. أدرك الأدميرال فان كينسبيرغن أن الأمر يحتاج على الأقل إلى شهر قبل أن تصبح القناة صالحة بما فيه الكفاية لجعل هروبهم عبر البحر المفتوح أمراً ممكناً. بعد أن كان قد حاول، أن يشق طريقه عبر كتل الجليد باستخدام البارود وفشل[2]، توصل الأدميرال إلى استنتاج محزن وهو أن سفينته كانت محاصرة، وأنه سيعمد إلى إغراق الأسطول إذا حاول الفرنسيون الاستيلاء عليه. كانت هناك مشكلة إضافية: كان مرسى مارسديب ضحلاً لدرجة أنه سيسمح للفرنسيين بالاستيلاء على مدافعه الثمينة. وقد أجبره هذا الأمر على اتخاذ قرار مؤلم: فبدلاً من إطلاق البارود على العدو، قرر أن يستخدمه لتفجير سفنه العزيزة على قلبه. في هذه الأثناء، استمرت درجات الحرارة في الانخفاض، وخلال أيام، كانت السفن محتجزة تماماً وسط طبقة سميكة من الجليد.

في منتصف كانون الثاني، خطرت في بال الجنرال بيشغرو فكرة ذكية جداً. كان عليه أن يتعامل مع عملية هروب الأسطول الهولندي. فاجتمع بمجلسه الحربي وسأل القادة. «من هو الأقرب إلى هذا المكان..» وغرز إصبعه في الخريطة، «... هنا؟» جزيرة تيكسيل!

فتلقى الجواب: الجنرال دي وينتر والفرقة الرابعة التي يقودها الجنرال جوزيف سوام سيدي.

فأصدر أوامره: «أريدهم أن يتجهوا على الفور نحو هيلدر». كان قد سمع لتوه أن أسطول الحرب الهولندي بأكمله قد حوصر وسط الجليد.

1- نوع من السفن الحربية التي بُنيت في القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر وهي مصممة بحيث تأخذ دوراً قتالياً في التكتيك البحري المعروف باسم خط المعركة والذي تكون فيه السفن الحربية مصطفة على شكل خط لمواجهة السفن المعادية. المترجم.

2- لا يمكن تفجير الثلج لأن الانفجار لا يحافظ على جوانب الجليد، ويمكن تقطيعه بالمنشار فقط.

كان النقيب لويس جوزيف لوري، وهو طالب بلجيكي كان قد فرَّ إلى فرنسا بعد ثورة البارباسان الفاشلة عام 1787، مسؤولاً عن كتيبة في الفرقة الرابعة بقيادة سوام. كانت وحدته مكونة من 780 فرداً (من جنود المشاة) و128 من الفرسان و39 من الرماة، مع أربعة مدافع صغيرة من البرونز. كانوا هم الأقرب إلى الأسطول الهولندي. وفي منتصف ليلة 20 كانون الثاني، اقتحم أحد المراسلين معسكره حاملاً أوامره بالتحرك فوراً باتجاه بلدتي الكمار وهيلدر الهولنديتين. وصلت الكتيبة إلى مارسديب مساء يوم 22 كانون الثاني. عبر المضيق المتجمد، كان بإمكان مقاتليها رؤية صف من الأضواء، ولكن الظلام كان حالكاً لدرجة لا تسمح له بالمغامرة باختراق الجليد. قرر لاورير البقاء في المعسكر وانتظار الصباح. على الرغم من أن الجو كان بارداً للغاية في الليل، إلا أن لاورير منع إشعال النيران في المخيم. وبينما كان الفرنسيون في مخيمهم، كان أحد الفرسان يمر بجانبه ويشق طريقه عبر المضيق المتجمد. وعندما وصل إلى سفينة القيادة حيث يتواجد الأدميرال الهولندي، قابله على الفور وسلمه مغلفاً وهو يقول.

«إنها مذكرة غاية في السرية من برلمان هولندا، سيدي الأدميرال».

أخذ فان كنسبيرغن المغلف، وأزال الختم وبدأ بقراءة المذكرة. أظلم وجهه وهز رأسه. ثم سلم المغلف إلى مساعده في القيادة، النقيب رينتس.

«ولكن... لكن هذه... خيانة»، تمتم النقيب.

أومأ الأدميرال برأسه حزناً: «هي كذلك، ولكن يجب علينا الالتزام بها». أعفته قطعة من البرشمان[1] من كل مسؤولية فيما يتعلق بما يجب القيام به مع أسطوله في حالة الهجوم الفرنسي.

وقد حدث هذا بسبب تحول درامي في الأحداث جرى قبل بضعة

1- الورق النفيس. المترجم.

أيام، ففي 17 كانون الثاني كان الوطنيون قد سيطروا على (البرلمان العام أو مجالس الولايات)، وصوتوا لأجل وقف جميع الأعمال العدائية على الفور. لهذا الغرض، تم إرسال الفرسان إلى الوحدات المختلفة، وهم يحملون أمر مجلس الدولة. «وهكذا تقرر من قبل البرلمان في هولندا أن يؤمر كل قائد عسكري بأن لا يقوم بالمزيد من أعمال المقاومة ضد القوات الفرنسية».

وكما حدث مع النقيب «لاورير لم يبلغ القادة العسكريين الفرنسيين»، بذلك الأمر فوراً.

بالنسبة للنقيب لاورير ورجاله فقد كانوا شبه متجمدين من البرد وتجمّعوا في خيام مؤقتة، في صباح 23 كانون الثاني بزغ الفجر من وسط غلالة من الضباب الذي هبط فوق مضيق مارسديب المتجمد. كان لاورير يتفكر في وضعه - هو البلجيكي الهولندي، يقود كتيبة من الفرسان الفرنسيين، ويهاجم أسطول حرب هولندي في البحر! يا للجنون! كيف يمكنه، مع رماته التسعة والثلاثين، سحب ستة وأربعين رطلاً عبر الجليد، والاستيلاء على خمس عشرة سفينة من سفن خط المعركة مع مئات القطع من المدفعية البحرية. وليس باستطاعة قذائف مدفعيته التي تزن ستة أرطال إحداث تجويف في هيكل البوارج الصلب المصنوع من خشب البلوط. وقد أجبره هذا الأمر على اتخاذ قرار جريء. كان عليه أن يكون جريئاً، على الرغم من أن العديدين قد يصفون ما فعله بالمغامرة المتهورة. كان ذلك أفضل حل في سلسلة من الخيارات السيئة. أدرك أن حليفه الأكبر كان الضباب. فهو سيغطي على تقدمه عبر الجليد. كان عليه أن يترك جنود المشاة والمدافع وراءه، ويتقدم مع مئة وعشرين خيالاً من فرقة الفرسان الثامنة، وكلهم أمل أن تتكلل مساعيهم بالنجاح. لم يكن يعرف شيئاً عن ظروف القناة المجمدة، ولا ما إذا كان الجليد سيتحمل وزن رجاله وخيوله. وأن الأمر قد يتطلب مواجهة مدافع تفوق في عددها ما لديه من الرجال! وأن أي هجوم سيقوم به ستصده المدافع البحرية الكبيرة

وسيسقط رجاله في البحر المتجمد. مع هذا التصور المتشائم الذي حمله في ذهنه، أصدر أوامر صارمة لرفاقه باتباع تعليماته وعدم خوض أي اندفاع أحمق أو متهور. تم رفع العلم ذي الألوان الثوريّة، أدى لاورير تحية قصيرة له، واندفع مئة وثمانية وعشرون جندياً وسط الجليد. وسرعان ما ابتلعهم الضباب. وفجأة وجدوا أنفسهم أمام الأسطول مباشرة.

واستمر الحظ في الوقوف إلى جانب لاورير، لم يتصدع الجليد ولم تفتح بطاريات البحرية الهولندية النار. صعد جنود سلاح الفرسان الفرنسي إلى السفن... ووجدوا أدميرالاً عجوزاً، كان يتوقع أن يشن الهجوم جيش ضخم، فوجد أن سفينته محاطة بمئة وثمانية وعشرين جندياً تحت قيادة طالب هولندي سابق. من الصعب أن نتخيل من كان من الممكن أن يكون أكثر دهشة: الأدميرال، الذي كان ينظر إلى الأسفل من مؤخرة سطح بارجته الحربية على حفنة من الفرسان، أو قائد الفرسان عندما اقترح عليه أدميرال الأسطول: «دعنا نناقش مثل هذا الموضوع الخطير على العشاء...».

وهذا ما حدث في 23 كانون الثاني 1795، والذي كان عملاً فذاً بقي فريداً من نوعه في تاريخ الحروب، فقد استولى عدد من الفرسان على أسطول حربي في وسط البحر. وتم التفاوض على الباقي خلال مأدبة عشاء أقيمت على ضوء الشموع على سطح سفينة الأدميرال.

بعث الجنرال بيشغرو بمذكرة إلى باريس جاء فيها: «*La marine hollandaise est à nous*». لقد أصبحت البحرية الهولندية في حوزتنا!. كانت تلك الأخبار مثيرة للغاية، ونزل سكان باريس إلى الشوارع، احتفالاً بانتصار وطني عظيم. أصبح بيشغرو رجل الساعة.

وكما يحدث في كثير من الأحيان في التاريخ، لا يتم ذكر اسم البطل الحقيقي. أظهر القائد «لاورير» وفرسانه الحازمون قدراً كبيراً من الجرأة والخيال. لقد اندفعوا دون معرفة مسبقة بالقرار الهولندي بوقف الأعمال العدائية؛ كانوا يعلمون فقط أنهم عندما يسيرون على الجليد كانت

فوهات المدافع مصوبة نحوهم، وأن البحرية الهولندية لديها تقليد عريق في الولاء لأميرها. بعد سنوات، منح نابليون لقب «بارون الإمبراطورية» إلى القائد لويس جوزيف لاهور. أنهى لاهور حياته المهنية كجنرال، بعد أن خدم إمبراطوراً، وبعد معركة واترلو خدم اثنين من ملوك فرنسا.

كان هناك مصير مختلف يختبئ لـ «بطل هولندا»، الجنرال تشارلز بيشغرو. ففي خلال مشادة كلامية حدثت عام 1804، ألقى الجنود الفرنسيون القبض على عربة لجنرال نمساوي تحمل صندوقين للرسائل السرية. وقد علموا من تلك الرسائل أن بيشغرو كان على اتصال دائم مع أمير منطقة كوندي وأمير منطقة مونتغيال لوغاييه، وهم من قادة المهاجرين الفرنسيين وأعداء ألدّاء للثورة. ولم يكن رفض بيشغرو تقديم المساعدة إلى جوردان، وممانعته التقدم بشكل أسرع وأعمق في هولندا، عن سوء نية، بل خيانة عظمى[1]. وكان أثناء مسيرته إلى هولندا، يتفاوض سراً لفتح ممر أمام الجيوش النمساوية الغازية للدخول إلى باريس. لم يشرح سبب تصرفه الخادع أبداً؛ ربما كان الدافع وراء ذلك هو الاستيلاء على السلطة، أو بسبب الغيرة من النجاحات العسكرية لجوردان، رغم أنه كان أقل رتبة عسكرية منه. أياً كان السبب، فما كان يجب على الجنرال أن يساهم في هزيمة جيش كان يأمل في أن يكون حليفاً له. بعد هذا الاكتشاف المذهل، ألقي القبض على بيشغرو واقتيد إلى سجن المعبد، حيث عُثر عليه مشنوقاً بربطة عنقه[2]. ولم يتم اكتشاف النطاق الكامل لمؤامرة بيشغرو مطلقاً.

في تشرين الأول 1806، ألغى نابليون جمهورية باتافيا، وأقام مملكة هولندا، ونصب شقيقه لويس على العرش.

تم تزيين القصة المذهلة لمعركة أسر قوات البحرية الهولندية،

1- رسائل متبادلة بين بيشغرو وكوند، 1795، نشرت في فيينا 1898.

2- في 6 نيسان 1804.

وأضيفت لها مآثر بطولية رائعة[1]. لم تكن هناك على الإطلاق معركة بحرية خاضها سلاح الفرسان، ولم تكن هناك رصاصة واحدة أطلقت في حالة غضب. وقد صدر أمر إلى الأدميرال بإطاعة قرار وقف إطلاق النار، وهو ما فعله، وحصل قائد سلاح الفرسان على غنائم خصم مهزوم لم يستطع الدفاع عن نفسه. إن التاريخ العسكري لفرنسا غني بما فيه الكفاية بالمآثر المجيدة لدرجة أنه لا يحتاج إلى معركة خيالية لتعزيز عظمته.

الحقيقة المؤكدة هي: لولا الانخفاض المفاجئ في درجة الحرارة، وتراكم كتل الجليد في مارسديب، لكان الأسطول الهولندي قد أبحر إلى إنجلترا لتعزيز البحرية البريطانية - ولكان انضمت خمس عشرة سفينة أخرى إلى القائد نيلسون، واشتركت في معركة الطرف الأغرّ. ولكن كما تبين فيما بعد، لم يكن القائد نيلسون في حاجة إليها.

1- راجع: Archives de la guerre, du 1er au 10 pluviôse, an III. , par le general Salm, commandant 4eme division.

The War of 1812, Northwestern Theatre



محارب يدعى تيكومسيه
5 تشرين الأول 1813

هل سنجعل شعبنا يباد بدون قتال؟
هل سنتخلى عن الأراضي التي قدمها مانيت العظيم لأبنائه؟
هل سنترك وراءنا أضرحة أجدادنا؟ لن نفعل ذلك أبداً! أبداً!

• تيكومسيه،
زعيم قبيلة الشاوني، 1811 [1]

تخترق غواصة نووية جذابة مياه خليج تشيزبيك. وسرعان ما تنزلق تحت مياه المحيط الأطلسي لترسو وتنتظر في مكان ما في أعماق أحد محيطات العالم. لم تكن هذه الغواصة التي يمكن رؤيتها من الشواطئ، وتمثل الإضافة الأخيرة إلى الترسانة النووية للبحرية الأمريكية تحمل أي علامات. فقط طاقمها كان يعرف الاسم. وهو يو أس أس تيكومسيه، والتي سميت على اسم رجل هندي أحمر شجاع كان في السابق قد تسبب بكوارث لجيوش أمريكا.

إنه تيكومسيه، زعيم قبيلة الشاوني وبطل حرب عام 1812.

بدأت قصة هذا الرجل الشجاع في نهاية القرن الثامن عشر. كانت طلائع الأمريكان تندفع إلى أعماق أراضي الهنود الحمر. وقد اجتازوا

1- من صحيفة محفوظة في مكتبة مقاطعة تيبيكانوي.

مع عرباتهم وعائلاتهم، الغابات والمستنقعات حتى وصلوا إلى نهر واسع يدعى واباش. وكانت تلك مناطق الصيد التقليدية لقبيلة شرسة من الهنود الأمريكيين، وهي قبيلة الشاوني، التي امتدت أراضيها من ولاية إنديانا وكنتاكي، إلى ميشيغان، وعلى طول الطريق شمالاً إلى البحيرات الكبرى، التي فصلت الولايات المتحدة الأمريكية عن كندا الواقعة تحت الهيمنة البريطانية.

تبدأ قصة تيكومسيه، المحارب الهندي العظيم، في عام 1791، في محطة تجارية تسمى «*Keth-tip-pe-can-nunk*»، أو، تيبكانو كما يسمى في نسخته الأمريكية[1]، «كان المنقبون عن الذهب من البيض يتاجرون بالسكر والملح، والتبغ والخرز، مقابل الفراء مع قبائل بوتاواتومي وكيكابوو. من أجل دفع حدود أراضي القبائل الهندية إلى الوراء وفتح أراض جديدة في ولاية إنديانا وميتشيغان للمستوطنين البيض، تم هدم المحطة التجارية لكي يتشتت الهنود. كان الخلاف الأبدي بين الرجل الهندي والرجل الأبيض هو مسألة من يملك الأرض بشكل شرعي.

كان يتم حل هذه المسألة باستخدام القوة والعنف على الدوام تقريباً، وكان الرجل الأبيض هو من يملك البنادق[2]، ولمواجهة تدنيس أرض الصيد المقدسة ثار شقيقان من قبيلة الشاوني، أحدهم وهو تنسكاتاوا، الذي كان يعرف على نطاق واسع بلقب «النبي»، وشقيقه تيكومسيه الذي كان لديه طموح واحد: توحيد القبائل وطرد الرجل الأبيض. وبينما قام النبي بتجميع أتباعه الهنود في تيبيكانو لكي يثبت للرجل الأبيض حقه الطبيعي في الأرض الذي اكتسبه منذ الولادة، كان تيكومسيه، يهدف إلى أبعد من ذلك، وهو خلق أمة واحدة من الهنود قبل التصدي للمستوطنين. ومع وضع هذا في الاعتبار، ذهب نحو أقصى الجنوب إلى فلوريدا لحث أبناء قبيلة سيمينول على الانضمام إلى قضيته. «هناك بيننا من سيبيع أراضينا! لماذا

1- تبعد ستة أميال شمال مدينة لافايتا في ولاية إنديانا.

2- من الاستثناءات الشهيرة المعاهدة التي وقعها ويليم بيني مع الهنود.

لا نبيع الهواء والبحر الكبير، وكذلك الأرض؟ ألم يخلقها الروح العظيم ليستخدمها أبناؤه؟ السبيل الوحيد لوقف هذا الشر هو أن يتوحد الهنود الحمر في سبيل المطالبة بحق عام ومتساو في الأرض، كما كان الأمر منذ البداية، ويجب أن يكون عليه الآن، ولأجل ذلك يجب أن لا نتفرق أبداً».

وعندما تردد زعيم قبيلة سيمينول، تحدث تيكومسيه معه بحدة: «ما يجري في جسمك هو دم رجل أبيض، وأنت لا تصدق أنني أرسلت من قبل مانيتو (الإله) العظيم «هذا هو دليلي». وقام بتسليم محاربي قبيلة السيمينول المتجمعين عدداً من العصي الحمراء، واحدة لكل يوم، وقال: «حسناً، هيئوا أنفسكم لأنه في اليوم الذي سأعود فيه، سأدق الأرض بقدمي وسوف تهتز أرضكم». وقد حدث ذلك بالفعل، واهتزت الأرض، واعتبر العديد من محاربي قبيلة السيمينول هذا الحدث كعلامة، التقطوا هراواتهم وانضموا إلى المحارب الكبير لمقاتلة الرجل الأبيض[1].

وبمجرد إطلاقه لمشروعه الكبير لتوحيد القبائل، سافر تيكومسيه شمالاً لإقامة احتفالية *pow-wow* مع زعيمي قبيلتي إلينوي وبوتاواتومي. ثم هتف «تيكومسيه» بمحاربيه «إن إبادة عرقنا ستحدث قريباً»، «إلا إذا وضعنا نزاعاتنا جانباً وتوحدنا في قضيتنا المشتركة ضد عدونا المشترك». نقلته أسفاره التالية إلى مناطق مثل أراضي ديلاوير، وأوتاوا وميامي وشيبوا حتى وصل إلى قبائل الإيروكواس في مقاطعة كيبيك.

ومن تيباكانوي التي كانت تعرف، بـ«بلدة النبي»، دعا تيكومسيه محاربيه أن يوعدوا المستوطنين البيض بالويل والثبور لسرقتهم أراضي الصيد المقدسة عند القبائل وإغواء المحاربين بشرب الخمور. لم تجتذب الأنشطة القتالية لتيكومسيه وأخوه النبي إلى صفوفهم غير أكثر من ألف محارب من القبائل، لكنها أقلقت بشكل كبير المستوطنين على طول الحدود الهندية.

في بداية عام 1811، تمت مواجهة هذا التهديد المتنامي الذي يمثله

1- من كتاب تي. ال. مكيني تاريخ القبائل الهندية في شمال أمريكا.

السكان الأصليون من الهنود من قبل حاكم إقليم إنديانا المعين حديثاً، الجنرال ويليام هنري هاريسون. حيث قام بتجنيد ميليشيا قوامها ألف رجل وتم تسليحهم بالبنادق. وبينما كان تيكومسيه لا يزال في خضم توجهه لتجنيد سكان المناطق الجنوبية، نزل هاريسون ورجاله في تيبيكانو في 6 تشرين الثاني 1811. وصلوا قبل حلول الظلام وخيّموا في الغابات خارج بلدة النبي.

كان تيكومسيه يعرف أن أفضل وسيلة لمضايقة اليانكي[1] تكمن في تكتيكات حرب العصابات. كان رجال قبيلته الشاوني يعرفون المنطقة جيداً، لكن الأميركيين لم يكونوا ذلك. في هذه «المناطق النائية الداكنة والبرية»، كانت حركة الأمريكان تعرقلها عرباتهم الضخمة وبنادقهم الكبيرة، في حين كانت قبائل الشاوني لا تحمل متاعاً كبيراً أثناء ترحالها. لكن الرجل الأبيض كان مسلحاً بالمسدسات أيضاً، بينما كان الهنود لا يملكون سوى السهام والفؤوس فقط. مع وضع هذا في الاعتبار، أرسل تيكومسيه رسالة عاجلة لتحذير شقيقه من مغبة القيام بهجوم مكشوف ضدالقوة المتفوقة بسلاحها. لكن (النبي) رفض أن يستمع.

كانت ليلة باردة وممطرة، وكانت النيران تطوق المحيط الخارجي لمعسكر اليانكي بالقرب من تيبيكانو. وبينما كان جنود القوات الأمريكية يغطون في النوم، وإن كانوا بكامل ملابسهم، إلا أن النبي حثّ محاربيه بخطبة نارية. وأكد لهم أن رصاص بنادق الأمريكان لا يمكن أن يؤذي محارباً واحداً. شنت القبائل هجومها عند الفجر. وقبل أن يتمكن الأمريكيون من تنظيم أنفسهم كان الهنود فوقهم. في الساعتين التاليتين، مات 62 أمريكياً. لكن رجال قبيلتي الشاوني ووينيباغوس عانوا أيضاً من إصابات - خاصة من طلقات البنادق. وهذا جعلهم في حالة شديدة من

1- مصطلح له عدة استعمالات، يستعمل في بريطانيا وبعض دول العالم للإشارة إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية، بينما يستعمل في أمريكا للإشارة إلى سكان نيو إنغلاند خصوصاً ذوي الأصول الإنجليزية ويطلق على سكان الولايات الشمالية عموماً اسم «يانكي». المترجم.

الغضب لدرجة أنهم هددوا بقتل نبيهم. تركوا تيبيكانو، التي قام بحرقها رجال هاريسون في وقت لاحق من ذلك اليوم.

وعلى الرغم من أن الإجراء المتعجل الذي قام به أخوه قد جعل تيكومسيه يشعر بالإحباط إلى حد كبير، إلا أنه ساعده في تغيير موقفه. الرجال الذين غزوا أراضي الصيد المقدسة التابعة لهم لم يكونوا رجالاً بيضاً فحسب، بل كانوا رجالاً بيضاً من الولايات المتحدة! منذ ذلك اليوم وصاعداً، اعتبر تيكومسيه أي شخص أمريكي عدوه المميت. وقاد هذا الأمر إلى تداعيات واسعة: عند اندلاع حرب عام 1812، انضم تيكومسيه ومحاربوه للقوات البريطانية بقيادة الميجور جنرال إيزاك بروك، الحاكم العام لولاية كندا العليا.

اندلعت الحرب في 18 حزيران 1812. كانت أراضي كلا الطرفين المتحاربين، وهما كندا البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية، أراضي فضاء شاسعة. اعتمدت الحملة الأمريكية بشكل كبير على المصادفة - تأثير الطقس - أكثر من اعتمادها على الاستراتيجية. وقد دعت خطة الرئيس ماديسون إلى الاستيلاء السريع على مونتريال، لكن حكام نيو إنغلاند رفضوا تبديد جهود رجال ميليشياتهم على هذا الأمر. كان الميل للحرب أقوى بكثير في «أقصى الغرب» - الذي كانت تمثله في ذلك الوقت منطقة إنديانا وميتشيغان - وقد انتقلت الحملة وهي في بدايتها نحو منطقة نياغارا ديترويت.

أثناء مجريات النزاع، كان الجنرال البريطاني بروك يلقى معارضة من قبل الجنرال الأمريكي وليام هول، حاكم إقليم ميتشيغان، الذي سبق أن أعرب عن شكوكه الذاتية بإمكانياته العسكرية قبل تعيينه كقائد للجيش الشمالي الغربي للولايات المتحدة. ولكونه متشائماً بطبيعته، في أمور الاستراتيجية العسكرية واتخاذ القرارات الحاسمة، فلم يكن منسجماً مع نظيره. سارت الحملة في طريقها. ومن أجل الوصول إلى وجهتها، اضطر جيش هال إلى عبور منطقة تعرف باسم المستنقع الأسود، وهي معروفه أيضاً بأنها تضم

الهنود المعادين لهم، ناهيك عن البعوض الأسود. وبالإضافة إلى تلك المشاكل كان الطقس غير مستقر، عندما هطلت الأمطار، علقت عربته في الوحل، وبمجرد أن توقفت الأمطار، تسببت الأخاديد والحفر التي خلفتها الأمطار في جعل المسارات غير سالكة. وفي خطوة حمقاء نوعاً ما قام بنقل أوراقه العسكرية السرية على متن مركب شراعي يدعى «كوياهوغا»، على أمل أن يصل إلى ديترويت عبر الطريق البحري الأسرع. وبعد يومين، تم اعتراض السفينة كوياهوغا بواسطة زورق حربي بريطاني، وصودرت الأوراق، وأصبحت خطط هال في حوزة بروك، وأخبرته بحجم قوات العدو ومدى الروح المعنوية لديها.

تعثر هال وجيشه أثناء مسيرهم نحو ولاية ديترويت، وتعرضوا إلى مضايقات من البعوض الأسود والهنود. وتحت جنح الظلام، انقض «المتوحشون» على جنوده، وهاجموهم بقسوة قبل أن يختفوا بأمان في الغابة وبينما كان هول لا يزال يواصل مسيرته، أصدر إعلاناً إلى شعب كندا أشار فيه إلى أنه سيتم إطلاق النار على الفور على أي رجل أبيض يقف إلى جانب أي شخص هندي. هذا التهديد كان له تأثيره. انضم مئات من الكنديين إلى الأمريكيين، وتحول الوضع الآن لصالح هال. كان هدفه التالي هو منطقة فورت مالدن الكندية، التي تقع عبر نهر ديترويت.

بدا أن مهمة هال سهلة إلى حد كبير عندما وجدت طليعة الجيش التي كان يقودها الكولونيل لويس كاس الحراس الخفر البريطانيين يغطون في النوم واستطاعت الاستيلاء على الجسر الحيوي القائم فوق نهر آكس كاناردز[1]. ولكن بدلاً من مواصلة أنشطته والتقدم إلى كندا، استولى على الجنرال هال شعور بالخوف من حدوث نقص في الإمدادات، فلم يصدر أي أوامر أخرى إلى العقيد كاس المحبط، والذي سحب وحدته وتخلّى عن عبور النهر. بعد بضعة أيام، اقترح هال التراجع إلى نهر ريسين،

1- يمكن مقارنة هذا الإنجاز مع السيطرة على الجسر المقام على نهر الراين في بلدة رماغن الألمانية في كانون الثاني 1945.

ووجد نفسه في مواجهة تمرد قام به الجنود المتطوعون في ولاية أوهايو. وقد أصبح الوضع سيئاً للغاية حيث قدم مقاتلو الفرقة التماساً إلى ميغس حاكم أوهايو، يطالبون فيه «اعتقال واستبدال جنرالاتهم». تراجع هال بعد ذلك إلى ديترويت مع آلاف من جنوده، بينما اندفع بروك على عجل من شبه جزيرة نياغارا متوجهاً إلى مكان بديل في فورت مالدن. بسبب أنه كان لا يملك سوى قوة صغيرة فقط متألفة من 260 رجل ميليشيا و40 جندياً من أصحاب المعاطف الحمر من الفوج 41. بالنظر إلى تفوقه العددي في الرجال والبنادق، كان بإمكان هال عبور النهر والقتال في المناطق التي وراءه، خصوصاً وأن الحرب في الشمال الغربي كانت قد انتهت. لكن بدلاً من ذلك، أعاقت الأمطار الغزيرة تراجعه، مما تسبب في وقوع عدد كبير من الخسائر في الأرواح بين أفراد قواته والناجمة عن إصابتهم بحمى المستنقعات القاتلة. وفي إحدى الأمسيات، أمسك الهنود ببعض المتخلفين عن ركب قواتهم، وطوال الليل كانت القوات تسمع صراخهم، وكان هذا دليلاً كافياً على تعذيب الهنود لهم مما تسبب في استنزاف معنويات القائد ومقاتليه.

حدث لقاء مهم في 13 آب 1812. حيث تقابل بروك مع تكومسيه. وذكر في رسالة بعث بها إلى اللورد ليفربول في لندن: «كان من بين الهنود الذين التقيتهم في أمهيرستبرغ بعض الشخصيات غير العادية. والذي جذب انتباهي أكثر كان تكومسيه زعيم قبيلة الشاوني».

عندما شرح بروك كيف أنه غير معتاد على التضاريس التي تحيط بديترويت، رسم تيكومسيه خريطة دقيقة على قطعة من لحاء شجر البتولا بسكينه التي يستخدمها للصيد. مع حليف جديد وألف محارب، عبر بروك النهر إلى الجانب الأمريكي من ديترويت في قرية سبرينغ ويلز. من هناك، أرسل أمراً إلى الجنرال هال كي تستسلم ديترويت. كان يعتمد على خوف الأمريكيين من الفظائع التي يرتكبها الهنود. عندما رفض هال، لجأ بروك إلى الحيلة. جعل مقاتلي الميليشيا التابعة له يرتدون الزي

الأحمر الذي كان يرتديه الجنود البريطانيون وجعلهم يسيرون في موكب بحيث يمكن أن يراهم هال. ثم تلقى هال رسالة مفادها أن قافلة الإغاثة قد ضلت طريقها في الغابات وفي واحدة من أكثر الأحداث المشينة في التاريخ العسكري الأمريكي، استسلم هو وحاميته في 16 آب 1812. توجه الميجور جنرال السير إسحاق بروك مع 260 جندياً نحو ديترويت دون أن يواجهوا أية مقاومة، في حين أن 2500 فردٍ من الأميركيين ذهبوا إلى الأسر. ولإظهار تقديره لحليفه الهندي وتكريماً له، نزع الجنرال البريطاني وشاحه العسكري الأحمر ولفه حول خصر تيكومسيه. ورد زعيم الشاوني عليه بنزع وشاحه المطرز وقدمه إلى بروك. ثم تعانقا وسط هتاف الجنود وصيحات الحرب من المحاربين الهنود.

قبل إعلان استسلامه، أرسل هال المذعور أوامر إلى سكان حصن ديربورن (في شيكاغو) لإخلائه. حاول محارب هندي صديق تحذير قائده، الكابتن ويليام ويلز، بأن عدداً كبيراً من المحاربين الأعداء قد تجمعوا في المنطقة. للأسف، أطاع الكابتن ويل أمر الجنرال هال، وفي 15 آب، انطلق طابور طويل من الجنود، تصحبهم زوجاتهم وأطفالهم، من حصن ديربورن، وما كادوا يعبرون السياج حتى هجم عليهم مئات من الهنود من قبيلة بوتاواتوومي، وذبحوا عدداً كبيراً منهم. كان مصير الكابتن ويلز فظيعاً جداً؛ تم قطع قلبه وأكله. هذه الحادثة جعلت جميع سكان المناطق الحدودية يشعرون بالذعر بالكامل ويفرون هاربين، وأصبحت منطقة نياغارا الحدودية الآن جاهزة لكي يستولي عليها البريطانيون والكنديون.

أعقبت ذلك حادثة أخرى منعت حدوث ذلك. في 12 تشرين الأول، عبر العقيد الأمريكي سولومون فان رينسيلر، الذي كان يقود ميليشيا نيويورك، نهر نياغارا وهوجم في مرتفعات كوينزتاون في شبه جزيرة نياغارا في كندا. تعرض الجنرال بروك، الذي كان يقود هجوماً مضاداً لاستعادة مدفع مفقود إلى اعتداء مميت برصاصة بندقية. وعلى الرغم

من أن البريطانيين واصلوا المسير لتحقيق النصر في هذا الهجوم، إلا أن قواتهم تُركت بدون قائد.

وبسرعة ظهر تهديد جديد على طول نهر واباش للوحدة البريطانية التي كانت تروم الاستيلاء على ديترويت. كانت تتقدم قوة مؤلفة من 2000 من رجال قبيلة كنتاكي. أوقفهم الهنود بقيادة تيكومسيه وباستخدام الرياح المواتية قاموا بإشعال النار في أعشاب البراري.

وتدخل الطقس، وأدى حلول الشتاء إلى توقف القتال على طول الحدود الكندية. استغل تيكومسيه هذه الفترة لجمع المزيد من الدعم من القبائل. لم يكن هدفه الأساس مساعدة البريطانيين في قتالهم -والمشاركة في «حرب الرجل الأبيض» - بل لحماية أراضي الصيد المقدسة لأشقائه الهنود الحمر. بدأ قادة واشنطن بالقلق من تنامي نفوذ الزعيم تيكومسيه. لم يكن محاربوه الألف هم الذين يقلقونهم، لكن حقيقة أن هؤلاء المحاربين أتوا من جميع القبائل الشمالية الغربية. ماذا إذا حدث في خضم الحرب مع بريطانيا العظمى، أن تضطر أمريكا إلى مواجهة انتفاضة هندية منسقة؟ ومن أجل ذلك الغرض، لم تكن الولايات المتحدة تملك الوسائل العسكرية. ومن الحقائق التاريخية أن البريطانيين لم يدركوا أبداً الدور القوي الذي كان عليهم أن يلعبوه. كانت لندن بعيدة ومنشغلة في صراعها من أجل البقاء ضد نابليون. وبروك، الذي كان يشعر بفضيلة الحصول على تيكومسيه كحليف، قد مات، والقائد البريطاني الجديد، الجنرال هنري بروكتور، كان يعرف كل شيء إلا أن يكون دبلوماسياً.

اندلع القتال من جديد في 22 كانون الثاني 1813. فاجأ بروكتر بعض الوحدات الأمريكية على نهر ريسين وسحقها بشدة. قُتل ثلاثمئة أمريكي. بعد وقوع الكارثة في نهر ريسين، اضطر الجنرال ويليام هنري هاريسون، قائد المنطقة الشمالية الغربية بالجيش الأمريكي، حاكم إقليم

إنديانا والرئيس المقبل للولايات المتحدة[1]، إلى الانسحاب إلى حصن ستيفنسون. وبعد أن أصبح الطريق مفتوحاً أمام تقدم بريطاني في ولاية أوهايو، تقدم الجنرال بروكتر إلى حصن ميغس، الواقع عند مصب نهر ماومي، عند بحيرة إيري. تألفت قوته من 500 من الجنود النظاميين و500 من مقاتلي الميليشيات. لكنه استطاع الاعتماد على تيكومسيه ومعه 1200 محارب. لمدة أربعة أيام، قصف بروكتور الحصن ببنادقه الثقيلة لكن حصن ميغس صمد. عندما تم إخبار الجنرال هاريسون أن مجموعة مؤلفة من ألف ومئتي رجل من قبيلة كينتاكي تحت قيادة الجنرال غرين كلاي كانت في طريقها لتخفيف الطوق على الحامية المحاصرة، هرع مع قواته لمساعدتهم. قبل أن يتمكن من الانضمام إلى الجنرال كلاي، وقع رجال قبيلة كنتاكي في الفخ، الذي صممه بذكاء تيكومسيه. قتل ست مئة من رجال الميليشيا أو تم أسرهم من قبل الهنود. عندما اكتشف زعيم قبيلة الشاوني أن محاربيه قد بدؤوا بذبح أسراهم، سرعان ما تدخل وكان لذلك أثر في منع إزهاق العديد من أرواح الأمريكان في ذلك اليوم الخامس من أيار من عام 1813. ما أغضب تيكومسيه هو عدم مبالاة بروكتور بالمذبحة، فبصق عليه وهو يخاطبه: «أنت لست لائقاً للقيادة، من الأفضل لك أن تذهب وترتدي البيتيكوت[2]». كان لا بد أن تؤدي هذه العبارة إلى حدوث انعدام ثقة عميق بين الجنرال البريطاني والزعيم الهندي. وبينما كان بروك هو الدبلوماسي المخضرم والاستراتيجي البارز، لم يكن بروكتر كذلك. لم يكن يعتبر تيكومسيه سوى رجلٍ متوحشٍ وشريرٍ ودمويٍّ، ولا يساويه مع أصغر ضباطهً رتبة. جعل هذا من السهل جداً أن يخطط تيكومسيه للاستيلاء على الحصن بالحيلة. أمام ضباطه، صرخ بروكتور بوجه الزعيم النبيل بأنه لن يسمح أبداً باستخدام جنوده «بهذه الطريقة الهندية الغادرة». بعد تلك الإهانة،

1- تم انتخابه في عام 1840 بأغلبية لا تقل عن 150 ألف صوت.

2- هي تنورة يمكن ارتداؤها تحت فستان أو تنورة أخرى. المترجم.

تخلى بروكتور عن فكرة الحصار. لا بد أنه كان بمثابة صدمة له عندما انجرف معظم المحاربين الهنود ولم يفعل تيكومسيه أي شيء لوقفهم. بالنسبة للشاوني، أظهرت هذه القضية مدى عنصريته الفطرية. إنها كانت حرب الرجل الأبيض، لكن لسوء الحظ، كانت خطته التي تتسم بالمبالغة لتأسيس كونفدرالية هندية على وشك أن تفشل. كان مستهل تلك الدراما هو القتال على بحيرة إيري. بعد مواجهة بحرية حاسمة على البحيرة، استسلم أسطول بحيرة بريطانيا العظمى. أدرك بروكتور أنه بدون الحماية البحرية لمسار إمداداته الحيوي، أصبح يتعذر الدفاع عن موقفه على الشاطئ الجنوبي لبحيرة إيري. في المرة الأخيرة، هرع تيكومسيه لمساعدته مع ألف محارب. لكن بروكتور، الذي لم يكن أبداً قائداً قادراً على اتخاذ قرارات جريئة، قرر ترك خط المواصلات العامة، ومعه حصن ديترويت. ومن أجل انسحابه إلى شبه جزيرة نياغارا، اختار وادي نهر التايمز في مقاطعة أونتاريو.

وفي هذه الأثناء، قام هاريسون بجمع ما يقارب 4500 رجل. وقام شيلبي حاكم كنتاكي بجمع 3000 شخص آخر. آخر من انضم إلى فيلق هاريسون كان هو المقدر له أن يلعب دوراً رئيسياً في الدراما القادمة. وكان عضو الكونغرس ريتشارد جونسون، مع شقيقه جيمس، قد جمعوا حول رايته ألفاً من المقاتلين الهنود، ومعظمهم من المغامرين والمتلهفين إلى «الخوض في دماء الهنود الحمر». في 27 أيلول عام 1813، عبرت القوة المتجمعة من جزيرة الأخت الوسطى إلى الأراضي الكندية. هرب بروكتور، ولحقه هاريسون.

كان التخلي عن حصن ديترويت يعني التخلي عن حلفائهم الهنود الذين قاتلوا طوال الوقت مع البريطانيين. أشار تيكومسيه في نقاش له مع الجنرال البريطاني بأن عدم اتخاذ موقف كان يعني فعلياً التسليم بفقدان كامل أراضي كندا العليا. كان يدرك تماماً أن محاربيه الألف لا يستطيعون مجاراة الأمريكان في معركة مفتوحة، وأنه ليس بإمكانه تأخير

تقدمهم، لكنه توسل إلى بروكتر أن يتخذ موقفاً، كانت المرة الأولى في مزرعة ماثيو دولسون ثم مرة أخرى في نهر مكغريغور، لكن الجنرال البريطاني نبذه وقام بإهانته أكثر عندما أدار ظهره لزعيم قبيلة الشاوني[1].

وكان بروكتور رجلاً يختبئ من أعدائه ومیالاً للذعر، وكان قائداً ضيق الأفق لم يكن ينظر أبداً إلى حلفائه الهنود كونهم من ذلك النوع من المقاتلين الذين يمكن الاعتماد عليهم خلال مواجهته مع المشاة المنضبطين، وعلاوة على ذلك ليس لديهم ما يحاربون من أجله. كان مخطئاً في كلتا الحالتين. كان الهنود محاربين من الدرجة الأولى، وإن التنازل عن أراضيهم للعدو، يعني أن لديهم الكثير ليخسروه أكثر من المزارعين البيض.

وصلت الأمور إلى مرحلة بحيث بات فيها حتى أفضل الجنود خائري القوى ومنهكين بسبب الإجهاد الدائم. وقد وصلت القوات البريطانية، إلى هذه المرحلة. بالإضافة إلى ذلك، بدأت تحدث المجاعة وهبوب العواصف وسقوط الأمطار والصقيع. تقلص تعداد «جيش بروكتور» إلى 400 جندي، بالإضافة إلى 1000 محارب من أتباع تيكومسيه.

أدى النقص في الرجال والإمـدادات (تخلى بروكتور بحماقة عن جميع مدافعه، باستثناء واحد، وعن كل مخزونه من البارود في ديترويت) إلى أن تضعف عزيمة الجنرال، وهو شعور سرعان ما أصاب جنوده المحبطين. وبذلك لم يفقد السيطرة على سير الحملة فحسب، بل أيضاً السيطرة على رجاله، وأصبحت إدارة الشؤون العسكرية الآن في أيدي اللفتنانت كولونيل أوغسطس واربرتون.

علم هاريس، وهو يلاحق أخبار البريطانيين بحماس بالانهيار، بمعنويات مقاتلي الفرقة البريطانية. فقد كانت عمليات فرارهم تجري بسرعة كبيرة إلى حد أن «كلاب الصيد لا يمكنها الإمساك بهم...»[2]،

1- في النهاية خضع بروكتور لمحاكمة عسكرية وتم طرده.
2- اسم أغنية.

كانت سرعة هروبهم كبيرة حتى إنهم فشلوا في تدمير الجسور بعد أن عبروا عليها. لكن تيكومسيه لم يكن كذلك. فقد نصب في نهر مكيغرو كميناً ذكياً. قام مقاتلوه بالزحف على بطونهم وقاموا بتمويه أنفسهم في وسط الظلام الغادر للغابة. وصلت الوحدة الأولى من سلاح الفرسان الأمريكي بعد أن سارت على طول الطريق وخاضت بحذر في النهر. كان البعض يشتم جنرالهم المذعور لمطاردته العدو. وكانوا في منتصف الطريق عندما انفجرت في الضفة المعاكسة قذيفة مدفع سقط على أثرها عدد من الرجال والخيول مجروحين أو ميتين في المياه. قام الهنود بإعادة تحميل القذيفة الثانية ونجحوا في إطلاقها مرة أخرى قبل أن ينتقل الفرسان الناجون إلى الضفة البعيدة، تاركين وراءهم العشرات من الفرسان الجرحى والجياد المصابة وهي تغرق. بالنسبة لهاريسون، كان الأمر مجرد استعراض قوة مؤقت، لأن قواته الرئيسية هوجمت بمثل هذا القوة والشدة لدرجة أنهم دفعوا المحاربين من موقعهم على ضفاف النهر. وما إن وقف الأمريكيون وسط المياه، أطلق الهنود قذيفتهم الأخيرة قبل أن يختفوا بين الأشجار.

في تلك الليلة، شعر تيكومسيه بالاكتئاب. كان يشغل تفكيره هاجس ما. وقال لصديقه أوشاوانا زعيم قبيلة سيوكس وشيبوا: «ماذا سيحدث لأولادي المساكين؟». كان يجلس معهم حول النار ويليام كالدويل، الذي كان في السابق نقيباً في إحدى الوحدات العسكرية المعروفة باسم بتلر رينجرز، لكنه أصبح الآن يقود وحدته الخاصة من القوات غير النظامية التي يطلق عليها اسم كالدويلز رينجرز. كان كالدويل ينظر إلى المزايا القيادية التي يملكها تيكومسيه باحترام كبير. كان يعلم أن بروكتور لم يعد يناقش خطط معاركه مع الهنود، في حين اعتبر الهنود أن بروكتور جبان وجنوده البريطانيين رجال غادرتهم روح القتال. حتى المؤرخ البريطاني الرسمي كان يعتقد كذلك. فقد كتب السير جون فورتسكو يقول: «النقص في الأعداد لم يكن هو العيب الوحيد»، لأن الرجال كانوا

محبطين للغاية. أثناء تراجعهم، قدموا لائحة الإدانة والاتهام، التي يبدو أنها كانت ويا للبؤس مبررة، وهي أن قائدهم كان أكثر قلقاً على سلامة عائلته وممتلكاته الخاصة أكثر من قواته.

كان حلول الشتاء الكندي قاب قوسين أو أدنى. وكانت تلك الليلة باردة حين تجمع فيها الجنود البريطانيون المتعبون حول النيران في المخيم يتبادلون الأحاديث. «ما هي طول المدة التي يمكن أن يواصل فيها بروكتور الهروب؟ تذكر كلامي هذا، سوف يجبرنا هاريسون على أن نصمد قبل أن نصل إلى بعثة مورافيان». وهذا ما كان يجب أن يحدث، في وقت مبكر من صباح يوم 5 تشرين الأول 1813.

اشتبك هراري في نهاية المطاف مع قوة بروكتور من الرعاع. كان الأمريكيون يمتلكون تفوقاً عددياً كبيراً، ولكن يمكن تعويض ذلك بسرعة من خلال تطبيق تكتيكات تيكومسيه في صنع الكمائن.

تم اختيار مكان الكمين بشكل جيد؛ كان عند طريق يؤدي إلى وسط حقل، مع مستنقع صغير في الوسط، ويحده من جانب واحد نهر واسع ومن الجهة الأخرى مستنقع كبير واسع للغاية. وهناك، كان ينشط حيوان القندس الذي يمثل شعار كندا الوطني. قام الجنود بقطع نصف الغابة واستخدموا الأخشاب لبناء سد، كان جزء كبير من الأرض مغموراً بالمياه. وهذا الأمر ضيّق المساحة بين الغابة والنهر بشكل كبير.

هذا الممر الضيّق حدّ من قدرة هاريسون على استثمار تفوقه العددي. ولكن كان هناك سبب وجيه آخر لعدم إشراك كامل قوته. على الرغم من أن جنود الاستطلاع أخبروه بوضع القوات البريطانية المحاصرة، إلا أنهم فشلوا في اكتشاف مكان وجود ألف محارب من أتباع تيكومسيه. وهذا أقلق هاريسون للغاية. كان من الغباء أن يشرك جميع وحداته قبل أن يعرف أين يختبئ هؤلاء «المتوحشون». لذلك، أوكل مهمة الهجوم الأولي إلى العقيد ريتشارد جونسون ورماته الألف الذين كانوا على الخيول. كانت أوامرهم تقضي بالاندفاع على جانبي الطريق وفك

الحصار عن 400 من الجنود النظاميين البريطانيين، الذين تشكلوا في خط مزدوج متعرج على الطريق. قام بروكتر بتركيب قطعة مدفعية فريدة من نوعها في العلن، وكان مدفعه صغيراً مصنوعاً من البرونز ولكن بدون بارود أو طلقات!

توجه الكولونيل ريتشارد جونسون إلى الأمام لدراسة الوضع. اكتشف أن المسافة الواقعة بين النهر والمستنقع الصغير في وسط الحقل كانت ضيقة جداً لشن هجوم مباشر لكامل مجموعته المكونة من 1000 فرد، لذلك، قام بتقسيم قواته إلى نصفين ومنح قيادة كتيبة واحدة لشقيقه، اللفتنانت كولونيل جيمس جونسون، مع أمر بضرب صفوف القوات البريطانية من الخلف من خلال قيادة جنوده إلى الأمام، وذلك باستخدام الغطاء النباتي الثقيل الموجود على طول حافة المستنقع الكبير الذي يفتقر إلى وسائل دفاعية.

خلال فترة انسحابه الطويلة، لم يوجه بروكتور كلمة واحدة إلى تيكومسيه، لكنه الآن أصبح بحاجة إليه. كان المحاربون الهنود هم الأمل الوحيد المتوفر ما بين العدو والكارثة. تحت جنح الظلام، وبالتحالف مع مقاتلي كالدويل، نشر تيكومسيه 1000 قطعة من بنادقه في موقع كمين مثالي، مخبأة في الأعشاب الكثيفة وخلف الأشجار اليابسة على حافة مستنقعات القندس، وأيضاً ضمن نطاق واسع من قوة البنادق التي اضطرت إلى المرور من أجل مهاجمة جنود «بروكتور» المحاصرين. قذائف الهنود سوف تنفجر إلى جانب الكتائب المهاجمة والنتيجة من شأنها أن تجعل «الإله العظيم شاحباً من الصدمة»، وبالتالي سيتّم التغلب على التفوق العددي. كان الإعداد للأمر مثالياً، وسيتم ذبح الأمريكيين.

كان المحاربون الهنود الألف، مستلقين ومتخفين بشكل رائع على حافة المستنقع، مرت ساعة ولم يحدث شيء. لقد رأوا بعض الفرسان الفرادى (جونسون مع جنود الاستطلاع)، لكن لم يكن هناك وحدات كبيرة. لم يكن هناك سوى الصمت فقط، الصمت غير المريح الذي

يحدث فقط في الغابات والبحيرات. كان المحاربون الهنود مستلقين بهدوء كأنهم جثث، لكن رجال قوة كالدويل بدؤوا يشعرون بنفاد الصبر ويدورون جيئة وذهاباً فوق الأرض الرطبة. بدأت الدقائق تمضي وبدا كما لو أن كل دقيقة دامت ساعة.

سيطر القدر، أو الروح العظيمة للرياح، على الوضع. في حين قام الأخوان جونسون بتقسيم قوتهما، حدثت ظاهرة طبيعية - لم تكن حدثاً استثنائياً في موسم الخريف - كانت هي التي ستقرر نتيجة المعركة. كانت ليلة خريف كندية نموذجية، عندما انخفضت درجات الحرارة إلى حد الانجماد وصبغ الصقيع المفاجئ الأشجار عبر الأرض بخليط من الألوان الجميلة. كان الهواء يبرد بسرعة، لكن ماء المستنقع، حافظ على درجة حرارته الثابتة. بزغ الفجر في صباح لطيف. ارتفعت الشمس وبدأت بتسخين سطح المستنقع بشكل أسرع من الهواء. ارتفعت المياه على شكل أبخرة، مختلطة مع الهواء البارد، لتنتج رطوبة زائدة تتكثف على جزيئات الغبار المجهرية في الغلاف الجوي فوق الأرض مباشرة. وأدى هذا من جديد إلى زيادة محتوى الرطوبة في الهواء إلى ما وراء نقطة التشبع وتحولت على الفور إلى ضباب كثيف. على الرغم من أن بقية ساحة المعركة بقيت واضحة نسبياً، إلا أن المحاربين الهنود الذين كانوا على حافة المستنقع غمرهم الضباب ولم تعد لديهم أهداف يطلقون النار عليها لأنهم لم يعودوا يستطيعون الرؤية لأكثر من ثلاثة أقدام.

لقد كان هذا الغطاء من الضباب الكثيف على وجه التحديد. هو من سيتسبب في الكثير من الفوضى والموت. كان المحاربون ينظرون بعيون ضيقة وسط الظلام. كانت الرؤية محدودة لا تتعدى أمتاراً قليلة. كان بإمكانهم فقط أن يصلوا عسى أن ترسل الروح العظيمة لهم بعض الرياح لتقوم بتشتيت الضباب. في صباح ذلك اليوم، لم يستمع الإله العظيم لدعوات أولاده.

كان ذلك هو الوقت الذي نزل فيه موكب جونسون في الفناء ليهاجم ذوي المعاطف الحمر.

من البداية، كان الأميركيون يتمتعون بالأفضلية. وبينما تجمع فرسان جونسون استعداداً للهجوم، اتخذ البريطانيون مواضعهم استعداداً لإطلاق النار. ركع الصف الأول، واستعد جنود الصف الثاني لإطلاق النار من فوق أكتافهم. وبسبب الضباب، تمكن خمسمئة من جنود كولونيل جونسون الأوائل من فتح ثغرة في كمين تيكومسيه دون أن يصابوا بأذى. ووسط غضب، لم يسبق له مثيل في هذه الحرب، قاموا بتجاوز صفوف القوات البريطانية وتحولوا إلى جناحها الأيسر. أصبح الوضع، مرتبكاً وفوضوياً. اندلعت حالة من الهلع في صفوف جنود المشاة المتماسكين بإحكام. أطلق البريطانيون النار مرتين ثم استسلموا! استغرق الأمر أقل من عشر دقائق لمطاردة ذوي المعاطف الحمر في ميدان المعركة. ومن بين أربع مئة جندي بريطاني، استطاع فقط خمسون رجلاً من الفرقة الواحدة والأربعين أن يفلت بجلده. لكن كل هذا لم يكن شيئاً مقارنةً بالهرج والمرج الذي كان على وشك أن يسود البقعة الضبابية على حافة المستنقع.

كان تيكومسيه، الذي كان قد لاحظ فرسان جونسون وهم يقومون بالهجوم من موقعه المميز في إحدى الاشجار، يشعر بالاشمئزاز من السلوك الجبان للجنود للبريطانيين... فجأة لفت انتباهه وجود حركة على طول الجناح الأيمن. فقد جنحت مجموعة كبيرة من الفرسان ببطء نحو حافة المستنقع، وكانت لا تزال تتخفى خلف دثار من الضباب الكثيف. كانت تلك الوحدة تحت إمرة شقيق جونسون، اللفتنانت كولونيل جيمس جونسون.

رأى تيكومسيه فجأة حركة في الضباب. أراد أن يصرخ «أنت قريب جداً»، «انتظر!» وبسبب ضجيج المعركة التي كانت تدور من حول البريطانيين، كان يمكن لهم أن يسمعوه ولكنهم لا يرونه، لم يبقَ

المحاربون بانتظار إشارة منه. على الأرجح، لم يكونوا راغبين في وصفهم بالجبناء. ومهما كان السبب، فقد اندفعوا الآن إلى الأمام، يملؤون الهواء بصرخاتهم الحربية الحماسية، وفي وسط الضباب الكثيف شقوا طريقهم بلا تردد وسط فرسان جونسون البالغ عددهم خمسمئة. قفز الفرسان وقد لفتهم دوامات الضباب عن ظهور خيولهم. لم يتلقوا أي تحذير وكان عليهم الآن الدفاع عن حياتهم بأفضل ما يمكن في وسط البرد والضباب. الجنود والمحاربون لم يعودوا أشخاصاً، بل أشكالاً، تجمعت في مكان كثير الضباب. لقد انخرطوا في معركة مخيفة وجهاً لوجه مع الظلال - وغالباً ما كانوا يقتلون من كان بجوارهم. واستخدموا أعقاب البنادق والفؤوس والهراوات وسكاكين الصيد والحراب والأحذية والقبضات العارية. لقد ضربوا وجرحوا، وطعنوا، وعضوا، وذبحوا بعضهم البعض بمتعة مثيرة للاشمئزاز. لم يسأل أحد عن أي عفو ولم يُمنح أي منهم ذلك. وسط ضجيج المعركة، كان يسمع صوت تيكومسيه، مشجعاً محاربيه. ما حدث في هذا الضباب الكثيف كان ذبحاً أكثر فظاعة. تلون المستنقع باللون الأحمر بسبب الدماء. كانت فؤوس التوماهوك[1] تهوي على الرؤوس والحراب تنغرز باللحم الحي. تعثر الرجال أكثر من أي وقت مضى ببعضهم البعض بشكل أعمى وسط الضباب وهم يحاولون الهرب، وكانوا يصرخون، ويطلقون النار، ويطعنون، ويموتون. وكان آخرون يفرون مرعوبين ويقتلون وهم يهربون. كان أحد رجال قبيلة كنتاكي يزحف على قوائمه الأربع. فرمى هندي فأسه التوماهوك عليه، الذي أصابه بين شفرات الكتف. وسقط البعض جرحى على الأرض أو عاشوا وقد تشوهوا بقسوة، وسلخت فروة رؤوسهم. كان كاديويل، قائد الحرس، وقد غطّى الدم يديه قد تخلى عن بندقيته، واستخدم بدلاً من ذلك بلطته للمعارك للتعامل مع الأعداء واحداً بعد الآخر. في مكان قريب، أصيب أحد رجاله بإطلاق نار في

1- سلاح الهنود الحمر. المترجم.

وجهه. جعله يتراجع إلى الوراء وهاجمه بساقيه قبل أن يرقد بلا حراك. كان رجل قبيلة الشاوني قد سحق وجهه بعقب بندقية، والفارس قد جزّ عنقه. كان هناك محارب آخر يركب على ظهر عدوه، ويعوي كحيوان بري ويخنقه بيديه العاريتين. فجأة تعثر شخص وسط الضباب. كان ذلك الشخص هو تيكومسيه، ذراعاه ملفوفتان حول جسده. عندما شاهد صديقه كالدويل، فتح ذراعيه وبانت حفرة كبيرة في صدره. كان الدم ينفث مثل نافورة وكانت هناك رغوة على شفاهه، كانت على الأرجح بسبب جرح في الرئة. ورويداً رويداً، غاص ذلك المحارب العظيم في الأرض. أمر كالدويل اثنين من الهنود بالاعتناء بزعيمهم. فقاموا بوضع حفنة من الطين فوق الجرح لمنع تدفق الدم، ثم حملوه واختفوا معه في الضباب. وبعدها لم يرَ أحد المحارب العظيم أبداً.

مع موت تيكومسيه، لم يخسر المحاربون زعيمهم فقط، ولكن أيضاً إرادتهم لمواصلة المعركة. لقد اختفوا في المستنقع وانتهت معركة نهر التايمز بنصر أمريكي[1].

إن مسألة من قتل تيكومسيه تعتبر لغزاً تاريخياً[2]. وهناك العديد من القصص التي تصف حدث اكتشاف جثته، وأنه تم تشويهها من قبل الرجال البيض بعد المعركة. يكاد يكون من المؤكد أنه لم ير أي رجل أبيض جثة زعيم قبيلة الشاوني مرة أخرى.

كان تيكومسيه هو «الهندي النبيل». الذي لم ينحرف عن عقيدته، التي كانت مبنية على حماية أرض أسلافه وبناء عائلة واحدة كبيرة ومتحدة من جميع القبائل. مع وفاته، تلاشت مقاومة القبائل ودفن حلمها بأمة هندية متحدة إلى الأبد. هاجرت معظم القبائل غرب المسيسيبي. من السخف

1- استمرت الحرب لمدة عام آخر. بعد هزيمة نابليون، قام البريطانيون بتعزيز وجودهم في كندا. كان هجومهم الأكثر شهرة هو الذي وقع في خليج تشيسابيك والذي أسفر عن تدمير واشنطن العاصمة.

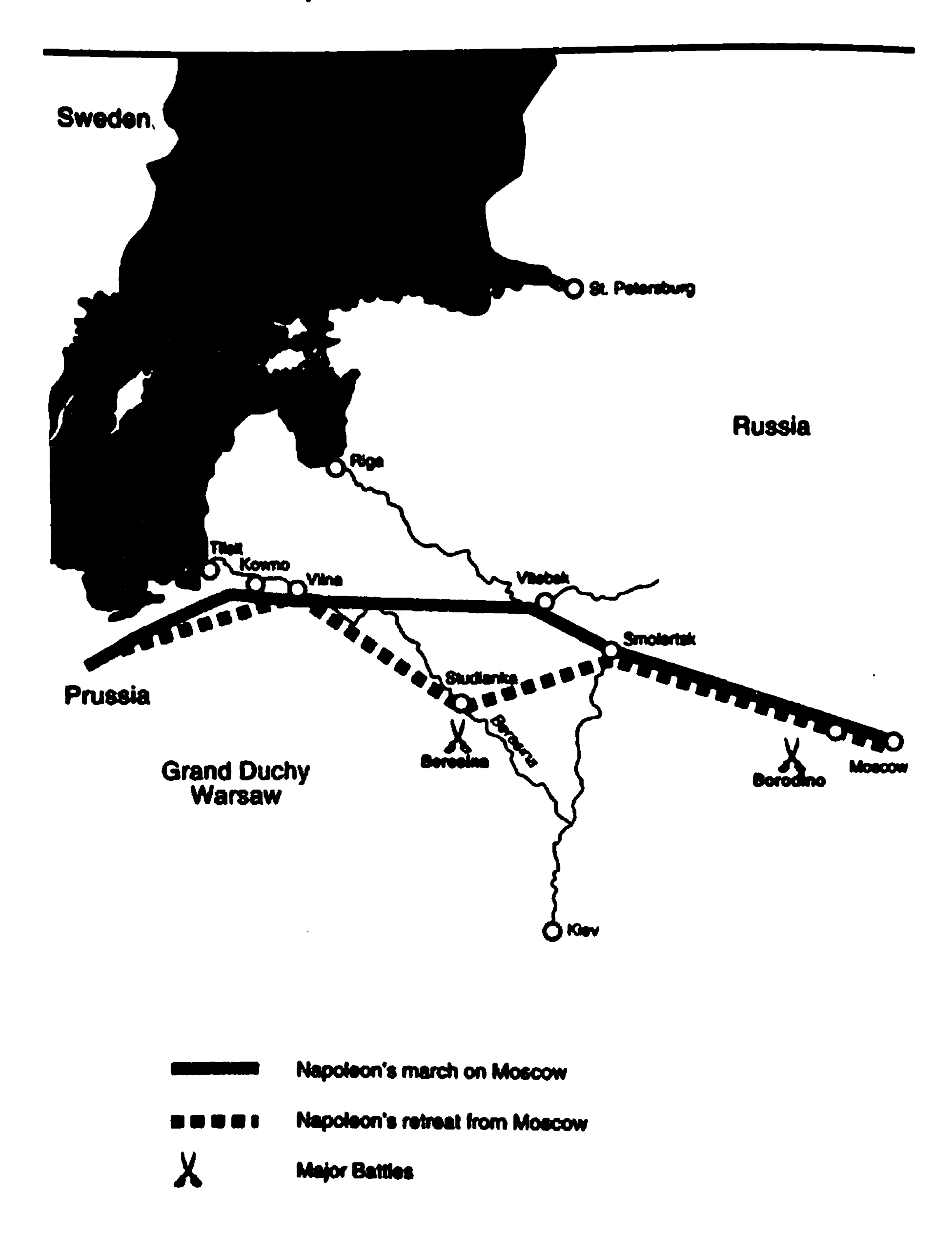
2- اتهم العقيد ريتشارد جونسون لفترة قصيرة بإصدار أوامر صارمة بقتله حالاً.

تقريباً أن تنتج مثل هذه العواقب التاريخية الهامة عن مثل هذه المعركة غير المهمة. لكن هذا هو مجرى التاريخ في كثير من الأحيان. ورغم أن مثل هذه المجازر الجماعية قد وقعت خلال حروب نابليون ولم ينتج عنها إلا الشيء القليل أو لم ينتج عنها أي شيء، فإن المواجهة التي حدثت بين بضع مئات من الأفراد -وسط حالة مفاجئة من الضباب- قررت مصير محاربي الغابات والبراري في أمريكا الشمالية.

يمكن الجدال بأن تيكومسيه لو ثبت أنه المنتصر في معركة نهر التيمز، فإن من غير المرجح أن يكون هذا قد غيّر مسار التاريخ. نظراً لأن المستوطن الأمريكي وبسبب إصراره كان سيعود، وإن مصلحته الاقتصادية ستنتصر، وإن أرض الصيد المقدسة سوف تصبح مدمجة في الولايات المتحدة الأمريكية التي يسكنها البيض.

يعيش تيكومسيه، «أو النجم الثاقب» (في لغة قبيلة الشاوني) وسط قلوب أبناء شعبه. بالنسبة للأميركيين، لا يزال الشخص الأكثر غموضاً بين من اختاروا طريق الكفاح، ولا زال باقياً إلى اليوم شخصية رمزية مركزية في القصة الأسطورية التي تروي تلك الأحداث الموغلة في القدم.

1812 Napoleon's Russian Campaign



عندما توجب الأمر عبور جسرين
25 تشرين الثاني 1812

الخطة الناجحة جرأة، والفاشلة تهور

• كارل فون كلاوزفيتز (1780 - 1831)
عن حملة احتلال روسيا عام 1812.

سانت بطرسبرغ، في عام 1812. «انقل إلى إمبراطورك هذا الإنذار الصريح: بمجرد أن تبدأ الحرب - فإن واحداً منا، إما نابليون أو أنا، ألكسندر، يجب أن يفقد تاجه». كان هذا هو مضمون الرسالة التي بعثها ألكسندر الأول قيصر روسيا إلى الإمبراطور نابليون وحملها الكونت كولينكورت مبعوثه الخاص، لكن نصيحته ذهبت أدراج الرياح[1].

في صباح يوم 25 حزيران 1812، بدأ أكبر حشد لقوات عسكرية شهده العالم على الإطلاق - يتكون من أربع مئة وثلاثة وعشرين ألف رجل

1- بتوقيعها على معاهدة تيلسيت عام 1807، وافقت روسيا على الانضمام إلى الحصار الذي فرضه نابليون على إنجلترا. لكن روسيا لم تستطع الوفاء بوعدها. فالصناعة الروسية تعتمد في جزء كبير من إيراداتها على تصدير الخشب الذي يدخل في صناعة السفن، (والذي تستخدمه البحرية البريطانية)، في حين أنها تستورد السلع المصنعة، مثل القماش والصوف، وليس لها بديل غير ذلك. بحلول عام 1810، أمر القيصر بالتوقف عن استيراد السلع الكمالية الفرنسية وفي الوقت نفسه فتح موانئه أمام السفن التجارية البريطانية. وأصبحت الحرب أمراً لا مفر منه.

مع ألف ومئة وخمسين مدفعاً - عبور نهر نيمان[1] للقيام بغزو روسيا. وهكذا دشن نابليون بنفسه حدثاً تاريخياً مهماً تمثل بالحرب المدمرة. كان يمكن أن يكون الأمر أفضل مع جيش بنصف هذا الحجم ولكن من نوعية أفضل. لم يعد الجيش الكبير *Immense Armée* ذاته الجيش الكبير الذي شارك في حرب عام 1812 هو *Grande Armée* الذي شارك في حرب عام 1805 ولم تكن قوته المقاتلة مكونة من الجنود النظاميين الفرنسيين فقط، ولكن أيضاً من عدد كبير من أفواج المجندين الأجانب الذين كانت شجاعتهم محل شك. ولم يعد جنرالاته - باستثناء مارات ونييه ودافو- يحملون روح معركة أوسترليتز[2]، التي اتسمت بشدة القتال، ولا الحماس للقتال والغزو. كانوا يشعرون بالغيرة من تفضيل بلاط نابليون لبعضهم دوناً عن البعض الآخر، وحجم ثرواتهم التي نهبوها خلال عقد من الغزو في جميع أنحاء أوروبا.

كان كبرياء نابليون هو الشيء الوحيد الذي لم تشوبه شائبة، فهو لم يذق أبداً مرارة الهزيمة. حاول الكونت كولاياكوغ، وقد كان يمتلك معرفة حميمة بروسيا، وباعتباره المبعوث الفرنسي إلى سان بطرسبرغ، أن يحذر إمبراطوره:

«سيدي، يجب أن تكون مدركاً لحجم مساحة روسيا ومدى قساوة فصل الشتاء فيها».

أجاب نابليون بإصرار: «أنت يا كولاياكوغ تتخيل نفسك متجمداً بالفعل. ليس لدي أي نية للبقاء طويلاً هناك».

كانت خطة نابليون بسيطة: يتوجه مباشرة إلى موسكو ويجبر القيصر

1- نهر يقع بأوروبا الشرقية، ينبع من روسيا البيضاء ويجري في لتوانيا ليصبّ في بحيرة قورش، ثم في بحر البلطيق. المترجم.

2- أو معركة الأباطرة الثلاثة، وكانت إحدى أهم النزاعات الحاسمة في الحروب النابليونية. وجرت بين قوات التحالف وهي الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية الرومانية من جانب ومن الجانب الآخر الإمبراطورية الفرنسية بقيادة الإمبراطور نابليون بونابرت. انتهت المعركة بانتصار حاسم للفرنسيين. المترجم.

ألكسندر على أن يذعن لمطالبه. لهذا قام بتقسيم حشده الكبير إلى ثلاثة أرتال، تتقدم بمسار متواز إلى عاصمة روسيا. في مواجهة الفرنسيين كانت هناك ثلاثة أرتال روسية أقل خبرة وتمرساً بالقتال إلى حد بعيد تحت قيادة الجنرالين باركلي دي تولي وباغراتيون. فبسبب تآمر البلاط القيصري على اثنين من أفضل الجنرالات، وهما بينيغسين وكوتوزوف تم تنحيتهما جانباً عن القيادة؛ ولحسن حظ القيصر وروسيا، تم الاحتفاظ بالمارشال كوتوزوف، أخطر خصم لنابليون، كمستشار عسكري استراتيجي.

لقد سبق لكوتوزوف أن واجه نابليون من قبل، في عام 1805. بعد يوم من الانهيار النمساوي الروسي في معركة أوسترليتز، وحين تحدث أحد ضباطه بازدراء عن الإمبراطور الفرنسي حذره كوتوزوف من ذلك وصاح به قائلاً: «أيها الشاب، من الذي أعطاك الحق في أن تسخر من واحد من أعظم رجال التاريخ؟» وهو ينصح الآن قيصره بأن يستخدم مع نابليون استراتيجية مضايقة مستمرة دون إعطائه فرصة لإغراء الجيوش الروسية التي كانت أضعف من جيوشه للدخول في المعركة. يجب التحرك بسرعة، وشن غارات محدودة على أجنحة الجيش الفرنسي من قبل وحدات سلاح الفرسان، إلى جانب اتباع سياسة الأرض المحروقة لمنع وصول الغذاء إلى الخصم[1] والمأوى. هذه الاستراتيجية سرعان ما أظهرت نتائجها. بدأ التعب والجوع يتسبب في الحد من فعالية الفرنسيين، وبدأت ضرائبه القسرية المفروضة على السكان تتناقص بشكل كبير، وأدت الهجمات المتفرقة إلى إبطاء حركة نابليون كثيراً حتى إنه فشل في محاولته للحاق بالقوة الرئيسية للقائد الروسي باركلي في مدينة فيلينوس[2].

وقع أول خطأ في سلسلة من الأخطاء الفادحة التي ارتكبها نابليون في فيلينوس. فبدلاً من السعي إلى ملاحقة العدو الرئيس بقوة، أمضى

1- كانت جيوش نابليون متواجدة أغلب الأوقات خارج أراضيها.

2- عاصمة ليتوانيا حالياً. المترجم.

نابليون صانع الملوك بعض الأسابيع في فيلينوس في محاولة لحل مسألة استعادة عرش صديقه ملك بولندا. لقد قيل إن هذا لم يكن السبب الوحيد لتأخره. فقد كانت إحدى مبعوثات الحكومة البولندية امرأة رائعة الجمال، تدعى ماريا فاليسكا، وقد وقع الإمبراطور الفرنسي ضحية لسحرها[1]. ومن أجل حب امرأة أعاق تقدم جيشه.

تقدم الجيش الكبير، *Armée Grande* من فيلينوس بدون مقاومة. للمرة الأولى في حياته العسكرية، شعر نابليون بعدم الارتياح، تذكر مصير الملك المحارب السويدي، تشارلز الثاني عشر، الذي سمح لنفسه بأن تتورط في مساحة روسيا الشاسعة قبل أن يعاني من هزيمة كارثية في بولتافا[2] في حين فشل نابليون في القبض على باركلي، فشل شقيقه جيروم في محاولته إجبار الرتل الروسي الثاني بقيادة باغارتيون على الدخول في المعركة.

كتب نابليون ملاحظة غاضبة: «كيف يمكنني خوض الحرب بهذه الطريقة عندما يتعرض للخطر نجاح الحملة بأكملها». وقرر إعفاء جيروم من قيادة الجيش ومنحها إلى المارشال دافوت.

في هذه الأثناء، فإن عمليات النهب والسلب التي قام بها أفراد «الجيش الكبير» كانت تـوازي أي دعم يمكن أن يحصل عليه إمبراطوره من العبيد الروس الذين تم تحريرهم حديثاً، فقد تم نهب الطعام من كل قرية تركت دون أن يمسها الروس المتقهقرون، مما عرض السكان المحليين إلى خطر المجاعة. لكن حالة جيش نابليون أصبحت أيضاً محفوفة بالمخاطر. فروسيا البيضاء، التي تعتبر من بين أفقر المناطق الزراعية في أوروبا، لم تستطع توفير وسائل إطعام نصف مليون جندي. وسرعان ما عاش جيش نابليون على عصيدة الجاودار المسلوقة. كانت الخيول أسوأ حالاً. وانتهك نابليون القاعدة العسكرية

1- أنجبت له ابناً هو ألكسندر جوزيف الذي أصبح وزيراً في عهد نابليون الثالث.
2- مدينة في أوكرانيا حالياً. المترجم.

القديمة التي تقضي بأن لا يقوم القائد بأي حملة قبل أن تنضج الحبوب. سبق أن ترك الجيش وراءه أكثر من خمس مئة عربة ذخيرة مع الأسلحة وقريباً سيصبح جزء من سلاح الفرسان بدون خيول. ومما زاد من مخاوفه، أن الإصابات بمرض الزحار والحمى أدت إلى وفاة الآلاف، ونفقت خيول سلاح الفرسان، وألقى المجندون بأسلحتهم وعادوا إلى ديارهم.

وفي 27 تموز، بالقرب من فيتبسك[1] اعتقد نابليون أنه حاصر جناحي الجيش الروسي اللذين كانا بقيادة باركلي دي تولي وبارغاتيون، ولكن في حركة متقنة استطاع الجنرالان الروسيان الهروب أثناء الليل، وفي صباح اليوم التالي، لم يقتحم نابليون سوى معسكر مهجور للعدو، تم تجريده من كل شيء. وقد اجتمع مع كبار قادته العسكريين وهما، بيرتييه وموراتس، اللذين نصحاه بشدة بأن يوقف الحملة، والذهاب مع بداية الشتاء للإقامة في سمولينسك، ومواصلة حملته في الربيع التالي. لبعض الوقت، وافق نابليون على ذلك، لكن بعد يومين غيّر رأيه من خلال ملاحظة مهمة: «لقد جعلت جنرالاتي أغنياء جداً، فهم لا يفكرون إلا في الملذات». لقد سئموا الحرب. أراد أن يدمر الروس، ووجد أنه من غير المعقول أن يتخلى القيصر ألكسندر عن سمولينسك أو حتى موسكو من دون قتال.

وفي النهاية، لحق بالروس في سمولينسك. ثم أرسل المارشال جينو عبر نهر الدنيبر ليقطع عنهم طريق العودة أثناء انسحابهم على طول طريق موسكو. لكن جينو تردد، وبعد قصف عنيف استمر يومين، أصبح نابليون على أطراف المدينة متأهباً لدخولها بينما نجح باركلي مرة أخرى في الإفلات منه. مع سقوط سمولينسك، وصل نابليون إلى نقطة اللاعودة. أرسل جنراليه نيي وميوغات لمطاردة الروس إلى فالوتينو، حيث أغراهم القائد الروسي باركلي للوقوع في الفخ وألحق قرابة ستة آلاف خسارة

1- مدينة في أوكرانيا. المترجم.

بالأرواح بين صفوف مطارديه. ومرة أخرى، ضغط مارشالات نابليون على إمبراطورهم لتوفير خيم شتوية لأفراد الجيش، ورفض مرة أخرى، خاصة بعد أن التقى مع مبعوث القيصر.

توجه نابليون بالسؤال إلى الكونت بالاشوف: «لماذا يوجد هناك العديد من الكنائس؟».

«لأن شعبنا متدين جداً سيدي».

«باه، ليس في هذه الأيام. لذا أخبرني، ما هو أفضل طريق إلى موسكو؟».

«جميع الطرق تؤدي إلى روما، سيدي. أما بالنسبة إليك، فيمكنك أن تسلك أي طريق، كلها تؤدي إلى موسكو. استخدم ملك السويد تشارلز الثاني عشر الطريق الذي يمر عبر بولتافا».

كان التهديد واضحاً. كانت بولتافا نهاية المغامرة السويدية، حيث تم استدراج ملكهم إلى أعماق روسيا وأباده القيصر بطرس الأكبر. أدرك نابليون تماماً أن جيشه يمكن أن يختفي أيضاً وسط المساحات الشاسعة من روسيا، مثل مياه نهر عظيم تقوم الرمال بامتصاصها. سرعان ما سيتغير الطقس، وماذا سيحدث حينها؟ سيكون الطقس هو من يقرر. كانت موسكو، التي تعد بالمساكن الفخمة والكثير من الطعام، تبعد مئتي ميل فقط.

«إن الخطر الوشيك يضطرنا إلى الاندفاع نحو موسكو. لقد استنفدت جميع النصائح الأخرى التي قدمها لي المستشارون».

في 25 آب، أشار رويدر وهو قائد فرقة من قوات المجندين الألمان، في مذكراته: «تم اتخاذ القرار. ها نحن نتقدم. حتى لو وصل الإمبراطور إلى موسكو، فإنه ما لم يتمكن من توجيه ضربة حاسمة وجعل جيش القيصر عاجزاً عن فعل شيء، سوف لن يستطع الاحتفاظ بالمدينة خلال الشتاء القادم». وفي اليوم نفسه، عيّن القيصر أخيراً الأمير كوتوزوف،

البالغ من العمر سبعة وستين عاماً، القائد العام للجيش، وأمره، خلافاً لنصيحة الجنرال، بأن يصمد[1].

في السابع من أيلول عام 1812، في بورودينو. كان جيش نابليون قد وصل إلى ضفاف نهر موسكفا، الذي يبعد مسير يوم واحد فقط عن العاصمة الروسية. ووجد طريقه إلى المدينة مغلقاً. وقد استخدم كوتوزوف وقته بشكل جيد، وكانت قواته متحصنة بشدة. خلف سدود ترابية هائلة، أطلق عليها اسم (*Grande Redoute* الحصن الكبير)، قام بنصب سبع وعشرين قطعة من المدفعية الثقيلة. وكانت هناك مدافع أكثر تدعم هذا الحصن منصوبة على اثنتين من التلال القريبة، والتي يمكنها أن تطلق وابلاً من النيران المتقاطعة القاتلة على أي وحدة مهاجمة. خلف التلال، نشر كوتوزوف رجاله البالغ عددهم 120 ألفاً وكتيبة مرعبة من سلاح الفرسان القوزاق. أفسح برد الليل الطريق إلى صباح رمادي ضبابي. وبينما ركع المارشال كوتوزوف ورجاله للصلاة أمام تمثال للسيدة العذراء، كان يحمله بعض الجنود ويسيرون به أمام كتائب جيشهم التي تسير بالتتابع، جلس نابليون في خيمته متضايقاً من شدة البرد واضعاً رأسه بين يديه. كان قد تلقى لتوه أنباء تفيد بأن جيش المارشال مارمون قد تلقى هزيمة أمام جيش الدوق ويلنغتون في سالامانكا في إسبانيا.

سأل نابوليون نفسه: «ما هي الحرب؟ إنها عمل البرابرة حيث يعتمد كل شيء على كونهم الأقوى في مرحلة معينة». في اللحظة التي بانت فيها أشعة الشمس، خطا نابليون لفترة وجيزة خارج الخيمة. وكان مزاجه مبتهجاً. وقال: «إنها شمس أوسترليتز». لكن لم يكن الأمر كذلك، كانت الشمس في الشرق، وفي الشرق كان الروس. حدق من خلال منظاره في التلال المنتصبة أمامه، ثم التفت إلى مساعده، الجنرال راب قائلاً:

«هل تؤمن بانتصارنا؟».

1- يقول كلاوزفيتز: لم يكن كوتوزوف يريد أن يحارب في بورودينو، حيث من الواضح أنه لم يكن يتوقع أن ينتصر. لكن القيصر أجبره على ذلك.

«بالتأكيد، سيدي، ولكنه سيكون دموياً...».

«لذا، دعونا إذاً نفتح أبواب موسكو». وبهذه الكلمات أعطى الأمر بالهجوم. وخوفاً من أن يحاول كوتوزوف، مثل باركلي، أن يفلت، رفض الإمبراطور اقتراح المارشال دافوت مهاجمة الروس من الأجنحة. وبدلاً من ذلك، أمر بتوجيه هجمة مباشرة إلى المركز، إلى وسط قرية بورودينو، التي كانت تستتر فيها المدفعية الروسية عند الحصن الكبير. زمجرت المدافع، واهتزت الأرض. تقدمت كتائب النخبة الفرنسية بزخمها المعتاد واستولت على بورودينو، ثم اندفعت إلى الأعلى نحو فوهات المدافع المحترقة في الحصن الكبير. تفاجأ الروس، لأنهم لم يتوقعوا أبداً أن يشن هجوماً عليهم من الأمام، مما جعلهم يرمون بأنفسهم من التل. وفي خضم المعركة، أصيب المارشال دافوت بجروح. واستولى المارشال نيي على المرتفعات الثلاث الاستراتيجية وأسكت مدفعيته. لكن الهجوم على التلال الحيوية كان مكلفاً من ناحية الرجال واستنزف الكتائب الفرنسية. وعندما طلب جنرالات نابليون منه ذخيرة تردد نابليون، فانفجر نيي المتهور قائلاً: «لماذا لا يعود إلى التويليري[1] ويترك جنرالاته ليقوموا بالقتال».

اغتنم كوتوزوف الفرصة وشن هجوماً مضاداً عنيفاً ألقى بالفرنسيين من الحصن الكبير. بدا للحظة، أن نتيجة المعركة لا يمكن التنبؤ بها. أمر نابليون كتائبه بإقامة حجاب ناري كثيف على «الحصن الكبير»، وقام الجنرال مارات، بمساعدة بارعة من الجنرال نيي، بقيادة فرسانه المدرعين وشن هجوماً عنيفاً لسلاح الفرسان لاستعادة التل. بحلول الساعة الثالثة عصراً تم حسم المعركة. ولكن يا لها من تكلفة مروعة، قُتل ما يقرب من 75 ألف رجل، أي ثلاثة أضعاف القتلى في معركة واترلوو[2].

ها قد حانت اللحظة لمطاردة الروس وإبادتهم مرة واحدة وإلى الأبد.

---

1 - قصر نابليون.

2 - كانت خسائر معركة بورودينو: مقتل 28 ألف فرنسي و45 ألف روسي.

كان نابليون لا يزال يحتفظ بالحرس الإمبراطوري تحت تصرفه، لكنه رفض إشراكهم. «لن أكون سبباً في تدمير حرسي. لن أخاطر بذخيرتي الأخيرة وأجعلهم يقطعون ثمان مئة فرسخ من فرنسا إلى هنا، من سيتبقى معي لأحارب به غداً.

في عام 1805، في قمة مجده، لم يتردد أبداً في اتخاذ قرار إيجابي - ولكنه في بورودينو فشل. وهكذا، تمكن كوتوزوف ومقاتلوه الروس، الذين سُحقوا بشكل سيئ ولكنهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة كقوة قتالية، من الفرار. عبَّر مارات أفضل تعبير عمّا كان يدور في ذهنه في ذلك اليوم: «لم أعد أعترف بعبقرية الإمبراطور».

في بورودينو، حقق نابليون انتصاراً باهظ الثمن وخسر الحملة الروسية.

في صباح اليوم التالي لمعركة بورودينو، حذر أسير روسي نابليون قائلاً: «سيدي، إن شهراً واحداً من البرد في مناطقنا سوف يجعل أظافرك تسقط ». للأسف، فشل الإمبراطور في أن يهتم بتلك الكلمات التي كانت تتنبأ بما سيحدث. أرسل الجنرال مارات مع سلاحه للفرسان ليتوجهوا إلى موسكو. لم يواجهوا أي معارضة جديدة. لقد توصل كوتوزوف إلى قرار: «ما دام يوجد جيش روسي فإنه لا زال لدينا الأمل بإيقافهم. ولكن إذا تم تدمير الجيش، فلن تدمر موسكو فحسب، بل ستهلك روسيا بأكملها».

إذا كان نابليون قد فكر في أنه باحتلاله موسكو قد استولى على القلب النابض لروسيا، فإنه خدع بشدة. توجه المنتصر إلى المدينة متوقعاً أن يرسل البويار[1] مبعوثاً للمقاضاة من أجل السلام. لكنه بدلاً من ذلك رأى أبراج الكرملين وهي تنتصب وسط بحر من اللهب. كان روستوبكين، حاكم موسكو، قد أمر بإجلاء سكانها وأشعل النيران في

1- هو أعلى الأفراد رتبة في الأرستقراطيات الإقطاعية الموسكوفية. المترجم.

المدينة[1]. لم يحتل نابليون سوى أنقاضٍ محترقة، حيث لم تكن هناك مخزونات غذائية ولا خيم شتوية لقواته التي أعياها التعب، والتي كانت في حاجة ماسة إلى الراحة. عندما وصلت ألسنة اللهب إلى الكرملين وهددت مخازن البارود، أُجبر نابليون على الفرار من مقر إقامة القيصر وعسكر مع قواته خارج المدينة.

قبل وأثناء معركة بورودينو، فقد نابوليون نصف جيشه. والآن يواجهه احتمال اقتراب فصل الشتاء بسرعة من دون وجود مأوى لائق لقواته، ولا علف لخيوله، ولا خبز لرجاله. كان ذلك في شهر تشرين الأول، وكان الوضع يصبح ميؤوساً منه أكثر كل يوم. كان يعلم أن حلول فصل الشتاء في منطقة جرداء مثل موسكو سيؤدي إلى كارثة. لذلك بعث برسالة إلى القيصر، يعرض عليه السلام. لكن عرضه بقي بدون رد.

كانت مشكلة القيصر هي كيفية التمسك بالسلطة. فإظهار الضعف يعني خسارة تاجه. أعرب عن قلقه لمستشاره قائلاً: «روسيا ضائعة، ما لم تحدث معجزة». لكن الأوان كان قد فات لحدوث معجزة. الحقيقة هي أن الفرنسيين كانوا في موسكو. لقد فشل القيصر في رؤية ما يعول عليه الفيلد مارشال القدير كثيراً وهو أن يحدث تغير في الطقس.

لقد أصبح كوتوزوف ضعيفاً عندما خسر جزءاً كبيراً من جيشه، لكنه كفرد روسي، يمكنه دائماً الاعتماد على حليف واحد للوقوف بجانبه. في لحظة احتياجه له: «الجنرال شتاء». هذا الحليف الأبدي لروسيا الأم المقدسة سيصل قريباً، بشكل مؤكد كما يأتي النهار بعد الليل، وتشرين الثاني بعد تشرين الأول. في غضون ذلك، ابتكر كوتوزوف الثعلب القديم خطة لطيفة. من خلال وضع قواته على الطريق الأقصر الذي يمكن أن يمر خلاله الجنود عند حدوث انسحاب فرنسي متوقع، وتمكن

1- ليس من المؤكد كيف أو متى بدأ الحريق العظيم. يدعي بعض المؤرخين أنه كان في اليوم التالي لانتقال الوحدات الفرنسية الأولى إلى موسكو. وربما كان حادثاً قام به الفرنسيون أنفسهم.

من إجبار نابليون على التراجع على طول مسار غزوه الشمالي الأصلي، مروراً بالريف القاحل المحترق نفسه، دون أمل في العثور على الطعام للرجال أو الحبوب للخيول.

في 19 تشرين الأول 1812، بدأ نابليون بالمسير خارج موسكو.

ثم حدث أمر ما، فقد أخذ الطقس زمام الأمور.

20 تشرين الأول. اندفع إلى معسكر كوتوزوف فارس يحمل رسالة من سان بطرسبرغ. كان أمر القيصر قصيراً ومرتباً. «اهجموا على نابليون!» لكن هذه المرة رفض المارشال العجوز إطاعة ملكه. كان يعرف ما الذي يمكن أن يفعله الشتاء الروسي لعدو في حالة انسحاب كامل: لم يكن رجال نابليون يملكون أي فرصة للوصول بأمان قبل أن يأتي البرد. وهكذا فإن الجيش الكبير الذي لا يهزم سيلاقي مصيره المحتوم ثم قال دون أن يوجه كلامه لشخص معين: دع البرد يأتي! في غضون أسبوعين، كان «الجنرال شتاء» في طريقه.

بعد أربعة أيام من استلام كوتوزوف أوامر القيصر لشن هجوم فوري، شاهد جنود الاستطلاع الروس بقيادة الجنرال دوكتوروف، وكانت منطقة عملياتهم في جنوب غرب موسكو، رتلا فرنسياً، وحددوه خطأ بأنه مجموعة صغيرة من الجنود تبحث عن طعام ومؤونة. في الواقع، كان نابليون قد انطلق في اتجاه الجنوب الغربي، وأخذ أقصر طريق ممكن أن يعيده إلى بولندا، وكان هذا الرتل يمثل مجموعة حراسه الذين كانوا يتقدمون تحت قيادة الجنرال يوجين دو بوارنيه *Eugène de Beauharnais*. سرعان ما اكتشف دوكتوروف أنه ليس في وضع يسمح له بالوقوف في وجه قوة نابليون الرئيسية. فنصب مدفعيته المتكونة من أربعة وثمانين مدفعاً ووضع قوته المؤلفة من اثني عشر ألف رجل في ضواحي مالوياروسلافيتس، على بعد حوالي 50 كيلومتراً من موسكو، لمنع انسحاب الجيش الكبير *Grande Armée*. في 24 تشرين الأول، حدثت معركة ضارية خسر فيها الروس 6000 رجل مقابل 5000 فرنسي،

بينما تم الاستيلاء على المدينة وتركها في خمس هجمات متتالية. وقد حسمت الحراب الفرنسية نتيجة المعركة. وصل كوتوزوف بعد فوات الأوان بقوته الرئيسية. اختار عدم الاشتباك مع قوات نابليون في معركة طويلة، لكنه ترك قوة معرقلة خلفه.

شكلت معركة «مالوياروسلافيتس» انتصاراً فرنسياً، لكنه واحد من أسوأ أنواع الانتصارات. كان نابليون في عجلة من أمره. ومع اقتراب فصل الشتاء، لم يكن قادراً على تحمل الوقت الذي يستلزمه القتال ليشق فيه طريقه من خلال كتائب كوتوزوف، التي افترضها (وكان على صواب) إنها كانت متمركزة على طول طريقه الجنوبي. وهذا جعله يقرر أن يأخذ جيشه على الطريق الشمالي الأكثر أمناً ولكنه أطول، عبر موزاشيس وسمولينسك. وهو بالضبط ما كان كوتوزوف يريد منه أن يفعله.

بالنسبة للفرنسيين، أصبح الوضع غير مستقر. سار نابليون خارج المدينة بصحبة مئة وثمانية آلاف رجل و569 بندقية، ولكن مع عدم وجود إمدادات ولا طعام. لقد انطلقوا وهم يتوقعون أن يجدوا الطعام على طول الطريق. ولكن لم يكن هناك شيء منه، لم يبق إلا القليل بعد أعمال النهب التي رافقت حملتهم الصيفية. أصاب الجوع الجنود الفرنسيين، والقيام بغارات مكثفة بحثاً عن الطعام أصبح مستحيلاً بسبب تواجد دوريات من جنود القوزاق كانت تقتل أي شخص يضل طريقه عن رتل الجيش الرئيس.

كانت الأيام الأخيرة من شهر تشرين الأول صافية والليالي باردة. انخفضت درجة الحرارة إلى ما دون درجة التجمد، ولم يكن الفرنسيون مستعدين لمثل هذا الطقس. لم يكن نابليون يعتقد أنهم سيقضون فصل الشتاء هناك، وقاد جيوشه إلى روسيا وهم يرتدون بذلاتهم الصيفية. عندما اختفت الشمس خلف السحب الكثيفة وغطت الثلوج الأرض عندها بدأت معاناتهم الحقيقية. جلبت الرياح كتلاً كثيفة من الثلوج عبر الأراضي المسطحة، وغاصت الخيول والرجال بشكل أعمق في الثلج،

ولم يعد بالإمكان رؤية الساريات الخشبية التي نصبت لتمييز الطريق إذ لم تعد واضحة وسط عاصفة الثلج المندفعة. كان هناك طابور طويل من الرجال المنهكين، والجائعين والمسعورين يترنحون على طول مشهد الشتاء الروسي، مدفوعين بالخوف من الوقوع في أيدي الجنود القوزاق، الذين كانوا يلاحقونهم بلا هوادة. استمرت الرياح تعوي ودرجة الحرارة في الانخفاض. وقد عانى الرجال من قضمة الصقيع، ولفوا أكياس الخيش حول أقدامهم ووجوههم.

كتب أحد جنود النخبة في مذكراته: «لقد كان الجو بارداً لدرجة أن الغربان تجمدت وهي في السماء، خياشيمنا مختنقة، وأفواهنا مليئة بكتل الجليد، وذرات الجليد، التي تدفعها الرياح نحو وجوهنا، تجعلنا مثل العميان. صلوا من أجلنا، لأن الغد قد يكون متأخراً جداً ولا أحد يعرف ما ينتظرنا».

لقد تعثر جنود الجيش الكبير عبر مشهد مدمر، أصبح الكثيرون يستخدمون بنادقهم كعكازات. وحيثما مروا، أصبح المسار الذي لا نهاية له يحمل إشارات إلى الجثث. لقد فقد الجيش كرامته. كان الجنود القوزاق يلاحقون بقاياه وهم يمتطون المهور السيبيرية الصغيرة القوية التي تستخدم في البرد القارس. كان يتم تجريد أي متشرد يتم القبض عليه من قبل هؤلاء الفرسان الرهيبين من ملابسه ويتم دفعه بواسطة رؤوس الرماح حتى يسقط ميتاً على الأرض. فيما كانت تصب المياه على آخرين، ويربطون بالأشجار ويتركون إلى أن يتجمدوا. كان الفرنسيون ما زالوا بعيدين عن سمولينسك حيث كانوا يأملون في العثور على الطعام والمأوى.

في العاشر من تشرين الثاني، تعثر «جيش الأشباح» هذا في سمولينسك. لكن خطأً فادحاً ارتكبته مجموعة من ضباط التموين حرم الجنود المنهكين من الطعام والملابس والبارود. كانت الوحدات الاحتياطية قد استهلكت كل الطعام، ولم يتم طلب الملابس الشتوية أبداً، وقد ترك البارود في العراء وأصبح غير صالح للاستعمال. هناك

شيء واحد أصبح واضحاً بشكل يدعو إلى اليأس: إن قضاء فصل الشتاء في الخرائب المحترقة لبلدة، خالية من المتاجر والمستودعات، ودون توفر اتصالات مع فرنسا، كان ضرباً من الجنون. وصلت التقارير عن حشود للقوات الروسية، من الجنود النظاميين وغير النظاميين (الفرسان)، عند طريق الهروب الذي سيسلكه الفرنسيون. بعد خمسة أيام، أمر نابليون بمزيد من التراجع نحو الغرب. كان عليهم أن يصلوا إلى الإقطاعيات التابعة لفرنسا في ألمانيا قبل أن يطبق عليهم الصقيع الروسي الحقيقي.

تقلص تعداد جيش نابليون بعد أن تكبد عدة خسائر في الأرواح إثر عدة هجمات متتالية، أو ضياع جنوده في ثلوج سمولينسك، من نصف مليون إلى حوالي 50 ألف رجل. كان الإمبراطور هو المسؤول شخصياً عن جيشه الهزيل في المأكل والملبس. كانت العربات محترقة، وتم تسخير الخيول المتبقية لسحب قطع المدفعية القليلة التي تبقت.

في 14 تشرين الثاني، كان الجنرال كوتوزوف ينتظر نابليون عند مدينة كراسنوي. ألقى نابليون بكتائب حرسه المدللة في المعركة والتي مرت عبر القوزاق الروس «مثل مئة سفينة مقاتلة وسط أسطول للصيد»[1].

بحلول الخامس والعشرين من تشرين الثاني، وصلت بقايا نابليون إلى ضفاف نهر واسع، هو نهر بيريزينا، كانت مياهه مغطاة بكتل من الجليد. في هذا المكان، بالقرب من قرية ستوديانكا، التي تقع شمال مدينة بوريزوف، كان الجنرال كوتوزوف ينتظرهم. تم حرق الجسر الوحيد الذي كان يمر فوق مياه النهر الهائجة التي تغطيها كتل الجليد على يد القوزاق، وكان النهر عميقاً للغاية. وهذا موقع مثالي لإبادة جيش نابليون. وبوجود النهر أمام جيش نابوليون، وليس هناك طريقة لعبوره، كان الجنود الروس بقيادة الجنرال كوتوزوف مستعدين لإنهاء أسطورة جيش القائد الكورسيكي المغرور الذي لا يقهر مرة واحدة وإلى الأبد.

1- مقتبس من مذكرات الجنرال الروسي دافيدوف عن حملة 1812.

«نهاية جيش نابليون وبشكل لا رجعة فيه، ستتم هنا، في المياه الجليدية لنهر بيريزينا، وسيتم إخماد ضياء شهابه»، هكذا أكد الجنرال الروسي لقواته.

وقع جيش نابليون في الفخ. كان وضعه محرجاً تماماً. فهذا النهر لا يمكن عبوره، والمدافع الروسية وراءه وعلى الشاطئ المقابل، والجيش جائع، ومتجمد من البرد وفي حالة تدهور كامل. لأول مرة في مسيرة نابليون العسكرية الزاهية، تتجمع هكذا كل عناصر الكارثة. كان عليه أن يواجه تضاريس طبيعية (النهر) وعدو لا يرحم. بل والأسوأ من ذلك كان عليه أن يواجه عامل المناخ.

بالقرب من قرية ستوديانكا، أمر نابليون الجنرال إيبيليه، قائد وحدة الهندسة العسكرية، بتشييد جسرين يمران عبر المياه الجليدية. كان التحدي الذي يواجه مهندسيه شبه مستحيل. ومع ذلك، في عرض من التفاني السامي لإمبراطورهم، أطاع ثلاث مئة مهندس فرنسي أمره. وببطولة غير مسبوقة كانت قريبة من عملية انتحار واضحة، تحدّوا المياه الجليدية، وركّزوا أعمدة خشبية، ربطوها مع بعض بالحبال. كان غطاء الجسور متكوناً من منصات عربات وورق جدران تم قلعه من جدران أكواخ خشبية. وضحى الثلاث مئة فرد من أفراد الوحدة بأرواحهم (تجمد معظمهم حتى الموت)، واضطروا للوقوف وقد غطتهم المياه المتجمدة حتى أعناقهم، وهم يواجهون كتل الجليد ونيران المدافع التي تطلق عليهم من وقت لآخر. وعملوا على ضوء المشاعل طوال الليل. تم تشييد هياكل خشبية متداعية وبحلول ظهيرة يوم السادس والعشرين من تشرين الثاني، كان هناك جسران يمتدان على النهر، وهو إنجاز مذهل بالنظر إلى وسائل وتقنيات ذلك العصر[1].

وفي اليوم نفسه حدثت عاصفة ثلجية مدوية، اجتاحت وادي نهر

1- بعد مئة وثلاثين سنة، وصلت وحدات الدبابات الألمانية إلى الموقع ووجدت بقايا جسري نابليون.

بريزينا. اختفت جميع المعالم وغطت الثلوج الأرض بكثافة إلى حد أن معظم أجزاء عربات المدفعية الثقيلة قد غاصت في الثلج. لكن العاصفة جلبت إلى الفرنسيين بعض الراحة التي كانوا بأمسّ الحاجة إليها؛ ففي مثل هذه العاصفة، لا يمكن حتى للخيالة الروس أن يشنوا هجوماً. تمكن عدد كبير من الفرنسيين، مع مدفعيتهم، من العبور على الجسرين المزدحمين. كانت عملية العبور تسير بخطى متقطعة، حوالي 500 رجل في الساعة، مع حدوث انهيارات متكررة في الجسرين وكانت الحاجة تدعو إلى عملية إصلاح مستمر. كما أدى مرور عربات الإمداد والمدافع إلى إبطاء العملية. في السابع والعشرين من تشرين الثاني، تمكن المزيد من الفرنسيين من العبور، لكن هياكل الجسرين أصبحت الآن ضعيفة جداً لدرجة أن المرور فوقها أصبح محفوفاً بالمخاطر. تحت التدفق المتواصل لكتل الثلج التي كانت ترتطم بقوة بالركائز الخشبية للجسرين وآلاف الجزمات العسكرية التي تمر فوقها، سقط الجسران مرتين. وخاض الرجال والخيول وسط كتل الجليد، ولكن في كل مرة كان يخوض المزيد من أفراد الوحدة الهندسية وسط المياه الجليدية لإصلاح الجسرين. توفي هؤلاء الأبطال إما من التعرض للبرد القارس أو سحقتهم كتلة جليدية، وبدأت جثثهم تطوف في المياه. لم يتم تسجيل أسمائهم، لكن عملهم بقي خالداً.

بعد ظهر يوم 28 تشرين الثاني، كانت الرياح العاتية قد صنعت دوامات من كتل الثلج، وبالتالي حجبت الرؤية عن جنود المدفعية الروس، هدأت الرياح وأصبح الهواء صافياً فجأة. في هذا الوقت، كان الفيلق الاحتياطي بقيادة الجنرال أودينو قد أكمل عبوره. وقد ترك خلفه القوات الدفاعية التي يقودها المارشال فيكتور لوحدها في الضفة المقابلة، في محاولة لحماية الحشود الضخمة من التائهين. كان ذلك هو الوقت الذي ظهرت فيه وحدات الجنرال كوتوزوف المتقدمة تحت قيادة الجنرال فيتغينشتاين على ضفة النهر. بدأت قذائف المدافع

بالتساقط فوق المياه والجسرين الخشبيين واللحم البشري. كان الجنود الفرنسيون، الذين تخلفوا عن الركب قد حوصروا وهم في طريقهم إلى الجسرين، وأصيبوا بالذعر، حيث تحطمت المزيد من القذائف وسط هذا التزاحم، مما جعل الحشود تتدافع وأدى ذلك إلى حدوث نتائج مدمرة. اندفعت كتائب القوزاق نحو الجسور المزدحمة بالبشر وقادت عدداً كبيراً من الفرنسيين نحو الكتل الجليدية، حيث جرفهم التيار القوي وحملهم بعيداً أو تم سحقهم حين صاروا بين ألواح متلوية من الجليد العائم. تمكن عدد قليل جداً من الأفراد من العبور، وأولئك الذين فعلوا، وصعدوا ضفة النهر، كانوا منقوعين بالماء وجمدوا خلال دقائق وتحولوا إلى أعمدة من الجليد. وبينما كانت هذه المذبحة مستمرة، ظهر خطر جديد تمثل في فيلق روسي تحت قيادة الأدميرال تشيتشاغانوف، الذي اصطدم عن غير قصد مع نابليون على الجانب الآخر من النهر. استخفت كتائب نابليون بالروس، الأمر الذي جعل المنطقة المؤدية إلى النهر مليئة بآلاف الجثث.

وفي خضم تزايد العمليات القتالية هذا، كان الضغط يتزايد على فيلق الجنرال فيكتور في الجهة المقابلة من الشاطئ، وأصبح الجسران غير سالكين بسبب التساقط المستمر للقذائف التي كانت تطلقها مدفعية فيتغنشتاين بدقة. وفجأة توقف إطلاق النار وبدأ فرسان فيتغنشتاين يتوجهون نحو الجسرين، أما أولئك الذين لا زالوا في الخلف فقد تركهم الفرنسيون وراءهم أثناء اندفاعهم نحو الجسرين خلال محاولة هروبهم الأخرق، وكانت أحذيتهم تنزلق على الجليد البلوري في أثناء هروبهم اليائس من رماح كتائب القوزاق. إلى أن حدث شيء فظيع؛ فأمام ناظريهم، بدأت ألسنة اللهب تتصاعد من الجسرين.

واجه نابوليون خياراً مروعاً. ولأجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، أمر قائد وحدة الهندسة، الجنرال إيبليه، بإشعال النار في الجسرين. وفي الوقت نفسه، بعث رسالة إلى المارشال فيكتور لإنقاذ فرسانه الشجعان وأن

يقودهم عبر مياه النهر الهائجة. أجبر جنود سلاح الفرسان الملكي الفرنسي *Cuirassiers* خيولهم على الخوض في مياه النهر وهم يمسكون بسروجهم. لقد فعلها البعض، لكن العديد منهم لم يستطع سحب خيولهم بسبب ثقل دروعهم المصنوعة من الفولاذ الثقيل. وقد ترك هذا الهروب الأخير الآلاف ليلاقوا مصيرهم على الشاطئ المقابل، حيث قام القوزاق القساة بتجميعهم وذبحهم. (بعد ذوبان الجليد في الربيع، وجد الفلاحون الروس 36 ألف جثة تعود لأفراد فرنسيين مذبوحين).

وهكذا فإن تمكن الفرنسيون من إنقاذ أي شيء من هذه الكارثة فإن هذا يشير إلى التضحية الكبيرة لبعض المهندسين والقيادة الفعالة لنابليون. وحيثما كان القادة الآخرون قد فشلوا، ربما كان نابليون قد كسب أكبر معركة شخصية له. لقد أنقذ جزءاً من قوته. لكن يا لها من قوة! في 29 تشرين الثاني، أرسل الإمبراطور رسالة إلى باريس: «جيشنا لم يكن يمتلك بصيرة جيدة اليوم». أما ماركيز دي شامبري فقد وصف الأمر بشكل مثير: «على ضفاف نهر بيريزينا انتهت مسيرة الجيش الكبير *La Grande Armée*، وهي القوة التي جعلت أوروبا ترتجف لعقدين من الزمن. توقفت عن الوجود بالمعنى العسكري، وسلامتها تكمن فقط الآن في رحلة متهورة.

لم يكن الأسوأ قد جاء بعد. كثيراً ما كان يطلق على روسيا اسم «مطبخ الطقس»، مما يدل على قوة الطبيعة وضعف الإنسان. كان هناك جيش يتراجع وسط عناد الشتاء الروسي الذي لا يطاق. في بداية شهر كانون الأول، كانت ريح صارخة تعوي عبر سهول روسيا المفتوحة على مصراعيها، وانخفضت درجة الحرارة إلى 32 درجة مئوية تحت الصفر. كان هذا التيار من الرياح الجليدية يصطدم بالرجال حاملاً هدير الطقس القاسي. تضاعفت شدة البرد وقوة الرياح. في البداية شعر الرجال بالذعر، إلا أنهم أصبحوا غير مبالين مع مرور الوقت. كانت العاصفة تنهش بهم بلا هوادة، وتجلد بهم عند الأكمام والسراويل. تدهورت

أحوالهم بشدة، وتحولت الرؤية لديهم إلى أضواء خافتة، وانتشرت الآثار البشعة لقضمة الصقيع في كل مكان. وأضافت ظاهرة «سراب الشتاء» العديد من الضحايا. كانت الأعمدة الخشبية تشير كعلامات إلى المسار الذي يؤدي للخروج من خلال الثلوج المتدفقة. بدأ الكثيرون يعانون من الهلوسة التي يسببها البرد. كان هناك عنصر أكثر تدميراً، وكان بمثابة اختبار لمعنويات القوات. فقد عانى الجميع من قضية الزر الرئيس. ففي البذلة التي يرتديها جندي الجيش النابليوني، كان هناك مشبك يعلق بزر البذلة الرئيس، وكان يستخدم لرفع بنطلون البذلة. في البرد القارس، أصبحت هذه الأزرار متهشمة ومفككة، وسرعان ما أصبح الجنود يسيرون والبنطال حول كواحلهم. يضاف إلى ذلك عذاب البذلة المتطايرة وهي بدون أزرار، حين تهب الرياح، مسببة تشنجات في المعدة، وحالات إسهال، وموت. لم يكن هناك ما يرفع من معنوياتهم.

توقفت الأشباح المتعثرة في مشيتها، متسائلة لماذا يجب أن تستمر بالسير إلى الأمام، وتواجه صراخ، وضجيج تلك العاصفة من الحقد المرعب. لكن الجنود عندما نظروا إلى جوانب الطريق، رأوا تحذيراً قاتماً لجميع أولئك الذين يريدون الاستسلام. كان رفاقهم سيئو الحظ قد رأوا أوتاداً لا تدل على شيء، وكانوا يسيرون وسط البياض معرضين أرواحهم لخطر شديد. كان خط تراجعهم يمر عبر الجثث المتناثرة، التي كانت متيبسة مثل ألواح خشبية. وكانوا يتعثرون بأقدام الجثث وربما يسقطون فوقها. عرف الأحياء أن عليهم أن يسيروا وإلا فإن مصيرهم هو الفناء وسط هذا الجليد. كان الثلج يتحول إلى جليد وإن لم يتصلب بعد. كانت كل خطوة تشبه المشي على الرمال المتحركة. ومثل بعض الآلات العملاقة التي تقذف الرمل، كانت العاصفة تضرب وجوههم بحبيبات حادة كالإبر. لم يستطيعوا أن يديروا رؤوسهم، كان عليهم أن يبقوا عيونهم شبه مغلقة على من أمامهم، وهو وسيلة اتصالهم الوحيد وسط الظلام، بالنسبة لجنود الحرس القديم من كبار السن،

والمجندين الشباب على حد سواء. وفي حين أن الشباب كانوا أقوياء الجسد، فإن كبار السن عوضوا عن ذلك بالعزم والإرادة. كانت لحاهم عبارة عن كتل من الجليد، وكانت العاصفة المزمجرة تنهش في الخرق الملفوفة حول رؤوسهم. كانت أكتافهم متدلية بشكل هزيل، ليست لديهم قوة لرفع البندقية، وكانت أفواههم مفتوحة، تكافح من أجل أن تتنفس. شعروا بأن البرد يزحف من بين أقدامهم. بعد مرور يوم آخر، وليلة أخرى، سقطت ويلات قضمة الصقيع عليهم. وعندما تعثروا في ملجأ لهم كان عبارة عن كوخ نصف محترق أو كهف، رقدوا ليلاً، تكوم بعضهم فوق بعض ليتبادلوا دفء أجسادهم، وعندما استيقظوا اكتشفوا أنهم كانوا ينامون مع الجثث.

استمرت العاصفة بلا هوادة وتجمدت العظام، وسيأتيهم الموت بسرعة ما لم يستمروا في المسير وسط الظلام المتجمد. كانوا يحركون أكتافهم وسط العاصفة، وظل تخبطهم يتصاعد وسط الخوف المتعاظم من عدو لم يفهموه، وهو «الجنرال شتاء». وهكذا بدؤوا يتسللون، مئة، ثم ألف، وعشرة آلاف... كان جيش من الأشباح، لم يسبق له أن هزم من قبل في أية معركة، يتجه نحو نهايته.

وفي 4 كانون الأول، وحين كانت بقايا جيش كان فخوراً بنفسه في السابق تقاتل في ضاحية سمورغوني، بالقرب من مدينة فيلما. دعا الإمبراطور قادته إلى اجتماع:

«يجب أن أنقذ ما يمكن إنقاذه، وهذا ما يمكنني فعله في باريس فقط».

بتلك الكلمات قام نابليون بتسليم القيادة الشاملة إلى الأمير مارات وودع جنرالاته. وانطلق إلى باريس وبصحبته سفيره، الكونت كولايكوغ، ثم قال للكونت: «ينبغي أن ينظر الجميع للروس على أنهم آفة». «أي حرب تشن ضد روسيا تصب في مصلحة أوروبا القديمة...»، وبعد فترة توقف، أضاف: «... والحضارة». وسط ظلام يوم الثامن عشر

من كانون الأول، دخل نابليون المهزوم باريس تحت قوس النصر[1] الذي أراده رمزاً يخلد انتصاراته. وكانت بقايا جيشه تمضي قدماً، من خلال صمت الغابات اللامتناهي، تحت بلورات الثلج المتلألئة المتدلية من الأشجار. جلس الكثيرون وسط الثلج العميق وانتظروا النهاية، بينما قرفص آخرون وهم يتلفعون بالبطانيات، وهم يعلمون أن شواهد قبورهم ستكون في صباح اليوم التالي كومة من الثلج. لن يتم دفن أي منهم؛ سيرقدون متجمدين في الحقول والغابات حتى يحولهم ذوبان الجليد إلى غذاء لآلاف الغربان. لقد أصبح ما كان فخراً للإمبراطورية، ذلك الجيش الذي لم يُهزم والذي كان عدد أفراده يربو على نصف مليون رجل كانوا قد عبروا نهر نيمان قبل ستة أشهر فقط، مجرد مجموعات منعزلة من أفراد كانت ثيابهم رثة ومنهكين، ويعانون من الجوع ويلفون أجسادهم بالخرق، وقد عادوا في النهاية إلى نقطة البداية نفسها.

في 13 كانون الأول، كانت مجموعة كبيرة من الجنود رثي الثياب وجنود من سلاح الفرسان لا يصحبون خيولهم تشق طريقها بصعوبة وسط مدينة كونو الحدودية. كان من الواضح لضابط التموين المحلي أن إطعام هذه الكتلة البشرية شبه الموهنة بأي طريقة منظمة كان أمراً غير وارد. وعندما حاول إنشاء مركز توزيع للطعام، تم دفع حراسه جانباً. فقد اقتحمت الجحافل الجائعة، المخزن، ونهبته، وحشوا بطونهم بالطعام إلى حد الانفجار ثم إلى حد التقيؤ. والأسوأ من ذلك هو مصير أولئك الذين مزقوا أكياس الطحين المفتوحة، فبسبب جوعهم التهموا كميات كبيرة منها. ثم اختنقوا عندما سدت كتلها السميكة أفواههم وأحشاءهم. ولسبب غير وجيه، ألقى عدد قليل من الجنود مشاعلهم في براميل من النفط وأضرموا النيران في المستودع، وبذلك حرقوا نصف رفاقهم وحرموا المتأخرين من نصيبهم من الطعام. ولكنها فقط كانت البداية. ففي وقت متأخر من بعد الظهر، عثر الناهبون على قبو يضم

1- شُيِّد بناء على أوامره للاحتفال بذكرى معركة أوسترليتز.

مئات البراميل من شراب البراندي الفرنسي. فأحدثوا ثقوباً في البراميل، وصبوا السائل ذا لون الكهرمان الأصفر في دلاء، ثم انغمسوا في فورة شرب وحشية. ومد الآخرون رؤوسهم ببساطة تحت صنبور البرميل وفتحوا أفواههم. وانتهى بهم الأمر إلى أن سكروا، ثم ترنحوا وسط الثلج المتكدس وتمددوا فوقه وبدؤوا بالشخير. تم تجريد من كان نائماً وهو في حالة سكر، ويرتدي ملابس صالحة للاستعمال، من ملابسه وتركه يتجمد حتى الموت. وهكذا، بعد أن هربوا من الفرسان القوزاق اللعينين، لم يصلوا بأمان إلا ليلاقوا الموت من البرد على يد رفاقهم.

في منتصف الليل تقريباً، وصلت ترويكا[1] تحمل صناديق التمويل الحربي قادمة من فرنسا مع مرافقيها. تم تفريغ الصناديق وأكياس الذهب في وسط ميدان المدينة وقد أحاط بها حراس مسلحون لكن الليل كان بارداً جداً لدرجة أن الحراس بدؤوا يتحركون جيئة وذهاباً ليحافظوا على أقدامهم من خطورة التجمد، أو يذهبون للحظات بحثاً عن الطعام لأنفسهم. هذا الأمر ترك عدداً قليلاً فقط مِن الرجال لحراسة الكنز. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى لاحظ الرعاع كومة الأكياس شديدة الحراسة. لفترة من الوقت، تمكن الحراس من الحفاظ على مظهر من مظاهر النظام باستخدام البنادق والحراب. تجمّع الجنود ذوو الثياب الرثة حول الأكياس المملوءة بقطع من الذهب، عندما سمعت أصوات طلقات نارية من ضواحي المدينة، وارتفعت صرخات تقول «القوزاق!». هرع الرجال في حالة من الذعر، واتجه كل واحد منهم نحو الجسر الذي يمر عبر نهر نيمان سعياً وراء السلامة على الشاطئ المقابل. ووسط حالة الارتباك، قام بعض الجنود، بدلاً من الوقوف والقتال ضد القوزاق الذين يتعقبونهم، بمهاجمة حراس الكنوز، وطعنهم، ثم حشوا الكثير من الذهب في جيوبهم بقدر ما تتسع معاطفهم الرثة من حمله. استولى الجشع عليهم، واندلعت المعارك، وقطعت المزيد من الأعناق.

1- عربة تجرها ثلاثة خيول. المترجم.

كان إطلاق النار يقترب، وظهر أول القوزاق شاهراً سيفه. ولكون عبور الجسر كان مستحيلاً بسبب تكدس الناس فيه، حاول العديد من اللصوص الهروب عبر النهر المغطى بالجليد. غرق معظمهم، تم سحبهم والذهب في جيوبهم. ثم تم تجريدهم من ملابسهم وتركهم ليموتوا من قبل رفاقهم، وما بين قطع أعناقهم من أجل الذهب، أو غرقهم بسبب جشعهم، هكذا هلكت عبثاً البقية الباقية من الجيش الكبير[1].

«لم يعد من الممكن أن نقاتل تحت قيادة رجل مجنون». هكذا كتب الجنرال المحبط مارات في مذكراته السرية بعد أن وصل بسلام إلى منطقة غومبينين في شرق بروسيا.

اضطر رئيس هيئة الأركان في جيش نابليون، المارشال بيرتيير، إلى الإعلان عن: «إن الجيش كله قد تم حله بالكامل، بما فيهم الأربع مئة رجل الذين يمثلون كل ما تبقى من الحرس الإمبراطوري».

وصول درجة الحرارة إلى خمس وعشرين درجة مئوية تحت الصفر وتساقط الثلج بكثافة على الأرض كانا هما السبب في حالة الجيش الكارثية، والذي لم يعد موجوداً.

كتب نابليون خلال منفاه في سانت هيلينا: «كانت معركة موسكو أفظع كل المعارك التي خضتها».

في اليوم التالي على كارثة بيريزينا، أرسل المارشال ني رسالة مستعجلة إلى زوجته: «ما تبقى من الجيش يسير في أرتال منكسرة. إنهم مجرد أفراد يسيرون بلا هدف، جائعون ومحمومون. أنا أغطي تراجعهم. لقد استولت «المجاعة العامة» و«الجنرال شتاء»، بدلاً من الرصاصات الروسية، على الجيش الكبير». بعد ثلاثة أسابيع (في 14 كانون الأول)، قاد المارشال نفسه ني مؤخرة الجيش عبر نهر نيمان. واستطاع بالكاد تجميع ألف رجل يصلحون للعمل.

1- راجع كتاب تحت رايات نابوليون:

Unter Napoleons Fahnen, Erinnerungen aus den Feldzuegen, 1809–1814.

لقد فشل نابليون في الاستماع إلى نصيحة رجاله الحكماء.

«الجنرال شتاء» قام بالباقي.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه الأمير تاليران، صانع الملوك الأبدي الذي استطاع التهرب من الوقوع تحت المقصلة، خدم أربعة ملوك، خانهم جميعاً، عندما قال بعد أن قرأ رسالة نابليون التي بعثها من الأراضي الجليدية في روسيا: «*C'est le commencement de la fin* إنها بداية النهاية».

في نهاية المطاف تسلل الناجون المحظوظون مرة أخرى إلى باريس، في مجموعات صغيرة وخلال ساعات الظلام. ربما كانوا يخجلون من البقاء على قيد الحياة. وكتب الكونت فيليب دي سيغور «ما عاد كان هو شبح الجيش الكبير». ومع ذلك، شعروا أنهم تعرضوا للهزيمة على يد الطبيعة فقط.

على الرغم من عدم خسارته لمعركة واحدة خلال الحملة بأكملها، فإن غزو نابليون لروسيا تحول إلى أكبر هزيمة له. ومهد انسحابه من روسيا الطريق أمام قيام الثورات ضد نظامه القمعي عبر قارة أوروبا بأكملها. بعد عدة أشهر، عندما شارك في معركته الكبرى في لايبزيغ، والتي كانت تعرف في التاريخ باسم «معركة الأمم»، لم يعد يحارب النمساويين أو الروس، بل كل أوروبا[1].

أما بقية القصة فقد تكفلت بها كتب التاريخ.

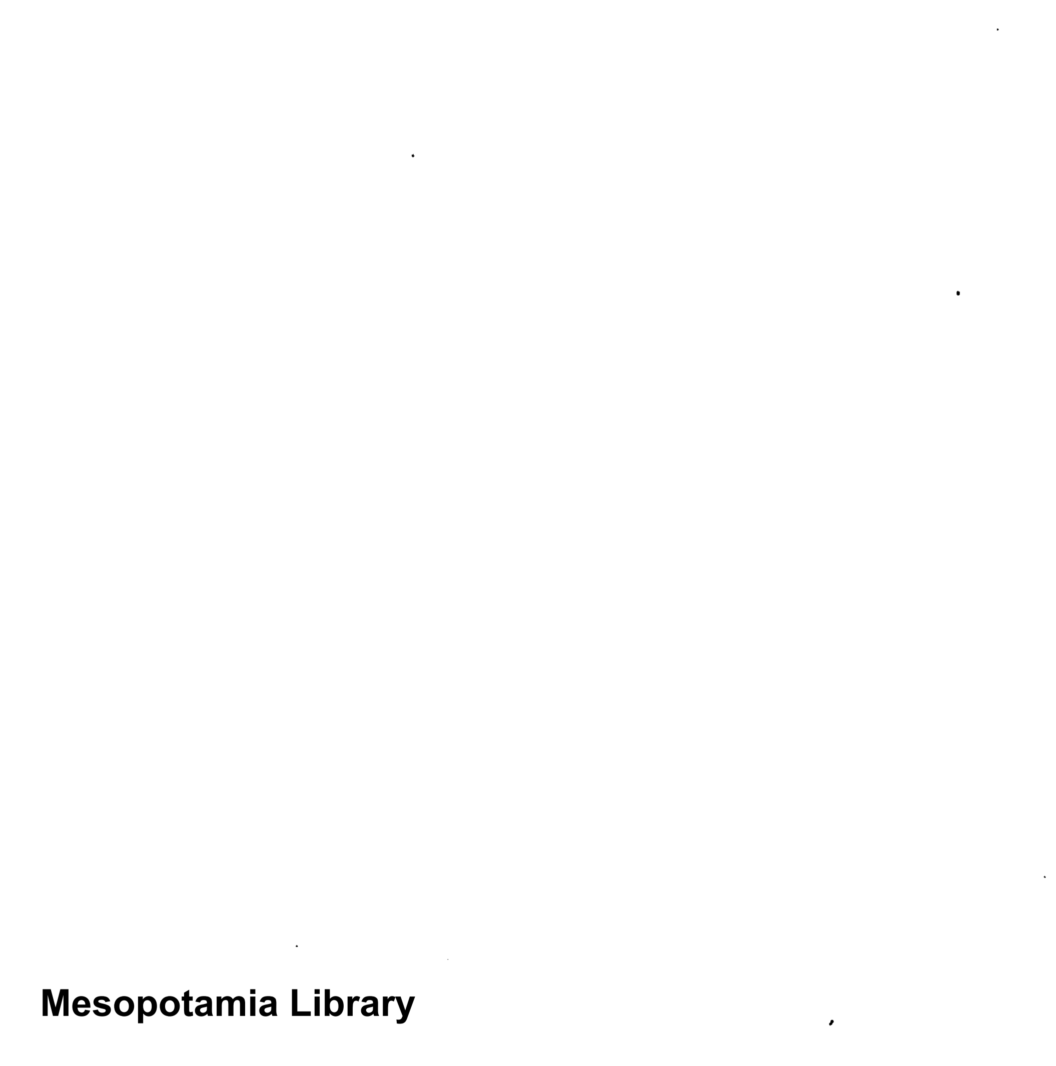
كان التاريخ يعيد نفسه بالطريقة ذاتها بالضبط، على الطرق نفسها وفي القرى نفسها، والغابات والحقول، من قبل رجل آخر اعتقد أنه قادر على محاربة العدو والطبيعة، والذي لم يتعظ بدروس التاريخ.

كان نابليوناً جديداً ولكن مع جهاز هاتف ودبابة.

وقد جرى هذا الحدث بعد 129 سنة من اليوم الذي عبر فيه نابليون العظيم نهر نيمان وبدأ مسيرته المنكوبة إلى روسيا.

1- اقتصرت مشاركة انجلترا في تلك الحرب على إرسال بطارية صواريخ.

«رغم أن تدمير جيش نابليون قد حدث بشكل أوسع مما كانت تقتضيه الحاجة، فلم يكن خطؤه في توغله بعيداً في الأراضي الروسية، ولكن في الوقت المتأخر الذي بدأ فيه الحملة، والعدد الكبير في الخسائر بالأرواح الناجم عن تكتيكاته، وعدم العناية اللازمة بالإمدادات، وأخيراً، في انسحابه المتأخر من موسكو». (كارل فون كلاوسفيتز).



مجاعة البطاطا الكبرى
أيلول 1845- تموز1849

رائحة المجاعة النتنة
لا زالت عالقة في أغصان الشجيرات
وفي أحراج السلتيين[1] الحزينة

• ديزموند إيغان [2]

في تشرين الثاني من عام 1844، تلقت الحكومة البريطانية رسالة من رئيس الوزراء السير روبرت بييل مفادها أن مرضاً مجهول المصدر قد هاجم ودمر جزءاً كبيراً من محصول البطاطا في الولايات المتحدة. تم رفع هذا التقرير باسم «آفة البطاطا الأمريكية» ولم يتم فعل أي شيء حيال ذلك.

في منتصف صيف عام 1845، كان محصول البطاطا في أيرلندا يعد بأن يكون محصولاً وفيراً.

في منتصف شهر تموز كان الطقس على عادته حاراً وجافاً، وقد أعلنت مجلة فريمان بسرور: «لم يكن محصول البطاطا الذي يمتلكه الرجل الفقير، يوماً بهذا الحجم الكبير ولا بهذه الكميات الوفيرة».

لكن تقلبات الطقس الأيرلندي كانت معروفة جيداً. في أحد الأيام، كانت أشعة الشمس ساطعة في ذلك الوقت بالذات والناس يتجولون

1- أقوام أوروبية قديمة. المترجم.
2- شاعر أيرلندي. المترجم.

وهم يرتدون القمصان، لكن في اليوم التالي، استيقظت دبلن على الضباب الأكثر كثافة في التاريخ. انخفضت درجة الحرارة، وأصبح الجو بارداً، وكانت الرؤية محدودة لا تتعدى أمتاراً قليلة. ذهب الناس إلى العمل يتلمسون خطاهم بعيون ضيقة وسط الظلمة، يبحثون بيأس عن طريق يوصلهم إلى أماكن عملهم، يحاولون التغلب على الشعور بعدم الارتياح الذي بدأ يتملكهم. ماذا حدث؟ إنه شهر تموز وليس شباط!

لم يعد الناس بشراً، بل أصبحوا أشباحاً، تتخبط فيما حولها في فراغ مظلم. وظلوا على مقربة من جوانب الشوارع، يتلمسون جدران المنازل، وعندما تنتهي يتابعون المسير عبر الشوارع، على أمل العثور على جدار آخر على الجانب الآخر. لم يتلقَ سكان دبلن أي تحذير مسبق واضطروا إلى التعامل مع البرد والضباب بأفضل الوسائل التي لديهم. بدؤوا يكدسون الفحم في مواقدهم لتدفئة منازلهم. ثم جاءت الأمطار، بعد يوم كان يبدو أن لا نهاية له.

لم يكن الحال أفضل في الريف. فقد سقطت الأمطار، على مناطق غالواي، وكيري، وليمريك ودونيغال. وعلى نطاق واسع، كانت ثلاثة أسابيع طويلة من الطقس البارد المستمر، والضباب الكثيف والأمطار الغزيرة. نعم، شهد عام 1845 صيفاً غير عادي بالنسبة للمزارع الأيرلندي. حقوله كانت مغمورة بالماء، وغرقت بهائمه وفاض كوخه بالمياه. وضع غير واقعي في عالم بات يتملكه الجنون.

وبالإضافة إلى كثرة المصاعب التي تعرض لها السكان، ضرب الطقس نبات البطاطا. الذي لم يتم تحصينه ضد العفن، حيث لم يتم اكتشاف علاج واقٍ له إلا بعد سبعين سنة فقط. كان العلم في ذلك الوقت بلا حول ولا قوة. وحينها أعلن الدكتور جون ليندلي، الشخصية البارزة وأستاذ علم النبات في جامعة لندن: «لقد انتشر مرض خبيث في محصول البطاطا الأيرلندي. أما بالنسبة لعلاج هذا المرض، فلا يوجد شيء حالياً. لقد هاجمتنا كارثة كبيرة ويجب أن نتحملها».

في 13 أيلول من عام 1845، ظهر مقال للدكتور ليندلي في جريدة وقائع البستنة والحدائق *Gardener's Chronicle Horticultural Gazette*. والتي تعتبر الكتاب المقدس للزراعة يقول في أحد مقتطفاته: «لقد أوقفنا طبع الصحافة لنعلن بأسف شديد للغاية أن محصول البطاطا في أيرلندا قد أصابه الطاعون بشكل واسع فكيف سيكون حال أيرلندا إذا ما أصاب التعفن محصول البطاطا في العالم كله؟».

ما لم تنشره الجريدة هو ما لم تكن تعرفه. إن هذا كان فقط بداية المشكلة. نعم، كان هناك ما يزيد عن عشرين عملية فساد لمحصول البطاطا حدثت من قبل، بسبب تعرضها إلى الصقيع أو إصابتها بمرض تجعد أوراقها، ولكنها لم تكن شديدة للغاية مثل تلك التي ضربت أيرلندا في خريف عام 1845.

كان ذلك الداء الشرير بوغاً[1] صغيراً يوقف نمو نبات البطاطس. لقد أصبح أمراً واحداً واضحاً للأسف، أنه مع تغير المناخ، لن يكون هناك محصول كبير من البطاطا هذا العام. كانت أيرلندا تعتمد على محصول البطاطا. إذا مرت سنة واحدة وكان فيها إنتاج المحصول قليلاً فإن الناس سوف يتضورون جوعاً قبل الربيع، كان ذلك أمراً مؤكداً إلى حد بعيد. غادر معظم السكان ديارهم وهم يحملون عدداً قليلاً من الحاجيات البائسة، ما يكفيهم لمدة شهر ربما، ولم يكن يكفيهم من أجل العيش طوال فصل الشتاء. لم يكن لدى القرويين أدنى شك في أنه ستكون هناك أوقات صعبة في المستقبل. للجميع باستثناء أصحاب الأرض، لأنهم كانوا يسافرون إلى إنجلترا كلما أصبحت الأوضاع صعبة.

مع إنهائها للحروب النابليونية بنجاح، أصبحت الإمبراطورية

1- البَوغ (بالإنجليزية: Spore وجمعها أَبْوَاغ) في علم النبات هو خلية تكاثر لاجنسي، تنقل النبات من حالة الركود إلى حالة النشاط أو العكس. المترجم.

الإنجليزية القوة الأكثر عظمة على وجه الأرض، وفرضت نظام[1] *Pax Britannica* عبر مستعمراتها الشاسعة. وأصبح من الصعب للغاية تسديد ضربة عسكرية خصوصاً إلى جيرانهم في جزيرة الزمرد[2]. كان الإنجليز هم من يمتلكون الأرض وكان الأيرلنديون يعملون بها. فرض ملاك الأراضي الإنجليز قوانينهم وقاسى الفلاحون الأيرلنديون منها.

كانت العلاقة بين المالك والفلاحين المستأجرين تدور في حلقة مفرغة. لم يقتصر الأمر على عدم امتلاك الفلاح المستأجر للأرض لرأس المال لتحسين محاصيله، فضلاً عن تأكده من أن إيجار الأرض سيرتفع إذا غامر بإدخال أدنى قدر من التحسن عليها، لذلك فقد كان حريصاً على عدم تطوير، أو محاولة تحسين جودة «البطاطا». إذا حدث وتعاقبت مواسم الحصاد الوفير، رفع المالك على الفور الإيجار ومن ثم كان يرفض العودة إلى السعر القديم لأنه يجد أنه من غير الملائم الحد من الإيرادات التي عوّد نفسه عليها.

كان على المستأجر، الذي يعمل في قطعة أرض لا تكفي لإطعام عائلته، أن يبحث عن عمل إضافي لدفع إيجار منزله. الكفاح المستمر من أجل البقاء جعل هؤلاء الأشخاص البائسين غير مهتمين بما حولهم وتحولوا من أشخاص كسالى إلى أناس سكيرين، في حين أصبحت زوجاتهم نساء مهملات وأطفالهم شاحبين وقذرين. ومثل خنجر مغروز في الجرح ويجعله يتقيح، كانوا يلقون باللوم في كل بؤسهم على المغتصب الإنجليزي. إذا عرّض المستأجر نفسه للطرد من الأرض لأنه لا يدفع الإيجار بشكل منتظم، فإن هذه السمعة ستلاحقه أينما يذهب

1- ومعناه السلام البريطاني باللاتينية منذ مغامرات نابليون بونابارت الكونية، التي انتهت بهزيمته في معركة واترلو الفاصلة 1815م، ومن ثَمّ وضع حدٍّ لطموحاته التوسعية للهيمنة على أوروبا، شهد العالم هيمنة كونية شبه مستقرة لبريطانيا، امتدت لمئة عام (1815-1914). المترجم.

2- الاسم الذي تكنى به أيرلندا وذلك بفضل أراضيها الخضراء الغناء التي أوجدها المناخ المعتدل والأنهار العديدة. المترجم.

ولن يتمكن من العثور على قطعة أرض أخرى يستأجرها. ولم يترك له هذا الوضوع خياراً سوى الهجرة، لكنه كان يفتقر إلى الموارد اللازمة لتسديد تكاليف الهجرة له ولأسرته.

وما دام سكان الريف المضطهدون الذين يعانون من الفقر لا يمنحون حافزاً، نظراً لأن مالكي العقارات لا يفكرون إلا في الأرباح وليس في تحسين محاصيلهم، ونظراً لتقلبات الأحوال الجوية في أيرلندا، فإن حدوث كارثة كان أمراً متوقعاً. إن البدء بزراعة محاصيل متنوعة كان بمثابة الوقاية المعقولة من حدوث الكارثة، لكن الجميع كان يتجاهل المنطق السليم عندما يتعلق الأمر بحساب الأرباح. وبالتالي اعتمدت أيرلندا كلياً على إنتاج محصول واحد، وإذا ما تعفن ذلك المحصول، تتم إدانة شعبها. العلامات الأولى لم تتأخر في المجيء. في تشرين الأول 1845، نشرت مجلة فريمان رسالة من كاهن محلي: «يحزنني أن أخبركم بأن العفن يسبّب تلفاً مخيفاً حتى في البطاطا، التي كانت سليمة قبل ثمانية أيام».

أعلن الدكتور ليندلي عالم النبات المشهور في أعقاب جولة التفتيش التي قام برعايتها في أيرلندا، أنه بسبب هطول الأمطار المستمر، فإن البطاطا قد أتخمت بالكثير من المياه التي لم يعد بإمكانها استيعابها مما أدى إلى تعفنها.

وحينها أصبح من المؤكد أن مرض البطاطا المميت قد عبر المحيط الأطلسي في شحنة من الحبوب قادمة من أمريكا؛ في ذلك الوقت، كانت أصوله غير معروفة فلم يهتم أحد أبداً بالتحذير الذي أطلقه الدكتور ليندلي. ولم يتم اكتشاف مرض *Phytophthora infestans*، أو اللفحة المتأخرة[1] أو آفة البطاطا، إلا في القرن العشرين. وكان عبارة عن

1- مرض يصيب نباتي البطاطس والطماطم عن طريق المسبب الفطري فيتوفثورا إنفستنس، ويعتقد أن بيرو هي الموطن الأصلي للمرض ومنها انتقل إلى أوروبا. المترجم.

نمو دقيق، لفطر بوغ ذي قوة تدميرية كبيرة. وهو يتضاعف بمعدل مخيف ويمكن لبوغ من نبات بطاطا واحد مصاب تدمير آلاف النباتات الأخرى في وقت قصير جداً. وعلى الرغم من أن المطر ليس السبب المباشر لهذه الآفة، إلا أنه سبب انتشاره، لأنه بدون رطوبة يتضور الفطر جوعاً ولا يتكاثر. وهكذا، فإن الظروف المناخية في أيرلندا عام 1845 قدمت الظروف المثالية لانتشار هذه الآفة بشكل سريع.

حاول دانيل أوكونور، عضو مجلس العموم المنتخب عن أيرلندا، تحذير حكومة السير روبرت بييل لاتخاذ إجراءات وقائية، عندما أعلن في مجلس العموم: «الناس ليسوا الملومين. إن العناية الإلهية هي التي سلطت عليهم هذه المصيبة».

أوضح اللورد هيتزبري (اللورد ليفتنانت) أي الحاكم العام في أيرلندا، الأمر بنغمة أكثر برودة: «لقد كان هذا الموسم غير لائق فلم تسطع الشمس كثيراً في هذا الموسم لدرجة أن البطاطا قد نضجت. بشكل غير سليم».

أظهر ذلك أن الرجل قلق حول أرباح البطاطا أكثر من اهتمامه برفاهية رعاياه، مهما كان وضعهم الاجتماعي. ولكن ماذا كانت الخطة التي تعهد بها، باعتباره ممثل الحكومة البريطانية، لمساعدة الأيرلنديين؟ إذا كان بوسع المرء أن يصدق مقالة ظهرت في مجلة فريمان في 29 تشرين الأول من عام 1845، والتي أشارت إلى الاستقبال الفاتر الذي استقبل به اللورد ليفتنانت وفداً من أعيان أيرلندا وجاء فيها: كان الرد الذي قدمه أمس نائب الملك الإنجليزي إلى الوفد أنه قال: «من المحتمل أنهم يعانون من الجوع!». يا لها من مشاعر، حتى لو لم تستطع الكلمات أن تعبر عنها، وقد صلى الوفد من أجل أن لا يمس السوء المحاصيل الزراعية في المملكة، خشية أن يهلك الناس.

«لقد سبق وأن قام رئيس الوزراء روبرت بييل بالفعل بتخصيص 100 ألف جنيه استرليني لشراء محصول الذرة الذي يزرعه الهنود الأمريكان

لشحنه إلى أيرلندا، وقد ساعد تحركه الحاسم على التغلب على المرحلة الأولية من المجاعة في أوائل عام 1846. ولكن بعد ذلك اندلع نزاع مرير بين وزرائه، ومنع مجلس الوزراء تقديم أية مساعدات إضافية. ترك هذا الطريق المسدود أمامه سبيلاً واحداً فقط لمكافحة المجاعة: إلغاء قانون الذرة، وهو تشريع تم تمريره لحماية سعر الحبوب المزروعة في بريطانيا. هذه الخطوة التي لا تحظى بشعبية هي التي أدت إلى انقسام الحكومة وأسقطت روبرت بيل[1]. أو كما قال دوق ويلنغتون الطاعن في السن: «لقد فعلت البطاطا المتعفنة كل ذلك، وضعت بيل في رعب مجنون».

جاء الشتاء وترافق الجوع معه. لقد ضربت كارثة كبيرة القرى. لم يكن هناك المزيد من الطعام... لقد استنفدت جميع مخزونات البطاطا. كان هناك الكثير من المرضى، والقليل من الموارد. مع مرور الأيام، تصاعد اليأس. أغلقت نوافذ وأبواب قصر أحد الملاك في إحدى القرى، كانت الساحة الأمامية للقصر مليئة بالنساء النائحات والأطفال الموتى. وكانت هناك امرأة أشبه بالفزاعة وقد لفت نفسها بخرق ممزقة تتحرك إلى الأمام والخلف. بدت عليها سيماء الموت، وكانت قذرة وقد غزاها القمل. استغنى الكاهن عن أداء الطقوس الأخيرة للموتى بسبب أعدادهم الكبيرة. كانت تلك القرية تحتضر، تماماً كما هو حال القرى الأخرى في جميع أنحاء البلاد.

استمرت الآفة بلا هوادة طوال السنة التالية. كان عام 1846 أسوأ بكثير من عام 1845. بعد ربيع معتدل، استحوذ البرد على أيرلندا من جديد، ابتداءً من مقاطعة دونيجال وحتى مقاطعة كورك، وهطلت الأمطار وأغرقت جزيرة الزمرد من مقاطعة كيلدير حتى مقاطعة غالواي. تحولت الطرق الترابية إلى طرق طينية غير سالكة. توقفت حركة النقل، ولم تعد معونات الطعام الطارئة تتمكن من الوصول إلى وجهتها. شعر سكان

1- لم يتمكن أحد من تشكيل حكومة أخرى لمواجهة الأزمة لذا رفضت الملكة فيكتوريا قبول استقالة بيل.

المدن بهذا الأمر عندما تم رفع أسعار المواد الغذائية مع التوضيح أن النقص فيها وصل إلى مرحلة حرجة. وفي الوقت نفسه، أغرق المطر المستمر الحقول وحجب ضوء الشمس، وفي الأيام القليلة التي حاول فيها ضوء الشمس اختراق السحب، لم يستمر الفترة الكافية لتجفيف الأرض. اجتاحت العواصف الرعدية العنيفة والأمطار الغزيرة البلاد وأدت إلى انتشار آفة البطاطا. سرعان ما أصبح واضحاً أن الناس لم يعودوا قادرين على البقاء على قيد الحياة ما لم يتم اتخاذ خطوات فورية. نعم، كان عام 1846 أسوأ، لأن التجار عديمي الضمير كانوا يشترون أي شيء صالح للأكل ويعرضوه في السوق بأسعار باهظة للغاية، وكانت الأسعار عالية جداً بالنسبة للفقراء الأيرلنديين لا يستطيعون تحملها. وفي وسط حالتهم اليائسة، اقتحم حشد من الناس أحد بيوت العمل[1] المحلية في مدينة ليستويل في مقاطعة كيري، وهم يصرخون: «الخبز أو الدم!».

كان تشارلز إدوارد تريفيليان، يشغل منصب، مساعد رئيس الخزانة[2] وكان ذلك بالاسم فقط لأنه فعلياً، كان هو الوزير. وعلى الرغم من حقيقة أنه كان ينظر للأيرلنديين باستخفاف، فقد تم تسليمه السلطة للإشراف على برنامج الإغاثة الغذائية الأيرلندي (الذي وضع تحت سيطرة وزارة الخزانة). ورفض فتح مستودعات الإغاثة الغذائية: قائلاً: «إن الطريقة الوحيدة لمنع الناس من الاعتماد بشكل دائم على المساعدات الحكومية هو وقف هذه العملية»، وأمر بإغلاق المتاجر الحكومية في 15 آب. وبهذه الخطوة، أصبح أحد الشخصيات البارزة في المأساة الأيرلندية التي باتت واضحة للعيان.

في آب من عام 1846، مع تزايد ظهور البطاطا السوداء في الحقول بشكل كبير، كان لا يزال هناك أمل: فقد كانت أجزاء صغيرة من الريف

1- أُنشئت بموجب قانون الفقراء الإنجليزي لسنة 1834 لمساعدة الفقراء وكملجأ لهم. المترجم.

2- وزير المالية. المترجم.

تزدان بالقمح الذهبي، والتي كان يمكن استغلالها لتخفيف المجاعة. ومع ذلك، لم تكن الحبوب تعتبر في أيرلندا غذاءً، ولكن كنقود لدفع الإيجار! لم تساعد السماء الفلاح الأيرلندي الذي يعجز عن دفع الإيجار مما يجعله يواجه إجراءات الإخلاء الفوري، التي كان يتم تطبيقها بوحشية مطلقة من قبل المالك وتحت حماية القانون.

نال تريفيليان ومواطنوه كراهية الأيرلنديين الأبدية دون أدنى شك عندما رفض وقف تصدير هذه المواد الغذائية من أيرلندا. وأعلن أنه لن يتدخل في قانون العرض والطلب: «لا يمكننا تشجيع فكرة حظر الصادرات، والتجارة الحرة المثالية هي الطريق الصحيح».

وهكذا، بحلول أيلول عام 1846، تم تصدير المنتجات الغذائية من أيرلندا التي تسود فيها المجاعة إلى إنجلترا والموانئ الأوروبية الأخرى. ووفقاً للسجلات الرسمية، وفي ذروة فترة المجاعة عام 1846، شحنت أيرلندا إلى إنجلترا: 250 ألف ربع[1] من الحبوب و700 ألف قنطار من الشعير، ومليون ربع من الشوفان ودقيق الشوفان[2]. وصدر تقرير آخر[3] يؤكد ذلك ويشير إلى أن الكميات المصدرة كانت 169,18، طناً من القمح، و990,8، ، طناً من الشعير و938,102، طناً من الشوفان. وهكذا كانت تجري الأمور، فبينما كان الأيرلنديون يموتون من الجوع، جمع تجار الحبوب الإنجليز ثروة طائلة.

أقام الطاهي الفرنسي الشهير، ألكسيس سوير، مطاعم للفقراء أمام الثكنات الملكية في دبلن. لكن الحساء الخفيف الذي تم توزيعه كصدقات كان بالكاد يعتبر بديلاً غذائياً للعمّال الأيرلنديين الذين اعتادوا تناول وجبات متكونة من 14 رطلاً من البطاطا. وفي حين كانت مطابخ الحساء تقدم الطعام لثلاثة ملايين من الأيرلنديين، أعلن سكرتير تريفيليان في بيان له:

«هناك الكثير من الأسباب للاعتقاد بأن موضوع قانون الإغاثة قد

1- مقياس يساوي تقريباً ربع رطل. المترجم.

2- راجع: T. Hayden, Irish Hunger.

3- راجع: Edwards and Williams, The Great Famine.

انحرف عن غايته إلى حد كبير فهو يتم تطبيقه بشكل مستمر وأصبح يمثل وسيلة إعانة إضافية لأفراد الطبقات الدنيا، ومساعدة للمزارعين وأصحاب العمل، بدلاً من أن يتوجه نحو إعانة المعدمين تماماً. وهي الغاية الحقيقية منه».

ذهب تريفيليان خطوة أبعد من ذلك. وأعلن أن «هذا الإسراف يجب أن يتوقف» وأن دافع الضرائب في الولايات المتحدة يتحمل العبء الكامل للمجاعة، وبالتالي فإن كل إعفاءات بموجب قانون مطاعم الفقراء ستتوقف بحلول أيلول.

«إنني أرى أن الكثير قد تم إنجازه للناس. في ظل مثل هذه المعاملة، أصبح الناس أكثر سوءاً بدلاً من أن يكونوا أفضل. كان كل ما يمكن القيام به قد تم إنجازه، أما الباقي فيجب أن يترك الآن لعمل الأسباب الطبيعية». وقد تم منح تشارلز إدوارد تريفيليان لقب فارس لقاء أعماله.

كتب رجل دين محلي يائساً في رسالة بعثها لأحد أساقفته، «وحدها السماء تعرف متى تنتهي هذه الأشياء لأننا لم نر حتى الآن سوى بدايات البؤس الذي ينتظر مواطنينا التعساء».

هكذا كانت تجري الأمور. كان الناس لأجل أن يتغلبوا على جوعهم، يخبزون الفطائر من نشارة الخشب، وكشط الغراء الموجود في ورق الجدران وغليه ليتناولوه كحساء مركز. لم يكن المرضى بحاجة إلى أدوية، بل كانوا بحاجة إلى الغذاء ليتعافوا. مات الناس في كل مكان، في أكواخهم، في الطرقات وفي الحقول. لم يتم دفن معظم الجثث وكان يتزايد ظهور شبح الأوبئة يوماً بعد يوم.

كان عام 1847، أو كما كان يطلق عليه الأيرلنديون، «العام الأسود» على وشك البدء. أدت المجاعة إلى ظهور بطالة على نطاق لم يعرف من قبل. بدأ الصيف بطريقة رائعة وكان يعتقد الجميع أن رعب الجوع قد انتهى أخيراً. لكن شبحاً آخر كان يلوح فوق أيرلندا. كان الناس، الذين أضعفهم الجوع، فريسة سهلة للأمراض الوبائية. لم تمت الأمة

جوعاً فحسب، بل أصبحت حاملة لميكروبات مرض معدٍ ومميت، وهو التيفوس.

اجتاح طاعون التيفوئيد الجزيرة. لم يتأثر الرب بصرخات أبنائه ليتشفعوا عنده من أجل مغفرة خطاياهم، التي، حسب اعتقادهم الشديد، قد جلبت هذه الكارثة الجديدة. ارتفع عدد الوفيات من جراء مرض التيفوس، كان هذا الوباء ينتشر عن طريق القمل. يبدأ المرض بالقيء والغثيان وتظهر البثور قبل أن تنشر الغرغرينا في الجسم. إلى جانب التيفوس، كانت الحمى الراجعة مرضاً مميتاً آخر، ينتقل أيضاً بواسطة القمل. يبدأ بحمى شديدة وتعرق غزير، وكانت تنتهي معظم حالاته بالموت. ورغم ذلك لم تصل الأمور إلى نهاية المطاف، كانت هناك أمراض قاتلة أخرى تماثل الطاعون مثل الزحار العصوي (التدفق الدموي)[1] والإسهال المعدي، والذي أصيب به لأول مرة الأطفال الذين كانوا يلتهمون أوراق الكرنب القديمة أو اللفت المتعفن لأجل سد جوعهم. وبالطبع كانت هناك دائماً وذمة الجوع، التي كانت تؤدي إلى تورم الأطراف ومن ثم الموت.

وكانت تنطلق من عنابر المرضى قليلة العدد الموجودة في المستشفيات الرائحة الكريهة من الجثث المتعفنة مما دفع الطاقم الطبي إلى تركها. كان الأبطال الحقيقيون هم الأطباء ومساعدوهم من المتطوعين، وكذلك الكهنة. كانت شجاعتهم لا توصف، كانوا مدركين تماماً للمخاطر التي يتعرضون لها بسبب احتكاكهم يومياً مع المرضى المصابين بالعدوى وأبناء الأبرشية.

وكان البقاء في المكان نفسه معناه التعرض للموت المحقق لذلك، كان جميع سكان البلد يرتحلون. غادر الناس منازلهم وتركوا حقولهم، تركوا كل شيء للهروب من الرعب وإيجاد حياة أفضل. أدى ذلك إلى حدوث أكبر موجة نزوح جماعي في التاريخ الأوروبي. وينبغي اعتبار

1- حمامات الدم التي أهلكت الجيوش في القرون الوسطى.

الهجرة الأيرلندية إلى أمريكا الشمالية أهم تأثيرات المجاعة الكبرى. بدأ الاندفاع الحقيقي لمغادرة أيرلندا في وقت مبكر من عام 1847. في بداية العام، هاجر أكثر من ربع مليون شخص من أيرلندا، ولم يكونوا من الأشخاص المعوزين والأفقر حالاً، ولكن كان من بينهم أيضاً من هو أفضل حالاً، مما زرع بذور الكراهية الأيرلندية نحو الحكومة البريطانية وتحريك «الشعور بالانتماء الأيرلندي». الناجون من تلك المجاعة الرهيبة حملوا معهم غريزة البقاء والرغبة في الحصول على ثروة، لكن قلة محظوظة فقط هي التي حققت ما جاءت من أجله - حياة هانئة وسعيدة في القارة الجديدة. وانتهى الأمر بالعديد منهم لأن يبقوا فقراء كما كان حالهم في أيرلندا، حيث عملوا من أجل الحصول على أجور زهيدة في الصناعات التي كانت تشهد توسعاً سريعاً، مثل مد خطوط السكك الحديدية أو ملء شواغر الجنود الذين فقدتهم الوحدات العسكرية أثناء الحرب الأهلية الأمريكية الدموية.

كانت الرحلة إلى أميركا مكلفة. فتضطر العائلة المكونة من ستة أفراد إلى دفع 6 جنيهات استرلينية للوصول إلى كيبيك أو 21 جنيهاً استرلينياً للوصول إلى نيويورك. وقد عبر القنصل الأمريكي في بلفاست عن هذا الاختلاف في السعر بهذه الطريقة قائلاً: «من كان يذهب إلى أمريكا هم الناس ذوو الصفات الشخصية الحسنة والمهارات الجيدة، أما إلى أمريكا الشمالية البريطانية فقد كان يذهب ذوو الشخصيات الشريرة والسيئة». بسبب الفرق الكبير في تكاليف النقل قرر معظم الأيرلنديين أن يذهبوا أولاً إلى كندا ثم يسيرون ببساطة عبر الحدود الأمريكية غير المحمية.

كانت تزدحم أعداد ضخمة من الناس على رصيف موانئ السفن. وكانوا يمكثون هناك لأسابيع، في محاولة للحصول على ممر. خدع وسطاء المرور غير النزيهين الفقراء واستولوا على مدخراتهم قبل السماح لهم بالذهاب على متن السفن المغادرة. تحولت رحلة عبور المحيط الأطلسي من الموانئ العديدة على طول السواحل الأيرلندية

والإنجليزية إلى كابوس. كانت غرف السكن الموجودة تحت سطح السفن مكتظة بالمسافرين، وكانت مأوى للقمل الذي ينشر الأمراض، حيث كان يتقيأ المسافرون الذين يعانون من دوار البحر على بعضهم البعض لأنهم كانوا أضعف من أن يصلوا إلى سطح السفينة، وكانت رائحة البول منتشرة في كل مكان وإمدادات المياه غير صالحة للشرب في كثير من الأحيان لأن براميل المياه استخدمت لنقل مادة الخل.

ووصف أحد الشباب الموسرين من مدينة ليمريك، ويدعى ستيفن دي فيري، وكان يروم الذهاب إلى كندا، الركاب الذين كانوا متواجدين تحت سطح السفينة أثناء الرحلة قائلاً: «... كانوا متكومين فوق بعضهم، بلا ضوء، ولا هواء، يتمرغون وسط القذارة ويتنفسون في جو من النتانة، أجسادهم مريضة، وقلوبهم ضعيفة، وكان المرضى المصابون بالحمى يرقدون بين الأصحاء في أماكن نوم ضيقة جداً إلى حد لا يستطيعون تغيير مواضعهم، وبهذيانهم المحموم كانوا يزعجون من حولهم...»[1].

كان يطلق على السفن التي تحمل المهاجرين اسم سفن التوابيت. لم تكن سفينة إليزابيث وسارة عند انطلاقها من ساحل قرية كيلالا الأيرلندية تحتوي على مراحيض، وكان يستخدم أسرة النوم ذات الطابقين والتي كان عددها اثنين وثلاثين 276 مهاجراً. كثيرون لم ينجوا من مشقة الرحلة؛ أما سفينة لارش، التي انطلقت من بلدة سلايغو، بركابها الـ404، فقد مات 108 منهم في عرض البحر. استغرقت رحلة السفينة لووستهوك 7 أسابيع. هلك 117 مسافراً من أصل 348 هو عدد مسافريها الأصليين. لم يهلك جميعهم بسبب إصابتهم بالحمى، في بعض الأحيان كان يقام مزاد لبيع المشروبات الكحولية، وكان ينتهي دائماً بمعارك دموية ويلقى ببعض الناس في عرض البحر. أبحرت سفينة فيرجينيوس، من ليفربول، واستغرقت مدة تسعة أسابيع لعبور المحيط الأطلسي. ومن بين 476 مهاجراً، توفي 158 في البحر. ووصلت سفينة أغنيس التي كانت تحمل

1- راجع: C. Woodharn-Smith, The Great Hunger.

427 مهاجراً، وقد نجا منها 150 فقط بعد حجزهم في الحجر الصحي، والباقي وقعوا ضحية مرض التيفوس.

وقد دعت صحيفة مونتريال غازيت إلى اتخاذ تدابير حكومية صارمة للحد من «إغراق الفقراء والأيرلنديين المعوزين». أجبر الخوف المستمر من انتقال الحمى إلى أمريكا الشمالية الحكومة الكندية على بناء محطة للحجر الصحي على جزيرة غروس على نهر سانت لورنس. وأفاد شاهد عيان بأن المهاجرين الأشد فقراً حشروا في قوارب، وقاموا بالتجذيف حتى وصلوا إلى الشاطئ حيث «زحفوا على الساحل وماتوا مثل السمك الذي يترك الماء». وصل حوالي 109 آلاف شخص إلى جزيرة غروس في كندا في ربيع عام 1847، من بينهم 2500 مريض يعانون من الحمى وتم حجزهم تحت ظروف الحجر الصحي المروعة. وبحلول نهاية العام، توفي 20 ألف شخص بسبب الحمى على مرأى من الأرض الموعودة.

لم يعد لدى المستأجرين المزيد من الحقول لزراعتها، ولم يعد بوسع سكان أيرلندا سداد مستحقاتهم. وكانت عمليات جمع الإيجار تجري بقسوة مفرطة والناس في قمة الجوع. وكان يتبع الإخلاء الطرد؛ تم طرد 500 ألف فرد من منازلهم خلال عام 1847. وبحنق شديد ذكر النقيب هيلارد، المفتش المسؤول عن قانون الفقراء في غالاواي، الذي أرسل لغرض تطبيق القانون، أن أحد الاشخاص المسيحيين من أتباع القديس جرجس من مقاطعة كونيمارا طرد مستأجريه دون أن تكون معهم أسمال بالية يغطون بها أجسادهم. كانت أسقف الأكواخ متداعية، وقد تهدمت أغلبها، وكان الناس منهكين من الجوع الذي أذهلهم بوحشيته. رداً على ذلك، قام بعض المستأجرين بتمرد وقتلوا ستة عشر من ملاك الأراضي. أصيبت لندن بالذعر. وبدأ طرح الاسئلة ألم تكن الحركة العمالية الإنجليزية الجديدة التي عرفت بالجارتية بقيادة رجل إيرلندي، هو فيرغس أوكونور Feargus O'Connor؟ مع وجود ملايين العاطلين عن العمل في منازلهم، ماذا لو وصلت الشرارة من أيرلندا إلى الشواطئ

الإنجليزية؟ أرسلت الحكومة بسرعة 15 ألف جندي إضافي لمنع حدوث ذلك. وبسبب سياسات لندن الخرقاء، أصبح الوضع السياسي في أيرلندا أكثر سخونة.

لم يكن المستأجرون من الفلاحين هم الوحيدين الذين يعيشون حالة من اليأس، ولكن بعض الملاك المحليين المقيمين كانوا قريبين من الخراب بمعدلات عالية، كونهم لم يعودوا يحصلون على الإيجارات. فالمستأجرون إما كانوا قد ماتوا أو هاجروا. كان تفكك المجتمع يشكل تهديداً خطيراً. وقد ألقى اللورد كلارندون، الحاكم العام الأيرلندي المعين حديثاً، نظرة على الوضع قبل أن يبعث برسالة عاجلة إلى وزير الداخلية، السير جورج غراي، عبر فيها عن مخاوفه من أن البلاد تواجه كارثة جماعية ستجلب العار الأبدي إلى الحكومة البريطانية. لكن تحذيره ذهب أدراج الرياح.

أصبح عام 1848 عام الثورات التي اجتاحت جميع أنحاء أوروبا. لم يكن الأمر مختلفاً في أيرلندا. قد يظن المرء أن الاعتقاد بالقضاء والقدر الذي كان يسري في دمائهم الفلاحية هو الذي جعل الأيرلنديين مستسلمين إلى واقع الحال. لكن الأمر لم يكن كذلك. هذه الصعوبات التي كانوا يعيشها الأيرلنديون آنذاك دفعتهم لأن يبحثوا عن هدف لحياتهم، . فربما كانوا يعيشون على الهامش حينها، ولكن الأمر لا يجب أن لا يستمر على هذا النحو إلى الأبد. كان البعض على استعداد للتخلص من نير الملاك الإنجليز. ولم يعد بإمكانهم أن ينتظروا وقتاً أطول لكي يحدث هذا. تقدم أربعة رجال ليقودوا مسيرة الكفاح وهم: وليام سميث أوبراين، وتوماس فرانسيس مغير، وتشارلز جافان دافي، وجون ميتشل. وانضم إليهم عدد من الفلاحين والعمال، الذين كانوا يجوبون الشوارع يوماً بعد يوم دون أمل في حصولهم على العمل أو تحسين ظروف حياتهم.

لكن الغضب من الظلم كان عديم الجدوى. ما كان مهماً هو اختيار اللحظة المناسبة. لم يكن عام 1848 هو الوقت المناسب للتمرد

الأيرلندي الشامل. بدأت حملة من الاعتقالات بموجب قانون جناية الخيانة الجديد. وحُكم على جون ميتشل بالسجن لمدة أربعة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة، وتم إلقاء القبض على مغير ودوفي وألقي بهما في سجن نيوغيت. أصبحت مدن دبلن، وكورك، ودروغيدا ووترفورد خاضعة لأحكام قانون الجريمة والغضب. في 29 تموز 1848، وصلت الانتفاضة الأيرلندية إلى نهايتها دون أن تراق فيها الدماء في حركة تمرد الشباب الأيرلندي ماكورماك في قرية بالينغاري. كتب وليم سميث أوبراين بمرارة كلمات الوداع هذه:

«دعوا تاريخ أيرلندا يسجل هذه الحقيقة وهي أن أفراد الشعب فضّلوا الموت جوعاً في منازلهم، أو الفرار كمنفيين طوعيين إلى أراضٍ أخرى، بدلاً من النضال من أجل حقوقهم وحرياتهم».

جاء الموت مرة أخرى مع المطر، صامتاً وماحقاً.

الأيرلنديين كانوا شعباً خاشعاً لله. كان مذهب ديانتهم كاثوليكياً ويبدأ وهم في رحم أمهاتهم. أي شيء آخر كان ضد قانون الله. كانت مشيئة الله هي السائدة دائماً، يتوفى الكبير ويولد الصغير. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً، هذه المرة كان الأطفال يولدون موتى، ويتوفى الشباب وكبار السن. لأنه في عام 1848 بعد الميلاد، عادت آفة البطاطا لكي تنتقم.

امتدت آثار البؤس عبر الأرض. كان هناك طابور لا نهاية له من الأشخاص رثي الثياب يتعثرون في مسيرهم وسط غطاء كثيف من الضباب الأزرق، متجهين نحو الميناء والسفن، والأمل الغامض. يحملون على ظهورهم ممتلكاتهم الهزيلة. كانت بعض عربات اليد تحمل آباءهم وأمهاتهم كبار السن، وقد اخشوشنت أيديهم بسبب العمل الشاق، وهزلت أجسادهم. معظمهم لم يفكروا أبعد من وضعهم الحالي وكيف سيعيشون خلال الأيام القليلة القادمة، أو حتى الساعات القادمة. كم هو رائع أن لا نشعر بالجوع بعد الآن. لنقول لمرة واحدة فقط: لقد كان لدي ما يكفي من الطعام.

فقدوا الإحساس بكل شيء، لم يكونوا يودعون أحبتهم وأرضهم لا برثاء صريح ولا حزن صامت. ساروا عبر الأرض مع أكياس ملابسهم، التي كانت تتدلى من عصيهم ذات النتوءات التي كانت تجثم على أكتافهم، دون أن يقابلوا روحاً بشرية. كلما ساروا أكثر، كلما كانت أرواحهم تسوء أكثر. من وقت لآخر كانوا يمرون ببعض أكواخ الفلاحين، لكنها كانت فارغة، وأبوابها مفتوحة على مصراعيها. لو كانت هذه الأكواخ - وإن كانت لأفقر الناس - تستأنس بها مناظر وأصوات حتى عدد قليل من الأطفال الذين يلعبون، لما كانت تبدو كئيبة للغاية هكذا. ولكن لم تكن هناك أية علامة للحياة، بل كان هناك مجرد مشهد صامت على مساحة فدان من نباتات البطاطس المغطاة باللون الأسود. لقد ترك الفلاح الأيرلندي منزله وحقوله، وهجر السهول. لم يكن يفكر سوى أن يصعد على متن سفينة، هرباً إلى عالم آخر يوفر له المأوى، ويمنع عنه الجلوس وانتظار الموت مثل الآخرين. حتى كهنتهم كانوا صامتين، لم يكن لديهم المزيد من العزاء ليقدموه إلى أرواح الناس.

انتشر العويل في جميع أنحاء أيرلندا. يا رب، اقتلني وخلصني من بؤسِي! كان هناك الكثير من الشائعات حول السحر، ومسؤولية النساء الشريرات عن الرعب الذي أصاب أيرلندا. لكنها كانت أمة مسيحية وكاثوليكية متعصبة فلا تؤمن بمثل هذه الخرافات، إنه إبليس الشيطان، هو من أشعل النار وفتح أبواب الجحيم الأبدي. أصبح المسيح فجأة قريباً جداً من جميع المتدينين، وحتى من أولئك الذين لم يكونوا قريبين جداً من الكنيسة، لأن المسيح لم يكن مجرد مغفرة، بل أكثر من ذلك كان أملاً. بالنسبة لمعظم الناس، كان الأمل الوحيد الموجود. كان يعرف ما الذي كان يعاني منه الأيرلنديون، وكان دائماً هناك. كان مجرد رؤية رجل يرتدي ملابس رجال الدين يساعد على تغيير وضع الكثيرين. ومع ذلك، كان المشاركون في التجمعات الدينية يقل عددهم. بعضهم كان قد مات، وبعضهم اختفى ببساطة. أولئك الذين ما زالوا يمتلكون الإيمان ويجيئون

إلى التجمعات كانوا يضغطون بأيديهم على الآثار المقدسة القديمة، مثل الصلبان المحفورة باليد - فالقديس باتريك[1] سينقذنا! لقد رفعوا أعينهم إلى السماء: «اللهم، ارحمني واجعلني أتمتع بالنوم الأبدي».

استلقى رجل خارج منزل مالك أرضه، وقد ألقى برأسه على ذراعه. كان كل شيء بداخله يوحي بالسلام والهدوء حتى إنه كانت هناك ابتسامة لطيفة على وجهه، هذه هي الطريقة التي مات بها، ووجد فلاحٌ آخر مشنوقاً في شجرة أمام كوخه المهدم بجانب ابنتيه، اللتين ماتتا من الجوع. تم نقلهم إلى فناء الكنيسة على سلالم أو في سلال وتم إلقاؤهم بجانب أقرب خندق، وتركوا هناك تحت رحمة الكلاب، التي لم يكن لديها أي شيء آخر لتتغذى عليه.

كانت هناك ستة هياكل عظمية ساغبة ومرعبة، تبدو ميتة من خلال جميع مظاهرها، تكومت في زاوية فوق بعض القش القذر، يغطي أجسامهم ما بدا أنه قماش حصان ممزق وكانت أقدامهم البائسة تتدلى وهي عارية فوق الركبتين. اقتربت منها واكتشفت من خلال الأنين، أنهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة، وكانوا يعانون من الحمى - أربعة أطفال، وامرأة، وما كان رجلاً في يوم من الأيام. «بهذه الكلمات الحزينة وصف القاضي الأيرلندي للسلام هولاء الناس إلى دوق ويلنغتون[2]، متوسلاً أن ينقل الدوق الوضع الحقيقي إلى الملكة فيكتوريا.

في الحقول، سقطت الأوراق المتعفنة من البطاطا غير المحصودة على الأرض واكتست أيرلندا بغلالة سوداء من الحزن. كان هذا هو العام الثالث وباتت البلد جرداء من كل شيء. كان يتم غلي لحاء الأشجار ليشبه الحساء أو الخضار غير المطهوة؛ لكن الحرارة قتلت الأشجار

1- هو قديس روماني بريطاني توفي في 17 آذار عام 461. المترجم.

2- قائد عسكري وسياسي بريطاني من أصل أيرلندي، اشتهر بتحقيقه النصر على نابوليون بونابارت في معركة واترلو عام 1815. تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا مرتين. المترجم.

التي فقدت اللحاء، وتركتها لتكون الشواهد البليغة عن الرعب. وقد تم حفر الحقول بأيدٍ عارية من أجل الحصول على آخر ما تبقى من محصول اللفت، والجزر. أصبحت القطط والجرذان والسناجب، وكل شيء بمثابة طعام للناس. تجولت بعض الكلاب المرعبة، التي فرت من فؤوس الفلاحين، وهي تجوب القفار عديمة الرحمة. كانت الحرارة والمطر، والبعوض والقمل تقوم بتعذيب طوابير الأشخاص رثي الثياب التي كانت تتسلل خلسة. هل يمكن أن يكون هناك أي شيء أسوأ من المجاعة؟ كان الألم من الجوع لا يطاق، كان هذا الألم المزعج والفظيع يمزق الأحشاء.

في حين كشف العديد من الكتبة المعاصرين عن هذه الروايات التي تتحدث عن الرعب، حاول آخرون فصل الأسطورة عن الواقع. خلص معظمهم إلى الاستنتاج نفسه: السبب الرئيس وراء الكارثة هو عدم قدرة بعض الأعضاء داخل الحكومة البريطانية على التعامل مع الوضع. إن الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية في أيرلندا لم تكن تتصرف ببراعة كبيرة كما أشارت إلى ذلك ملاحظات ذكرت في صحف مجتمع دبلن. في ذروة المجاعة، أقامت ليدي مايوريس من دبلن حفلة راقصة رائعة في قصر مانشن هاوس: «استمر الرقص حتى ساعة متأخرة من الليل وتم تقديم أصناف المأكولات والمشروبات من أجود الأنواع بإسراف ووفرة لا تنضب».

بعد ثلاث سنوات من الأزمة المستمرة أصبح الأيرلنديون منهكين للغاية لدرجة أنه كان يمكن لأتفه حادث عرضي أن يفجر كارثة كبرى أخرى. ثم جاء مرض الكوليرا الآسيوية، حدث ذلك في الأيام الأولى من شهر كانون الأول عام 1848. ادعى البعض فيما بعد أن أحد البحارة عثر على أحد المصابين بها على ظهر سفينة التابوت التي كان يقودها، وقال آخرون إنه كان رجلاً معدماً قادماً من اسكتلندا. على أية حال، حاول الرجل شق طريقه إلى أحد بيوت العمل المكتظة في بلفاست. لم يكن هناك مكان لمتسول آخر واندلع شجار. وقد جعله هذا الأمر على احتكاك

مع الآخرين، وأصابهم بهذا المرض الفتاك. من بيت العمل هذا في بلفاست، انتشر المرض بسرعة في جميع أنحاء البلاد، ولأغراض عملية بحتة، أصبحت أيرلندا الآن تحت الحجر الصحي الكامل من الخارج.

وأعلنت لجنة الإغاثة المركزية «إننا نأسف حقاً لأنه لم تعد لدينا القدرة على توزيع المعونات الغذائية لمواطنينا المعذبين...» (اللورد جون راسل، رئيس الوزراء البريطاني الجديد). وبالتالي، قررت الحكومة البريطانية أنها فعلت ما فيه الكفاية، وتخلت عن الأيرلنديين وفق مبدأ تريفليان Trevelyan» دع الأمور تجري وفق طبيعتها».

انتشرت في البلاد رائحة البطاطا المتعفنة النتنة ورائحة الموت الكريهة. أفقر الناس هم الذين جاعوا أولاً. ولأنهم كانوا الأضعف، فإن أي مرض بسيط كان يصيبهم بسرعة وبشدة. (استمر وباء الكوليرا حتى منتصف عام 1849). لقد هلك مئات الآلاف، ولم يكن هناك أحد يعتني بهذا العدد الكبير من الموتى، وبالتأكيد لا يوجد أحد يظهر مشاعر الحزن عليهم. كانت الجزيرة مليئة بالجثث، وقليل منها حصل على مراسم دفنٍ وفق طقوس الدين المسيحي. وساعد المتطوعون في التخلص من العديد من الجثث في الخنادق المحفورة خارج القرى. وظل الأيرلنديون متمسكين ببلادهم، وهذا دليل على أمة رفضت أن تنقرض. لكن نظرة واحدة إلى ريف بلادهم كانت تظهر حجم الخواء، وكم أصبح العالم مجنوناً.

مع نهاية عام 1849 تراجعت آفة البطاطا أخيراً. ما قتل المرض المجهول بقي لغزاً. ولكن حتى حقيقة أن المجاعة قد خفت في جميع أنحاء الجزيرة لم تكن مطمئنة. حدثت الكثير من الأضرار وقصص الرعب. لم تكن هذه منطقة حرب تم تدميرها بواسطة البارود، كانت قوى الطبيعة العملاقة هي التي خلقت مثل هذا الخراب؛ وهي أكثر تدميراً من ألف مدفع، فهذه الأرض القاحلة كان يكد فيها يوماً ما الملايين من الناس ويعملون بجد في حراثة الأرض. عندما بذلت بعض الأطراف الرسمية من دبلن جهوداً لزيارة المنطقة، كانت زيارتهم تهدف إلى إظهار أن هناك وجوداً بشرياً.

كان هناك حاجة كبيرة لاستعادة السلطة. كان يخشى بوجه عام من أن أيرلندا لن تتعافى مرة أخرى من المصير الرهيب الذي أصابها، وأنه لن ينتهي الامر بها سوى أن تكون تابعاً زراعياً لإنجلترا. وحتى ذلك لم يكن مضموناً، ولفترة طويلة عانى الإنتاج الزراعي لأيرلندا من آثار هذه السنوات الفظيعة، لأن الريف كان مهجوراً والحقول مهجورة. بعد المجاعة الكبرى، ركزت عملية إعادة تعمير الريف على جانب الإنقاذ أكثر من إعادة التوطين. كانت هناك بعض الحوادث وعدد قليل من الحكايات، ولكن معظمها كان مبالغاً فيه لأن السكان كانوا ببساطة أضعف من أن يصمدوا ويكافحوا. ومن المؤكد أنهم كانوا ضعيفين للغاية بحيث لا يمكنهم القيام «بيوم عمل حقيقي». لقد عانى هؤلاء الناس الكثير، فقد كانوا معدمين ويفتقرون إلى كل شيء. أولئك الذين لم يسبق لهم أن سافروا كانت لديهم الرغبة في الهجرة إلى أمريكا، أرض الذهب. أما من هاجر منهم، فكان من المستحيل أن يعود. فلم يعد يملك خيارات كثيرة.

لقد كان الموت في جميع أنحاء الريف نتيجة مباشرة لسنوات الجوع العظيم، ولكن الأمر الكارثي هو حقيقة أن أكثر من مليوني شخص من الرجال والنساء الأصحاء قد هاجروا وأفرغوا الجزيرة من قوة العمل الرئيسية. ذهب مليون ونصف المليون أيرلندي إلى الولايات المتحدة. وبما أن أمريكا الشمالية قد وضعت في النهاية حواجز صحية صارمة ولم تسمح بدخول المرضى، فقد هبطت نسب الهجرة إلى أمريكا الشمالية بشكل كبير. ربما كان هذا هو ما أنقذ أيرلندا أخيراً.

لقد وصلت المأساة إلى حدودها الأخيرة. فالعفن الذي كان مجهولاً في ذلك الحين، إلى جانب تقلبات الطقس، دمر البلد تقريباً. لقد هلك مليون شخص بشكل فظيع[1]، وكثير منهم مات بلا داعٍ. مات بعضهم

1- في تعداد السكان الذي أجري عام 1841، بلغ عدد سكان أيرلندا. 8,175,124 نسمة لكن في إحصاء آخر، أجري بعد عشر سنوات فقط، بلغ عدد السكان 6,552,385. وبتخفيض الرقم الخاص بالهجرة والزيادة السنوية المقدرة بسبب المواليد، يكون عدد الوفيات بسبب المجاعة قد وصل إلى أكثر من مليون شخص.

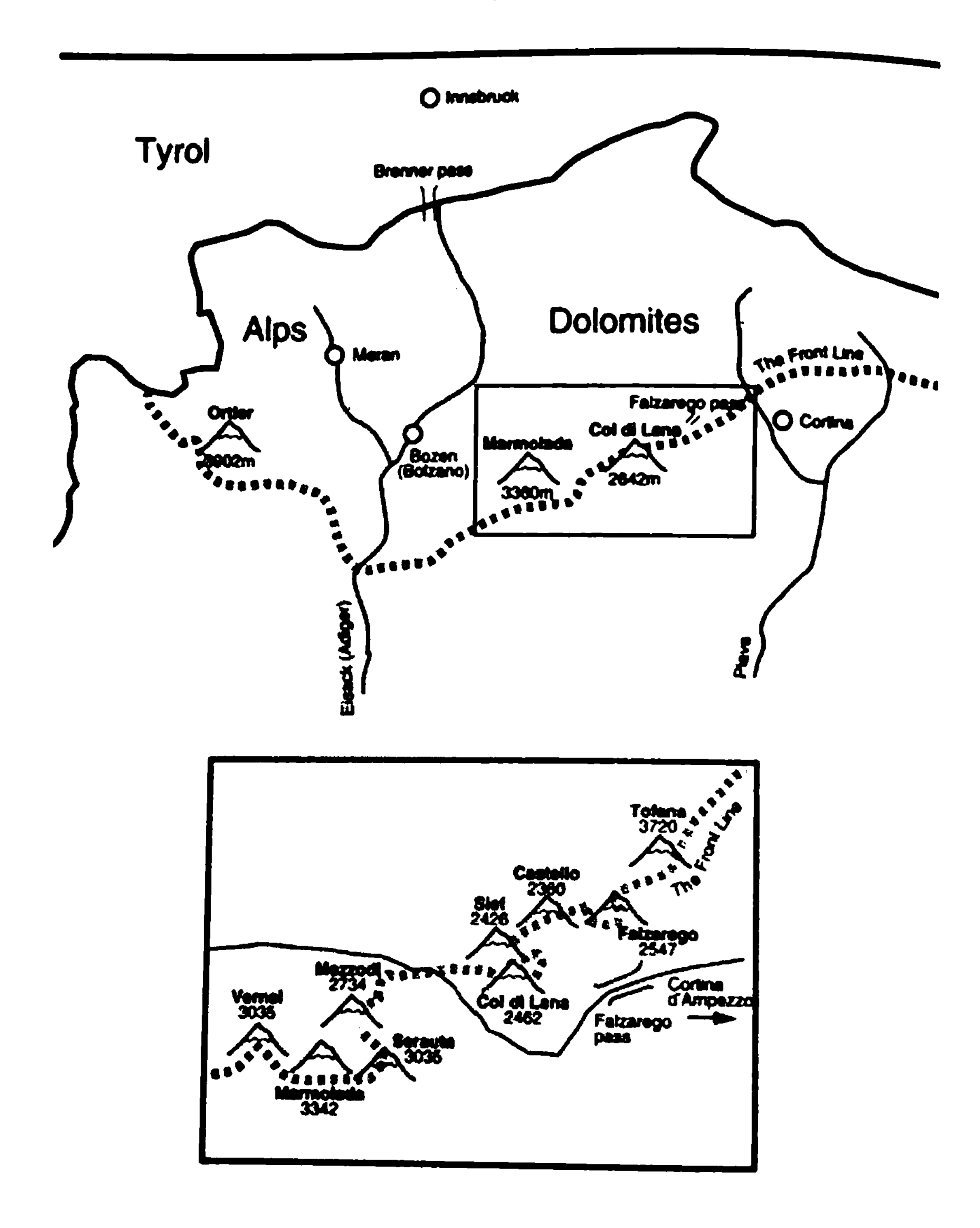
بسبب الإهمال من جانب المسؤولين البريطانيين في تقديم المساعدة لشعبهم الذي كان في حاجة ماسة لها، وبعضهم مات بسبب الأخطاء التي ارتكبها الموظفون الإداريون الصغار[1]، وبسبب عدم توفر الإدراك أو التعاطف من قبل مراقبي صندوق الإغاثة - فقد اعتبرها الأيرلنديون عملية إبادة جماعية. لقد كان الرجال مثل تريفيليان يهددون المصالح البريطانية طويلة المدى من أجل فرض نسختهم الخاصة من الاقتصاد قصير الأجل. ودفن أي أمل في إقامة علاقة أخوية مع جيرانهم في حقول البطاطا في جزيرة الزمرد.

وحتى تلك اللحظة، كان ذلك عملاً من أعمال الله. ورغم أن الرب كان رحيماً، فإنه كان قاسياً أيضاً وعاقب أولاده الأيرلنديين. لم يفكر الأيرلنديون أبداً بأن أنماط الطقس السائدة - مثل المطر والضباب والبرد- إلى جانب البطاطا التي بقيت دون علاج، كانت هي المسؤولة عن سنوات جوعهم، بالإضافة إلى الافتقار إلى التعاطف من الخارج.

لقد استغرق إعادة بناء أيرلندا أكثر من قرن. لكن ذاكرة المجاعة الكبرى لا تزال موجودة في الفلكلور الأيرلندي، ولا تزال مشاعر الكراهية حية لأولئك الذين أدى عدم شعورهم بالمسؤولية - وكانوا بالفعل كذلك - إلى حدوث واحدة من كبرى الأحداث المأسوية في تاريخ أوروبا.

1- لم يقتصر خداعهم على الأيرلنديين فقط، فقد أدى إلى تدمير القوات البريطانية في مدينة سيباستوبول الروسية (حرب القرم) خلال شتاء عام 1855.

The War in the Alps 1915-1918



الموت الابيض
13 كانون الأول 1916

Walsche foch'n müassn mir giahn
Es ischt ja s'schianste Wetter.

هيا إلى القتال يا أبناء إيطاليا
ليس هناك أروع من هذا الطقس.

- مقطع من نشيد مقاتلي مقاطعة التيرول[1]، 1915.

ثلوج، وثلوج، والمزيد من الثلوج. ظل الثلج يتساقط والريح تعصف لمدة أسبوع كامل. كان الجانب الإيجابي لهذا الأمر، هو أن مدفعية العدو اضطرت للبقاء في مأواها. كان ذلك هو يوم الجمعة الثالث عشر من كانون الأول والذي يصادف يوم القديسة لوسي[2]. من المؤكد أن الجو كان معتدلاً، لم يكن بارداً تماماً كما كان عليه الطقس في الأسبوعين الماضيين، وكانت أشعة الشمس تنعكس بشكل متقطع من خلال كتل الجليد الصافية والثلج الذي غطى الوادي الذي يقع أسفل مقر الكتيبة الأولى من الفوج الثالث من قوات صنف الخيالة الجبليين من حرس إمبراطور النمسا *Tyrolean Kaiserschützen Regiment 3*.. حيث

1- المنطقة التاريخية في ما هو الآن النمسا وإيطاليا. المترجم.
2- وهو التقليد المسيحي الغربي الذي يتخذ من القديسة لوسي الشهيدة شفيعة للمكفوفين وضعاف البصر. المترجم.

كانت مدفعيته تتموضع على ارتفاع 3300 متر، في حين كانت بقية الكتيبة تتموضع في الأسفل حيث يلتقي النهر الجليدي بالمنحدر الصخري. كان عليهم الآن أن يخرجوا الثلج الذي ملأ خندقهم.

فقد كان ارتفاع الثلج الذي سقط أكثر من مترين، وفي بعض الأماكن جعلته العاصفة يرتفع إلى ستة أمتار. كان مسحوق الثلج ناعماً للغاية بحيث لم يكن يبقى على المجرفة. ما هذا الذي يحدث، كان يوماً جميلاً وهادئاً. مر بقية الرجال عبر النفق الجليدي من الكهف الصخري، الذي كان بمثابة مأوى للقنابل وغرفة تخزين وأماكن للنوم، وبدؤوا بالحفر. بعد أن حوصروا لمدة أسبوع كامل، قليل من العمل كان مفيداً لرفع معنوياتهم. كانوا يدخنون ويجرفون الثلج ويمزحون. لم ينتبهوا إلى الفوهن (الرياح الجبلية الدافئة) التي بدأت تذيب طبقات الثلج. أدى هذا التغير المفاجئ في درجة الحرارة إلى تحويل الثلج على جوانب قمة الجبل إلى كتلة غير مستقرة تترنح من فوق النهر الجليدي بدون قاعدة تدعم وزنها الهائل. بعبارة أخرى، كانت الكارثة حتمية الوقوع.

عند الساعة 07:11 صباحاً، لاحظ الرجل الذي كان يقوم بواجب المراقبة في الملجأ المصنوع من عوارض خشبية وصخور مكدسة، والواقع أسفل خط القمة مباشرة، تصاعد خيط من الدخان من أحد مواقع المدفعية الإيطالية وقد امتد عبر أرض الوادي. ثم قال لرجل كان ينفخ في غليونه الخشبي المنحني «*Diese Teppen* - يا لهولاء الأغبياء»[1]، وقد تصادف أيضاً أنه كان جاره الذي يسكن قبالته في القرية التي تقع أسفل الوادي *Auf was schiassn`s?* ما هذا الذي يطلقون عليه النار[2]؟ سرعان ما سمعوا صوت صفير حاد عندما اندفعت قذيفة من فوق قمة الجبل وإلى أبعد من ذلك. ثم مرت قذيفة أخرى عبر الوادي وضربت هذه المرة حقل ثلج يقع على بعد مئتي متر تحت نقطة المراقبة

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.
2- بالألمانية في الأصل. المترجم.

النمساوية. «إنهم يقتربون» صاح المزارع، الذي هو الآن جندي في جيش جلالة إمبراطور النمسا. لم يكن مصدر قلقه الأعظم هو الضربة المباشرة، بل الشظية القاتلة، تلك القطع الدوّارة من الصخور المتشققة التي تتطاير كلما سقطت قذيفة على سطح جرف صخري صلب. فقد كان عدد الناس الذين قتلوا من أثر الصخور المتطايرة أكبر مقارنة بالذين قتلوا بسبب رصاص العدو.

وفي الأسفل عند الموقع الرئيس للكتيبة، سمع الجنود أيضاً الانفجار وحدقوا إلى الأعلى نحو جانب الجبل الشديد الانحدار الذي يتدلى فوق رؤوسهم. ورأوا أيضاً خيط دخان أبيض عندما انفجرت القذيفة بعد أن سقطت وسط الثلج العميق، قبل أن يعودوا إلى العمل بمجارفهم. ثم جاءت الجولة الثالثة. لم يرها الجنود الذين في القمة ولم يتطلع إليها من كان في القاع. فجأة بدأت الأرض تهتز والجبل كله يتحرك.

أولئك الذين راقبوا مشهد الانهيار الجليدي، ونجوا منه، قالوا إنهم شهدوا نهاية العالم. بدأت تتساقط قوة لا يمكن تخيلها من كتل الثلج من المنحدرات الجبلية العالية، وكانت تتفتت، وتتحطم، ثم تدفن في الثلج. هكذا سارت مجريات الحرب الشتوية التي حدثت وسط أعلى قمم جبال أوروبا.

تجزأت طبقات الثلج التي كانت تحت قمة الجبل مباشرة إلى ألواح صغيرة، وبدأت تنزلق، ببطء في البداية، إلى أن بدأ المنحدر بأكمله في التحرك. زادت سرعة الكتل التي تجمعت، وزاد الضغط، وانتفخ مسحوق الثلج الخفيف ليكوّن سحابة... وتناثر المزيد منه في الهواء... وسرعان ما نمت السحابة وتحولت إلى موجة عاصفة، ارتفاعها 200 متر، وبدأت تكتسب زخماً حتى وصلت سرعتها إلى 300 كيلومتر في الساعة. كان ضغط الهواء الهائل، الذي سبق تكتل الثلج، هو العامل المميت. كانت موجة الضغط الهائلة الخاصة بكتل الثلج تساوي قوة

قنبلة مدمرة[1]. الخنادق سويت بالأرض، وتطايرت أجزاء المدافع في الهواء، وسقطت القذائف فوق الملاجئ ... مات معظم الرجال على الفور، وسحقهم الضغط الهائل، وتوفي بعضهم إثر الصدمة أو البرد، وتوفي آخرون بعد ذلك بقليل. مختنقين بمسحوق الثلج الذي غطاهم. قليلون هم الذين نجوا. وكان يطلق عليهم «الخارقون».

في الثالث عشر من كانون الأول 1916، تم دفن 274 فرداً من ضباط ورجال الكتيبة الأولى من حرس القيصر تحت مليون متر مكعب من الثلج. وفقد 63 آخرون، ولم يتم العثور على جثثهم أبداً[2]. كانوا أول من يموت في ذلك اليوم. لكنهم لم يكونوا الأخيرين.

عندما أعلنت إيطاليا الحرب على النمسا، لم تأخذ في حسبانها عاملين: الأول كان التصميم الذي لا يتزعزع للفلاح التيرولي للدفاع عن داره وممتلكاته. والثاني كان هو الطقس. لا شيء متقلب مثل الطقس الجبلي. يمكن أن تتساقط الثلوج بارتفاع ثلاثة أقدام في ليلة واحدة في منتصف شهر آب، حيث كانت العواصف الثلجية تهب دون أن يعوقها شيء وتجتاح الأنهار الجليدية والمنحدرات الصخرية، وكان البرق ينجذب إلى أي شيء معدني، ويكسو الضباب القمم والجبال، مما يجعل الناس يضلّون طريقهم ويهوون عند المنحدرات. في الصيف، يأتي الخطر الأعظم من الانهيارات الصخرية التي تسببها الأمطار، بينما كان الشتاء يجلب الثلج، ومعه الانهيارات الجليدية القاتلة.

في بداية الحرب العالمية الأولى في عام 1914، كانت إيطاليا حليفاً للنمسا وألمانيا. تماشياً مع مبدئها المعروف باسم «*sacro egoismo*» الأنانية المقدسة، وقامت بنقل معسكراتها عندما حصلت من الحلفاء على

1- تجاوز حجم الضغط الذي سلطته الانهيارات الثلجية الكبيرة خمسة أطنان لكل متر مربع واحد.

2- لا تزال إلى يومنا هذا، تتدفق جثث بحالة جيدة من نهر مارمولادا الجليدي وهي ترتدي بذلات المقاتلين في الحرب العالمية الثانية.

مكاسب إقليمية. وعلى وجه الخصوص في المقاطعات الجبلية النمساوية في كارينثيا وسالزبورغ وتيرول، أثارت خطوة الخيانة هذه غضباً لدى النمساويين ممتزجاً بالحب العميق للوطن *vaterländisches Gefühl*.

النمساويون في المعسكر! «*In diesem Lager Österreich!*» عادت تدوي من جديد صرخة الحرب التي مضى عليها قرن من الزمان. كان السكان الذكور في مقاطعات جبال الألب - أولئك الذين لم يسبق أن تم استدعاؤهم للخدمة العسكرية يواجهون الروس، على بعد آلاف الأميال من منطقة التيرول - وقد حمل الجميع السلاح من التلميذ ذي الخمسة عشر عاماً حتى العجوز المخضرم في القتال البالغ من العمر سبعين عاماً، دفاعاً عن منازلهم وقراهم. وكانوا يرتدون بفخر قبعاتهم التي تحمل ريشة طائر الطيهوج الأسود ونبات الايديليوس الجبلي *Spielhahn- Edelweiss* فيما حمل قادتهم المنتخبون النسر التيرولي على شريط ياقاتهم. ومع ذلك، بدا الوضع ميؤوساً منه: فقد تم استدعاء 17 ألف رجل من الاحتياطي المتبقي من الجيش النمساوي، بالإضافة إلى 24 ألفاً من الفلاحين غير المدربين عسكرياً الذين تجمعوا في 45 كتيبة من قوات الحرس الوطني، للدفاع عن حدود جبلية بطول 350 كيلومتراً ومواجهة 800 ألف جندي إيطالي شاب[1].

كان رئيس أركان الجيش الإيطالي، الجنرال لويجي كادورنا، يدرك أن القوات غير النظامية لن تتخلى عن التيرول بدون قتال، وأنه كان عليه أن يتوقع قيام أفرادها ببعض الأعمال اليائسة في مؤخرة الجيش عند كل مرحلة من مراحل خطته التي تهدف للاندفاع إلى قلب النمسا. لكنه لم يكن قلقاً بشكل مفرط، فقد كان عدد قواته يفوق عدد قوات العدو بنسبة

1- كانت القوة النمساوية العاملة على طول مسرح عمليات إقليم التيرول تتألف بالضبط من: كتيبتان احتياطيتان من التشيك وسبعة كتائب سلوفينية، وكتيبة واحدة من كل من فوجي الرماة والقتال الجبلي النمساوي، بالإضافة إلى أفواج المشاة 14 و59، وهو ما مجموعه 17 ألف رجل لخط المواجهة بطول 350 كيلومتراً. في 19 أيار، 1915، تم تعزيز هذه القوة بـ 24 ألف جندي غير نظامي من الكتيبة الخامسة والأربعين للحرس الإمبراطوري.

عشرين إلى واحد وتتفوق عليها بالسلاح بنسبة عشرة إلى واحد. قرر القيام بالهجوم على جبهتين: الأولى على طول نهر إيسونزو لتحرير ما يدعوه الإيطاليون (بحرنا) - وهو البحر الأدرياتيكي - والضغط بشكل متزامن للاندفاع على طول وادي إيساك حتى ممر برينر وعبر إنسبروك. واضطر حتى منتقدوه للاعتراف بأن خطته تحمل مزايا واضحة. أدرك كادورنا أن السيطرة على مدينة إنسبروك ستكون بمثابة ضربة معلم، من الناحيتين النفسية والاستراتيجية على حد سواء، في حين أن النمسا يمكن أن تعتمد فقط على المقاتلين غير النظاميين لوقف زحف جيوشه المتقدمة. إذا كان يعتقد أن غزوه سيكون بمثابة نزهة، فإن فوج الحماية من مقاطعة التيرول *Tyrolean Standschützen* كان يخبئ له مفاجأة. فالشيب والشباب، الذين نجح أجدادهم في صد جيش نابليون على طول هذه الوديان والجبال في عام 1809، كانوا مصممين على فعل الشيء نفسه مع الغرباء *Welschen* [1]. وقد تمكنوا من ذلك.

تجمع أبناء القرى لتشكيل سرايا قتالية، وقاموا بعدها بانتخاب قائد لها، وعادة ما كان يكون صاحب حانة محلية أو رئيس بلدية القرية. وحملوا بنادقهم، التي كانوا يستخدمونها في وقت السلم في ألعاب الصيد، وساروا إلى الحرب، وهم يرددون نشيد حماة الوطن *Landesschützen* [2] والتي تقول كلماتها:

«فليجرؤ العدو أن يأتي إلى أرضنا، أو ليأت
الشيطان نفسه، لن تهدأ البنادق، إلى أن نموت جميعاً...».

في الأشهر الأولى من الحرب، كانت القوات عرضة للخطر الكبير من الجبال، والطقس، كان على الحراس أن يقضوا أسابيع في العراء في أعلى القمم. ولعدم وجود خنادق كافية، أو ملاجئ تقيهم غضب الطبيعة ولكن أبناء إقليم التيرول أقاموا خطاً دفاعياً، وكانت بطولة مقاتليه لا

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.
2- بالألمانية في الأصل. المترجم.

توصف، ولم يستطع أحد زحزحتهم بوصة واحدة. لم يكن الأمر بحاجة إلى جنرال ليخبر ابن إقليم التيرول «*Tirolesi*» بضرورة الصمود والقتال، فحينما كان يجلس على حافة الجبل كانت زوجته وأولاده ومزرعته موجودين جميعاً في أسفل الوادي المقابل. لقد صمد وحارب ومات. لكنه لم يتزحزح. هناك قصص لا نهاية لها تتحدث عن الشجاعة الفائقة التي أبداها أبناء التيرول. قاد المرشد الجبلي النمساوي الشهير سيب أنيركوفلر Sepp Innerkofler مجموعة من المتسلقين إلى أعلى مدخنة صخرية عمودية في موقع توفانا Tofana لإسكات موضع مدفع رشاش إيطالي. حين وصل المقاتل الأول في الرتل، إلى قمة الجبل، ألقى بقنبلة يدوية على الموضع الإيطالي، ثم أصيب برصاصة. وكانت المدخنة ضيقة للغاية لدرجة أن سقوطه سيتسبب في سقوط جميع المتسلقين لأنه سيجرهم وراءه فهم مربوطون بالحبل ذاته. لكنه بدلاً من ذلك رمى بنفسه إلى الوراء من المنحدر الجبلي، وبالتالي أنقذ أرواحهم.

كان القتال في ظل هذه الظروف قاسياً. وكانت المسارات المؤدية إلى المواضع الفردية غالباً ما تمر عبر جذوع الأشجار الناتئة، ويتثبتون بواسطة الحبال بالمنحدرات الرأسية؛ أو بالشقوق التي تثبت بها المسامير المعدنية حتى يمكن تسلقها مثلما يفعل منظفو المداخن. أولئك الذين كانوا في واجب الحراسة ربطوا أنفسهم بالصخور بواسطة الحبال حتى لا يسقطوا من ارتفاع ألف متر ويلقون حتفهم؛ نزل الآخرون بواسطة الحبال إلى التلال الضيقة، وكدسوا بعض الصخور لتحميهم، ثم استخدموا موضعهم للشروع في إطلاق النار بشكل كثيف. أما جنود استمكان العدو فقد جلسوا على قمم الجبال وسط هبوب الرياح الجليدية، وأسنانهم تصطك، ليراقبوا حركة العدو. لكن لا العاصفة ولا الخطر جعلاهم يتخلون عن واجبهم المقدس، وأصبحت وجوههم صلبة مثل الصخور التي أحاطت بهم. وأصبحت عبارة «خط القتال المقام وسط الصخور والجليد» هو التعبير الذي بدأ يشير فيه

المؤرخون إلى حرب الجبال التي حدثت في السنوات اللاحقة وشملت جبال باسوبيو وباتيرنكوفيل وأورتلر ومارمولادا وراوخكولف وتوفانا وسيكستين واينيخن ومووز وسيليان.

كان واحد من أكثر الصراعات دموية ذلك الذي حدث للسيطرة على Col di Lan [1] جبل الكول دي لانا، وسرعان ما عمّده الإيطاليون باسم الكول دي سانجا، Col di Sangue [2] وتعني جبل الدم.

لا يزال سبب اختيار الإيطاليين هذا الجبل البالغ ارتفاعه 2,462 متراً لتنفيذ محاولة اختراقهم صفوف العدو لغزاً حتى اليوم. كان من الأسهل بكثير تجاوزه، لكن ربما كان أحد الجنرالات الإيطاليين يبحث عن نصب تذكاري يخلده. فلم يجد سواه. كان اسم جبل كول دي لانا، اسماً صوفياً، يشير إلى تحمل معاناة غير مجدية. في البداية، كان يتم الدفاع عن القمة من قبل عشرات من حرس الحدود التيروليين حتى اندفعت سرية من الحرس الإمبراطوري المحلي Kaiserschützen [3] إلى دعمهم. كانت القيادة الإيطالية العليا طوال عام 1915 ترسل الكتيبة تلو الأخرى من فيلق النخبة المتمرس في القتال الجبلي، الذي يعرف باسم ألبيني the *Alpini* [4] وبحلول أواخر تشرين الأول 1915، كانت هناك أربع وعشرون كتيبة من كتائب هذا الفيلق قد اشتركت في احتلال قمة جبلية لم تكن ذات قيمة استراتيجية مؤكدة. ومع تعالي صرخاتهم «إلى الأمام يا أبناء سافويا» *Avanti Savoia* [5]، تسلقوا المنحدرات الحادة. كان حرس القيصر، الذي نجا بطريقة ما من القصف المدفعي الشديد، يراقب من فوق حاجز شق خندقهم بحثاً عن أهداف جديدة بالاهتمام وكان يطلق النار على كل شيء إيطالي مصحوباً بأحقر اللعنات. اندفعت

1- بالإيطالية في الأصل. المترجم.
2- بالإيطالية في الأصل. المترجم.
3- بالألمانية في الأصل. المترجم.
4- بالإيطالية في الأصل. المترجم.
5- بالإيطالية في الأصل. المترجم.

الطواقم الطبية على طول خط الخنادق، لتضع الضمادات فوق جروح المصابين، بينما ظل الجرحى النازفون يصرون على إطلاق النار، متحمسين للمهمة الكريهة وهي القتال من مسافة قريبة. أولئك الأفراد من العدو الذين تعرضوا لإطلاق النار سقطوا في المنحدر الحاد ليتعثروا في الأسلاك المتشابكة. وفي خضم هجومها البطولي الأخير، استمرت قوات النخبة (ألبيني) في التحرك صعوداً قبل أن يعلق أفرادها بنهايات الأسلاك الشائكة، التي كانت على بعد 20 متراً فقط من دفاعات النمساويين المتواجدة تحت قمة الجبل.

وحيث إن سرية الحرس الإمبراطوري *Kaiserschützen* [1] تحت إمرة النقيب *Hauptmann* [2] كونستانتين فالنتين كانت مهتمة للغاية، بجبل كول دي لانا إلى حد أنه أصبح ملكها الحصري. فقد كانت تمتلك ملاجئ محفورة في الوجه الصخري كمن فيها أفرادها «طوال مدة الحرب». في أحد أيام الأحد، زارهم كاهن الكتيبة ليقوم بأداء الطقوس المقدسة. وبعد انتهائها، شبكوا أيديهم وبدؤوا بالغناء: *Zu Mantua in Banden* [3] عند تخوم مانتوفا[4]... هو النشيد الوطني لمقاطعة تيرول النمساوية الذي يتحدث عن أعظم أبطال بلادهم، أندرياس هوفر، الذي تحدى قوة نابليون. ومنحهم الشجاعة والثقة بالنفس.

وبينما استمرت الحرب بلا هوادة للسيطرة على قمم الجبال، استمرت الحياة في الوادي. تولت النساء الأعمال المنزلية الزراعية، مثل قص العشب، وقطع الخشب، وجلب التبن. في أيام الأحد، كانت زوجات وبنات الجنود الذين يقاتلون في المرتفعات العالية يتجمعن في الكنيسة الصغيرة

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.
2- بالألمانية في الأصل. المترجم.
3- بالألمانية في الأصل. المترجم.
4- مدينة إيطالية في عام 1814 انضمت إلى النمسا وأصبحت رمزاً لمقاومة أعدائها. المترجم.

القديمة ويرددن دعاء *Zur allerseligsten Jungfrau der Verteidigung*[1] السيدة العذراء حاميتنا، والتي يطلق عليها الإيطاليون اسم «*Alla beata vergine della difesa*». محاربو اللومبارد[2] القساة ووفقاً للأسطورة، هجم اللومبارديون على الوادي.. تعرضت القرى للسلب والنهب، وبدا أن جميعها ستهلك عندما أرسلت السيدة العذراء ضباباً كثيفاً نزل من قمم الجبال. وعندما انقشع الضباب، اكتشف سكان وادي Montaneler مونتانلير أن المحاربين الوحشيين ذبحوا بعضهم البعض. وهم الآن يرددون الدعاء نفسه *Heilige» Jungfrau, steh uns bei*» أيتها السيدة العذراء المبجلة ندعوك للوقوف إلى جانبنا، وأعطتهم السيدة العذراء علامة على تعاطفها؛ فقد بدأت الثلوج تتساقط على المرتفعات العالية وقمم الجبال، في شهر تموز، مما أدى إلى توقف القتال مؤقتاً. نزل بعض الرجال إلى الوادي لقضاء ليلة مع عائلاتهم. فالسيدة العذراء، تقف معهم.

كان أبناء مقاطعة التيرول يستغلون أشهر الصيف لنقل الأخشاب التي بنوا بها أغرب الملاجئ، فقد كانت تشرف مباشرة على حافة الجبل. وكان يتم هذا العمل في وقت مبكر من الصباح، عندما تتشبث الغيوم بالجبال وتحجب الرؤية عن مدافع المدفعية الإيطالية. بعض هذه الملاجئ كانت تجري بها المياه، التي تتدفق من النهر الجليدي الذي يمر فوق المنحدرات، وكانت تصل أحياناً إلى أسرّة نوم الجنود. ولأجل حماية أنفسهم من القذائف والطقس الجبلي غير المستقر، بدأ الجنود بحفر نفق في الجبل. وقاموا بتفريغه من الصخور وتركيب مقاعد خشبية وطاولات ورفوف وأسرّة، ثم يجلسون هناك أو يلعبون الورق أو يتناولون حساءهم الخفيف أو يقومون بإصلاح سراويلهم الممزقة، بينما كانت القذائف تنفجر وهي تصطدم بالصخور وكانت الشظايا المرتدة تنفلق

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

2- اللومبارد هم قبيلة جرمانية من منشأ اسكندنافي وحكمت إيطاليا بين عامي 568-774. المترجم.

في الهواء محدثة أزيزاً وكانت غرف التخزين مليئة بالأسلاك الشائكة وصناديق الذخيرة، وحبال تسلق الجبال، والشموع، والفاصوليا، وشحم الخنزير، وأحذية اللباد المبطنة بنعال خشبية، ومعاطف ثقيلة من جلود الغنم لأولئك الذين يشاركون في واجب الحراسة. ورغم أن الطقس في الخارج يكون متجمداً أثناء أشهر الشتاء، فإنه يتحول فجأة إلى الأسوأ في شهر تموز أو آب أو ايلول.

لقد احتاج الأمر الاستعانة بالكثير من الرجال لإحضار المؤن أكثر من عدد أولئك الذين كان واجبهم محاربة العدو. كان عمل الحمالين ينطوي على خطر مميت. فسيرهم على المنحدرات الجبلية المكشوفة، جعلهم الهدف السهل للرماة الذين كانوا يختبئون في الجانب الصخري للجبل. كان الحمالون وهم يسيرون تحت قمم الجبال يحدقون في الآلاف من الصخور التي تتدلى بشكل خطير فوق رؤوسهم. كانوا يرسمون علامة الصليب، ويرددون مع أنفسهم «الأم المقدسة تقف معي»، ثم يتم تجاوز الخطر. فعل البعض ذلك والبعض الآخر لم يفعل. أولئك الذين لم يفعلوا دخلوا ضمن سجلات الإحصاء العسكري: التاريخ: 15 آب، المكان: منطقة غران لانغازوي، العدد: 4 حمالين، السبب: انهيار صخري[1].

اخترق الجنود الممرات في الصخور الرأسية. وكانوا يتلمسون طريقهم عبر وضع أيادي بعضهم الواحدة فوق الأخرى، ويثبتون الحبال بحافات الجبل فيما كانت أقدامهم تتدلى في الهواء واضعين على ظهورهم حمولة بوزن ستين رطلاً. قاموا بتوصيل الأسلاك من منحدر جبلي إلى آخر، ورفعوا الأحمال باليد، أو قاموا بتركيب محركات لتكوّن شبكة منتظمة من المصاعد السلكية. أياً كان النظام، كان يتعين على المؤن أن تمر. وكان ينبغي أن ينزل الجرحى لمعالجتهم. كان الألم يخترق الأجساد الموضوعة على النقالات أثناء تعثر حامليها المتعبين وهم ينزلون. ومع ذلك، لم يكن أي شيء يشبه رعب التمسك بمنصة

1- هناك الآلاف من هذه الإحصائيات في الأرشيف العسكري النمساوي.

شحن مفتوحة، ثم إنزالها عبر الكابل الذي يسير في الفراغ البالغ طوله 1000 متر. أما ذوو الإصابات الخفيفة، أولئك الذين كانت أسلحتهم معلقة على أكتافهم وتم تضميد رؤوسهم على عجل، فقد كانوا ينزلون سيراً على الأقدام، ويؤمرون بالرجوع في اليوم التالي، وهم يحملون مواد التموين.

أصدر الجنرال كانتوري[1]، قائد الفرقة العسكرية الإيطالية *Alpini* [2] الخاصة بالقتال في الجبال، أوامره بالقيام بقصف مدفعي مكثف لجبل كول. دي لانا. عند موقع *Stützpunkt* شتوسبونتك وهو موقع محصّن بارتفاع 250,2 متراً، ويمثل خط الدفاع الأول، ويقع على بعد حوالي 200 متر تحت قمة الجبل، فقد الضابط النمساوي توازنه عندما سقطت قذيفة بضربة مباشرة على الكهف وقتلت جميع أفراد قوته، وكان من بينهم شقيقيه، قفز إلى الحاجز، ولوّح بذراعيه، لكنه سقط على الفور برصاصة من قناص. لقد سقط عليهم وابل من القذائف من جميع الأحجام وبشكل كثيف للغاية. حتى مساء 22 تشرين الأول، كان ثلاثة رجال فقط لا يزالون على قيد الحياة. في تلك الليلة، أصبح الإيطاليون هم أصحاب الموقف الحاسم، وأصبحت السيطرة على المدافعين النمساويين المتواجدين في القمة أمراً مفروغاً منه[3].

كان السابع من تشرين الثاني 1915 يوماً عصيباً على جبل كول دي لانا. قصفت المدفعية الإيطالية قمة الجبل بوابل مركّز من القذائف، مما تسبب بحدوث خسائر كبيرة جراء تناثر شظايا الصخور المتشققة التي اخترقت الخندق. عند الظهيرة توقفت المدفعية فجأة، وظهرت كتيبة من الجنود الإيطاليين تتسلق الجبل مثل القطط عبر الشقوق الموجودة

1- كانتوري جنرال كبير قتل في فانتونا.

2- بالإيطالية في الأصل. المترجم.

3- العديد من هذه القصص رواها والد المؤلف، وقد خدم ضابطاً في إحدى كتائب الفرقة الجبلية. للفترة من عام 1895 وحتى 1918 وجرح بالقرب من جبل كول دي لانا وكان شاهداً على الحرب في مارمولادا.

في المنحدرات. قام عدد قليل من النمساويين الذين نجوا من القصف المدفعي بالقتال بشجاعة باستخدام الرصاص الحي والحراب وأعقاب البنادق والمعاول والقبضات العارية. وبحلول الساعة الثالثة من بعد الظهر، انتهى كل شيء وانتهى الأمر بآخر المدافعين إلى التزاحم على السقوط أسفل المنحدر المقابل. ومن كان في الوادي بات يرى علماً إيطالياً يلوح في القمة.

«*Der Italiener ischt ob'n*»[1] الإيطاليون في قمة الجبل. كان الجميع يعرف ما الذي سيحدث إذا ما سمح للإيطاليين بالبقاء على الأرض المرتفعة: فالوادي سيصبح فخاً للموت. قام النقيب *Hauptmann*[2] قسطنطين فالنتيني من الحرس الإمبراطوري *Kaiserschützen*[3] بتجميع كل أولئك الذين ما زال بإمكانهم أن يحملوا بندقية ويسيروا. وعند تلاشي ضوء المساء، كانوا يتدفقون على سفح الجبل الذي كانت أغلب نقاطه شديدة الانحدار، مندفعين من صخرة إلى صخرة، متحدين إطلاق النار الشديد من الإيطاليين على القمة. سجلت العديد من الأعمال الباسلة في تلك الليلة الرهيبة. ألقى فتى يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً بنفسه على قذيفة وضحى بحياته لإنقاذ رفاقه. قام مزارع يبلغ من العمر 72 عاماً، وكان يقول عنه الجميع إنه لا يستطيع أن يحلب بقرة بسبب كبر سنه بالتنقل من صخرة إلى أخرى، وألقى قنبلة يدوية على موضع بندقية رشاشة. تحت جنح الظلام قام النقيب *Hauptmann* فالنتيني بقيادة حوالي ثلاثين رجلاً للقيام بهجوم بالحراب. وقاموا وهم يصرخون برمي جنود الفرقة الجبلية من الأعلى. في الساعة العاشرة مساء، عاد العلم النمساوي ليرفرف مرة أخرى على قمة جبل كول دي لانا. في 26 تشرين الثاني، قام جنود الفرقة الإيطالية بمحاولة أخرى.

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

2- بالألمانية في الأصل. المترجم.

3- بالألمانية في الأصل. المترجم.

هذه المرة، تعلم النمساويون الدرس. قاموا باستبدال الحواجز الصخرية بأكياس الرمل، والتي استوعبت سقوط بعض القذائف وأوقفت أي ارتداد لها. عندما اقترب جنود الفرقة الإيطالية من المنحدر، تظاهر جنود الحرس الإمبراطوري بالموت وجعلوهم يقتربون مسافة عشرة أمتار قبل أن يتعرضوا لوابل من القنابل اليدوية. وسقط أولئك الذين تعرضوا للضربة إلى الأمام وبقوا مستلقين بسكون على الحجارة الكلسية البيضاء التي تحولت إلى سوداء بسبب الانفجار، وانزلق الباقي أسفل التلال نحو الصخور المهشمة.

ومنذ ذلك اليوم، أطلق الإيطاليون على جبل كول دي لانا اسم كول دي سان، وتعني جبل الدم. ولا زال يحمل هذا الاسم إلى اليوم. في السادس عشر من كانون الأول، قاد الرائد غراندولفي كتيبة عسكرية من الفرقة الجبلية الإيطالية *Alpini Battalion Belluno* كانت هي الأكبر، بدأت كومة جثث شهداء الفرقة الجبلية الإيطالية تكبر أمام خنادق القمة بشكل أكبر منذ يوم بدء الجهود لاقتحام قمة الجبل أخفق الهجوم مرة أخرى مخلفاً خسائر فظيعة. كانت صرخات «*Ajuto! O dio mio*»[1] يا إلهي، النجدة! التي ترتفع من حناجر الجرحى، العالقين في الأسلاك الشائكة، يمكن سماعها جيداً في الليل. لم يكن باستطاعة النمساويين سوى فعل القليل لتخفيف معاناتهم. كان العام يقترب من نهايته وأخفت أولى كميات الثلج التي تساقطت الجثث المشوهة تحت بطانية بيضاء. غطى الثلج الرعب الذي مزّق قمة وسفوح الجبل المقدّس.

كانت الإحصائيات الرسمية للإصابات في صفوف القوات الإيطالية في هذا الجبل لوحده في الأشهر الستة من عام 1915 كالتالي: عدد الضباط الجرحى: 199، القتلى: 104، زائد 14 في عداد المفقودين. الجنود الجرحى: 5160، والقتلى: 1050، بالإضافة إلى 435 في عداد المفقودين. وهنا يجب طرح هذا السؤال، كيف يمكن أن يكون هناك

1- بالإيطالية في النص. المترجم.

جنود «في عداد المفقودين» في جبل واحد؟ الجواب واضح تماماً: كانوا مدفونين إثر الانهيار الجليدي.

امتد تساقط الثلوج من الحدود السويسرية إلى جبال الدولوميت[1]، ومن نهر إيساك إلى نهر إيسونزو. أصبح كل جبل، وكل خندق مدفوناً تحت الثلج الناعم، وكانت كل سارية تحمل قبعة بيضاء. غطى اللون الأبيض الرجال الذين كانوا في واجب الحراسة، وبما أنهم اضطروا إلى البقاء غير قادرين على الهروب من عيون قناصة العدو، فقد أصبحوا يشبهون رجل الثلج. كانت نفثات دخان الغليون فقط هي الدليل على أن رجل الثلج كان على قيد الحياة.

كان الهم الرئيس للجنود على طول سلسلة جبال الألب، من الفرقة الإيطالية والحرس الإمبراطوري على حد سواء، هو جرف الثلوج. كانت الممرات، والخنادق، والسلالم، ومواقع المدفعية، وكل شيء مغطّى بكتل الثلج. تحول الحصول على المؤونة إلى مشكلة كبيرة. لم يعد بوسع الحمالين شق طريقهم من خلال الثلوج المتدفقة، والصعود الذي كان يستغرق عادة يوماً في الطقس الجيد، بات يحتاج الآن إلى ثلاثة أيام. كان يجب على الأرتال التي تفرغ المؤن الحيوية، والتي تشق طريقها عبر الثلوج العميقة، أن تغير قائدها كل عشرة أمتار. كانت أكوام من الجليد تحيط بأسلاك الاتصالات وكان على الرجال تسلق المنحدرات المغطاة بالجليد لإصلاح القطوعات التي لا يمكن تركها لأهميتها. على الأنهار الجليدية الشاسعة في منطقتي مارمولادا وأورتلير، أصبحت كلابات تسلق الجبال ذات أهمية حيوية مثل الأحذية. وقد انهارت معابر الثلوج قليلة السمك التي تغطي الصدوع التي لا قعر لها تحت ثقل البغال والرجال، مما أدى إلى سرعة تدميرها.

ومع تساقط الثلوج الكثيفة والرؤية السيئة، توقفت تدريجياً الحرب

1- جزء من جبال الألب الإيطالية تقع في إقليم ترينتينو ألتو أديجي في شمال إيطاليا. المترجم.

الجبلية. ولم تحدث سوى اشتباكات بسيطة. أحدها حدث لميكوش وهو حامل الراية *Fähnrich*[1] لدورية من الحرس الإمبراطوري *Kaiserschützen* ضلّت طريقها وسط العاصفة الثلجية. كانت دزينة من أفرادها قد شقت طريقهم لساعات من خلال كثبان الثلج التي كان ارتفاعها يفوق في بعض الأحيان طول رجل وقد وصلت قدرتهم على التحمل إلى نهايتها عندما اقتربوا من مجموعة من الأكواخ. كانت قواهم قد استنفدت تماماً، فتعثروا عند باب أقرب كوخ حيث سمعوا أنفاساً قوية تصدر عن رجال نائمين. حدث ذلك عندما لاحظ حامل الراية *Fähnrich* معطفاً لأحد أفراد فوج المشاة 62 الإيطالي. لقد ساروا دون قصد إلى وسط كتيبة كاملة من القوات الاحتياطية للعدو! شاهدهم أحد الحراس وأطلق شارة الإنذار. رمى النمساويون عدداً من القنابل اليدوية على الأكواخ، وصعدوا إلى المنحدرات الشديدة.

مع حلول شهر شباط 1916، تحسن الطقس بشكل كاف لاستئناف الهجوم. وفي الطريق للوصول إلى جبل كول دي لانا، كانت كتيبة من الفرقة الجبلية الإيطالية ألبيني تسير في طابور طويل عندما نظر أحد جنودها إلى الأعلى ورأى سحابة مظلمة بالقرب من القمة، تشبه تلك التي ترافق العاصفة الصيفية الثقيلة. صاح محذراً. وجاءت كتلة رمادية زرقاء ترعد، مصحوبة بصفير وعواء... ثم أصبح كل شيء صامتاً، صمتاً مميتاً: تم دفن 341 جندياً إيطالياً تحت عشرين متراً من الثلوج المتجمدة. كانت الطبيعة هي صاحبة الكلمة الأخيرة، توقف الهجوم على جبل كول دي لانا لمدة شهر.

بعد عام من القتال المرير، وكان في كثير من الأحيان على شكل اشتباكات بالأيدي على ارتفاعات تزيد عن 3000 متر، كانت وحدات Schützenbattalions القتال النمساوية تتمسك بثبات بخط المواجهة الجبلي ولم يتمكن الإيطاليون من التقدم قدماً واحداً في أرضهم

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

التيرولية المقدسة. كان الربيع على وشك المجيء مما يتسبب في ذوبان الثلوج في الوديان، حينها بدأ الإيطاليون نوع جديد من حرب الجبال. عندما فشلوا بالاستيلاء على القمة بسبب العاصفة، بدؤوا بحفر نفق في الجبل تحت المواضع النمساوية.

أمر الكولونيل تارديتي، وقد كان قائداً لكتيبتين من الفرقة الجبلية (ألبيني) اللتين انخرطتا في القتال في قاطع العمليات القتالية في جبل كول دي لانا، اللفتنانت كولونيل بيبينو غاريبالدي لبدء العمل بزرع الألغام في الطريق المؤدية إلى القمة. ولمدة شهرين، كان النمساويون المرابطون على قمة جبل كول دي لانا يسمعون ضوضاء الحفر تحت أقدامهم. قام الإيطاليون بتركيب مكبس هواء كبير الحجم تحت نتوء جبلي، وبدؤوا يثقبون نفقاً في الجبل. وبمجرد أن وصل النفق إلى موقع يقع أسفل القمة، بدأ يتشعب إلى عدة أنفاق صغيرة تحوي غرفاً في نهاياتها. بحلول 12 نيسان، انتهى الإيطاليون من عمليات حفر الأنفاق. وفي ليلة واحدة، 15/ 16 من نيسان، كانت الغرف مليئة بـ5000 كيلوغرام من مادة نيتروجيلاتين المتفجرة[1].

في الليلة نفسها، تم استبدال السرية الخامسة من الفوج الثاني للمشاة والتي كانت منهكة ويقودها النقيب أدلبرت هوما بالسرية السادسة من الفرقة نفسها تحت إمرة الملازم أول أنطون فون تشوتشورتالين.

في السابع عشر من نيسان من عام 1916. حل فجر رمادي فوق جبال الألب. فجأة انفجرت جميع حمم الجحيم: تم إطلاق النيران من 150 مدفعاً رشاشاً ثقيلاً على قمة جبل كول دي لانا. في الساعة 14:27 مساءً، أرسل الملازم أول أنطون فون تشوتشورتالين التقرير التالي:

«إلى قائد الكتيبة .K. K من قائد كتيبة جبل كول دي لانا تعرضنا ما

1- أكبر حقل ألغام أقامه النمساويون على جبل كول دي باسوبيو. في 13 آذار 1918. كان يحتوي على 55 ألف كجم من الديناميت. أقام الإيطاليون حقلاً يحوي 35 ألف كجم من مادة النيتروجيلاتين في جبل كاستيليتو.

بين الساعة 5 صباحاً إلى 9 صباحاً إلى قصف بالمدفعية الخفيفة، بعد الساعة 9 صباحاً بدأت المدفعية الثقيلة بقصف مواضعنا وتعرضت جميع خطوط خنادقنا إلى إطلاق نار كما هو حال مواضعنا الخلفية وتعرضت الملاجئ السرية إلى ضرب مباشر. ولم تعد الملاجئ الموجودة تحت سطح الأرض صالحة للاستخدام بسبب تصاعد أبخرة الكبريت الكثيفة. الوضع ميؤوس منه، ولا يمكن أن نجد له أي حل. في حالة هجوم العدو سنبذل أقصى ما في وسعنا. نحن بحاجة إلى الأدوية والنقالات بشكل عاجل. لم تتم كتابة هذا التقرير لجعلكم في حالة من الذعر ولكن لتبيان الحقائق. إنني اطلب المساعدة الفورية. الملازم أول تشوتشورتالين»

ومثلما بدأ فجأة، فقد توقف القصف القاتل فجأة أيضاً. في تمام الساعة العاشرة والنصف مساءً، أضيئت قمة الجبل فجأة بواسطة كشافات قوية موضوعة على القمم المحيطة. «شيء ما يحدث»، صاح *alle Mann in Deckung* تشوتشورتالين: «فليبحث الجميع عن ملاذ...».

في الساعة 11:30 مساءً، هزت الانفجارات المنطقة. كان الناس في الوادي يحدقون بفزع في ثلاث كتل عملاقة من اللهب وهي تشتعل في السماء. تحطمت قمة جبل كول دي لانا، وحلقت آلاف الأطنان من الصخور في الهواء، مما تسبب في انهيار العديد من الصخور، التي وقع أحدها فوق قافلة من البغال التي تحمل المؤونة. تلاشت قمة الجبل، وحلت محلها حفرة واسعة قطرها 100 متر قتل 150 فرداً من فوج الرماية *Kaiserjäger*. جندي واحد فقط من أولئك الذين كانوا في الخندق كان محظوظاً ونجا. فقد رمته قوة الانفجار عبر الهواء وسقط على بعد عدة مئات من الأمتار على أغصان شجرة. ظل يزحف لمدة يومين وهو مصاب بكسر في الساق. والذين عثروا عليه وجدوه، ينزف وفي حالة يرثى لها، وظنوا أنهم قد عثروا على شبح.

لقد كانت معجزة أن أحد جنود فوج الرماية *Kaiserjäger* قد نجا. كان تشوتشورتالين وبعض رجاله داخل كهف صخري في إحدى قمم الجبل

الثانوية، وحاول هو ورفاقه تركه هرباً من الانفجار. لكن تساقط الصخور منعهم. لم يكن هناك ضوء وبدؤوا يشعرون بالاختناق ببطء جرّاء أبخرة الكبريت الكثيفة المتصاعدة، فبدؤوا يحاولون تمزيق الصخور باستخدام أيديهم التي كانت تنزف لفتح منفذ لهم. وبعد عدة ساعات تمكنوا من إحداث فتحة في الصخور، ليجدوا أنفسهم يحدقون في فوهات بنادق مغاوير الفرقة الجبلية الذين استطاعوا في نهاية المطاف من الاستيلاء على جبل كول دي لانا.

وعدا عن أي شيء آخر، فقد أظهر هذا الانتصار عبثية القتال في المرتفعات الجبلية. ومع توقف القتال لغرض السيطرة على جبل كول دي لانا، تحولت النقطة المحورية للمعركة في الجبال الآن إلى منطقة أورتلير، حيث كان النمساويون قد احتفظوا بالسيطرة على جبل سيما دي كامبو (3,480م) وجبل كونيغسبيتز (3,800م). كان صيف عام 1916 جافاً وساخناً، وهو طقس مثالي لجلب الإمدادات عبر منحدرات الجبل القاحلة والوعرة إلى مواضع الجيش في قمة الجبل ولتعزيز عتاد المدفعية. كانت مشاكل إعادة الإمداد متعددة؛ تطلب الأمر استخدام عشرة حمالين لكل رجل مقاتل لإحضار طعامه وذخائره. على الممرات الصخرية الحادة، كانت البغال ومن يتمتعون بقوة العضلات هم وحدهم من يستطيعون حمل أكداس العتاد وصناديق القذائف والأسلاك الشائكة والرصاص والمؤن. لم يوفر التحرك عبر الكتل الجليدية المكشوفة أي فرصة للاختفاء من بنادق العدو، بينما تحول نقص الأوكسجين في كل خطوة إلى تعذيب خارق للرئة. أضف إلى ذلك أشعة الشمس، التي تسببت بدرجات عالية من حروق الشمس والعمى الثلجي المؤقت. لكن الخطر الأعظم كان يأتي من تساقط الصخور.

في الرابع عشر من آب، توجه طابور طويل من جنود الفرقة الجبلية ألبيني، تحت سماء رمادية اللون بصحبة قافلة من البغال التي تحمل المؤن، وأكداس من العتاد وعربات المدافع الجبلية، ليصعدوا ممر

فالزاريغو. كان من ينظر إليهم من الأعلى، يراهم وقد بدوا مثل النمل يزحفون على الطريق وانتهى بهم المطاف ليتحول شكل طابورهم إلى ما يشبه الثعبان. ما أعاق تقدم الطابور هو الأحمال الثقيلة التي كان على البغال حملها، وخشونة التضاريس. تغير الطقس، وغابت الشمس وراء سحابة سوداء وبدأ يتساقط المطر. جعل هطول الأمطار الطريق زلقاً والتقدم بالنسبة للحيوانات أصبح صعباً. ولم يمر وقت طويل، حتى اجتاح الطريق سيل جارف. توقف الطابور، وأراح الجنود الحيوانات من أحمالها وجلسوا. وأخيراً، انتهى هطول الأمطار وأشرقت الشمس الساطعة. هيا بنا - *Andiamo* [1] هكذا أصدر *capitano* [2] قادتهم الأوامر.

ولكن المطر فعل شيئاً آخر. فقد جرف هطول الأمطار الطبقة الرقيقة من التربة الموجودة تحت الصخور، وتراكمت في الممرات الطويلة الشديدة الانحدار التي تؤدي إلى القمة. انفجرت قذيفة بالقرب من أعلى القمة. فتطايرت بعض الصخور، ومن دون سابق إنذار، بدأت تنزلق أعداد كبيرة من الصخور ومن أحجام مختلفة. لقد انهار العالم أمام أفراد الطابور... وسقط جبل بكامله فوق رؤوس الجنود التعساء، وانفتحت أفواههم على صراخ يائس غرق وسط هدير مدوٍّ، حيث هشمت الصخور العملاقة البغال والرجال: تدحرج 258 من الرجال وأربعة عشر مدفعاً نحو الوادي، واندفنت جثثهم المشوهة تحت مليون طن من الصخور إلى يوم يبعثون.

المكان: منطقة جبل مرمولادا، الزمان: خريف عام 1916. كانت وحدات نمساوية قد أقامت مواضع في هذا الجبل البالغ ارتفاعه 3434 متراً، والذي يشتهر بنهره الجليدي العملاق، وحوّلته إلى مدينة جليدية منتظمة تحت الأرض. فقد نحتت في داخله متاهة من الممرات ومواقع المدفعية ومرافق المستشَفيات ومراكز المراقبة ومستودعات التخزين.

1- بالإيطالية في الأصل. المترجم.

2- بالإيطالية في الأصل. المترجم.

وكان هناك أماكن لنوم الجنود، ومطبخ ميداني ولوحة مفاتيح هاتفية. وضعت الألواح الخشبية فوق الصدوع، وتم تحصين الشقوق الأصغر في السطح الأملس للنهر الجليدي وجعلها مواقع للمدافع الرشاشة. لكن سقط الكثير من الضحايا بسبب معابر الثلج الخفية الغادرة، وحتى اليوم، وبعد مرور ثمانين عاماً، ما زال النهر الجليدي العملاق يلفظ ضحاياه. تموضع رجال المدفعية فوق الكثبان الثلجية شديدة الانحدار، التي تقع أسفل القمة مباشرة، وكان هناك نظام متكامل من السلال التي تجرها الكابلات، والمعروفة باسم التوابيت الطائرة، يزودهم بضروريات الحياة وهم في المرتفعات العالية. لم يكن للنشاط اليومي للمدفعية تأثير يذكر على الرجال داخل الكهوف الجليدية، وكان القيام بأي هجوم عبر النهر الجليدي المصقول في مواجهة المدافع الرشاشة الثابتة بمثابة عملية انتحار.

بحلول منتصف شهر تشرين الثاني من عام 1916، بدأت الثلوج تتساقط. وبدأت الانهيارات الثلجية تتوالى مثل الشلالات على الوادي في المواقع المحيطة بمنطقة شيليرباخ كان الوضع أسوأ بكثير بالنسبة لقوافل المؤن والتجهيزات. يوماً بعد يوم، كان على الحمالين أن يصعدوا في مسارات متعرجة، وسط الرياح الشديدة للعاصفة والمنزلقات الثلجية. لا يوجد حساب لعدد الذين ماتوا متجمدين، وقد تهشموا، واندفنوا تحت كتل الثلج العالية. وبحلول أوائل كانون الأول عام 1916، أصبحت الثلوج كثيفة للغاية بحيث أصبحت أية عملية إعادة إمداد أخرى لمواقع المقاتلين في قمة الجبل أمراً مستحيلاً. لحسن الحظ، كانت المخازن مليئة والذخيرة وفيرة.

أولئك الذين لم تكن لديهم حاجة للخروج من النهر الجليدي المفتوح، أتخذوا مأوى لهم في عشرات الأكواخ الخشبية التي تم بناؤها خلال أشهر الصيف، محميين بشكل جيد من قصف العدو، لكنهم لم يكونوا آمنين من الانهيارات الجليدية.

في يوم القديسة لوسي الذي صادف، 13 كانون الأول 1916. كان رجال الكتيبة الثانية يجرفون الثلوج طوال اليوم. مما جعل أجسامهم رطبة ومتعبة، وكانوا قد خلعوا ملابسهم وزحفوا إلى أسرّتهم في الأكواخ التي تقع على السفح المؤدي إلى القمة. وصف الأب مارتن ميتشيك، كاهن الكتيبة الأولى، من فوج الحرس الإمبراطوري الثالث ما حدث بعد ذلك:

«كنت في صحبة صديقي العزيز هرقل في أحد الملاجئ بالقرب من المنحدر. وعند حلول شهر تشرين الثاني بدأت الثلوج تتساقط مما أسفر عن حدوث انهيارات ثلجية تسببت في سقوط ضحايا فاقت بأعدادها أولئك الذين ماتوا جرّاء الحرب. في هذا الصباح المميز، وعند حوالي الساعة الخامسة والنصف صباحاً، سمعنا صوت هدير الانهيار الجليدي. لقد فاجأ رجالنا أثناء نومهم داخل الأكواخ على منحدر غران بوز. جعلتنا صرخات المصابين ندرك أن مأساة قد حدثت. كان الملجأ الذي يشغله قائدنا، رودولف شميد هو الأول الذي وصلنا إليه، وكان يقع مباشرة في مواجهة المنحدر، وكان مغطى بطبقة سميكة من الثلج المضغوط الذي كان صلباً مثل الخرسانة. استغرق الأمر سبع ساعات لحفره. ومع ذلك كان واحداً من المحظوظين الذين نجوا. لم يتبق شيء سليماً في أكواخ الكتيبة الثانية، ولم تظهر سوى قطعة صغيرة من الجليد النقي كشفت عن ما خلفه الانهيار الجليدي وراءه أثناء سيره المدمر. اتجه ضغط الهواء نحو سلسلة أخرى من الأكواخ، لم تكن تبعد سوى القليل عن المسار المباشر للانهيار الثلجي الكبير، وحولها إلى كتلة من الأنقاض المهشمة والمحطمة التصقت بكتل من الثلج وامتزجت بكتل من الجليد والصخور الكبيرة. عملنا لمدة أربعة أيام، في الجرف والحفر، وكنا دائماً تحت خطر المزيد من الانهيارات الثلجية. لم نجد سوى جثث مهشمة ذات وجوه زرقاء. في اليوم الرابع، حفرنا في آخر تجويف وانتهى بنا المطاف إلى كهف جليدي طبيعي حيث وجد سبعة جنود ملاذاً لهم؛ كان

أحدهم ميتاً، والآخر كان نصفه متجمداً، لكن خمسة كانوا على ما يرام. لكنهم فقدوا كل إحساس بالزمن. قال لي أحدهم إنه يعتقد أنه بقي تحت الثلج لمدة أربع وعشرين ساعة فقط[1].

لم يكن العدو، الذي كان يسيطر على المنحدرات المقابلة، بحال أفضل. كانت قصة الملازم الأول توليو مينغيتي من كتيبة الفرقة الجبلية الإيطالية (ألبيني) السابعة مماثلة لتلك التي رواها الكاهن النمساوي.

كانت تلك هي ليلة القديسة لوسي [13 كانون الأول] وكان بالي مشغولاً بعائلتي المقيمة في أرض الوطن. كنا ثلاثة عشر في كوخ ذي سطح مائل كان يؤوي المحرك الخاص بعربة التلفريك التي كنا نستخدمها، وكما أراد القدر، وجدت نفسي على الجانب الجنوبي من الكوخ الضيق، الذي كان مثبتاً بواسطة سلكين من الفولاذ في الصخرة الصلبة الموجودة في الحافة التي تهوي عمودياً في وادي تشيامبي دي آري *Val Ciampi d'Arei* . فجأة، شعرت بضغط فظيع في أذني وظننت أن رأسي سوف ينفجر. انطفأت الشموع، وحدث ارتطام فظيع هز الكوخ وسمعنا بوضوح انفجار أحد أسلاك التثبيت. «لقد انتهى كل شيء، وسنسقط في الوادي»، كان ذلك أول ما خطر في بالي. لكننا لم نسقط ملأ الثلج الغرفة وتلقى ظهري دفعة نحو الحائط. الهواء... كنت مجنوناً للحصول على شيء من الهواء. قمت بالحفر بكلتا يداي حتى سلخت الجلد عنهما، لكنني تمكنت من فتح منفذ صغير. وتمكنت من إخراج رأسي منه عندما اكتشفت، ويا لصدمتي، أن نصف كوخنا كان غير موجود، وكان يتدلى بزاوية مائلة بشدة فوق الهاوية. وبعيداً في الأسفل، حيث أنهى الوحش الجليدي طريقه الشيطاني، لاحظت تلة كبيرة من الثلج المتراكم، دفن تحتها أفراد كتيبتي[2]...

1- من مذكرات الأب ميتشيك، في 14 كانون الأول 1956 وكان من الناجين من الحرب في مارمولادا وصدرت بعنوان Die Marmolata, Kaiserschützenbund Wien في عام 1972.

2- راجع: Tullio Minghetti, I figli dei Monti Pallidi, Legione Trentina.

في ذلك اليوم المميت المصادف 13 كانون الأول من عام 1916، قُتل عدد لا يحصى من الجنود الإيطاليين والنمساويين، وكانوا جميعهم ضحايا الانهيارات الثلجية[1]. في الوثائق التي يعلوها التراب، يمكن للمرء أن يجد إحصائية جافة مكتوبة بقلم لا يعرف الرحمة. تضم قائمة بالآف الأسماء، لأفراد دفنوا تحت ملايين الأطنان من الصخور والثلوج.

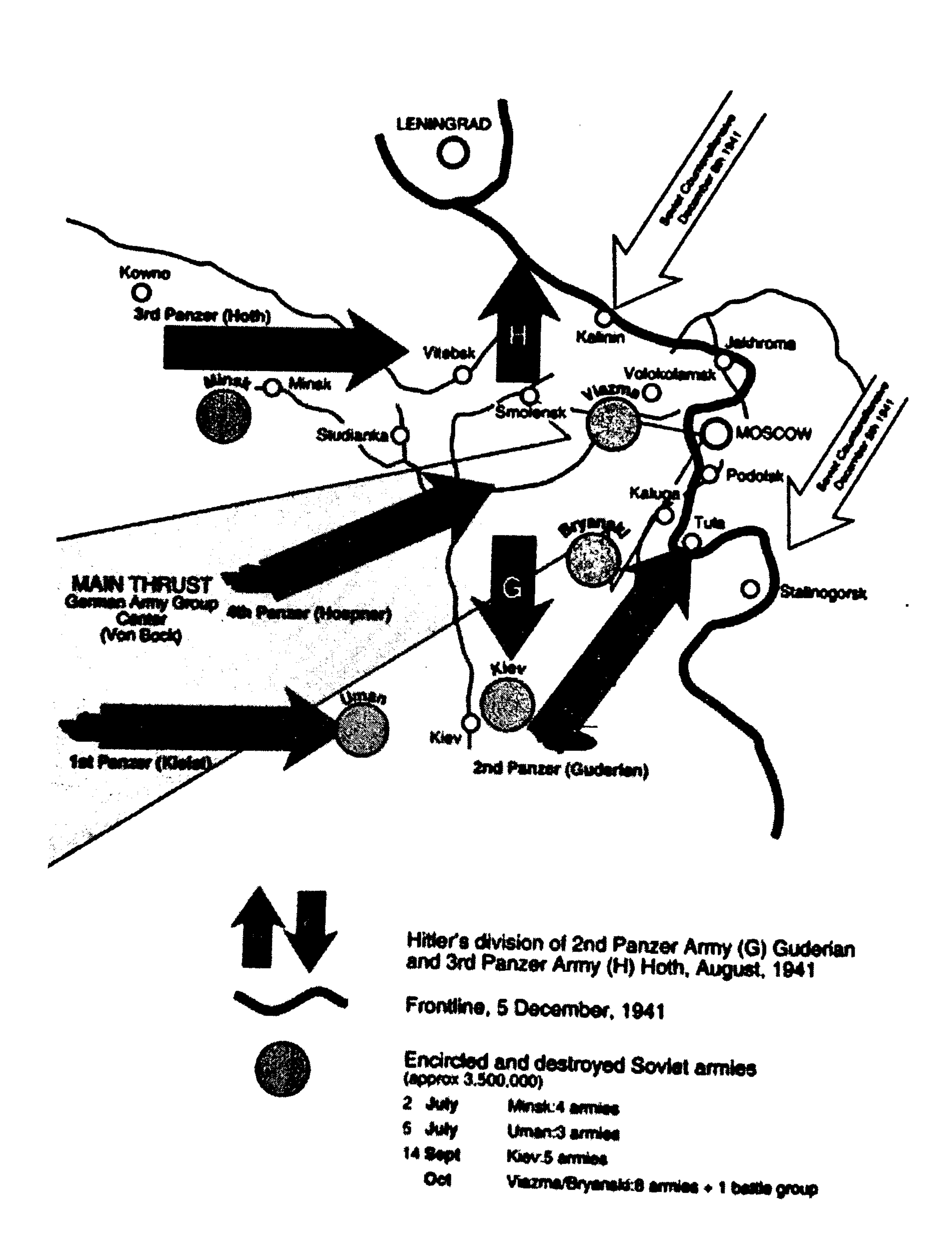
إن الدرس الذي يمكن استخلاصه من هذا التقاتل لأجل الاستيلاء على تلك «الأرض المرتفعة». أن كلا الطرفين كانا مصممين على عدم استخلاص العبر من الدروس التي تعلمها أولئك الذين مروا بتلك الأرض قبلهم. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل نواقصهما، فإن الفرقة الجبلية Alpini والحرس الإمبراطوري Schützen على حد سواء قد بذلا كل ما بوسعهما في القتال الذي دار في هكذا ارتفاعات عالية، كان من المستحيل التمييز بين المنتصر والمهزوم. وفي النهاية، لم تسفر ثلاث سنوات من المعاناة وإراقة الدماء عن شيء. كانت المكاسب الإقليمية صفراً. وكان هذا حكم الطبيعة.

تمّ إحصاء خسائر الإيطاليين وكذلك النمساويين التي لم تنجم عن معارك الجبل. وإجمالاً، فإن ثلثي الضحايا أثناء هذه الحرب الجبلية القاتلة تسببت بها الطبيعة. يمكن للإنسان أن يكون منتصراً ضد أخيه الإنسان؛ ولكن عندما تواجهه قوى الطبيعة المنفلتة من عقالها، يقف عاجزاً. عند قمم الجبال، يكون الجميع متساوين. الإنسان معرض دائماً لنزوات الطبيعة. فقط الجبل يقرر من الذي سيعيش ومن الذي سيموت.

1- استناداً إلى إحدى وثائق معهد الحرب النمساوي Österreichisched Heeresmuseum.

German Army Group Centre

Moscow, 5 December 1941



الأسبوع الذي تجمدت فيه الدبابات الألمانية
5 كانون الأول 1941

لقد أخبرنا الرقيب في وحدتنا أن الشتاء قادم. لكن من كان يظن أنه سيكون بهذا السوء؟

• من رسالة جندي ألماني من الجبهة الشرقية، كانون الأول 1941.

مد العريف أوتو شيلله من السرية الرابعة الكتيبة الثالثة من فرقة المشاة يده إلى جيبه وأخرج صفحة من صحيفة فولكيشير بيوباختر الألمانية صدرت قبل بضعة أشهر.

وسأل الجندي هانس فولنير، وهو صبي من فيينا، كان يجلس في إحدى الزوايا مرتدياً قميصه الداخلي، ويقوم باصطياد البراغيث: «ما الذي يخبئه لنا زعيمنا الوسيم الهر هتلر لهذا اليوم؟» بعد مضي ستة أشهر على وجوده في روسيا لم يعد يفكر كثيراً في سيده الفوهرر. في واقع الأمر، كان يشاركه الآخرون وجهة نظره، وهم يجلسون بالقرب من النار المتقدة داخل الملجأ الوحيد المتبقي في القرية المحروقة.

كشف أوتو شيلله عن الصفحة التي تحمل عبارة مكتوبة بخط عريض «وزير الدعاية جوزيف غوبلز» من خطاب: «*Kampf bis zum letzten Mann und der letzten Kugel*... سنقاتل حتى آخر رجل وآخر رصاصة!» وقام بعناية بتمزيق قطعة صغيرة، تحوي السطر الذي يبدأ بكلمة

نقاتل«..Kampf»، وأخرج من جيبه الآخر حفنة من Machorka الماتشوركا (وهو التبغ الروسي)، والتي خلطت مع التبن لتدوم لفترة أطول، وبدأ يلف لنفسه سيجارة. كان يستنشق الدخان من أعماق رئتيه قبل أن يرمي عقبها من حوله. هبت نفحة من الرياح الجليدية على النار المشتعلة على الأرض. أوصد جندي الباب وكان يرتدي خوذة فولاذية ومعطفاً جعلته طبقة رقيقة من الصقيع يبدو جذاباً. التصق جليد على وجهه غير المحلوق. «Scheisse» من بين شفاه بيضاء مرتعشة خرجت هذه الكلمة. الليلة ستتجمد.

«ما هو الجديد أيضاً؟» يسأل الجندي وولنر.

«Wachtablösung»[1]، تغيير الحرس اللعين، هذا كل شيء!

«لقد سمعتك»، قال وولنر وهو يتذمر، متجهاً نحو ملابسه: «أعتقد أنني سأترك هذا العمل وأستمتع بعطلة طويلة. سأقبل أي عمل حتى لو كان بدون أجر». كان يقوم بترتيب الجوارب والبلوزات الصوفية طبقة فوق أخرى ثم قال لزميله مع ابتسامة حزينة: «لا تنس أن تحتفظ لي بشيء من وجبة الإفطار «Butterbrot mit Honig, ein weiches Ei.. Heisser Kaffee، القهوة الساخنة، وساندويتش من العسل والبيض الطري»، ثم أمسك ببندقيته وبدأ يخطو مترنحاً وسط ظلام الليل. كانت درجة الحرارة قد وصلت إلى 42 درجة مئوية تحت الصفر. عندما عثر عليه في صباح اليوم التالي، كان متيبساً مثل لوح من الخشب. من المحتمل أنه لم يعان كثيراً، لقد نام فقط وتجمد حتى الموت.

يمكن القول بدقة إن 5 كانون الأول 1941 سوف يذكر في سجلات الحرب الحديثة باعتباره يوم التضحية في صفوف جنود المشاة الألمان. في ذلك اليوم، أظهرت كتيبة المشاة الحادية والثلاثون شعوراً بالمسؤولية يمكن مقارنته مع الهجوم البطولي لرجال القائد العسكري الفرنسي ميشال ني في معركة ووترلو أو رجال القائد بيكيت في معركة جيتيسبيرغ أثناء الحرب الأهلية الأمريكية.

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

لقد كان التغير الذي حدث في الطقس هو الذي قرر مسار الأحداث. وبحلول الساعة الواحدة، وحينها كان القمر بدراً، انخفضت درجة الحرارة إلى 46 درجة مئوية تحت الصفر. وكان الرجال يرتدون زوجين أو ثلاثة أزواج من الملابس الداخلية الطويلة أو السراويل التي كانت تحوكها النساء وأي شيء آخر يمكن أن يضعوه على أجسادهم. وارتدى البعض ملابس خارجية مبطنة كانوا قد جردوها من أعدائهم الذين سقطوا صرعى في ساحة المعركة. كانت أحذية اللباد عالية القيمة، لكنّ القتلى من الروس هم فقط من كان يملكها. كان الانتظار المثير للأعصاب، والاضطرار للوقوف في طقس متجمد، يجعل أعصاب الرجال على حافة الانهيار. ومن خلف الغابة المقمرة، كانت تصل أصوات زمجرة مبحوحة لمجموعة من محركات الدبابات التي لم تعد صالحة للاستخدام.

«إنها ليست دباباتنا إنها دباباتهم!» أشار عريف عجوز على نحو غير متوقع.

«عليهم اللعنة إنها على وشك أن ينفد منها البنزين!» شتم الوافد الجديد، وقد توترت أعصابه بسبب الصوت المزعج.

«لديهم الكثير من البنزين التي يمكن أن تُقلى بها مؤخراتهم».

أخيراً، انتهى انتظارهم فقد كان القائد، الذي يجلس داخل عربته الدافئة المزودة بجهاز لاسلكي والتي تقف في المؤخرة، قد قرر ماذا سيحدث لكتيبتهم في غضون الساعة القادمة. بالنسبة لجندي ألماني متواجد على بعد مسافة قصيرة من موسكو، كان أي شيء بالنسبة له أفضل من أن يتيبس متجمداً ويتمدد على الأرض مثل قطعة جليد. صرخ الرقباء: «هيا تحركوا»، تناول الرجال بنادقهم وبدؤوا بالتقدم وسط الثلج. كانوا جوعى، لا الملابس التي يرتدونها ولا الأسلحة التي يحملونها كانت مناسبة لفصل الشتاء الروسي، ومع افتقارها إلى الدعم المدفعي، كانت الفرقة الألمانية للمشاة تتقدم إلى الأمام وسط الثلج المتراكم بكثافة، كانت أنفاسهم تتجمد بمجرد خروجها من أفواههم. عندما فتح

العدو النار عليهم؛ كان الرجال يمسكون بنادقهم بقوة واستمروا بالسير مباشرة وسط ومضات فوهات بنادقهم المتقطعة. كان تقدمهم على شكل موجات صغيرة من التعثر، ثم الوقوع على الأرض، ثم النهوض؛ وكان هذا حال أولئك الذين كانوا ما زالوا يستطيعون السير. صرخ الرقباء لتشجيع رجالهم الذين لم يكن بإمكانهم أن يسمعوا بسبب عويل الرياح وأزيز الرصاص. كان الرجال يتحركون بسرعات مختلفة، وحافظوا على رؤوسهم منخفضة بشكل جيد كما لو أن ذلك يمكن أن يحميهم. وعلى الرغم من البرد القارس، بدأت أجسامهم بالتعرق بسبب الجهد الهائل الذي يبذلونه والإرهاق والخوف. قاموا بصب اللعنات على بنادقهم والضرب بقبضاتهم على الأقفال المتجمدة لأجل فتحها. وبدؤوا بشتم الجنود السوفييت لأن بنادقهم كانت مناسبة لفصل الشتاء والتي من الواضح أنها لم تتعطل. الجميع وقعوا في جنون الصراخ والموت. كان عليهم أن يستمروا بالمسير... ومن الواضح أن أولئك الذين سيسقطون على الأرض سوف يتجمدون في غضون دقائق. ما حدث بعد ذلك كان فورة مخيفة للطاقة والموت المفاجئ. ظهرت الفجوات في كل مكان، وكان الثلج الأبيض الذي لا نهاية له يبتلع الجنود بكل بساطة. ورغم أن العالم كله كان يحتضر من حولهم. لكنهم استمروا في المسير.

في منتصف النهار، انقشعت الغيوم الرمادية اللون عن السماء مثلما تزاح الستارة عن إحدى المسرحيات اليونانية. استمر الموت، وأظهر جنود فرقة المشاة الحادية والثلاثين شجاعة تجاوزت كثيراً حدود تلبية نداء الواجب. وفي الوقت الذي تعطلت فيه جميع الابتكارات التقنية التي وضعتها العلوم تحت تصرف القوة القتالية الحديثة، استمر جندي المشاة متمسكاً بإرادته للبقاء على قيد الحياة. اخترقت فرقة المشاة 31 خطوط العدو ووصلت إلى مسافة ثمانية كيلومترات من هدفها.

عندها انتهى كل شيء، لم يعد بإمكانها التحرك.

يجب تدمير معظم وحدات الجيش الروسي المرابط في روسيا

الغربية في سلسلة من العمليات الجريئة تشكل رأس الحربة فيها الصنوف المدرعة. ومنع الانسحاب المنظم للوحدات السليمة إلى الأراضي الشاسعة في داخل روسيا.

كان هذا هو نص أوامر هتلر، Führer Befehl برقم 21، والتي تم إقرارها في 18 كانون الأول 1940، والتي كانت تدعو إلى تدمير الاتحاد السوفييتي. إن الهجوم الألماني، الذي أطلق عليه الاسم الرمزي فال بارباروسا *Fall Barbarossa*، والذي بدأ قبل فجر يوم الثاني والعشرين من حزيران عام 1941، قد حدث بسبب الصراع الذي لم يكن قابلاً للحل بين المفهوم المتعصّب للتفوق العنصري ومفهوم الدعوة إلى قيام ثورة عالمية تقودها الطبقات العاملة.

لقد أخطأ هتلر في تقدير كلٍّ من القدرات القتالية للقوات الاحتياطية للجيش الروسية التي كانت ذات تدريب ضعيف، وصلابة الموقف السياسي لاستبداد ستالين[1]. وعلى الجانب الآخر، فإن اعتقاد ستالين بأن هتلر لن يتصرف بطريقة غير عقلانية ويدخل حرباً جديدة قبل أن ينهي الحرب التي كان يخوضها كان خطأً جوهرياً. كان القيصر الأحمر على دراية بقدرات ألمانيا، ولكن ليس بخططها الفورية؛ ومع ذلك، وفي 5 أيار 1941، أي قبل شهر من الهجوم، خاطب خريجي الأكاديمية العسكرية الروسية بالقول: «لا يمكن استبعاد الهجوم الألماني في وقت ما في المستقبل. كونوا مستعدين للتعامل مع أي مفاجآت».

وعندما حدث الهجوم، في الثاني والعشرين من حزيران 1941، كانت آلة الدفاع السوفييتية بمجملها غير مهيأة للهجوم وبشكل صادم. وعلى الرغم من النصائح بالحذر التي قدمها كبار جواسيس روسيا، مثل الدكتور ريتشارد سورج وكيم فيلبي، بالإضافة إلى رئيس إدارة المخابرات العسكرية، غوليكوف، فإن ستالين تجاهل تحذيراتهم، فهو ببساطة لم

1- بعد شهر واحد من بدء الحملة، كتب هاندر، رئيس أركان قوات هتلر يقول: «الوضع كله يدل بشكل واضح أننا قللنا من تقدير إمكانيات العملاق الروسي».

يصدق ذلك. حتى إنه اتهم سورج بأنه عميل مزدوج يعمل مع الألمان. بحلول ظهر ذلك اليوم الأول - بعد أن دمر الألمان مئات الدبابات واحتلوا العديد من المدن الحدودية الروسية - نقل المشير تيموشينكو الأمر المحدد لستالين إلى قائد وحدته الأمامية الجنرال بولدين:

لا ينبغي اتخاذ أي إجراء ضد الألمان دون معرفتنا. لقد منع «الرفيق ستالين» فتح نيران المدفعية ضد الألمان.

في مواجهة هذا التشويش المرتبك، لم تكن قوة العملاق الروسي تمتلك أية فرصة للنجاح، حيث إن الحرب الهجومية الحديثة، تشبه هجوم سلاح الفرسان في القرن التاسع عشر، ينتصر بها أولئك الذين يصلون «بأسرع وقت ويكونون الأكثر ثباتاً». كان ستالين يملك المزيد من الدبابات، والطائرات، وبالتأكيد رجالاً أكثر من خصمه، ولكن فرق الجيش الأحمر لم تكن متدربة وقطعاتها متناثرة من شمال منغوليا حتى الحدود البولندية. حاول المخططون العسكريون الحكماء، أمثال المارشال توكاشيفسكي، تنبيه ستالين إلى الأخطار الكامنة، لكن تم إخماد أصواتهم بقسوة خلال عمليات التطهير الدموية التي قام بها الجيش في عام 1937.

اعتاد هتلر أن يغتنم الفرص، وكان يدرك مأزق القيصر الأحمر، لكنه ارتكب حينها خطأً استراتيجياً... وبدلاً من اتباع خطط نابليون وتركيز قواته في محور واحد، قسّم قواته إلى ثلاثة أقسام. الأول إلى الشمال من لينينغراد، والثاني وسط موسكو، والثالث جنوباً نحو خزان الحبوب في أوكرانيا وحقول نفط بحر قزوين الحيوية، التي كان يحتاج إليها لتزويد آلة الحرب الشرهة. ورغم أنه لم يكن يملك الرجال ولا المعدات لعملية بهذا الحجم، فقد استمرت العمليات القتالية لمدة خمسة أشهر. يبدو أنه لم يكن هناك شيء قادر على إيقاف أعمال هتلر. إلا إذا حدثت معجزة.

كان صيف عام 1941 حاراً وجافاً، وارتفعت درجات الحرارة فوق 40 درجة مئوية، وهو شيء لم تكن الجيوش الألمانية معتادة عليه. كان

يغطي الطرق في روسيا الغبار الناعم الذي تسبب في انسداد شبكات تبريد الهواء ومرشحات الهواء في الدبابات، مما أدى إلى تسخين محركاتها إلى مستويات عالية، وتشقق طلاء دبابات البانزر الألمانية. وكما هو الحال في كل حرب على مرّ العصور، كان جنود المشاة هم من عانوا أكثر من غيرهم، فقد ظهرت بثور في أقدامهم، وبدؤوا يفركون باطن أفخاذهم بسبب العرق حتى كشطوها. كل شيء كان مغطى بطبقة رقيقة من الغبار الذي تسببت حركة الوحدات الآلية في تصاعده. كانت وجوه الجنود المبللة بالعرق يكسوها غبار أحمر وكانت أفواههم تلوكه كما لو كانت تمضغ البطاطس المهروسة. في ظلال الغابات تعرضت أكتافهم العارية للهجوم من قبل أسراب من الحشرات التي تعيش على دم الإنسان. أصبح شرب الماء مشكلة خطيرة. ألقى الروس المتقهقرون الحيوانات الميتة وسط الآبار لتلويث مياهها. هذا النقص الحاد في المياه جعل من الضروري تقنين إمدادات المياه، وتم تحويل ناقلات الوقود لدبابات البانزر المتقدمة إلى ناقلات مياه. وكانت الوحدات الطبية قد أصدرت أوامر صارمة بعدم شرب الماء غير المغلي، ولكن الحرارة والأتربة والأبخرة التي تتصاعد من الذخائر الحربية جعلت الكثيرين يتجاهلون الخطر. وعندما ازدادت حدة العطش، اضطر الجنود إلى شرب مياه الآبار الملوثة، مما أدى إلى إصابة العديد منهم بالمرض، وأصبح شرب مثل هذه المياه جريمة أدت في كثير من الأحيان إلى تعرض مرتكبيها إلى محاكمات عسكرية.

وكان لارتفاع درجات الحرارة عواقب أخرى، ستثبت مدى أهميتها في الأشهر اللاحقة. ولكون جنود المشاة كانوا يسيرون وهم يحملون جميع معدات القتال - من أحزمة الذخيرة والمدافع الرشاشة وقذائف الهاون والإمدادات الطبية - فإن أي حمل إضافي سيبطئ حركتهم. وتخلص كثير منهم من معاطف بذلاتهم المرهقة أو سترات الميدان الثقيلة وباتوا يتقدمون مرتدين قمصانهم فقط. ولماذا لا يفعلوا ذلك؟

كان الفوهرر قد وعدهم بتحقيق النصر السريع - فاعتقدوا أنهم سيعودون إلى الوطن قبل عيد الميلاد بفترة طويلة.

لم تكن روسيا مثل فرنسا، تلك الدولة المبهجة ذات المعالم الرائعة والناس اللطفاء والطرق المعبدة التي يمكن التنقل فيها بمساعدة الخرائط السياحية الممتازة التي يوفرها دليل ميشلان[1]. وكان يمكن الوصول إلى فرنسا عبر شبكة سكك حديدية ممتازة من مدينتي كولونيا وكوبلنز الألمانيتين. لكن هذه كانت روسيا! كل شيء فيها يأخذ أبعاداً مختلفة، والمسافات فيها تتضاعف عشرة أضعاف، ومديات السكك الحديدية أطول[2] واستخدام وسائل النقل الألمانية للتنقل من خلالها فقد كانت عملية غير مجدية. فقد فجر مقاتلو حركة الأنصار الروس خطوط السكك الحديدية والجسور على طول المسافات الشاسعة التي تفصل برلين ولايبزيغ عن سمولينسك وكييف. ثم كان هناك عامل الطقس، الذي كان تأثيره حاضراً على الدوام، فهناك درجات الحرارة التي تصل إلى حدود الغليان في الصيف، والرطوبة في فصل الخريف. لم يكن الألمان يعرفون شيئاً عن الشتاء بعد. كان معظمهم قد سمع عن الشتاء الروسي، لكن لم يسبق لأحد أن عاش أجواءه من قبل.

سارت المرحلة الأولى من حملة بارباروسا وفقاً لما خطط لها وبحلول منتصف تموز 1941، استطاعت الفيالق المدرعة بقيادة الجنرالات هودنر وهوبنر وجوديريان من عبور ثلثي المسافة إلى موسكو. عانى الاتحاد السوفييتي من خسائر بمقاييس لم تشهدها الحروب العالمية من قبل. تمَّ أسر ثلاثة ملايين روسي والاستيلاء على 17 ألف دبابة أو تدميرها. ومع ذلك، لم يكن العمل العسكري هو المفتاح لتدمير البلشفية، بل كان

1- من أوسع الأدلة السياحية انتشاراً، أطلقه الأخوان إدوارد وأندريه ميشلان عام 1900، ليقدما من خلاله معلومات تعين سائقي المركبات على التنقل ومواجهة أعطال مركباتهم. المترجم.

2- بأوامر من القيصر الروسي، تم عزل روسيا عن بقية أوروبا وإحباط أي طموحات عسكرية لدى ابن عمه، قيصر ألمانيا.

استخدام الوسائل السياسية هو من يجعل البلشفية تنهار. ولكن هتلر فشل في هذا الموضع. وأبرز مثال على ذلك هو حالة أوكرانيا، حيث أدت عمليات التطهير الدموية التي قام بها ستالين إلى استنزاف سكان الريف، وكان الهدف السياسي لألمانيا، هو جعل شعب هذه الصومعة الغنية بالحبوب يتمرد على الدكتاتورية البلشفية، لكن السلوك الوحشي لأفراد وحدات الإس إس[1] تجاه السكان المدنيين أحبط هذا الهدف. فانتشرت الأخبار التي تتحدث عن حدوث عمليات الإعدام على نطاق واسع في الأراضي المحتلة والعدد الكبير من الوفيات جراء الإهمال في معسكرات الاعتقال الألمانية في بقية أنحاء روسيا.

في 19 تموز، في ذروة معركة سمولينسك، أصدر هتلر أمره المرقم «*Befehl * 33*»[2]. وكان بمثابة دليل على خطئه الاستراتيجي الأكبر. فبينما تم إرسال الفرقة المدرعة التي يقودها الجنرال هوث إلى الشمال للمساعدة في الهجوم على لينينغراد، تم سحب التشكيلات الآلية بقيادة الجنرال غوديريان بعيداً عن مسارها المتوجه إلى موسكو وتم إرسالها بدلاً من ذلك نحو الجنوب لتطويق قوة روسية ضخمة كانت تسيطر على مدينة كييف. هناك، يمكن لهتلر أن يأسر مليون روسي آخر، وهو إنجاز سيضع عبقريته العسكرية في سجل تاريخ الحروب في العالم. ومن أجل تحقيق نصر مذهل، لكنه بلا معنى، تغاضى هتلر عن أن يأخذ بعين الاعتبار العوامل الحيوية الثلاث، التي تسببت في هزيمة نابليون: المكان والزمان والطقس.

على الرغم من الاحتجاجات التي قام بها جنرالات هتلر، مثل هاينز غوديريان، وهو أقدر جنرالاته في قيادة فرق الدبابات (البانزر) الذي حاول دون جدوى إقناع الفوهرر بإلغاء هذه الخطة المجنونة التي كان لا بد أن تجعل العمليات العسكرية تحدث في فصل الشتاء، لكن «أعظم

1- المنظمات العسكرية التابعة للحزب النازي. المترجم.

2- بالألمانية في الأصل. المترجم.

عبقري عسكري منذ زمن يوليوس قيصر» لم يرغب في الإصغاء إلى نبوءة هذا الجنرال.

وبخ هتلر أولئك الذين يعتبرون أنفسهم عباقرة ألمانيا قائلاً: «موسكو؟ إن الأدمغة المتحجرة فقط، التي تعشش في رؤوسها أفكار الماضي، لا ترى في احتلال موسكو هدفاً يستحق القتال من أجله». كما رفض أن يستمع إلى قائده العام، الجنرال هالدر، الذي أشار في مذكراته: «لا يمكن إزعاج [هتلر] بنسب القوة. بالنسبة له، فإن عدد أسرى الحرب هو دليل قاطع على تفوق ألمانيا». مع هوس هتلر بأخذ أكبر عدد من الأسرى، تم تعليق الهدف الرئيس لخطة بارباروسا، وهو شن هجوم مركز تقوم به ثلاثة جيوش مدرعة بالدبابات على موسكو. تم إهدار أربعة أسابيع لا تقدر بثمن في التركيز على أهداف ثانوية.

ومع تلاشي اهتمام الألمان بقاطع العمليات في وسط روسيا، نجح مارشال الجيش السوفييتي تيموشينكو في تخليص أكثر من نصف مليون رجل ومعداتهم من الفخ المعد لهم حول مدينة سمولينسك. وأصبح بإمكانه حينها استخدامهم لتقوية الطوق الدفاعي حول موسكو. وبعد أن كان من المتوقع أن يواجه الهجوم الألماني 200 فرقة سوفييتية، أصبح عليه بدلاً من ذلك مواجهة 360 فرقة، وهو ما يكفي لإفشال استراتيجية هتلر في الحرب الخاطفة.

كانت المرحلة الأخيرة من خطة هتلر تقتضي الاستيلاء بشكل كامل على روسيا الأوروبية. ولتحقيق هذا الهدف، كان لا بد من الاستيلاء على المركز السياسي للنظام السوفييتي - ألا وهو مدينة موسكو. كان الهجوم على العاصمة الروسية يجري من خلال تقدم متزامن لثلاثة جيوش مدرعة بالدبابات. ما كان يمكن أن يتحقق في تموز كان نجاحه مشكوكاً فيه في شهر تشرين الأول ذي الأجواء الرطبة. ومع قدرة ألمانيا على نشر قوة قتالية متمكنة، لكنها لم تكن تملك الدعم اللوجستي المناسب. لم يتعلم المعتدون شيئاً من انتصاراتهم السهلة، وقللوا إلى

حدٍّ كبير من تأثير حرب العصابات التي كان تشنها وحدات الأنصار، أو تأثير عامل الطقس. دافع الأنصار الروس عن وطنهم بكفاءة وحماسة شديدة. ولأجل بث الرعب في صفوف الألمان، شن مدنيون مسلحون لا يمتلكون خبرة عسكرية سابقة هجمات انتحارية على خطوط السكك الحديدية والجسور ومستودعات الإمـدادات. كان إيصال الوقود والذخيرة إلى الوحدات الأمامية يتم بشكل بطيء. وفوق كل ذلك حدث تغير في الطقس زاد من تفاقم هذا الوضع، كما تمت إعاقة التقدم الألماني المعد له مسبقاً بشكل كبير. تجاهل هتلر كل الأخطار الممكنة وأمر باستئناف الزحف على موسكو في الثاني من تشرين الأول 1941، وهو تاريخ قريب من اليوم الذي قرر فيه نابليون الانسحاب من تلك المدينة هرباً من الشتاء القادم.

حل الليل وكان الطقس دافئاً جداً في ذلك الوقت من السنة. تمدد الرجال على طول حافة الغابة، ليستريحوا على مفارشهم. كان قسم منهم يحدق في السماء، والقسم الآخر يدخن، وقد اختفت السجائر وسط قبضات يديه. كان الجميع صامتون. قام سائق الدبابة الشاب بتفحص ساعة يده بعصبية... إنها الرابعة وعشرون دقيقة لم يتبق سوى أربعين دقيقة للرحيل كان يبحث عن تأكيد من عريف سريته، وهو من قدامى المحاربين في معارك الدبابات منذ معركة سيدان حتى سمولينسك، وكان يمضغ حينها بسكويتاً غير مملح.

«سيدي العريف»، ما رأيك بتناول وجبة لذيذة من شراب الشنابس والكافيار في الساحة الحمراء، بعد شهر واحد تقريباً». لم يكن رد فعل الرقيب، الذي رأى وسمع كل ذلك من قبل، سوى أن يهز كتفيه قائلاً مع نفسه: يا للطفل المسكين، وهل تعرف أنت شيئاً؟

قام نقيب الوحدة، ديتليف فون فاغنبيرغ، الذي التحق بالجيش في عام 1939 وذهب إلى الحرب من أجل «الدفاع عن الفوهرر وأرض الآباء والأجداد»، بفرك عينيه ليزيل عنها آثار النعاس. كان عليه أن يهيئ دباباته.

لم يتعلم كيفية استخدامها من أجل التسلية. كان هناك ما يزعج تفكيره. في الحملة الفرنسية كانت القوات تسير على طرق معبدة أثناء الصيف الجاف والمعتدل، وكانت تحصل على مؤونتها عبر شبكة السكك الحديدية المتطورة. في هذه المساحات الشاسعة من الأراضي، واجه ضباط التموين الجيش الألماني مشاكل ضخمة في توريد الإمدادات. وكان ينبغي على دباباته التقدم على طول الطريق الذي تمت الإشارة إليه على الخريطة الاستراتيجية التي رسمت في برلين، ولكنه لم يكن موجوداً في الواقع، أو كان لا بد من إنشائه أولاً. علاوة على ذلك، كان عليه أن يتعامل مع ذلك الزميل الأحمق وهو ضابط نرجسي برتبة عقيد، كان يحيي الجميع بتحية *Heil Hitler* يعيش هتلر، ويطلق الإشاعات ليؤكد لقادة الوحدات أن الحاكم المدني لروسيا في طريقه إلى موسكو وأنه بالفعل في حالة تأهب (في مدينة كوبلينتس على نهر الراين)!. وأن القوات المسلحة الألمانية (*Wehrmacht*) كانت تمتلك أعظم القادة العسكريين (وهذا صحيح)؛ والأهم من ذلك كله، أنه يمكن أن يعتمدوا دائماً على المخطط الأكثر تألقاً في التاريخ، وهو الفوهرر الملهم، الذي كان بعبقريته يفكر في كل شيء وينظم كل شيء حتى أدق التفاصيل. وقد أمر (كما لو كان هو الله) بوضع جميع الموارد الإنتاجية لألمانيا[1] تحت تصرف القوات العسكرية. سوف لن ينقص دباباته شيء؛ وسوف تملك كل الذخيرة والوقود الذي تحتاجها لتندفع مباشرة نحو موسكو. *Heil Hitler!* يعيش هتلر.

لم تعد ضفة النهر الذي يفصلهم عن العدو تميل إلى الزرقة، ولم تعد كتلة عديمة الشكل. نظر النقيب ديتليف فون فاغنبيرغ عبر النهر ولم ير أمامه سوى فضاء مفتوح، أطفأ عقب سيجارته ونظر إلى ساعته. «*Erste Kompanie*، هل انتم جاهزون للتحرك؟»

نعم «جاهزون».

1- سميت بألمانيا الكبرى عند ضمها النمسا في آذار 1938.

السرية الثانية «*Zweite Kompanie...*» عادت الحياة إلى محركات الدبابات.

اشتعلت الجبهة كلها بالنيران كأن يوم القيامة قد حلّ. تصاعد الدخان الزيتي المنبعث من القذائف المتفجرة، وتطايرت الحمم الملتهبة من الأرض نحو السماء. اهتزت الأرض. وانطلقت قذائف المدفعية إلى أهداف بعيدة. ثم تحركت الدبابات. وقف النقيب في برج الدبابة التي كانت تسير في المقدمة، حاملاً في يده الخريطة. لكنها لم تكن ضرورية، لأن الجميع في سريته كانوا يعرفون وجهتهم: إنه الشرق، باتجاه الشمس المشرقة - وموسكو! سوّيت حقول الجاودار والشوفان بالأرض حينما مرت الدبابات فوقها. القرية الأولى التي وصلوها كانت قد سويت بالأرض. لم يبقَ أي شيء قائماً في مكانه. ولم تتوقف الدبابات، لم يعد هناك حدود لأي شيء. فالجميع كان يفعل ما يريد.

اخترق التقدم المتزامن لثلاثة جيوش مدرعة بالدبابات طوق الدفاع الخارجي لموسكو. واشتعلت النيران في أربع مئة ميل من الخطوط الأمامية للجبهة، بينما تزاحمت آلاف الدبابات للاندفاع. شق الجيش الثاني المدرع بالدبابات بقيادة الجنرال غوديريان طريقه عبر جبهة بريانسك بقيادة المارشال يريفينكو. سرعان ما استطاع مقاتلوه اجتياز حقول الألغام واخترقوا الحشود الضخمة لجنود المشاة السوفييت.

وقف النقيب منتصباً في البرج المفتوح لدبابته من طراز مارك الرابع. وكان يمثل طليعة القوات الألمانية التي كانت تبغي إسكات المدفعية الروسية وهو ينظر إلى القرية المحترقة، عندما خرجت موجات من المشاة الروس من الغابة، تتبعهم من الخلف دبابات قليلة، حشود هائلة لأشخاص كبار في السن. خرج لهب برتقالي ضخم من بندقية ذات ماسورة طويلة من دبابة ألمانية. تسبب في إصابة مباشرة وتسربت الشظايا إلى أطراف وأضلاع المشاة الذين يركبون الدبابات. أدارت الدبابات الألمانية مدفعها الرشاش، لتتتبع تدفق حشود الروس، ولتطرحهم

أرضاً. أولئك الذين كانوا داخل الدبابة كان بإمكانهم سماع الأصوات الحادة لصافرات المفوضين البلاشفة وهم يقودون جنودهم لمهاجمة المدرعات الألمانية. من مكان ما على الجناح الخاص بهم، فتحت بندقية مضادة للدبابات النار. اشتعلت النيران في إحدى الدبابات، في حين أن دبابة أخرى مالت إلى الامام لتسقط في حفرة أحدثتها إحدى القذائف. لحقت بكلا الجانبين إصابات خطيرة. وبينما كان يبدو أن الروس لديهم احتياطي من القوى البشرية ليس له حدود، فإن الألمان تحملوا بصعوبة خسائرهم الثقيلة. احتدمت المعركة لمدة أربعين دقيقة قبل أن يتلاشى الهجوم الروسي.

على طول محيط موسكو الخارجي كانت الصورة مشابهة. تم تحطيم موجات الهجمات الانتحارية وآخر الدفاعات الشديدة التي كانت موجودة أمام خط الجبهة الروسي. كانت مجموعة من الجنود السوفييت المنعزلين عن ركب قواتهم تختبئ في غابة بالقرب من إحدى القرى. لم يكونوا يعرفون اسم القرية، ولم يهتموا بذلك. لقد تخلصوا من بنادقهم وهم يحاولون الهروب، كانوا مستعدين لفعل أي شيء يجعلهم يبتعدون عن حمم الفولاذ التي نزلت عليهم كالمطر، ومحت فوجهم. كان الموتى والذين يحتضرون منتشرين في كل مكان. وكانت دورية من الخيول الألمانية قد ضبطتهم وهم على وشك أن يخرجوا إلى العراء، فقام جنود سلاح الفرسان الذين كانت السيوف تتمايل بأيديهم بذبح عدد منهم. ومن سرية تعدادها مئة وعشرين فرداً، لم يتبق سوى خمسة فقط. وقد تقاسموا فيما بينهم قطعة من الخبز اليابس وقطعة بصل.

كان بإمكانهم رؤية الظلال التي برزت في أرض الغابة الخالية وهم بين الأشجار. همس فيهم الرجل الذي نصب نفسه زعيماً عليهم: «أخفضوا رؤوسكم»، توقف أحد الظلال وأشار ببندقيته باتجاه مخبئهم. بدؤوا بالصلاة يا أمنا المقدسة روسيا، نتضرع إليك أن لا يكونوا من الألمان. «إنهم جماعتنا! إنهم جماعتنا» صاح أحد المتخلفين عن الركب.

قفز ولوّح بذراعيه بحماس شديد. حينها اختارته إحدى الرصاصات وجعلت أشلاءه تتناثر حول أقرب شجرة. هؤلاء كانوا روساً، لا شك في ذلك! ركضوا نحو الأربعة الباقين وأوقفوهم في صف واحد وأطلقوا النار عليهم. نعم، كان هؤلاء من الروس بالفعل، ولكن من نوع خاص. من فرقة *NKVD* [1] التي تتعقب الفارين وتعدمهم.

أمر مرعب! بهذا الوصف تحدث الميجور جنرال ك. ف. تليغين، رئيس منطقة الدفاع عن موسكو، والمسؤول المباشر عن تقديم المشورة إلى ستالين بشأن الوضع العسكري قرب العاصمة، وهو يعلق على الاختراق المفاجئ الذي قامت به قوات الجنرال الألماني غوديريان في الجنوب. ما حدث بعد ذلك كان بمثابة صدمة: في 5 تشرين الأول، عاد طياران من طلعة استطلاع وقالوا إنهم رأوا أرتالاً معادية تتقدم على طول طريق وارشو (الطريق السريع) المؤدي إلى مدينة مالوياروسلفتس، موقع المعركة التاريخية التي جرت عام 1812. وقد بدا هذا مستحيلاً. عندما كان الميجور جنرال تليغين يدقق في خريطته العسكرية، تم إبلاغه أن دبابات الجنرال غوديريان على بعد 125 ميلاً عن مدينة كالوغا وليس مالوياروسلفتس، وأن طليعتها تتحرك باتجاه مدينة أوريول. دعا الجنرال تيليغين قائد سلاح الجو في مقاطعة موسكو أن يأمر بالقيام بطلعة جوية أخرى من قبل الطائرات الاستكشافية. عندما عادت هذه الطائرات، كانت الدبابات الألمانية قد وصلت بالفعل إلى نهر إيغرا الذي يقع قرب مدينة يوخنوف التي تبعد، أقل من مئة ميل عن وسط موسكو. لم يجرؤ على الاتصال بستالين مباشرة، فقد كان يعلم جيداً أن الشخص الذي يجلب الأخبار السيئة قد يتم نفيه إلى كتيبة انتحارية - هذا إذا كان محظوظاً. لكن عليه أن يخبر أحدهم. استدعى المارشال شابوشنيكوف، الذي كان يشك مثله في صحة التقرير. وبعد بضع دقائق، اتصل بوسكريبتشيف السكرتير الشخصي لستالين بالجنرال تيلغين، ثم كان ستالين نفسه على الخط.

1- NKVD الشرطة السرية السوفييتية ذات السجل المرعب.

«يا تليغين، ما هذا الذي يحدث؟».
«الرفيق القائد العام، الوحدات النازية تتقدم على طول نهر ايغرا».
«هل أنت متأكد؟».
«نعم، أيها الرفيق القائد العام».

«همم»، شخر ستالين، ثم أقفل الخط. ارتعدت فرائص تيلغين ورن جرس هاتفه مرة أخرى. في هذه المرة كان لافرانتي بيريا التابع الأمين لستالين، الذي كان يخشاه كثيراً، والذي أرعد وأزبد، واصفاً الجنرال بأنه محرض ويبث الشائعات. عندما يدافع عن نفسه كان تيلغين سبيتوف، مؤكداً أن قائد سلاح الجو لمنطقة موسكو، العقيد، قد أكد على صحة التقرير، كان رجال بيريا يقومون باعتقال سبيتوف. وبينما كانت جبهة موسكو بكاملها على وشك الانهيار، اضطر القائد العام لمنطقة دفاع موسكو إلى تكريس وقته وطاقته في إنقاذ الكولونيل قائد سلاح الطيران من فرقة الإعدام.

وما حدث كان بسيطاً بما فيه الكفاية. اندفع الجيش الثالث المدرع بالدبابات بقيادة الجنرال هوث ونظيره الجيش الرابع بقيادة الجنرال هويبنر وشقا طريقهما من خلال الجبهة الغربية التي يقودها المارشال كونييف، وكانت أرتال دباباتهما تتسابقان على طول مدينة موجايسك وطريق وارشو للقيام بحركة كماشة حول مدينة فيازما. وقد وصلا إلى موقع يتجاوز قوة المارشال كونييف الرئيسية وباتا يهددان جبهة المارشال بوديني الاحتياطية، التي تمثل الموقع الدفاعي الأخير حول موسكو.

على الجسر المقام على طريق وارسو، اكتظت جموع الفارين من النساء والأطفال، كان خبراء المتفجرات ينكبون بحماس على ربط القنابل الألمانية المضادة للدبابات. وسط هدير قوي، تم تفجير إحدى القنابل قبل الأوان. انفجر منتصف الجسر وأرسل مئات من اللاجئين إلى السماء. هذا الجسر المتفجر سيؤخر تقدم القوات الألمانية في حدود اثنتي عشرة ساعة، لكن من المؤكد أنه جعل الدبابات والبنادق الروسية تتقطع بها السبل على الضفة المقابلة.

بعد سبعة أيام فقط من القتال الشرس، بلغت المعركة ذروتها في حركة التطويق الكبيرة لمدينتي فيازما وبريانسك. بعد هجوم عنيف اقتحمت دبابات الجنرال غوديريان مدينة أوريول. عندما أمر الجنرال يرمينكو بشن هجوم مضاد، انتهى المطاف بالهجوم ليتحول إلى محاولة يائسة للخروج في اتجاه موسكو. ونتيجة لذلك الفشل، تعرض الجيش السوفييتي في مدينة بريانسك إلى الإبادة.

في 7 تشرين الأول، التقى جيش الجنرال هوبينر مع جيش الجنرال هوث واكتملت الكماشة. وتمت محاصرة ستة جيوش روسية و55 فرقة و663 ألف رجل و1242 دبابة و5412 بندقية. وكانت طوابير لانهاية لها من الأسرى تسير متعثرة ومتمايلة عبر الطرق الموحلة في طريقها إلى الأسر.

كانت آخر مئة ميل على الطريق المؤدية إلى موسكو مكتظة باللاجئين. وكانت هناك أيضاً أسراب القوة الجوية الألمانية *Luftwaffe* وهي تحوم. كان على الهاربين أن يتقافزوا من حول الحفر التي صنعتها القنابل، والدبابات المحطمة، والخيول الميتة، وأرتال الإمدادات التي لا تزال تحترق، مع جثث متفحمة للسائقين الذين خروا صرعى في مقاعد عجلاتهم. في بعض الأحيان كان يتم إيقاف جموع الفارين في حواجز الطرق التي يقيمها عناصر المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية[1] *NKVD* حيث كان عليهم إظهار أوراقهم؛ ويتم أخذ أولئك الذين ليس لديهم تصاريح سفر حقيقية لحفر خنادق مضادة للدبابات - إذا كانوا من النساء، . أما الرجال فيتم إعدامهم بالرصاص على الفور.

وشهد الجنرال ج. ف. بالوشين بعضاً من أعنف المعارك منذ أوائل شهر تموز. وقبل معركة سمولينك، قاد كتيبته في هجوم بطولي من أجل وقف تقدم كتيبتين من فرق الدبابات الألمانية وإعطاء قواته فرصة التخندق

1- وهي مؤسسة سوفييتية جمعت بين أنشطتي الشرطة والشرطة السرية عملت على التنفيذ المباشر للإرادة السياسية السوفييتية بما في ذلك القمع السياسي خلال عهد جوزيف ستالين. المترجم.

في موضع دفاعي جديد. لهذا، قام المارشال بوديني بتكريمه شخصياً. وحينها، أصبحت كتيبة الحرس التابعة للجنرال بالوشين تقوم بإدارة القاطع الشمالي في منطقة سباس-ديمينسك. في صباح يوم 5 تشرين الأول، ظهر تشكيل للدبابات فجأة من وسط الضباب. وانقسمت الدبابات إلى شقين، تتلوى في سيرها إلى الأمام مثل تنين ينفث النار، وسرعان ما طوقت موضع الجنرال بالوشين. انفجر سقف الكوخ الذي يتخذ منه مقره الرئيس وقطع خط هاتفه. وبدون وجود اتصالات وبسبب تصاعد الدخان الكثيف كان من المستحيل معرفة ما يحدث. وأصبحت مواضعه الأمامية مكشوفة أمام نيران العدو، وخطه الرئيس مخترقاً. وكانت قوات المشاة الألمانية، التي تسير في أعقاب الدبابات، قد ضغطت على وحدات الجنرال بالوشين في عدة جيوب لم يكن هناك أي مخرج، ما لم يتصرف الجنرال على الفور، ويأمر بانسحاب فوري إلى خط النهر المقابل. ولم يكن يمتلك الصلاحية لفعل ذلك، ولكن من دون الانسحاب، سيفقد جميع رجاله بالإضافة إلى معداتهم الحربية الثمينة. تجاهل اعتراض مفوضه السياسي، وأصدر الأمر بالانسحاب. تراجعت كتيبته. وقبل أن يصلوا إلى خط أوغرا، بالقرب من يوخانوف، توقفت سيارته عند حاجز طريق يديره رجال من الشرطة السرية *NKVD*. توقفت سيارة بالقرب منه، وقفزمنها نقيب في الشرطة السرية *NKVD*؛ وأخرج من حقيبته، ورقة كتب فيها: «إلى الجنرال بالوشين، بأمر من لجنة الدفاع عن موسكو، تم إعفاؤك من منصبك».

لم يظهر أن الجنرال قد فهم شيئاً، حدق نقيب الشرطة في الضابط الذي كان أعلى رتبة منه. «بالوشين، لم تعد جنرالاً. سلم مسدسك». أومأ إلى اثنين من حراسه اللذين صوبا مسدسيهما الآليين نحو صدر الجنرال:

«تم إصدار الحكم بالإعدام على غريغوري بالوشين بسبب إدانته بالتخاذل في وجه العدو. وسيتم تنفيذ الحكم على الفور».

وهكذا! يا لها من حياة - بالأمس كان بطلاً، واليوم هو خائن. «هل لي أن أدخن سيجارة؟» أومأ نقيب الشرطة برأسه موافقاً، على الرغم من

أنه كان يعلم أن هذا لم يكن مسموحاً به في المعتاد. لكن بالوشين كان بطلاً، وقد ورد اسمه في البرقية. أشعل الجنرال سيجارته، وسحب نفساً واحداً، ونفثه بعيداً؛ كان طعم النهاية مراً. اقتاد الحراس الجنرال بالوشين إلى جانب الطريق...

على الرغم من الخطر الوشيك، احتفظ ستالين بهدوئه الخارجي. في اليوم الذي تم فيه إعدام الجنرال بالوشين، اتخذ قرارين. الأول هو استدعاء الجنرال جوكوف، الذي أوقف حدة التقدم الألماني في لينينغراد، وأمره بالعودة إلى موسكو. عندما هبطت طائرة الجنرال، تم نقله مباشرة إلى ستالين، الذي كان مصاباً بالأنفلونزا ويستجم في منزله الريفي *Dasha* بالقرب من موسكو.

قال ستالين مخاطباً جوكوف: «تواجه الجبهة الغربية صعوبات جمة. أريدكم أن تراجعوا الموقف وأن تقدموا لي تقريراً». وأضاف: «لديك السلطة الكاملة».

كان فجراً رمادياً تساقط فيه بعض الثلج عندما انطلق جوكوف في سيارة عسكرية لا تحمل علامات مميزة. لقد كان مستيقظاً طوال الليل وكان متعباً جداً لدرجة أنه كان عليه أن يأمر سائقه بالتوقف من وقت لآخر ليسير خطوات قليلة إلى جانب السيارة ليظل مستيقظاً. كانت محطته الأولى هي المقر الرئيس للقوات الاحتياطية بقيادة المارشال بوديني، ولكن لم يكن هناك أي شخص لديه أدنى فكرة عن مكان العثور على المارشال بوديني. من المقر الرئيس، انتقل جوكوف إلى بلدة يوخانوف، التي كان يعرفها جيداً، لأن هذا هو المكان الذي ولد فيه. بالقرب من جسر نهر إيغرا، اجتمع أخيراً مع المارشال بوديني الذي كان مضطرباً وأمره، على الرغم من أنه كان مجرد جنرال، وبوديني برتبة مارشال بالدفاع عن طريق وارشو وأن يترك كل شيء عداه، ثم أرسل في طلب قادة الجبهة الآخرين، مثل كونييف، وبولغانين[1]،

1- الذي أصبح رئيس وزراء في عهد خروتشيف.

وسوكولوفسكي. وأخبروه أن خط المواجهة «في حاله من السيولة»، وهو تعبير يشبه القول إنه «في حالة من الفوضى الكاملة»، وأنهم لا يملكون «معلومات حاسمة حول الموقع الحالي لتمركز الألمان». قام جوكوف بالتالي بشيء أفضل، قرر أن يتعرف على الأمور بنفسه. ما اكتشفه لم يكن مطمئناً. بدا له أن طوق الدفاع عن موسكو بأكمله كان مثل غربال، والثقوب في كل مكان فيه. في ليلة 8 تشرين الأول، اتصل جوكوف بالقائد ستالين، وبكلمات واضحة أطلعه على الحقيقة. تمت محاصرة جيوش القائد كونييف السادس عشر والتاسع عشر والعشرين، بالإضافة إلى مجموعة القائد بولدين الهجومية، كما تم تدمير الجيشين الرابع والعشرين والثاني والثلاثين تحت إمرة القائد بوديني مع 650 ألفاً من الرجال وآلاف الدبابات والبنادق. في 11 تشرين الأول، أصدر ستالين أمراً بتعيين الجنرال جوكوف قائداً لجبهة موسكو الجديدة.

«ما هي نصيحتك، أيها الجنرال؟».

«ننسى كونييف، ويريميكو، وبوديني، ولندعهم يحاولون القتال بطريقتهم الخاصة. يجب علينا أن نركز كل جهودنا على إنشاء خط دفاع داخلي حول العاصمة، أيها الرفيق ستالين».

«ماذا تحتاج لذلك؟» سأله ستالين.

«مئة فرقة ومئتي دبابة».

هز ستالين رأسه، ولم يستطع جوكوف أن يمنع نفسه من التساؤل، من أين لستالين أن يحصل على مئة فرقة ومئتي دبابة.

هذا هو القرار الثاني لستالين في ذلك اليوم المشؤوم. كان لديه المزيد من الأوراق الرابحة في جعبته، جاسوس كبير يتمثل في شخص الدكتور ريتشارد سورج، مراسل صحيفة فرانكفورتر تسايتونغ الألمانية. في طوكيو في أواخر شهر آب، عندما أصبح الوضع حرجاً، كان ستالين بحاجة إلى إجابة على سؤال حيوي: هل يمكن أن يخاطر بسحب احتياطياته من سيبيريا ومن ثم يفتح الباب أمام غزو ياباني. بناء

على أوامره، أرسل مقر الاستخبارات السوفييتية في موسكو برقية إلى الدكتور سورج:

«فيما يتعلق بالحرب الألمانية الروسية، ما هو القرار الذي اتخذته الحكومة اليابانية حول بلادنا؟».

شرع سورج بتفعيل شبكة اتصالاته *apparat* [1]. وتوصل إلى استنتاجه النهائي خلال مأدبة عشاء خاصة جمعته مع السفير الألماني أوتو، الذي أكد له أن «هؤلاء اليابانيين اللعينين سيرفضون الإصغاء لمطالبنا والوقوف إلى جانبنا ومهاجمة الاتحاد السوفييتي. فهم يخططون للسيطرة العسكرية البحرية على المحيط الهادئ».

في 4 تشرين الأول 1941، أمر الدكتور سورج مشغل جهاز اللاسلكي، ماكس كلوزن، بإرسال برقية مشفرة إلى مقر الاستخبارات السوفييتية في موسكو، والتي تم تسليمها على الفور إلى ستالين[2]. والتي ذكر فيها أن اليابانيين لا يعتبرون أنفسهم ملزمين بشروط الميثاق الثلاثي (محور برلين-روما-طوكيو الذي تم توقيعه في أيلول 1940):

لن تُعلن اليابان، تحت أي ظرف من الظروف، التخلي عن معاهدة عدم الاعتداء الموقعة مع الاتحاد السوفييتي. ويتركز التخطيط الاستراتيجي لها في جنوب المحيط الهادئ، ولا شيء أكثر من ذلك. يمكن اعتبار منطقة الشرق الأقصى الروسية مؤمنة ضد أي هجوم ياباني على أقل تقدير حتى نهاية الشتاء. ولا يمكن أن يكون هناك شك في ذلك[3]...

1- Apparat هي شبكة الجواسيس، كان لدى سورج مخبرين في بعض مجالس الدولة اليابانية، وكذلك في اللجنة المنظمة لسكة الحديد في منشوريا، والتي تمثل خط الإمداد الرئيس لأي قوة غزو.

2- كانت الرسالة الأخيرة لسورج، فقد اعتقلته الشرطة السرية اليابانية في اليوم التالي.

3- تم توقيع ميثاق الحياد بين اليابان وروسيا في نيسان عام 1941، وكان هجوم هتلر على الاتحاد السوفييتي في شهر حزيران قد فاجأ اليابانيين بقدر ما تفاجأ به الروس. لهذا السبب لم يخبروا برلين أبداً عن هجومهم المخطط له على الولايات المتحدة.

اعتماداً على برقية واحدة جاءت من طوكيو[1]، قرر ستالين القيام بالمغامرة. وبينما كانت الدبابات الألمانية تقترب من بوابات موسكو، وهكذا رهن الدكتاتور الذي امتاز بأنه كثير الريبة مصير بلاده برسالة مشفرة من أحد عملائه. أمر ستالين بما يلي:

على كل من الجيش في الشرق الأدنى. وجميع القوات في سيبيريا، وجمهوريات آسيا الوسطى، والوحدات في معسكرات التدريب في كازاخستان وأوزبكستان أن تتوجه إلى موسكو بأقصى سرعة، وذلك باستخدام جميع القاطرات وكل وسائل النقل المتاحة التي تستخدم السكك الحديدية وبغض النظر عن جميع تدابير السلامة الخاصة بالسكك الحديدية...

وبهذا الأمر، جرّد ستالين حدود بلاده في الشرق الأقصى من جميع القوات الدفاعية. وبدأت أكبر عملية نقل بواسطة السكك الحديدية في جميع العصور. ولم تعرف القطارات التي تحولت من خط إلى آخر في المحطات، طريقها وسط غيوم البخار والثلوج المتصاعدة. وتقاطعت القطارات المنطلقة من خطوط السكك الحديدية على طول حدود الصين ومنغوليا وسيبيريا، عند المسار الرئيس العابر لسيبيريا، حيث كانت جميعها تتجه غرباً، وكانت تسير أحياناً بشكل قريب جداً من بعضها البعض لدرجة أن سائقي القطار كانوا يستدلون على الطريق بواسطة الأضواء الحمراء لآخر عربة في القطار الذي يسير أمامهم. كان هناك خمسون، أو ستون، أو مئة قطار تسير في اليوم، كلها تتوجه إلى الوجهة نفسها: موسكو. وكانت تحمل البنادق والدبابات. والرجال، حشود من الرجال. كانت هناك ثمانون فرقة، ومليون جندي، إضافة إلى تشكيلات النخبة، المجهزة تجهيزاً جيداً ومخصصة للقتال في أجواء الشتاء السيبيري. كان أفرادها يرتدون بذلات بيضاء، ويحملون بنادق بيضاء، ويستقلون دبابات بيضاء – من

1- تم تأكيد هذه المعلومات من قبل كيم فيلبي جاسوس روسيا في لندن.

طراز *T-34* الجديدة، والتي كانت قوتها تفوق أي دبابة كان باستطاعة الألمان صنعها[1].

بحلول الحادي عشر من تشرين الأول، وهو اليوم الذي تم فيه تسليم الجنرال جوكوف القيادة العامة للقاطع الأوسط، تم تطويق جيشين روسيين آخرين، مما غذى هوس هتلر باعتقال المزيد من الأسرى: أصبح لديه 660 ألف أسير آخرين.

في ليلة 12 تشرين الأول بدأ المطر يتساقط ... واستمر المطر...

أصبحت العاصمة الروسية هي خط المواجهة. تم استدعاء 100 ألف من سكان موسكو إلى حمل السلاح. ساعد 40 ألف فتى وفتاة دون سن السابعة عشرة نصف مليون فرد من النساء ورجال كبار السن على حفر خندق مضاد للدبابات طوله 98 كيلومتراً. وقد مات كثيرون منهم بسبب التعرض للأجواء الباردة، حيث كانوا يرتدون فقط الملابس التي كانت على أجسامهم عندما تم جرهم من منازلهم. تم نفخ المناطيد الحاجزة[2] خارج مسرح البولشوي وفي الساحة الحمراء، ازداد عدد العوارض في الطرق الرئيسية التي تتكون من الحواجز المصنوعة من أكياس الرمل والقضبان الحديدية الملحومة التي انتشرت في كل تقاطع. تكدست عند ضفة النهر وحديقة غوركي البطاريات المضادة للطائرات. وتم سحب الرجال من مكاتب عملهم وتجنيدهم في «كتائب عمل طوعية»، وتسلم كل رجل بندقية وخمس رصاصات، وأمروا بالصمود حتى الموت. وأعلن قانون المارشال. كان يتم إعدام «أعداء النظام» دون محاكمة. لم يتم تحديد ما تشير إليه كلمة «النظام» بالفعل.

كانت المدينة في قبضة الذعر. بحلول 17 تشرين الأول، تم إخلاء

1- من كتاب العامل الحاسم لمؤلف هذا الكتاب (ي. دورشميد).

2- عبارة عن منطاد مجهز بكبلات معدنية وكان يستخدم للمهمات العسكرية الدفاعية. عندما يكون المنطاد في أقصى ارتفاعه فإن الكبلات المشدودة تساهم في الوقاية من هجوم الطائرات المعادية المحلقة على ارتفاعات منخفضة. المترجم.

العاصمة من «سكانها المهمين». وكانت خطوط محطة قازان إلى غوركي وجبال الأورال هي الوحيدة التي بقيت تعمل[1]. وكانت الساحة المواجهة للمحطة مزدحمة بآلاف اللاجئين. كان أعضاء الحزب وهم «السكان المهمون» يجلسون بصبر فوق أمتعتهم وحقائبهم، بينما كان الناس العاديون في موسكو يراقبون بصمت أساطيل السيارات التي تجوب الشوارع تحمل على متنها موظفين رفيعي المستوى وهي تسرع للخروج من المدينة. كان أي شخص يحاول الفرار دون تصريح رسمي يتعرض إلى إطلاق النار عليه على الفور من قبل فرق الشرطة السرية (*NKVD*). لم يكن هؤلاء فقط هم من قتل في تلك الأيام على يد فرق الإعدام التابعة للشرطة السرية (*NKVD*). فقد أفرغت قوات الكوماندوز الخاصة السجون من نزلائها. وتم اقتيادهم إلى الفناء وأطلقت عليهم النار، وعندما لم يكن هناك مكان لمزيد من الجثث تم إطلاق النار على السجناء في زنازينهم. تم حرق بطاقات الحزب على عجل، ونهبت المتاجر. وتم رفع تابوت لينين من النعش الخاص به ونقله بعناية وبسرعة من المدينة[2]. دوّت أصوات طلقات الرصاص في الشوارع. حيث كان يقتل عناصر الدوريات المعزولة من فرق إعدامات الشرطة السرية (*NKVD*) ثم استخدمت أسلحة القتلى للقضاء على المزيد من أفراد الشرطة المكروهين. بدأ عناصر فرق الإعدامات في الشرطة السرية (*NKVD*) بنزع شاراتهم وحاولوا الاختباء، ولم يتم القبض عليهم إلا من قبل زملائهم حيث تم إطلاق النار عليهم.

تقاطعت في سماء الليل النيران المضادة للطائرات من فوق أبراج الكرملين الأثرية، وغطى الدخان مركز المدينة من جراء انفجار قنابل القاذفات الألمانية. انحشرت النساء والأطفال في محطة مترو الأنفاق ماجوكوفسكي طلباً للمأوى. تم إجلاء السلك الدبلوماسي إلى مدينة

1- معظم تحركات القوات من سيبيريا توقفت عند الأطراف للحفاظ على السرية.

2- م. سامسونوف، المؤرخ السوفييتي الرسمي.

كويبيشيف وتم إخلاء الكرملين. كل ما بقي في غرف الاستقبال الرائعة الموجودة تحت القباب الذهبية هي خرائط لمواضع المارشال شابوشنيكوف كانت معلقة على الحائط. ليس من المؤكد ما إذا كان ستالين قد غادر العاصمة. في أواخر شهر تشرين الأول (التاريخ غير معروف بالتحديد)، التُقطت صور له وهو يزور الجنرال المصاب بيرمينكو في مستشفى موسكو.

واستمر المطر بالهطول... من سمولينسك إلى أوريول، ومن فيازما إلى كالينين. تحول نهرا أوكا وأوغرا إلى سيول مستعرة، وأصبحت الطرق الريفية المتربة أنهاراً من الوحل الدبق واللزج والعميق، والذي كان يشكل مصدر خطر للجيوش الفتية عبر التاريخ. وغاصت عربات نقل المشاة الألمان حتى منتصفها في المستنقعات التي كوّنتها مياه الأمطار، واختفت الخيول حتى بطونها، واضطر «اللاندرز» (جنود المشاة) أن يشقوا طريقهم بصعوبة سيراً على الأقدام. وأصبحت كل خطوة واحدة يمشوها صراعاً، حيث كان الطين يلتصق بجزماتهم، ويضعضع قوتهم.

ومع ذلك، كان الزخم الألماني لا يقاوم، ولم توقف المستنقعات أبداً تقدم الدبابات الألمانية. لكن «اندفاعهم في موسكو» تحول إلى «زحف إلى الأمام». انهارت الطريق الصلبة الوحيدة، وهي طريق موجايسك وارشو، تحت ثقل الدروع الألمانية. واقتحمت فرقة الدبابات بقيادة الجنرال غوديريان مدينة كالوغا في 13 تشرين الأول، واستولت فرقة الدبابات بقيادة الجنرال رينهاردت على مدينة كالينين في 16 تشرين الأول، وتم اجتياح خط الدفاع الأخير في موجايسك من قبل فرقة الدبابات التي يقودها الجنرال هويبنير في 18 تشرين الأول. لكن تقدمهم كان بخطى أقل بكثير. لم يكن هذا بسبب مقاومة روسية منظمة أكثر صرامة، ولكن بسبب ذلك المطر الملعون والطين اللعين.

تقدمت فرقة الدبابات الأربعون بقيادة الجنرال شتومه نحو مدينة روزا. كان هدفهم هو تطويق موسكو من جهة الشمال الغربي. علقت

دباباته في ذلك المستنقع الملعون - ولم يسعفه الصراخ المستمر من قادة الجيش من أعلى المستويات والذي كان يسمع في مقر قيادة الفوهرر-، ولم يكن أمامه حل أفضل سوى أن يأمر فوج المشاة بأكمله بالقيام بتقطيع أشجار الغابة لبناء حاجز من الخشب عبر الوحل حتى يتمكن من نقل الإمدادات من الوقود والذخيرة التي تمس الحاجة إليها إلى وحداته المتقدمة - بواسطة عربة يجرها الثور وعربة يجرها (الحصان)!

«ندعوك يا رب أن لا يطول هذا الطقس السيئ سوى أسبوعٍ واحد فقط». هكذا كان يدعو قادة الفرق المدرعة الألمانية في صلواتهم. وقد برهن حينها قرار هتلر الذي اتخذه في تموز بالاحتفاظ بمجموعة كبيرة من الأسرى في أوكرانيا بالإضافة إلى التأخير الذي حدث، أن عواقبه كانت وخيمة للغاية.

كان المطر يتساقط عندما وقف النقيب ديلفيت فون فاغنبرغ على قمة برج دبابته من طراز مارك الرابع، وبدأ يزيح المطر عن خوذة رجال الدبابات السوداء التي كان يرتديها ويتفحص البلدة التي أمامه من خلال نظاراته. كان من المفترض أن تكون مدينة موجايسك هي مفتاح اختراق طوق الدفاع الذي أقامه الجيش السوفييتي، ومع ذلك كانت المدينة مهجورة تماماً. تفحص فاغنبرغ بعض الصور المتسلسلة، التي التقطت قبل أسبوع. كان هناك جسران، وكانا متجاورين تقريباً، استخدم أحدهما كطريق عادي، والآخر للسكك الحديدية. كان من الضروري السيطرة على واحد على الأقل منهما وهو سليم. رفع النقيب ذراعه وأشار إلى الأمام. دخلت الدبابات، وكانت تسير كل اثنتين منها بشكل متوازٍ، إلى المدينة المهجورة وتلمست طريقها عبر الشوارع غير المألوفة مع علامات الطريق التي تمزقت جميعاً. لقد قوبلت بصمت غريب. كانت المنازل مهجورة، وتم تحطيم رأس برج الكنيسة عن طريق ضربة مدفعية مباشرة. في الساحة الرئيسية، سارت الدبابات من حول نصب الاشتراكية التذكاري الشهير، وكان عبارة عن فتاة ترفع منجلاً وعاملاً

يحمل راية. وبجواره كان هناك لوح، يستذكر المعركة العظيمة التي خاضها نابليون في 26 تشرين الأول 1812. كان التاريخ نفسه تقريباً الذي كان فيه نابليون في طريق عودته، محاولاً الهروب من هجمة الشتاء الروسي. بماذا كان يفكرالجنود الألمان، وهم يقودون الدبابات، وقد تشبعوا بالماء جرّاء المطر المتواصل، ووصل ارتفاع المياه في الشارع الرئيس إلى حوالي قدم؟ لم تواجه طليعة القوات الألمانية أي مقاومة حتى وصلت إلى حاجز من القضبان الحديدية الملتحمة لم يكن فيه أحد من الجنود. وهناك، أمامهم، كان الجسر، لا يزال شاخصاً! قامت قوات المشاة بتطهير أحد الممرات وتسابقت أربع دبابات عبر جسر الطريق الذي لم يتلف لإنشاء موطئ قدم عند الشاطئ البعيد.

تم إرسال النداء التالي: من قائد الوحدة المتقدمة إلى الفوج. الجسر سليم وتمت السيطرة عليه، أكرر الجسر سليم.

«ما هو الجسر الذي تشير إليه؟».

«جسر طريق موجايسك».

«ماذا... ما هو الجسر؟» تلت ذلك لحظة من الصمت المذهل. ثم جاء صوت بنبرة تشكيك في الأمر. كرر: «ما هو الجسر الذي سيطرت عليه؟».

«جسر طريق موجايسك. إنني أطلب الدعم».

«تهانينا، أيها السيد النقيب. ابق في مكانك سيتبعك الفوج على الفور».

كان ذلك عندما رأت الدبابة التي في المقدمة ثلاث سيارات تقل موظفين روس تقترب من النهر بسرعة عالية. إلى أين يتجه هولاء الروس؟ عندها فقط أدرك النقيب الألماني لماذا لم يتم الدفاع عن البلدة وأن كل شيء كان هادئاً جداً. لم تفاجأ القيادة العليا وحدها بهذا التقدم السريع، بل إن الروس كانوا غير مدركين تماماً لسبب انهيار خطوطهم الأمامية. لهذا السبب لم يتم تفجير الجسر! لا بد أن يكون سائق السيارة

السوفييتية التي كانت في المقدمة قد اكتشف شيئاً غير عاديٍّ، لأنه ضغط بشدة على المكابح وتراجع عبر فاصل الطريق. ثم علت أصوات إطلاق نار من بنادق ثلاث دبابات واختفت بعدها المركبات الثلاث.

كان يمتد أمام الدبابات الأربع، طريق سريع يمتد لمسافة بعيدة كانت الدبابات الألمانية على بعد خمسة وستين ميلاً من موسكو. وكان ذلك هو المكان الذي صدرت الأوامر لها بالتمركز فيه.

كان طقس شهر تشرين الأول معتدلاً نسبياً، ليس فيه سوى هذا الوحل الملعون. في ذلك الوقت، تسببت مستنقعات المياه، بالإضافة إلى الحالة المؤسفة للمعدات، بتوقف آلة الحرب الألمانية. الغبار الخفيف في الصيف والمسافات الهائلة كانت لها آثار تدميرية على المعدات. فقد تآكلت محركات الدبابات وعانت ماسورات البنادق من الإنهاك. مقابل كل خمس دبابات انطلقت، انهارت أربع. كانت إطارات شاحنات الإمداد متهرئة وتتشقق على الطرق الموحلة. لم تكن هناك قطع غيار، ولا ذخيرة. الأهم من ذلك كله، لم يكن هناك وقود. لم تكن الحرب مقتصرة على الدبابات والبنادق فقط، كان فيها جنود وحياة وكائنات بشرية تتنفس. وعندما تتعطل أجزاء جسم الإنسان، لا يمكن إصلاحها بالصامولات والمسامير الملولبة، أو استبدالها من خلال بعض خطوط التجميع الصناعية. أرسل الجنرال غوديريان طلباً عاجلاً لإرسال قوات احتياطية. وافق هتلر وفكر بإرسال خمس مئة رجل - خمس مئة فقط ليحلوا محل مئات الآلاف الذين كانوا مدفونين في الأرض الروسية!

في 19 تشرين الأول، وبينما كان ستالين يجتمع مع أعضاء المكتب السياسي للحزب ومجلس الدفاع عن الدولة لتحديد ما إذا كان ينبغي عليهم مواصلة الدفاع - أو التخلي عن العاصمة - كانت مجموعة الجيوش الوسطى الألمانية بقيادة الجنرال فون كلوغ قد اضطرت أخيراً إلى التوقف في المستنقع. لم يكن لدى قائد الجيوش الوسطى الألمانية

أي فكرة عن الجنّي الذي استدعاه عندما كان عليه تقديم المشورة إلى *OKW Oberkommando der Wehrmacht*، (المقر الرئيسي لهتلر).

علينا الانتظار حتى يتجمد الصقيع على الطرقات بحيث يمكن لدباباتي أن تتحرك.

اهتاج هتلر غاضباً. نتوقف الآن؟ ولم يتبق للوصول إلى موسكو سوى ثلاثة أيام. كان ذلك بمثابة الخيانة العظمى. أصدر هتلر أوامره بالتقدم الفوري. وفي محاولة هجوم أخيرة، تقدمت فرقة الدبابات الثالثة وفرقة المشاة 258 على طول طريق روسلافي الذي لا زال سالكاً وخاضت في نهر نارا بالقرب من مدينة نارو – فومينسك. ومن هناك انتشرت بسرعة خلف خط الدفاع الروسي الرئيس. لقد تم الآن تهديد موسكو أيضاً من الجنوب الغربي. وفي محاولة أخيرة لوقف الألمان، أرسل القادة السوفييت للقتال وحدات ميليشيا عمالية تم تجميعها على عجل ضد المعتدين. تمت إبادة الميليشيا، وألقى أولئك الذين لم يقتلوا أسلحتهم واستسلموا. *Voyna kapuut - Krieg kapuut!* انتهى – الوطن الأم – انتهت الحرب. «لحسن حظ روسيا، لم يكن هذا الموقف الانهزامي قد انتشر في جميع خطوط الجبهة».

كان الجندي الألماني يسير بتثاقل مثل جندي مشاة حدث معه الأمر نفسه قبل 130 سنة، كان جائعاً، وكان مطبخه الميداني في مكان ما في المؤخرة، حيث غاصت المركبات في الوحل العميق، وكانت بذلته رطبه ودبقة ومتيبسة. تقدموا دائماً إلى الأمام نحو موسكو *Vorwärts, immer vorwärts! Auf nach Moskau* [1] كان هذا هو الأمر الذي صدر في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي، وفي اليوم الذي تلاه.

كانت هناك فترات تصل فيها الحرب إلى قمتها أو إلى أدنى مستوياتها، وبالنسبة إلى الجيش الألماني (*Wehrmacht*) الذي لا يُقهر، كان على وشك أن يواجه النقطة الحاسمة. ومثلما فشلت محاولة اختراق شمال

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

العاصمة، توقفت محاولة نقل المركز الصناعي المهم في تولا في الجنوب بسبب البرد، وكانت المعركة شرسة. وكانت هي المرة الأولى التي استخدم فيها السوفييت قاذفات الصواريخ المعروفة باسم كاتيوشا *katjusha* [1].

كانت الخطة الألمانية تقوم على شن هجوم مفاجئ على مدينة تولا في 29 تشرين الأول. لكن الخطط العسكرية، كما شرح فون كلاوزفيتس ببساطة في ملحمته عن الحرب، نادراً ما نجحت أثناء الاشتباك مع العدو. كانت مدينة تولا، المدينة ذات مداخن المصانع وشقق العمال، تقع بمحاذاة الجانب الجنوبي من موسكو. وقام بالهجوم جيش الدبابات الثاني بقيادة الجنرال غوديريان، والذي كان بمثابة مضيعة للوقت، وقد تباطأ بسبب أحوال الطرق السيئة وفشل الخدمات اللوجستية. لذلك، تم تكليف مهمة القيام بالهجوم الأولي إلى المشاة. كان يقود الجنود الملازم أول فون أوبن من الفرقة الثانية. ووصلوا إلى حقل يبلغ عرضه حوالي 300 متر، تتناثر في أرجائه حفر سببتها القذائف وكانت مليئة بالماء. حاولوا القيام بهجمة سريعة، ولكن الطين العالق بأحذيتهم جعل هذا الأمر مستحيل عملياً. وسرعان ما تم إرغامهم على التوقف من خلال نيران مدفع رشاش ثقيل كان موجوداً في مبنى سكني كبير كان يشغله العمال، واضطروا إلى المسير ببطء وقد خفضوا أجسادهم ليختبئوا في الحفر التي صنعتها القذائف. هناك استلقوا، وقد غمرت المياه المتجمدة أجسامهم حد الرقبة.

أشار العريف فيخمان نحو الهيكل الكبير المبني بالقرميد الأحمر الذي يقف في طريقهم. «*Verdammte Scheisse* اللعنة، علينا أن نسكت النيران الصادرة من ذلك المبنى أو سيتم محو الفرقة بأكملها *der ganzen Kompanie wird der Arsch weggeblasen*» [2]، ونجحوا بأعجوبة في الوصول إلى منتصف الطريق حيث وجدوا خندقاً مضاداً للدبابات

1- كان هذا السلاح معروفاً باسم جهاز ستالين، وكان ينطلق من شاحنة، وهو فتاك بشدة، ومميت، عبر بحيرة لادوج.

2- بالألمانية في الأصل. المترجم.

اتخذوه مأوى مؤقتاً من نيران الأسلحة الصغيرة. كانت الرصاصات تمر سريعاً من فوق رؤوسهم وتصدر أزيزاً وهي تسقط وسط الطين والماء. كانت ترمى عليهم قنابل يدوية من النوافذ العلوية لشقق العمال، ولكن لم تصل واحدة إلى خنادقهم. وأصابت إحداها جندياً في وجهه ولم يتحرك بعدها. ثم أصابته شظية من قذيفة هاون في عنقه. لم يتمكنوا من الجلوس هناك طوال اليوم، في انتظار القتل. كان من المفترض أن تكون تلك لحظة المجد للعريف فيخمان، برأسه الكبير ذي الشعر الأحمر، الذي كان يحب النقانق الشحمية والنساء الشقراوات الممتلئات الجسم، وكان في يوم من الأيام البطل الأولمبي لرياضة العدو في ألمانيا. فقد أمسك بمجموعة من القنابل اليدوية العصوية[1]، وقذف بنفسه على حافة الخندق، وركض نحو مبنى القرميد الأحمر، الذي كان يومض مثل تنين ينفث النار. وعندما وصل تقريباً إلى جانب المبنى انزلق في الوحل، مما تسبب في تعثره. وعلى الرغم من أنه وقف خلال لحظة من الزمن، فإنه كان هالكاً لا محالة. وجعله اندلاع تبادل لإطلاق النار يتسمر في مكانه ويتهادى للوصول مباشرة تحت فتحة يتموضع فيها مدفع رشاش. وبجهد بشري فائق، رفع نفسه على ركبتيه، وسحب المسامير، وألقى بالقنابل اليدوية عبر النافذة. اشتعل الطابق بأكمله باللهب، وخرج الرماة السوفييت، بالإضافة إلى مدفعهم الرشاش، من خلال الثقب الذي كان في الأصل نافذة، قبل أن يؤدي انفجار حدث في مبنى آخر إلى أن يرتطم ويخمان بالأرض. تسابق اثنان من رفاقه إلى زعيمهم الساقط على الأرض وسحبوه مرة أخرى ليعيدوه باستخدام سترته الغارقة في الدماء. لقد كان نجاحهم معجزة، كان من المستحيل ترك عريفهم مرمياً هناك. توفي ويخمان بعد دقائق. وحصل على وسام صليب الفارس *Ritterkreuz*[2]، بعد وفاته.

1- القنبلة اليدوية المستعملة في الجيش الألماني منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. وتُسمى بالقنبلة العصوية بسبب شكلها العصوي المميز. المترجم.

2- بالألمانية في الأصل. المترجم.

كانت الحياة قاسية في مدينة تولا. فقد تعرضت للقصف وتمت مهاجمتها لعدة أيام. وأحرقت المستودعات وبدأت الحصص الغذائية تتقلص يوماً بعد يوم. سرعان ما تقاتل الناس للحصول على البطاطا، أو جرذ أو فأرٍ ليأكلوه. كان الخبز يصنع من خليط من دقيق العظام ونشارة الخشب. كان يتم تجريد الأشجار في المتنزهات من لحائها الذي كان يتم غليه. وعلى الرغم من سقوط القذائف والقنابل كالمطر، فإن النساء كن يجثمن مرتعدات حول أنابيب المياه المتدفقة أو ينزلن إلى النهر لملء دلائهن. عاش الناس في الملاجئ تحت الأرض، وعلى وميض ضوء الشموع، عملوا وماتوا. تم جلب المزيد والمزيد من الضحايا في الخطوط الأمامية للقتال إلى الملاجئ. كانت النساء تنوح على موتاهن بينما كان الأطفال الصغار يحدقون في الرعب الذي من حولهم دون أن يفهموه. جلست امرأة على وركها بالقرب من إحدى الجثث، كانت عيناها متورمتين وقد جفت الدموع فيها، فلم تعد تستطيع البكاء. كان الجرحى مستلقين على الأرض، بوجوه متجهمة وينتظرون المساعدة، أو لا ينتظرون سوى الموت. واستمرت الأرض تهتز، والمدافع الرشاشة تهدر والقذائف تنفجر، بينما كانت كتائب العمال، التي شغل أفرادها الشقق المتشابهة والمبنية من الأحجار الحمراء قبالة مصنع الصلب العملاق، تواجه الدبابات الألمانية بالقنابل والبنادق. كان عليهم وقف تقدمها. وكان أملهم الوحيد للبقاء يكمن في إبقاء الممر الضيق المؤدي إلى موسكو مفتوحاً. كانت الجسور قد تحطمت، ولكن قريباً سيتجمد النهر، وكان هذا هو أملهم الأخير في الحصول على الطعام[1].

ولم يكن هجوم الدبابات الألمانية أفضل حالاً من هجوم المشاة. فشلت محاولة الاستيلاء على مدينة تولا على حين غرة. صدرت الأوامر باتخاذ مواقع دفاعية والبقاء إلى أن يتم استئناف الهجوم أو يتم

1- كما هو الحال في لينينغراد المحاصرة، حيث تم جلب جميع الإمدادات عبر بحيرة لادوج المتجمدة.

وقفه نهائياً. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، اضطر عبقري نظرية حرب الدبابات ومخترع مبدأ الحرب الخاطفة الحديثة (*Blitzkrieg*)[1]، الكولونيل العام[2] هاينز جوديريان، أن يشن هجماته باستخدام الخيول حيث إن الناقلات التي تحمل الذخيرة والوقود كانت محتجزة على بعد 50 كيلومتراً من وحداته الأمامية، وقد غاصت في الوحل إلى أكثر من نصفها. إنه الوحل، ولا شيء سواه. دائماً كان هناك هذا الوحل الملعون، حيث لم يترك له، سوى 35 في المئة فقط من دباباته قادرة على القتال، أما البقية فقد كانت غاطسة إلى منتصفها في المستنقع. وأصبح الدعم المدفعي غير منتظم لأن معظم القذائف كان يطمرها الوحل دون أن تنفجر. وبشكل مذل استطاعت ميليشيا عمالية غير مدربة تم تشكيلها على عجل وقف هجوم نخبة من جنود المشاة. أصبح شيء واحد واضح للغاية، وهو ما فعله التغيير في الطقس. لم يعد من تبقى من الجنود بسبب الإعياء الذي أصابهم. وبعد ستة أشهر من القتال المتواصل، وتكبدهم خسائر فظيعة، يملكون الحافز لجعل الهجوم يصل إلى نهاية ناجحة. تم الضغط على موسكو من الجنوب. نعم، *يا قائدنا الفوهرر، لقد أدخلتنا في هذه الفوضى. ليس هناك ما يكفي من الدبابات، ليس هناك ما يكفي* من القذائف، وليس هناك ما يكفي من الرجال. والجو! *لقد قرأنا كتاب نابليون، لكنك، لم تصغِ عندما حذرناك من الطقس... نحن الآن في* ورطة حقيقية *jetzt sitzen wir in der Scheisse*[1]...

أصر ستالين على المضي قدماً في إقامة العرض العسكري التقليدي في 7 تشرين الثاني في الساحة الحمراء. كان المقصود منه رفع الروح المعنوية. وطلب من المارشال جوكوف التأكد من أنه في هذا اليوم بالذات، لن تزعج أية قاذفة قنابل ألمانية جو الاحتفالات. قدم له

---

1 بالألمانية في الأصل. المترجم.

2 رتبة عسكرية ألمانية أعلى من الجنرال. المترجم.

1 بالألمانية في الأصل. المترجم.

جوكوف تأكيداته بعدم حصول ذلك. لم يقم الجنود، الذين كانوا يستعرضون في الساحة الحمراء وسط عاصفة ثلجية قوية بالهتاف، لكنهم أعطوا الموسكوفيون شيئاً ليهتفوا به. كيف كان المزاج حقاً في الخطوط الأمامية الروسية؟ كتب الملازم فلاديمير سوبيل، وهو قائد سرية روسية، في بداية تشرين الثاني. عن ذلك الحدث «لقد عبرنا طريق أورويل تولا. ثمانون في المئة من أفراد وحدتي تركوها. الجميع يقول إننا خسرنا الحرب. إذا لم يأتِ الشتاء قريباً، سنكون قد هلكنا». قتل الملازم سوبيل في 12 تشرين الثاني خارج تولا.

كان القائد العام للجيوش الألمانية الوسطى، الجنرال فون بوك، يصلي من أجل أن يأتي الصقيع. والذي لم يكن يعني فقط توفر الأرض الصلبة التي تسير عليها الدبابات للقيام بالهجوم. بل كان يعني الشتاء من النوع الروسي. أرسل الجنرال الألماني طلبات لتجهيزه بملابس واقية ومواد خاصة للحفاظ على استمرار عمل الآلة الحربية. والتي لم يكن يملكها الألمان. وسواء كان ما حدث هو إهمال تام من الفوهرر الودود أو من خلال بعض الإلهام الإلهي ظل أمراً يثير الجدل، فقد عدم توفر إمدادات الشتاء الحافز إلى أن تسرع الجيوش الألمانية الخطى نحو موسكو لكي تحصل على مساكن شتوية مريحة. الحقيقة هي أن هتلر لم يكن يعير اهتماماً لتجربة نابليون المرعبة: لأنه، لم يكن يقرأ التاريخ جيداً. وبسبب غروره جراء النصر اللامع الذي تحقق إثر النجاحات السهلة خلال حملة الصيف الأولى، أصدر تعليماته إلى الضابط الأعلى للتجهيزات العسكرية لتوفير ملابس شتوية لستين فرقة فقط ستكون مكلفة بواجبات الاحتلال بعد انهيار الدولة البلشفية. علاوة على ذلك، كانت هناك مسألة توفير نوع خاص من الزيوت اللازمة للاستخدام في فصل الشتاء. فقد كانت جميع الآلات، من محركات الدبابات إلى أجهزة الارتداد في البنادق، ومن محرك الشاحنة إلى بندقية الجندي، تحتاج إلى نوع من الزيوت يمكنه أن يتحمل درجات حرارة دون الصفر المئوي.

فعند التعرض للهجوم، وبدون وجود ذلك الزيت لم يكن من المؤمل أن تعمل المدفعية الآلية.

على حين غرة بدأت تراود من كان في برلين أفكار مرعبة. «ماذا لو لم نتمكن من الاستيلاء على موسكو قبل أن يحل البرد؟ ماذا لو...؟». انتبه قادة الحزب فجأة إلى المأزق، وكيف أن جنودهم كانوا غير مستعدين فعلاً لدعم حملة الشتاء في روسيا. في محاولة أخيرة، دعا وزير الدعاية جوزيف غوبلز السكان الألمان للتضحية إلى أقصى حد والتخلي عن ملابسهم الشتوية. وانطلقت حملة أطلق عليها المساعدات الشتوية للجيوش الشرقية *Aktion Winterhilfe fuer das Ostheer*[1]. أفرغت ألمانيا خزائنها وتم جلب الملايين من القفازات والسترات الصوفية والمعاطف الكبيرة إلى مراكز التجميع في عدد من المدن عبر ألمانيا[2]، لكنها بقيت في المكان الذي جمعت فيه، لأن شبكة التوزيع كانت معطلة. فقد تعطلت حركة المرور على الطرق في روسيا بسبب الأوحال، وقام الأنصار بنسف جسور السكك الحديدية، ولم تكن وسائل النقل المتوفرة والتي تستخدم خطوط السكك الحديدية كافية لإمداد المقاتلين بالذخيرة والملابس الشتوية. أثبت الجيش الألماني أنه كان غير مهيأ لفصل الشتاء الروسي. وبدون سابق إنذار كان الأوان قد فات.

في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني، جاء فصل الشتاء لينتقم. في 12 تشرين الثاني، انخفضت درجة الحرارة إلى 15 درجة مئوية تحت الصفر، وانخفضت في اليوم التالي إلى 20 درجة مئوية تحت الصفر. تفاجأ الألمان بذلك. مع البرد، وصل شيء آخر: ثمانون فرقة جديدة من سيبيريا، ومئات الدبابات القتالية من طراز *T-34* الجديدة، وكانت تتفوق بشكل كبير على أي شيء يمكن للألمان أن يملكوه. كان هذا شيئاً لم يشك فيه الألمان أبداً. في 17 تشرين الثاني، وفي صباح مظلم

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

2- سجله فيلم أنتجته وزارة الدعاية الألمانية التي يرأسها غوبلز.

وملبد بالغيوم، ذاقوا أول طعم لشجاعة أبناء سيبيريا. وفي تصعيد آخر لحالة الرعب، هاجمهم فوجان من فرقة الفرسان المنغولية الأربعين عبر الحقول المتجمدة. أطلقت فرقة المشاة الألمانية 107 النار على الأرض المفتوحة. لم يتمكن مهاجم واحد من إحراز أي نجاح يذكر، فمن أصل ألفي فارس لم ينج فارس واحد ومن أصل ألفي حصان لم ينج حصان واحد وقد كان هذا على الأرجح آخر هجوم يقوم به سلاح للفرسان في التاريخ. من الناحية التكتيكية، كانت عملية لا معنى لها، لكنها شكلت نجاحاً نفسياً هائلاً. لم يقتصر الأمر على الإشارة إلى قسوة ستالين المطلقة في التضحية بقواته للحصول على أدنى ميزة حتى، بل أظهر ذلك مدى ضخامة احتياطياته البشرية. كان حمام الدم الذي لا يُغتفر هذا إيذاناً ببداية الأحاديث عن «جحافل ستالين» والتي أصبحت الشغل الشاغل للجنود في الخنادق الألمانية.

في 13 تشرين الثاني، عقد الجنرال هالدر رئيس أركان جيش هتلر، اجتماعاً لقادة الجيوش حيث أوجز لهم خطة هتلر للهجوم النهائي... تجرأ أحد القادة على الاعتراض على أوامر الفوهرر. وأعلن الجنرال هاينز جوديريان أنه في هذه المرة لن يقف الحظ إلى جانب الفيرماخت[1]، *Wehrmacht* وأن عليهم التوقف قبل أن يدمرهم جنون هتلر. كان يعلم من التجربة أن شن أي هجوم في نهاية هذا العام سيؤدي لا محالة إلى حصول كارثة. لا يمكن للفيرماخت تحمل خسارة الآلاف من الرجال والمعدات الثمينة[2].

«ما الذي يجعلنا نعتقد أننا نستطيع أن ندير محرك صهريج في درجة حرارة ما دون 20 درجة مئوية؟ ففي مثل هذا الطقس تكون المكابس متجمدة، والزيت الناقل للحركة يصبح كتلة صلبة من الجليد، ويكون

1- القوات المسلحة الألمانية. المترجم.

2- في الحقيقة فقد تسبب هجومهم السيئ التخطيط في خسارتهم 155 ألف فرد و800 دبابة و300 مدفع.

نابض الارتداد في بنادقنا عالقاً. حافظ على النبيذ الأحمر الذي عندك وأرسل إلى أولادي بعض المعاطف الشتوية المبطنة بدلاً من ذلك». بهذه الكلمات كان الجنرال غوديريان يشير إلى شحنة من النبيذ الفرنسي، أرسلها له ضابط التموين في فرنسا كبادرة حسن نية لعيد الميلاد المجيد. الذي حلّ على الجبهة الشرقية *Ostfront* وقد غطت أراضيها كتلاً من الجليد الأحمر. قام هتلر بتوبيخ بطل فرنسا لموقفه الانهزامي. وتنحية وجهة نظر الجنرال غوديريان جانباً وتم تحديد موعد الهجوم على موسكو بتاريخ 15 تشرين الثاني.

ولأن عنصر المفاجأة قد ذهب، كان على الألمان مواجهة مقاومة أكثر صرامة، بوجود الجسور التي تم تفجيرها والطرق المزروعة بالألغام. وطوال الليل، كانت طواقم الدبابات تبقي النيران مشتعلة تحت الدبابات حتى تتمكن المحركات من أن تدور في الصباح. «ما هو هدفنا اليوم، السيد النقيب؟» كان النقيب يدرك تماماً أن رجاله قد وصلوا إلى أقصى حدود القدرة على التحمل وأنهم بحاجة إلى الراحة. كان عليه أن يبث بعض الشجاعة فيهم. فقال لهم بتجهم نحن قريبون من الساحة الحمراء «*Der Rote Platz*»[1]، وغرفة طعام السيد ستالين «*Herr Stalin*»، لا أحد يمكنه أن يوقفنا الآن!

على بعد ألف كيلومتر من خط المواجهة، كانت المحركات تهدر وقد عادت لها الحياة - ولكن ليس لكل الدبابات، فقط تلك التي أشعل طاقمها النار طوال الليل تحت محركاتها الفولاذية التي تشبه الخنفساء. تحركت الوحدة التي يقودها النقيب ديلفيت فون فاغينبورغ المؤلفة من 12 دبابة من طراز مارك الرابع *Mark IVs*. كان هدفها المباشر هو عبور نهر نارا، ثم التوجه إلى مدينة بودولسك، التي تقع على بعد 34 كيلومتراً من وسط موسكو. «قم بالاستيلاء على الجسور، واحتفظ بها»، هكذا جاء الأمر من قيادة الفرقة.

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

«كان الأمر نفسه في كل مرة سيطر على الجسور، وقم بإنشاء موطئ قدم، ما هو اسم النهر؟ كان يوم أمس نهر براتفا، واليوم نهر نارا، وغدا، من يدري؟ وماذا عن دعم المشاة لدباباتي؟» فكر النقيب مع نفسه «ما دمنا في حالة تحرك، هذا جيد، لكن الجسور ستجعل دباباتي تتوقف وسط الطريق». عندها سنكون في حال، ويمكن لأي شخص أن يتسلق الدبابة ويحشر قنبلة يدوية في أسفل كوة قائدها.

لقد بلغت الدبابة التي في المقدمة قمة التل وأصبح الجسر أمامها مباشرة، لكنه لم ينفجر، كما كانوا يخشون. «تحرك، تحرك...» صاح النقيب بجنوده من خلال مكبر الصوت الذي كان لديه. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن تنفجر الأرض من حوله. بدا أن جميع المدافع في العالم قد توجهت نحو سريته الهزيلة غير الكفوءة. وهذه المرة، لم تخرج القذائف من بنادق أطفال، ولكنها جاءت من فوهات المدافع المضادة للدبابات ذات 76 ملم. لحسن الحظ، كان تهديفهم رديئاً. ربما كان المجندون من المبتدئين، وتم زجهم في المعركة دون تدريب فقد كانت قذائفهم تئز عالياً فوق الدبابات. وحين مست نيران المدافع دباباته مساً خفيفاً. أدخل النقيب رأسه داخل الدبابة وأغلق فتحتها.

هتف النقيب بصوت عال: «تحركوا، نحو الجسر». انحدرت دباباته نحو الأسفل بسرعة، كانت جنازير الدبابات تنزلق فوق الجليد. «أطلق النار!» هدرت بنادق الدبابة، وتم ضرب الأهداف. «استمروا استمروا في إطلاق النار». انفجرت ينابيع من الأرض أمام دبابته التي كانت في المقدمة، تلقت إحدى دباباته في الصف الثالث ضربة مباشرة وانحرفت عن الطريق، ولكن البقية استمرت في التقدم، كانت الوحوش الفولاذية التي تنفث النيران تتسابق نحو الجسر وكانت الأجساد معلقة في العوارض، لتربط المصهرات بالقنابل المضادة للدبابات. أطلقت قذيفة من البنادق الرشاشة في برج الدبابة وتطايرت الأجساد في الفضاء لتتحطم على الجليد. وارتمت هناك لتتخلف، بقعاً داكنة على النهر المتجمد.

«كان الأمر نفسه في كل مرة سيطر على الجسور، وقم بإنشاء موطئ قدم، ما هو اسم النهر؟ كان يوم أمس نهر براتفا، واليوم نهر نارا، وغدا، من يدري؟ وماذا عن دعم المشاة لدباباتي؟» فكر النقيب مع نفسه «ما دمنا في حالة تحرك، هذا جيد، لكن الجسور ستجعل دباباتي تتوقف وسط الطريق». عندها سنكون في حال، ويمكن لأي شخص أن يتسلق الدبابة ويحشر قنبلة يدوية في أسفل كوة قائدها.

لقد بلغت الدبابة التي في المقدمة قمة التل وأصبح الجسر أمامها مباشرة، لكنه لم ينفجر، كما كانوا يخشون. «تحرك، تحرك...» صاح النقيب بجنوده من خلال مكبر الصوت الذي كان لديه. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن تنفجر الأرض من حوله. بدا أن جميع المدافع في العالم قد توجهت نحو سريته الهزيلة غير الكفوءة. وهذه المرة، لم تخرج القذائف من بنادق أطفال، ولكنها جاءت من فوهات المدافع المضادة للدبابات ذات 76 ملم. لحسن الحظ، كان تهديفهم رديئاً. ربما كان المجندون من المبتدئين، وتم زجهم في المعركة دون تدريب فقد كانت قذائفهم تئز عالياً فوق الدبابات. وحين مست نيران المدافع دباباته مساً خفيفاً. أدخل النقيب رأسه داخل الدبابة وأغلق فتحتها.

هتف النقيب بصوت عال: «تحركوا، نحو الجسر». انحدرت دباباته نحو الأسفل بسرعة، كانت جنازير الدبابات تنزلق فوق الجليد. «أطلق النار!» هدرت بنادق الدبابة، وتم ضرب الأهداف. «استمروا استمروا في إطلاق النار». انفجرت ينابيع من الأرض أمام دبابته التي كانت في المقدمة، تلقت إحدى دباباته في الصف الثالث ضربة مباشرة وانحرفت عن الطريق، ولكن البقية استمرت في التقدم، كانت الوحوش الفولاذية التي تنفث النيران تتسابق نحو الجسر وكانت الأجساد معلقة في العوارض، لتربط المصهرات بالقنابل المضادة للدبابات. أطلقت قذيفة من البنادق الرشاشة في برج الدبابة وتطايرت الأجساد في الفضاء لتتحطم على الجليد. وارتمت هناك لتخلف، بقعاً داكنة على النهر المتجمد.

حسم تأثير الصدمة النفسية لهجوم الدبابات الجنوني نتيجة المعركة، أكثر من قوتها النارية. خفتت النيران المضادة للدبابات من قبل العدو، قبل أن تتوقف تماماً حالما توغلت أول دبابة عبر الممر المعدني الواسع. وتوقفت الدبابات وصوبت أسلحتها على مدفعية من عيار 76 ملم، لكنها وجدت أنها مهجورة. ابتسم السائقون ابتسامة عريضة «لقد هرب المجندون قليلي الخبرة»، أجاب عريف السرية متجهماً «قليلو الخبرة اليوم، لكنهم سيتعلمون». ثم ماذا؟. قفز من الدبابة قائلاً. «عجلوا وأخرجوا العلم قبل أن تدمرنا غارات قوتنا الجوية» *Luftwaffe*. تناثرت الأعلام الحمر مع رايات الصليب المعقوف على الثلج. كان سرب دباباتهم يمثل الآن أقرب تواجد لقوات ألمانية بالقرب من العاصمة الروسية، وليس ببعيد عن مرمى القذائف الثقيلة التي تنطلق من مدينة بودولسك. درس النقيب الموقف. كانوا بدون دعم أرضي وسوف يحل الليل سريعاً. إذا حدث هجوم من قبل قوات المشاة الروسية بعد حلول الظلام، سوف يستنزف قوة دباباته. يا لها من اندفاعة مجنونة! كانت خزانات الوقود الخاصة بدباباته على وشك أن تنفد، وربما ستوصله مسافة عشرة كيلومترات أخرى فقط، وكانت رفوف قذائفه فارغة تقريباً. إذا تقدم دون أن يمتلك قذائف فسوف تتحول دباباته إلى فتات صغيرة. لم يكن هناك سوى جانب إيجابي واحد، لم يعد هناك بينه وبين الكرملين جسور أخرى عليه عبورها...

كل حرب لها قصتها مع «الوقفة الاخيرة»[1]. ففي معركة إسبرطة كان هناك الملك ليونيداس ومقاتلوه الثلاث مئة، وضابط الجيش الأمريكي جورج كاستر إبان الحرب الأهلية وكارثة معركة ليتل بيغ هورن، وقد حانت الآن لحظة المجد لـ «بانفيلوف» ورجاله الثمانية والعشرين. كان

1- التصرف العسكري الأخير الذي تلجأ إليه القوات الدفاعية عندما تدرك أو تعتقد أن الاستمرار بالقتال ضد قوات تفوقها في القوة والعدد أفضل من التراجع أو الاستسلام. المترجم.

كل شيء هادئاً في هذا القطاع الشمالي الغربي من الجبهة، ولهذا السبب لم تضع القيادة السوفييتية العليا سوى الحد الأدنى من الدفاعات لعرقلة طريق فولوكولامسك - موسكو. ولكن فجأة تم اختراق الجناح وبدأ الخط بأكمله في الانهيار. تراجعت وحدات المشاة، وتخلت المدفعية عن بطارياتها، وركض الجميع بأقصى ما يستطيعون، ابتعدوا جميعاً عن الدبابات الرهيبة. انهار الخط الدفاعي الأخير. وفي وسط ضوء النهار المتلاشي، اندفع الجنود نحو نقطة التجمع في الخلف، حيث يمكن إعادة تشكيلهم في نوع من وحدات القتال. ولتحقيق ذلك، كان قادتهم يحتاجون إلى الوقت. وبالكاد لاحظت القوات الهاربة الوحدة الصغيرة عند تقاطع طريق فولوكولامسك.

كانت الليلة باردة، سقط الثلج بارتفاع بضع بوصات وتجمدت الأرض. كان ذلك هو الطقس المثالي لشن هجوم بالدبابات. تجمع المقاتلون الروس البالغ عددهم ثمانية وعشرون فرداً وراء الجدران وفي المنازل، محاولين اختراق الضباب المتجمد، مدركين أن العدو سيأتي قريباً. كانت الأوامر الواردة من القيادة العليا للفرقة صريحة: «اصمد، ولا تتراجع!» على أي حال، لم يكن بإمكانهم الاستسلام. وكانت القصة التي لديهم أن الألمان كانوا يقومون بشنق المفوضين[1] ويجردون الرجال من ثيابهم ويدعوهم يموتون من البرد. كانوا ثمانية وعشرين رجلاً، بعضهم صغير إلى حد أنه لم تنبت له لحية، وآخرون تجاوزوا سن التقاعد، وكانوا كل ما تبقى من كتيبة كاملة من فرقة الميجور جنرال بانفيلوف، للدفاع عن نقطة الطريق الحيوية في فولوكولامسك. لذلك تم تزويدهم بمدفع واحد صغير مضاد للدبابات سماه الألمان طراقة الباب «المهذبة»، وسبع قذائف، وثلاث دزينات من القنابل اليدوية ومئة زجاجة بيرة مليئة بالبنزين وقطعة من خرقة محشوة في عنق الزجاجة لتكون بمثابة فتيل إشعال الزجاجة: وكان هذا سلاح يستخدمه الأنصار

1- مسؤولون كبار في الدولة السوفييتية. المترجم.

ويسمى بمزيج مولوتوف. لقد كانوا قد سمعوا قبل فترة طويلة زمجرة مشؤومة، معلنة وصول رتل الدبابات. كانت دبابات من طراز مارك الثالث هي أول من اخترق الضباب. لم يبدُ أنهم كانوا يتوقعون أنهم سيلاقون مقاومة ويكادون لا يكلفون أنفسهم عناء بناء تشكيل تكتيكي، ومن المؤكد أنهم كانوا واثقين من انهيار الخطوط الأمامية الروسية. وقد تقلصت المسافة إلى مئتي متر ما بين كل دبابتين في الصف الأول وأطلقت بعض القذائف على مبنى مهجور عند التقاطع. تم إطلاق قذيفة من المدفع المضاد للدبابات الصغير والمموه من مسافة قريبة، وتم تسديد ضربة قاضية إلى الدبابتين الأساسيتين قبل أن تحولهما ضربة مباشرة إلى كومة من الحديد الملتوي. زمجرت محركات الدبابات بغضب وهي تندفع مع قعقعة الطريق، تنهش بالأشجار وتقذف بطبقات العشب الرخوة وراءها، وكانت منيعة بوجه نيران البنادق والمدافع الرشاشة. تحاول خمس دبابات الآن الالتفاف على مركز الدفاع، لكن المدافعين امتلكوا ميزة واحدة: السرعة. هرع رجلان إلى الأمام وألقيا حفنة من زجاجات المولوتوف على إحدى الدبابات قبل أن يسقطا صريعين. تحطمت الدبابة الأولى بعدما أمطرت بالمزيد من زجاجات المولوتوف المشتعلة من ثقب أحدثته قذيفة في جدار من الطوب. تدفق السائل المشتعل إلى برج الدبابة المفتوح قليلاً، واشتعلت النيران فيه. توقفت دبابة أخرى وقفز الطاقم من مركبتهم المحترقة. قبل أن يصلوا إلى الأرض تم تقطيع أوصالهم بواسطة طلقات البنادق. وتعالت الهتافات بالروسية «*Za Rodina...Za stalina...* عاش الوطن... عاش ستالين...». نهض عدد أكبر من الرجال وهرعوا إلى الأمام، وزجاجاتهم من البنزين تنفجر يصاحبها طنين مرتفع، والتفت على دبابة أخرى كرة من النار. «*Za Rodina*»، عاش الوطن صاح يوري وركض بأقصى طاقته ثم لقي حتفه. وبعده، كان دور بيوتر. وأخذ يوري آخر مكانه. وقبل أن يتمكن من إلقاء قنابله الحارقة، تمت إصابته في يده برصاصة وتعثر بحركته إلى الأمام، وأصبح كتلة بشرية ملتهبة، وبآخر ما يملك من جهد،

رفع نفسه نحو إحدى الدبابات، وسحب دبوس القنبلة اليدوية، وحشرها أسفل الأنبوبة القصيرة لبندقية دبابة من طراز مارك الثالث. صائحاً «*Za Rodina...* عاش الوطن». تم تدمير أربع عشرة دبابة بهذه الطريقة قبل أن يتم إسكات «أبطال بانفيلوف الثمانية عشر». كان آخر من مات هو زعيمهم، الذي تسلل حاملاً حزمة من القنابل تحت إحدى الدبابات، ثم فجر نفسه وذهب بالدبابة إلى الجحيم.

في موسكو، وصلت المئات من القطارات من سيبيريا، والمزيد من الجنود الذين يرتدون ملابس بيضاء وقد نزلوا من عربات القطارات والسيارات القديمة. لم يكونوا جميعاً من قوات النخبة. وقدم لمقاتلي بعض الفرق المنغولية المدربة بشكل سيئ قدحاً صغيراً من الفودكا، ثم أرسلت مباشرة إلى الأمام وأمرت بإخلاء الطريق من حقول الألغام للوحدات السيبيريّة الأفضل تدريباً والمجهزة جيداً. هجم المغول وماتوا. ولكن كذلك فعل الكثير من الألمان، ولكن لم يكن جميعهم برصاص العدو. في 27 تشرين الثاني، كان مقياس الحرارة يشير إلى درجة حرارة مئوية مقدارها 40 تحت الصفر. كان يجب تزويد المواقع الأمامية بالرجال ليلاً ونهاراً. لم يكن يمتلك الألمان لا معاطف مبطنة بالفرو ولا أحذية مصنوعة من اللباد. أما الروس فكانوا يملكون الاثنين. كانت أحذيتهم فضفاضة بشكل مناسب، مما سمح لهم بسدها بواسطة القش أو الجرائد. كان الألمان يرتدون بساطيل عسكرية *Knobelbecher* مسمرة النعل وضيقة، وكانت تلك أضمن طريقة للحصول على أقدام جامدة. كان الجندي الألماني يرتدي زياً رمادياً داكناً، يكون ملحوظاً بشدة في الشتاء الأبيض. أما الجندي الروسي فيمكن له أن يستلقي وهو يرتدي بذلته البيضاء المبطنة لساعات في الثلج، دون أن يتجمد ودون أن يتم رصده. كان الروس مجهزين بقفازات من الفراء، وكان الألمان يرتدون قفازات صوفية، مما جعل أصابعهم متيبسة للغاية وغير قادرة على سحب الزناد - هذا إذا كانت بنادقهم أو رشاشاتهم تعمل! لم تكن أسلحتهم مناسبة

لفصل الشتاء، وكثيراً ما كانت شريحة عمل المزلاج تتجمد وتصبح صلبة لا تتحرك. عانت معظم المركبات من مسارات الوقود المغلقة، كان الزيت يتجمد في علبة المرفق وصناديق نقل الحركة تتصدع وتبقى مفتوحة. كانت نوابض الارتداد في المدافع الثقيلة تتآكل مثل جليد هش. في اليوم نفسه 27 تشرين الثاني، كتب رئيس هيئة الأركان الألمانية الجنرال هالدر: «لقد وصلت قوتنا البشرية والمادية إلى نهايتها. *Wir sind am Ende unserer personellen und materiellen Kräfte*»[1][2].

تبعد مدينة بورزيفو 55 كيلومتراً عن موسكو. وجدت سرية من فرقة المشاة 258 مأوى في مخبأ في ساحة للتدريبات العسكرية. قبل وصول الألمان، كان المزارعون المحليون يستخدمونه مأوى لدجاجهم. ترك الدجاج المخبأ، ولكن البراغيث كانت لا تزال هناك. عندما لا يكون الجنود في واجب الحراسة كانوا ينامون مثل سمك السردين وهو محشور في علبة واحدة. كانوا يضعون الطوب على النار. وكلما كانت تمر ساعة جديدة، يأخذون الطوب الساخن، ويلفون خرقاً من القماش حولهم ثم يضعونها فوق أجهزة ارتداد مدافعهم الآلية. كان ذلك هو السبيل الوحيد للحفاظ على الأسلحة من التوقف. كان ثلاثون من رجال السرية يعانون من قضمة الصقيع.

ما إن دخل أولئك الذين كانوا في واجبهم في الحراسة إلى الداخل بسبب البرد ونزعوا بساطيلهم لتدفئة أقدامهم حتى قام الروس بالهجوم عبر الحقل بسرب من الدبابات من طراز *T-34s*. أصابت القذائف الألمانية المضادة للدبابات الصفائح العلوية للدبابات الروسية دون أن تسبب أدنى تأثير على تلك الوحوش الفولاذية التي كانت تقترب بسرعة، حطمت الدبابات الضخمة الجدران والأسيجة واندفعت نحو الشارع الرئيس. وراء كل حطام كان يكمن فرد ألماني، في انتظار المشاة

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

2- يوميات الجنرال هالدر رئيس أركان قوات هتلر في 27 تشرين الثاني 1941.

الروس، وكان لا بد أن يتبع الدبابات. وظهرت الأشكال البيضاء وهي تركض وسط الثلج. أرسلت رشقة من ثلاثة رشاشات قوات المشاة الروسية إلى الأبدية. لكن الدبابات استمرت في زحفها، دون أن يستطيع أحد وقفها، قبل أن تتوقف عند الساحة الرئيسية. ومثل حيوان الدعلج الميت، كانت فوهة البندقية تبرز وهي مصوبة في كل اتجاه. ربما أدرك قائد الدبابة أنه لم يعد لديه أي حماية إضافية من المشاة، وبالتالي كان عرضة للهجمات البرية. قامت مجموعة من «الجنود» *Landsers* [1]، يقودها رقيب، بمحاولة التسلل خلسة إلى الدبابات، فتم اصطيادها في العراء بواسطة مدفع رشاش مثبت على برج دبابة. وكان اللفتنانت بوسرت، قائد السرية، ومجموعة من الجنود، يسحبون ألغاماً روسية ثقيلة مضادة للدبابات، كانوا قد أخرجوها قبل يوم واحد فقط من الطريق، وبدؤوا بالزحف خلف دبابتين. ثم قاموا بوضع الألغام بهدوء تحت الوتد السفلي لهما. تحركت الدبابتان، وتبعتهما نافورتان من اللهب ولم يكن هناك ناجون فيهما. ظلت الدباباتين تحترقان بشدة بينما كانت بقية الدبابات من طراز *T-34* تتخبط في انسحاب متسرع. لقد توقف الهجوم، لكن الألمان عانوا أيضاً من خسائر فادحة. كان سبعون فرداً منهم يجلسون على أرضية مغطاة بالجليد في قبو للبطاطا. حقن أحد المجندين نفسه بالمورفين، الذي كان عليه أن يحمله في جيب سرواله لمنعه من التجمد. وكانت هناك العديد من الإصابات الخطيرة التي استخدم فيها الدواء المسكن للألم حتى نفد منه. قرر الملازم أن يحمل الجرحى على زلاجاتين ويسحبهما إلى المستشفى الميداني التجريبي. وعين اثني عشر رجلاً لكل زلاجة، ستّة للسحب وستّة لإبقاء أعينهم مفتوحة لتراقب الأنصار. كان يجب ترك الموتى دون دفن. ما حدث كان يشبه ما حدث في تقهقر نابليون. ليس بعيداً عن الأكواخ، وقعت الزلاجة التي في المقدمة في كمين نصبته مجموعة من الأنصار،

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

وتم إطلاق النار على الاثني عشر شخصاً الذين كانوا يديرون الزلاجات وتقطعت حناجر الجرحى. فوجئ الأنصار بمجموعة الزلاجة الثانية التي قتلت عشرة منهم وقامت بأسر الباقين. قام الألمان بلف أسلاك الهاتف الميداني حول رقاب أسراهم وربطوهم بأقرب شجرة. حدث مثل ذلك وأكثر في حرب الشتاء في روسيا.

على الرغم من الثلوج والجليد، ونقص الوقود والغذاء، واصل الألمان تقدمهم. استولى العقيد رودت، قائد لواء المشاة الثاني، على مدينة بوشكي وتقدم نحو مدينة كاتجوشكي. كان بإمكان العقيد أن يرى سحباً من الدخان تتصاعد من ارتفاع شاهق في المدينة الكبيرة.

في 27 تشرين الثاني، قامت وحدات من الجيش الثالث المدرع بالدبابات تحت قيادة العقيد فون مانتوفيل بالاستيلاء على جسر جاكروما المقام عبر قناة موسكو – الفولغا، الواقعة على بعد 70 كيلومتراً شمال شرق موسكو، واستولت أيضاً على محطة الطاقة الكهربائية الرئيسية. وبهذا فإن الألمان أصبحوا يمتلكون مفتاح الإنارة الخاص بالكرملين.

وفي اليوم نفسه، وصل الرائد رايخمان من الكتيبة الثانية، فوج المشاة 304، إلى بلدة غوركي، التي تقع على بعد 20 كيلومتراً من موسكو.

وفي 30 تشرين الثاني، توجهت أجزاء من فرقة الدبابات الثانية إلى بلدة تشيمكي، التي لا تبعد سوى 8 كيلومترات عن أطراف مدينة موسكو الخارجية. انتشرت الأخبار بسرعة عبر المدينة: «الألمان في تشيمكي!»

وأخيراً، أصبحت دورية مسلحة تابعة للكتيبة الطليعية 38 أقرب. بشكل أكبر، فاستولت على محطة للحافلات التي تسير على خط مدينة موسكو في بلدة لوبنيا، على بعد 17 كيلومتراً من الكرملين. «دعونا نستقل الحافلة ونقوم بزيارة الأب ستالين *Väterchen Stalin* ...» قال جنود الكتيبة وهم يمزحون وانتظروا الحافلة، لكنها لم تأتِ. لقد جاء شيء آخر.

بعد ظهر ذلك اليوم كانت الوحدة الألمانية على بعد 17 كيلومتراً

من قلب روسيا، حدث تغير في الطقس. هبت عاصفة ثلجية كست الأرض بالثلج. اختفت جميع معالم المدينة، لم تعد هناك منازل ولا أشجار، فقط كتل من الثلج تكدسها الرياح. بحلول صباح اليوم التالي كانت الحقول مغطاة بتلال ثلجية صغيرة. وكان يرقد تحتها الألمان، إما موتى متجمدون أو غير قادرين على تحريك أحد أطرافهم. انخفضت درجة الحرارة إلى 48 درجة مئوية تحت الصفر قبل أن تنخفض إلى درجة حرارة لا تصدق وقدرها 52 درجة مئوية تحت الصفر. وكان الزفير يتجمد لحظة خروجه من فم الجندي. كان الحراس يتجمعون معاً ويدخنون سيجارتهم الأخيرة. في المرة التي هوجموا من قبل قبائل منغولية، لم تعد بنادقهم الآلية قادرة على الحركة.

قام الألمان بمحاولة أخيرة. فقد أظهرت الاستطلاعات الجوية أن معظم أجزاء بلدة تولا كانت سليمة ويمكن استخدامها كمساكن شتوية. كان العامل الحاسم هو الحصول على مخزونات الفحم والوقود الضخمة في مصانع حديد تولا، وقد كانت كبيرة بما يكفي لتلبية كامل احتياجات الجيش الثاني المدرع بالدبابات طوال أشهر الشتاء القاسية. وببساطة كان لا بد من الاستيلاء على مدينة تولا!

لقد كانت خطة التضحية بفرقة المشاة الحادية والثلاثين لقطع طريق تولا المهم من الشمال متأخرة جداً. فهي لم تغير شيئاً. ربما يكون قد تأخر القرار بضعة أيام، لكن لم يعد بالإمكان تغيير النتيجة النهائية. يمكن أن تعود عملية إشراك المشاة غير المحميين في شن هجوم جبهوي[1]، إلى الجنرال هيج الذي اقترح العمل بها في عام 1916؛ وهي لم تنجح في حينها ولن تنجح الآن. هذا الأمر غير المجدي، الذي أصدرته القيادة العليا الألمانية في 4 كانون الأول، كان يستند إلى استنتاج بسيط. «أثبتت الخبرة التي تم جمعها خلال«فترة انتشار الأوحال» الذي منع أي تقدم

1- نوع من التكتيكات العسكرية التي تعتمد على مهاجمة مقدمة قوات العدو بطريقة مباشرة. المترجم.

سريع من قبل وحداتنا الآلية، أن القوة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها في وجود جبهة مناخية سيئة هي قوة المشاة الذين يسيرون على أقدامهم»[1].

بمعنى آخر، «نعم» قال الجنرالات، «لدينا دبابات عالقة، وقد توقفت محركاتها، لكن المشاة يستطيعون السير والقتال في اي درجة حرارة». وهذا معاكس تماماً للاستراتيجية المجربة جيداً - الدبابات هي التي تقود هجمات المشاة - يجب استخدام المشاة للهجوم عند عدم وجود دعم من الدروع المتحركة. وهو ما عرف بتكنيك نابليون للهجوم الخاطف. *attaque à l'outrance* ولكننا نتحدث عن عام 1941، وليس عام 1799.

تم وضع الخطة، وتم تكليف فرقة المشاة 31 لكسر الطوق الدفاعي المهم حول مدينة تولا، وبعدها تلتحم مع فرقة الدبابات الرابعة، والتي لا تزال غير قادرة على التحرك بسبب نقص الوقود في مدينة كوستروما، وبهذا يكون الطوق محكماً حول مدينة تولا. هذا ما كانت تقتضيه الخطة. لكن الأمر جاء متأخراً جداً، فمرور يومين عليه كان وقتاً طويلاً جداً. ما كان يمكن تحقيقه عبر الأرض المتجمدة لم يعد بالإمكان القيام به بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من تساقط الثلوج بغزارة. وبوجود الثلج الناعم الذي يرتفع إلى أربعة أقدام، وكتل الثلج التي يصل ارتفاعها إلى خمسة عشر قدماً، كان من المستحيل حتى على الجنود المشاة التحرك. لكن الأمر كان أمراً، وعليهم القيام به، «إنقاذاً لماء الوجه». وفي 5 كانون الأول، شقت كل من الكتيبة الثالثة، وفوج المشاة 82، وفرقة المشاة 31، طريقها من خلال ثلاثة كيلومترات من الثلوج العميقة لتصل إلى نقطة انطلاقها. استنزفت هذه المسيرة والبرد القارس معظم قوتها. كان هدفهم مدينة صغيرة، هي نوفاجا شيسنغي. (هوجمنا من الجنوب. كانت هناك بعض المقاومة الشديدة والكثير من بنادقنا لم تكن تستطيع إطلاق النار، لكننا اقتحمنا القرية، وأخذنا بعض الأسرى، وبعض الأسلحة، وخمس

1- مذكرات الجنرال هايدر.

شاحنات محملة بالملابس الشتوية الروسية الثقيلة. يا له من صيد ثمين!) هكذا كتب جندي مفعم بالحيوية في يومياته. لا عجب، لا بد أن تلك الملابس قد أنقذت العديد من أطراف الجنود من التجمد.

«أليس لهذا نهاية أبداً»، صرخ الطبيب الجراح، وهو يقوم ببتر ساق رجل آخر. إنها قضمة الصقيع! كان واجب الحراسة في درجات الحرارة هذه مساوياً لحكم الإعدام. قضمة الصقيع، ثم تليها الغرغرينا. كانت الغرغرينا هي التي تقتل الجنود وليس الرصاص. كان منتسبو الصنف الطبي يعملون على ضوء الشموع لساعات إضافية، ويقومون ببتر أصابع اليدين والقدمين والذراعين والساقين «*Unser ganzes Heer besteht nur mehr aus Krüpplen*» أصبح جيشنا يتألف بالكامل من المقعدين. «اقطع، اقطع، ولا تفكر». خارج مركز التضميد، كان المسعفون الطبيون يكومون الأطراف المصابة بالغرغرينا مثل أكوام الحطب.

هناك وصف للهجوم على كيتري، وهي قرية صغيرة كانت تسيطر عليها كتيبة روسية، والتي هوجمت من أجل لا شيء آخر غير الحصول على ملاذ من قسوة الطبيعة، والذي يروي لنا وصفاً أكثر من جميع الإحصاءات الجافة من تقارير المعارك الرسمية. خلال موجة الهجوم الأولى، أصيب القس الكاثوليكي للفرقة، الدكتور شايدت، بجرح مميت. أخذ مكانه القس البروتستانتي (*Pfarrer*)[1]، هاينريش لينك، الذي وصف ما كان ربما آخر هجوم مباشر في حملة الاستيلاء على موسكو، وهو الهجوم الذي شنه فوج المشاة 17 من فرقة المشاة 31: «قبل حلول الليل في 4 كانون الأول، انضممت إلى وحداتنا المتقدمة لأمنحهم الدعم الروحي. وجدت حالة قواتنا مروعة. بعد تعرضهم لإطلاق النار لمدة 12 يوماً متواصلة، كانت وجوه المقاتلين شاحبة ومتعبة، وكانوا منهكين بشكل يفوق الوصف؛ أولئك الذين كانوا في واجب الحراسة كانوا ينامون وأعينهم مفتوحة. خلال أسبوعين من القتال العنيف حول

1- بالألمانية في النص. المترجم.

مدينة تولا، عانت الكتيبة من خسائر فادحة. تم دفن العديد من رفاقهم تحت أكوام الثلج الذي سقط خلال اليومين الماضيين. كانت أكوام الثلج عميقة لدرجة أن أقصر رحلة أصبحت جهداً متعباً. لقد تحدثت معهم، وحاولت أن أمنحهم الشجاعة، ولكن لم يرد عليّ سوى عدد قليل جداً منهم. أخبرني أحدهم أنهم لم يتناولوا وجبة دافئة منذ أكثر من شهر. قبل يومين، تم إعطاؤهم نصف رغيف خبز ليتم تقاسمه بين خمسة أفراد، وكان كل جندي قد تلقى أوقية واحدة من الدهن. عندما جمعتهم لإقامة قداس جماعي، فإن حتى أولئك الذين لم يسبق لهم أن ذهبوا إلى الكنيسة تجمعوا حولي وأغمضوا أعينهم، وكانت أيديهم مطوية، وبدؤوا بالصلاة.

ثم جاء الليل كانت ليلة باردة لم يسبق لها مثيل من قبل. في حوالي الساعة الحادية عشرة، انخفضت درجة الحرارة إلى 35 درجة مئوية تحت الصفر. كان معظم رجالنا لا يرتدون سوى المعاطف النظامية التي وزعت عليهم من قبل، وأغطية أذن مصنوعة من أكياس من الخيش ملفوفة حول وجوههم، وخوذاتهم الفولاذية على رؤوسهم. كانت هناك طبقات من الجليد تتشبث بلحاهم. فلم يكونوا محميين مثل العدو، الذي ينتظرنا أفراده عبر الأرض الجرداء التي يكسوها الثلج في بذلاتهم المبطنة بشكل ممتاز مع قفازات الفراء ومعاطف من جلد الغنم. على الرغم من وجود الكثير من الأخشاب المتاحة، إلا أنهم لم يتمكنوا من إشعال النيران لأنها ستجلب علينا المدفعية الروسية. كنت أرتدي معطفاً، ومع ذلك بقيت أتجمد كثيراً من البرد لدرجة أنني اعتقدت أنني لن أبقى على قيد الحياة في تلك الليلة. وسرعان ما أصبح واضحاً لي أن الشيء الذي استنزف قوة رجالنا أكثر من الخوف من الاعتداء المرتقب، كان هو البرد. أصبحت تحركاتهم بطيئة، وإيماءاتهم متثاقلة. قبل عشرين دقيقة من الهجوم، صدر الأمر إلى الجميع بالخروج إلى العراء والتحقق من أسلحتهم. وانخفضت درجة الحرارة خمس درجات أخرى وأصبحت عند 40 درجة مئوية تحت الصفر. قام الرجال بدق الارض بأقدامهم غضباً وشبكوا أيديهم حول أجسادهم.

تم تحديد وقت الهجوم عند الساعة الواحدة ليلاً، للاستفادة من ضوء القمر الذي كان بدراً. عندما انتقلنا إلى الأمام، لا أعرف كيف فعلنا ذلك، لكن الجميع بدا سعيداً بتحريك أطرافه المتيبسة. كانت تلك النفوس المسكينة متجمدة لدرجة أنها، لم تتمكن من الإمساك ببنادقها عندما وصلنا قاع النهر المتجمد لم نستطع رفع أجسامنا نحو قمة الضفة على الجانب الآخر، كانت أصابعنا متيبسة للغاية. وضعها البعض فوق جانب الضفة، واندفع نحو صف من الأشجار. دوت أصوات رشاشات العدو، تم إحباط هجومنا الأول ووقعت خسائر فادحة. ثم وجد أحد الضباط برتبة رقيب مساراً يؤدي إلى ضفة النهر. وبما أنهم لم يستطيعوا جعل بنادقهم تعمل، قاموا برفع حرابهم واندفعوا إلى الأمام... انزلق عدد كبير منهم ببساطيلهم فوق الجليد قبل أن تصيبهم رصاصات العدو...

وفيما إذا تمكنت الكتيبة من الاستيلاء على كيتري فأنا لا أستطيع قول ذلك بكل دقة، ففي ذلك الوقت كان تركيز ذهني منصباً على أن أتبادل آخر الأحاديث مع الكثيرين الذين تذكرت أنهم صلوا معي قبل ساعات فقط. في المقر الرئيس للفوج في بلدة أيسولجي، امتلأت الأرض خارج المركز الطبي بالجنود الذين يعانون من الجروح وقضمة الصقيع. كان من المستحيل مساعدة هذا العدد الكبير من الضحايا، ومعظمهم تركوا خارجاً، معرضين لرحمة الطبيعة، في درجات حرارة تقل كثيراً عن 35 درجة مئوية[1]. وكان إخلاء معظم الجرحى أمراً غير وارد. كان هناك ببساطة الكثير. كانت خيول العربات قد ماتت منذ زمن بعيد، أو تم ذبحها من أجل الطعام، وتجمدت محركات الشاحنات. وأولئك الذين أجريت لهم عمليات أو بترت أطرافهم أو تمَّ إصلاحها، وكانوا محظوظين بما فيه الكفاية لينالوا رحلة العودة، اضطروا لأن يتكوموا

1- بلغت أقل درجة حرارة سجلت على الإطلاق من قبل Wehrmacht الجيش الألماني في بلدة رزيف، غرب موسكو، في كانون الثاني 1942: 52 درجة مئوية تحت الصفر (63- درجة فهرنهايت).

على ظهر الزلاجات المفتوحة أو العربات على طول الطريق إلى محطة السكك الحديدية الرئيسية في بلدة كالوغا. مات كثير منهم أثناء عملية النقل. والبعض الآخر، حتى أولئك الذين لم يصابوا بجروح خطيرة والذين كان من الممكن إنقاذهم، أغلقوا أعينهم وناموا إلى الأبد. لم تكن لديهم إرادة الصبر. لا أستطيع أن أقول كم كان عدد الذين كانوا مستلقين هناك، متوفين ومتجمدين - فقد كان عددهم أكبر من أن يحصى. في ذلك اليوم، خسرنا على يد البرد الرهيب أكثر من الذي خسرناه في كل المعارك الشرسة للاستيلاء على مدينة تولا.

اليوم تبخرت الروح القتالية من فرقة المشاة الحادية والثلاثين الشجاعة. وبوصفها وحدة عسكرية، وبعد أن تحطم عمودها الفقري، لم تعد موجودة كقوة مقاتلة. لكن الروس أيضاً لم يعد لديهم الطاقة للاستمرار. وبعيون نصف مستيقظة، كانوا يحدقون في المجموعات الصغيرة من الناجين الألمان المتعثرين أمامهم، على بعد أقل من 100 متر من مواقعهم الخاصة. لم يعد هؤلاء أيضاً لديهم القوة لمواجهة تراجع عدوهم[1]. قبل منتصف الليل، في 5 كانون الأول، كان على قائد الفرقة الحادية والثلاثين، الميجر جنرال برتهولد، أن يصدر أوامره إلى فوجي المشاة 17 و82 بالانسحاب بأقصى سرعة إلى مواضعهم التي غادروها، أو مواجهة الموت بواسطة هجوم روسي كبير مضاد كان يتشكل على طول جبهة موسكو، وأبلغهم أنهم لا يستطيعون الاعتماد على الدعم الجوي أو المدفعية. سيكون عليهم العودة إلى الوراء. وهذا ما فعلوه.

ذهبت كل تضحياتهم سدى. بعد أن تعثرت الوحدة الأخيرة في موقع دفاعي جديد، تم حساب الأعداد المتبقية. ما كان يشكل، فرقة قبل أربع وعشرين ساعة، تقلص إلى أقل من كتيبة. في أفواج المشاة 17 و82، كان متوسط القوة القتالية لكل فرقة ملازم أول واحد، و3 عرفاء و14 مقاتلاً، بدون ذخيرة، بدون طعام، وكذلك بدون ملابس شتوية. وأخيراً، فإن

1- من تقارير الخطوط الأمامية السوفييتية.

شخصاً ما كان في برلين نسي أن يهتم بالمقاتلين الألمان. شعر الناجون منهم بالخيبة والإحباط لأنه قد تم التخلي عنهم[1].

عند الفجر شنت الفرق الروسية هجوماً. في 6 كانون الأول 1941، قام مليون جندي يرتدون ملابس بيضاء، ويستقلون المئات من الدبابات من طراز *T-34* المطلية باللون الأبيض، باختراق الخطوط الألمانية. كان ستالين لوحده عندما سارع سكرتيره الشخصي، بوسكريبتشيف، إلى التلويح ببرقية. وصلتنا أخبار للتو تفيد بأن خطوط القوات الألمانية قد انهارت.

انحنى ستالين إلى الخلف في مقعده وأغمض عينيه.

وكانت التقارير التي وصلت إلى *OKW* (القيادة العليا الألمانية) تنذر بالخطر. أصبح من الواضح أن العدو كان يحوز على درجة عالية من التفوق الميداني ضد القوات الألمانية المنهكة، وأنه سيضغط على أي ميزة بأقصى قوة وبتجاهل تام للإصابات. وقد حافظ على هذا الزخم تركيز الدبابات القتالية وتدفق الأمواج البشرية من مشاة سيبيريا. ولم تكن الهجمات المضادة ممكنة، حيث كانت معظم الوحدات تتعرض للهجمات البرية والجوية الضخمة، في حين كانت الدبابات بلا وقود ولا قذائف. وبالتالي، كان اختراق العدو أمراً حتمياً، وواجهت جيوش كاملة خطر تقطيع أوصالها.

كان النقيب فون فاغنبرغ، حامل وسام الفارس الصليبي الحديدي للشجاعة، *Ritterkreuz* يقف منتصباً في برج دبابته البانزر. متدثراً بمعطفه المشمع. كانت وحدته بأكملها عالقة. وكانت المحركات متجمدة، وساكنة، ومتعطلة (*kaput*)[2]، خبط بقبضته في غضب عاجز على المعدن البارد لدبابته. وقال بسخرية: «أعظم عشرين يوماً للقوات المسلحة الألمانية *Deutsche Wehrmacht*: عشرون كيلومتراً عن

1- كان الجيش الرابع لوحده قد خسر 236,14 من أفراده بسبب قضمة الصقيع.

2- بالألمانية في النص. المترجم.

موسكو وليس عندنا وقود *sprit*». ومن أجل ماذا؟ من أجل الوطن والفوهرر *Führer und Vaterland*.

دوى صوت إطلاقة عبر الميدان حين كانت الثلوج تتكوم بجانب النقيب فاغنبرغ. وقد تجاهلها. أصابت الرصاصة التالية بدن الدبابة. وكان صوتها مثل الجرس، جرس جنازة. لم يسمع قط صوت الرصاصة الثالثة. ارتمى النقيب إلى الأمام، لقد أصابته في صدره.

باتت وصية هتلر لتنفيذ قدره الإلهي، تمثل المصير المأساوي للجيش الألماني.

الحقول البيضاء أمام موسكو كانت مليئة بالآلاف من أجزاء العربات المدمرة. أصبح الثلج أسودَ من آثار القذائف. قفز جنود يرتدون ملابس بيضاء من دبابة من طراز *T-34* يحفزهم نجاحهم وقربهم من الموت. انضم طاقم الدبابة لهم، وجوه يتصبب منها العرق وقد اسودت بسبب البارود. ملؤوا رئاتهم بالهواء البارد، وهم سعداء أنهم تخلصوا من رائحة دخان البنزين والكوردايت[1] المحروق. تجمد العرق على الفور على وجوههم، لكنهم كانوا يضحكون وهم يمسحونه عن وجوههم. أدخل أحدهم يده في جيبه وأخرج قطعة من النقانق السميكة. وقدمها لمن حوله وأخذ كل واحد منهم قضمة منها. أخرج آخر زجاجة. نظر إليها لفترة طويلة. وقال *Karasho gospodin*[2]: ممتازة يا سيدي - لم يكن يتحدث إلى شخص معين على وجه الخصوص- لقد احتفظت بها لمناسبة خاصة». لقد جعل البرد الفودكا ثخينة وتشبه الشجم، وتحرق البلعوم. ولكنها ذات طعم رائع.

لطالما كان للنصر طعم رائع.

استلقى جندي يرتدي بذلة رمادية، بفكه المتثاقل وعيونه الكابية، في

1- هي المادة الدافعة المستعملة في القذائف الصاروخية والمدافع والأسلحة النارية. المترجم.

2- بالروسية في الأصل. المترجم.

الخندق الحربي. وبجانبه، كان هناك شخص آخر وقد سحب معطفاً على رأسه، كلاهما كان ميتاً بدون أن تطلق عليهما رصاصة واحدة، لقد ماتا متجمدين. لن يشرب رقيب الدبابة وسائقه الشاب أبداً شراب الشنابس المسكر في قاعة الرقص في الكرملين.

أبطأت دبابة من طراز *T-34* من حركتها وتوقفت إلى جوار هيكل لدبابة ألمانية من طراز مارك الرابع. كانت هناك جثة ضابط متجمدة معلقة ببرجها. انتزع قائد الدبابة الروسية وسام فارس الصليب من عنق الألماني الميت ووضعه في جيبه. من بعيد وصل صوت رعيد المدافع الثقيلة. سرعان ما انطلق محرك دبابة من طراز *T-34* محدثاً دوياً ثم ابتلعته غمامة الثلوج الكثيفة التي كانت تدور فوق الطريق المؤدي بعيداً عن موسكو. «لقد فشل الهجوم على موسكو. لقد عانينا من نكسة شديدة»، تجرأ الجنرال غوديريان على قول هذا في 25 كانون الأول، أعفى هتلر أهم جنرال في اللواء المدرع في ألمانيا من منصبه في القيادة. في بداية الحرب، عندما كان الجنرالات الألمان يتابعون استراتيجيتهم الخاصة، انتصروا في كل معركة. ما إن تولى هتلر القيادة، حتى بات يضحي بالجنود الألمان من دون أن يحقق أي مكاسب على الإطلاق. كانت جيوش هتلر مبعثرة في القبور في جميع أنحاء روسيا.

أثبتت معركة الاستيلاء على موسكو أن هتلر كان دجالاً عديم الرحمة، وقد وقف الحظ إلى جانبه حتى ذلك الحين. وعند تفكيره في احتلال روسيا الشاسعة، لم يكن لدى هتلر ما يكفي من الرجال، ولا أسلحة كافية، وليس هناك ما يكفي من التخطيط المسبق. فشله خلال شتاء 1941 الكارثي تركه مع خيار واحد: السيطرة الكاملة، أو الهزيمة الكاملة. قرر هتلر أن يلعب لعبة الروليت الروسية ويقود العالم إلى حافة الدمار.

خمسة أيام في كانون الأول 1941 تستحق أفضل من أي لحظة أخرى أن توصف بأنها كانت نقطة التحول في أكثر الصراعات البشرية وحشية، الحرب العالمية الثانية.

في 6 كانون الأول، أطلق الجيش الأحمر العنان لشنّ هجوم على أبواب موسكو لوقف آلة الحرب الألمانية.

في 7 كانون الأول، هاجمت اليابان حليفة ألمانيا، الولايات المتحدة في بيرل هاربور.

في غضون ثلاثة أيام، لم يواجه هتلر فظائع حملة شتوية في روسيا فحسب، بل واجه أيضاً حرباً متعددة الجبهات مع العملاقين الاقتصاديين والعسكريين في العالم، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية.

كانت خطة بارباروسا تستند على افتراضين. أن الجيش الروسي سيقف عند حدوده، وأن النظام الحزبي السوفييتي كان ضخماً للغاية وضعيفاً مما يسمح لألمانيا بغزو روسيا قبل مجيء شهر تشرين الأول حين تصبح الأرض مليئة بالأوحال. لقد كان هتلر مخطئاً في الافتراضين. من المؤكد أنه لم يعوّل أبداً على الاضطرار إلى خوض حرب شتوية، وكان تأجيله لشن هجوم منسق على موسكو في أوائل آب بمثابة خطأ استراتيجي. وفي اللحظة التي فرض فيها رأيه على مستشاريه العسكريين ووضع الأهداف السياسية قبل الأهداف العسكرية الاستراتيجية، فإنه كان يتجه حتماً نحو الكارثة. لكن خطأه الأساس كان سياسياً. لقد استهان بقدرة ستالين على البقاء، وتجاهل عزم الأمة الروسية. لقد أطلق عليها الروس تسمية الحرب الوطنية العظمى.

لقد استنزفت المساحة الشاسعة والوقت والطبيعة قوة وحيوية المعتدي. فبغزوها روسيا، غزت ألمانيا بلداً ذا مناخ مختلف، وكان على جيوشها التعامل مع التغيرات الموسمية المفاجئة والعنيفة. كانت استراتيجية الحرب الخاطفة الألمانية معدلة بشكل سيئ للحفاظ على استمرار العملية، وفاجأت المصاعب في شتاء عام 1941 هتلر داعية النظام العالمي الجديد. عندما جاء فصل الشتاء، مع صقيعه القاتل، مات جنود ألمان من البرد القارس أكثر من الذين ماتوا جراء الرصاص

والحراب الروسية. ومع ذلك، قد يكون من الخطأ الافتراض أن هزيمة هتلر، الذي تجاوزت خسائرها كثيراً خسائر نابليون عند تقهقره من موسكو، كانت بسبب التغيرات في الطقس. فقد حققت ذلك التضحيات الروسية والرجال الروس والرصاص الروسي. وهذا لا يغير الاستنتاج أن ستة أسابيع من الطقس القاسي يمكن أن تحدث تغيراً في مسار أعظم المعارك في كل الأوقات. ولذلك كان دور الجنرال شتاء، الحليف الأبدي للأم المقدسة روسيا، لا يقدر بثمن.

يقولون إنه لا يمكن أن يحدث ذلك مرة أخرى. فالمقاتل المعاصر معزول عن البيئة بواسطة التكنولوجيا الحديثة. ومع ذلك فإن الطبيعة تضرب عندما لا يتوقعها أحد، وعندها تنهار التكنولوجيا، وتتحول الحرب الحديثة إلى صراع من أجل البقاء البدائي. إذن، فقط دروس الماضي يمكن أن تكون بمثابة مبادئ توجيهية للبقاء في المستقبل. إن درس 1941 لازال يحتفظ في وقتنا الحاضر بالأهمية ذاتها التي كان عليها في وقته.

تطورات جديدة غير متوقعة
6 حزيران 1944

تنهدات.. الكمان... المتواصلة في
الخريف...

• بول فرلان (1844-1896)، ورسالة راديو
بي بي سي (5 حزيران 1944)

كانت السماء تمطر، وهي منذ عدة أيام لا تتوقف عن المطر. كان جندي شاب ينظر إلى كابلات المناطيد المضادة للطائرات. «لماذا لا يقطعون الأسلاك ويجعلون الجزيرة الدموية تغرق!».

في تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم 4 حزيران، دخل المقدم جيمس ن. ستاغ، رئيس الأرصاد الجوية، في القوات الجوية الملكية، إلى الغرفة. وأدى التحية العسكرية على الجنرالات المجتمعين أمام خريطة جدارية كبيرة لأوروبا.

قال الرجل الذي يرتدي سترة قتالية خضراء داكنة: «تفضل أيها المقدم».

«سري للغاية»، فتح المقدم مجلد كتبت عليه عبارة «يا سادتي»، وقال: «أيها السادة هناك تطورات جديدة غير متوقعة...».

اكتشف مكتب الأرصاد الجوية وجود جبهة هوائية، تتحرك بسرعة نحو القناة الإنجليزية، في غضون الساعات القليلة القادمة. ومن المتوقع أن تقوم بتصفية الأجواء مؤقتاً في المنطقة التي يتم التخطيط لغزوها. كان من المتوقع أن يستمر هذا التحسن على الظروف الجوية الحالية طوال

الصباح الباكر من يوم السادس من حزيران. بعد ذلك، فإن من المتوقع أن يتدهور الطقس من جديد. ومن خلال «نافذة» الطقس الجيد هذه، كان من المتوقع حدوث انخفاض في سرعة الرياح وأن تكون السماء صافية.

«شكراً لك، أيها المقدم». أدى الضابط التحية العسكرية وغادر الغرفة.

سأل القائد الأعلى الرجال الستة المتجمعين حول الطاولة المغطاة بقماش البيز: «أيها السادة، ما هو رأيكم؟»[1].

«أنا من رأيي أن نشرع في المهمة!» تحدث الضابط الذي يرتدي سترة ذات ياقة عالية.

أما قائد القوة الجوية فكانت لديه تحفظات. «لتوفير الدعم الجوي الكافي، نحتاج إلى ضمان مطلق بأن السماء ستكون صافية».

كان الأمر منوط بالقائد الأعلى. وقراره سيحدد مصير الأمة. كان يحدق في النوافذ الزجاجية المليئة بالأمطار. لقد أجلها من قبل، ولكنه لا يستطيع تأجيلها مرة أخرى.

«أنا مقتنع بأنه يجب علينا إصدار الأمر بالهجوم. أنا لا أود ذلك، لكن ليس لدينا خيار آخر».

واستناداً إلى التنبؤات الجوية التي وعدت بتحسن الظروف الجوية، أصدر قائد القوات المسلحة دوايت ديفيد أيزنهاور أوامره إلى ثلاثة ملايين رجل للقيام بغزو عسكري كان الأضخم والأكثر طموحاً في تاريخ البشرية: عملية أوفرلورد[2]، ومهاجمة أوروبا المحصنة[3].

كان الطقس هو العامل الحاسم.

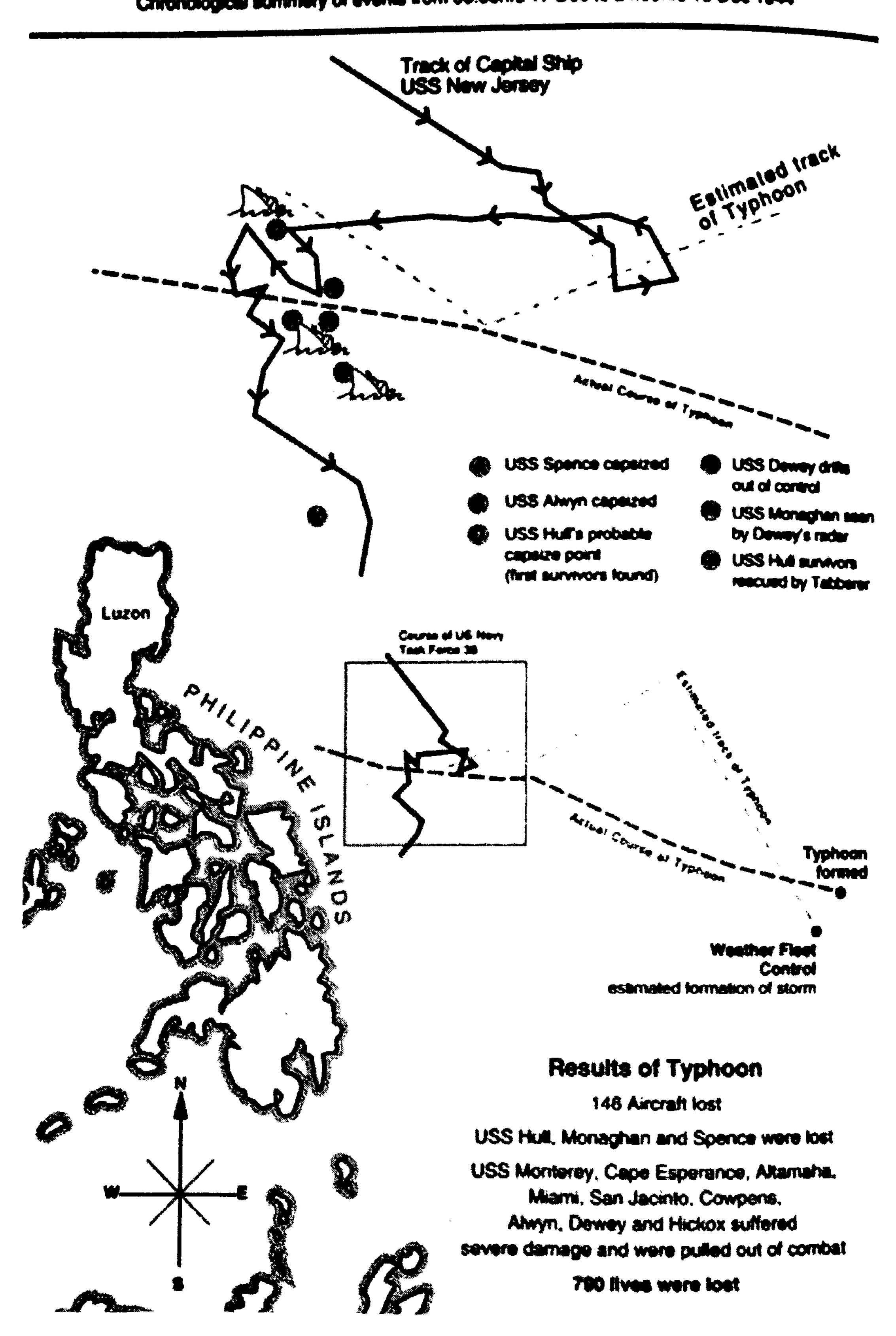
1- كان المجتمعون هم: اللفتنانت جنرال والتر بدل سميث، اير مارشال السير آرثر تيدر، الأدميرال السير بيرترام رامزي، المشير الجوي السير ترافورد لي مالوري، المشير السير بيرنارد مونتغمري، الجنرال عمر برادلي.

2- الاسم الكودي لغزو شمال غرب أوروبا في الحرب العالمية الثانية من قبل قوات الحلفاء. المترجم.

3- تعبير كان يطلق على الأراضي التي احتلتها ألمانيا النازية في أوروبا. المترجم.

US Navy task force 38, December 1944

Chronological summary of events from 00.00hrs 17 Dec to 24.00hrs 18 Dec 1944



من أجل أولئك الذين تحيط بهم الأخطار وسط البحر
18 كانون الأول 1944

يا أبانا يا خالداً أبد الدهر، أنت المقتدر والمخلّص
القادر على أن يصّد الموج المضطرب
في أعماق المحيط الجبار
ويمنعه من أن يتخطى حدوده
نتوجه إليك وندعوك.
أن تحفظ أبناءنا الذين تحيط بهم الأخطار وسط البحار.

• نشيد البحارة التقليدي.

كانوا وسط مياه العدو. الشمس عالية، وليس هناك نسمة هواء، والحرارة شديدة. تحت سطح السفينة كان الوضع أفضل. كان النوم مستحيلاً بالنسبة لأفراد طاقم السفينة، الذين كانوا يقضون جزءاً كبيراً من الليل على سطحها بعد انتهائهم من العمل. في داخل السفينة لم تكن هناك حياة ولا هواء. الحرارة خانقة، والحصول على الهواء عملية شاقة ووعرق أجسادهم أغرق مفارش الأسرة. كان الصوت الوحيد هو ضجيج المحركات الكبيرة واهتزازها المستمر وهي تدفع بالسفينة إلى الأمام.

كان على الكابتن ريمون كالهون، قائد المدمرة يو أس أس ديوي من

طراز فرغت التابعة للبحرية الأمريكية، التي يبلغ وزنها 2255 طناً، أن يقدم تقريراً إلى زوجته عن أول إصابة خطيرة على متن السفينة، وكانت ثقباً في حوض المرحاض، بعد أن أوقع السباك عن غير قصد مفتاحه الثقيل فيه لكن «بخلاف ذلك فإن الأمور هادئة». هادئة جداً ولمزيد من التأكيد كان يرتشف فنجاناً من القهوة البحرية عند منصة القيادة، كان ينتابه القلق؛ فقد أصبحت سفينته ثقيلة جداً بعد أن تم مؤخراً تثبيت مجموعة من الهوائيات وصواري الرادار فيها، وربما سيجعلها ذلك تتحرك ببطء في ظروف الطقس القاسية. لم يكن هو ولا زملاؤه من الضباط يمتلكون خبرة كبيرة في ما يجب عمله في حال حدوث عاصفة حقيقية. في واقع الأمر، كان عدد قليل جداً من القباطنة الأمريكان يعرفون ما هو الإعصار، عدا ما قرؤوه في كتاب مهارة جندي البحرية المعاصر للكاتب أوستن أم كنيت.

ومع ذلك، إذا كان هناك خطر حدوث عاصفة كبيرة، فسوف يطبق كالهون «قانون المغني»، كما كان قد أطلق عليه في أعقاب حديثه، قبل عامين، مع ضابط آخر في البحرية، يدعى واتسون سينغر، الذي شهد حدوث عاصفة في المحيط الهادئ وشرحها في عدة كلمات: «عندما ينزل مؤشر البارومتر 10 بوصة أو أكثر خلال الساعات الثلاث القادمة، هذا يعني أن الإعصار في طريقه إليك، ومن الأفضل لك أن تفلت بسرعة».

قال كالهون متأملاً، «تأكد أن هذا ما سأفعله»، وقد كان في هذا اليوم المشمس في منتصف كانون الأول 1944 يحدق مباشرة في البحر اللعين. «هذا بالضبط ما سأفعله». أفلت وأهرب بأقصى سرعة ممكنة. كان ذلك بالطبع، إذا كان يعمل من تلقاء نفسه. وكان مقتنعاً بأن الظروف الجوية السيئة لن تؤثر على سفينته إذا كان يبحر وسط الأسطول البحري. فستحجب السفن الحربية الضخمة الريح عن سفينته، وسيكون محمياً بشكل جيد من آثار أية «ضربة». لقد كان مثل كثير من البحارة الآخرين، لا يمتلك أدنى فكرة عن قوة الإعصار التدميرية.

انطلقت المدمرة ديوي مع مدمرة أخرى هي يو أس أس سبينس، جنباً

إلى جنب للانضمام إلى قوة المهام التابعة للبحرية الأمريكية رقم 38 (TF 38) بقيادة الأدميرال «بول» هالسي. وقد غادرتا ميناء بيرل هاربور في 25 تشرين الأول وأجريتا عملية تزود بالوقود استمرت فترة قصيرة في جزيرة إينيويتوك أتول. وعندما أصبحتا بالقرب من يوليثي، وهو ميناء في المياه العميقة قبالة جزيرة كارولين، كانوا قد تلقوا تحذيراً من أن هناك إعصاراً من الدرجة الثانية، ولكن تبين أن هذا إنذار كاذب.

تتألف قوة المهام الأمريكية 38، وهي قوة بحرية ضخمة تشكلت دعماً لعملية الإنزال التي قامت بها قوات الجيش الأمريكي بقيادة الجنرال دوغلاس ماك آرثر على جزيرة لوزون وهي من أكبر جزر الفلبين، من أربع مجموعات عمل منفصلة، تضم كل واحدة منها عدداً كبيراً من الناقلات الهجومية والبوارج. وكانت تحوي حوالي تسعين سفينة ضخمة، ويحيط بها طوق دفاعي من المدمرات. بحلول الصباح الباكر من يوم 17 كانون الأول، بدأ مقياس الضغط في الانخفاض وقررت قيادة الأسطول بدء عمليات تزويد السفن المرافقة لها بالوقود على الفور، بحيث يمكن لها اجتياز فترة الطقس السيئ بأمان.

تم استدعاء المدمرة يو أس أس سبينس، وكانت تحوي على الكمية الأقل من الوقود، إلى جانب السفينة الحربية الضخمة يو أس أس نيو جيرسي، وهي التي كان على متنها الأدميرال بول هالسي.

تتغذى الأعاصير على الهواء الساخن والرطب ومياه المحيطات الاستوائية. تحوّل مياه البحر المتبخرة الطاقة الحرارية إلى قوة عاصفة بمقاييس مرعبة للغاية. من بضع غيوم رقيقة يمكن أن تنمو الأعاصير وتكبر لتتحول إلى وحش عملاق يصدرعويلاً صاخباً، يصل قطر بعض الأعاصير إلى خمس مئة كيلومتر. تجلب معها دماراً لا مثيل له لا تستطيع صده التكنولوجيا العسكرية. ويكون كل شيء في البحر عرضة لتأثيرها، من سفن الجولات السياحية إلى السفن الحربية الضخمة، وفقط المحظوظون هم الذين يعيشون بعد انتهاء الإعصار ليروون

قصته. تحجب الأمطار الغزيرة الرؤية ما بين السفن. ربما تستطيع السفن الضخمة أن تنجو من العواصف الشديدة، لكن عليها أن تخمن مديات ارتفاع العاصفة والأمواج العملاقة التي تضرب جوانبها المصنوعة من صفائح الفولاذ وتجعلها متجعدة لتصبح مثل ورق الألومنيوم.

في منتصف كانون الأول 1944، تشكلت عاصفة في المياه المحصورة ما بين جزيرتي غوام ويوليثي، أسفرت عن العديد من الاضطرابات الاستوائية. تسارعت حركة السحب الدورانية وتحولت إلى كتلة هوائية كثيفة على طريق الدمار الذي لا يمكن وقفه. وبدأ وحش الطبيعة ينشط. كانت الكاميكازي، «الريح الإلهية»، في طريقها إلى الوصول، وكانت مماثلة لتلك التي كانت تحمي الجزر المقدسة في اليابان، وأغرقت أسطول إمبراطورية المنغول العظيمة في عام 1281.

كانت هناك 132 سفينة تابعة للأسطول الأمريكي الثالث، كان موقعها تقريباً عند خط عرض ′59 °14 شمالاً وخط طول ′08 °130 شرقاً، أو حوالي 300 ميل إلى الشرق من جزيرة لوزون في الفلبين، كانت تسير في مسار تصادمي مع واحد من أسوأ الأعاصير المسجلة في التاريخ.

كان القائد جورج ف. كوسكو في مركز الأرصاد الجوية على متن البارجة يو أس أس يتلقى التقارير من مواقع رصد في أرخبيل (مجموعة جزر) الأميرالية وجزيرة ليت، وكان يحصل كذلك باستمرار على معلومات من قبل طائرات الاستطلاع الجوي التي تحلق فوق جزرغوام أو سايبان أو بيليليو وغيرها من الجزر المرجانية في المحيط الهادئ التي تم احتلالها مؤخراً. أضف إلى ذلك مركز التنبؤات الجوية في الأسطول الموجود في ميناء بيرل هاربور الذي كان يقدم توقعاته الخاصة بالطقس أربع مرات يومياً. ثم يتم نقلها من المدمرة نيو جيرسي، إلى وحدات الأساطيل الأصغر التي كانت لا تمتلك وسيلة للتنبؤ بالاضطرابات سوى الحدس والحس السليم، بمساعدة وسائل بسيطة مثل البارومتر ومقياس الحرارة.

«لقد أتت هذه الرسالة للتو، يا سيدي». استل بحار قديم، كان يسافر على متن سفن الشحن في بحر الصين قبل الحرب، ورقة من جهاز التلغراف في مكتب الأرصاد الجوية وقام بتسليمها إلى الأدميرال ليقرأها: *من المتوقع أن يكون هناك منخفض جوي بعمق 998 مليبار*[1] *مصحوباً بعاصفة أو رياح شديدة عاتية.*

حتى لو استطاع من كان على المدمرة الحصول على استراحة، وتجنب الأسوأ، لا يزال هناك جحيم ينتظرهم جراء هيجان البحر. هز الأدميرال رأسه ونظر مستفسراً إلى ضابط مكتب الأرصاد الجوية.

«وما هو رأيك؟».

أجاب بصوت هادئ: «حسناً يا أدميرال، إذا كان هذا المنخفض سيئاً كما يقولون سيحصل، وسيضربنا، ثم ينتهي كل شيء وسوف يصبح سطح السفينة نظيفاً تماماً».

كان تقرير الطقس أسود مثل السماء. بدأ الطقس يزداد سوءاً. كانت موجات الأثير مليئة بتشويشات مزعجة وأصوات مرعبة. بعضها كان واضحاً تماماً، والبعض الآخر كان مجرد ضوضاء بعيدة. ولكن كان هناك شيء واحد واضح، من هاواي إلى هونغ كونغ، كان كل شخص ينوي الهروب يفعل ذلك كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. كان المنخفض يتحرك، ويتقدم بسرعة، ويتجه مباشرة إلى الموقع الذي كان موجوداً فيه الأسطول بأكمله. وإذا لم يغير المنخفض الجوي مساره، فإن الله وحده كان يعلم فقط ما يمكن أن يحدث.

... كان الأدميرال يواجه مأزقاً. هل ينبغي أن يحوّل مسار عملية الغزو بأكمله ويوجهها نحو دعم الأسطول، الذي يتألف من مئة سفينة وآلاف من الرجال، ويربك بذلك المسار المعقد للعملية والجدول الزمني التشغيلي المحدد بدقة؟ اعتمد الأولاد في البر على الدعم من القصف

1- وحدة لقياس مقدار الضغط الجوي الناشئ في مراكز وأطراف المنخفضات والمرتفعات الجوية. المترجم.

الذي يقوم به أسطوله الجوي. ارتبطت خيارات الهبوط بمستويات المد والجزر. هل يقوم بإلغائها؟ كل ذلك بسبب إشارة لاسلكي واحدة كانت تحذر من عاصفة؟ أو النجاة من دوامة قوية، كما كانت تشير إلى ذلك كل توقعات الطقس؟ من المؤكد أن الكثير من أفراد الطاقم والجنود سيصابون بدوار البحر الشديد، لكن هذه هي الحياة في البحر. لكن كلا، قرر الأدميرال هالسي عدم تغيير مسار عملية الغزو.

«يتحرك منخفض جوي بعمق 956 مليبار من حافة المحيط الهادئ ولا يزال يزداد عمقاً ويتوقع هبوب عاصفة عنيفة»... هكذا أشارت تقارير المتابعة في جهاز نقل البرقيات في مكتب الأرصاد الجوية.

لذلك، في الساعات التالية، لم يتحول مسار المنخفض الجوي. فقط علق هناك، مهدداً، ولكنه ثابت. أمام قمرة القيادة، كان البحر متقلباً، وسلسلة من الأمواج التي تحمل الرغوة تتدفق مع اتجاه نسيم الرياح. لكن بالتأكيد لم يكن هناك ما يدعو للقلق. (بالطبع، كانت السفينة الحربية مزودة بمنصة أكثر ثباتاً من تلك الموجودة في المدمرات الصغيرة، وهي تتمايل فوق الأمواج). ومع سرعة القافلة الحالية، فإن حاملات الطائرات وسفن التموين وناقلات القوات ومراقبيها العديدين، وتلك المدمرات المميتة والفرقاطات المضادة للغواصات سيكون لديها وقت كافٍ لتجاوز منطقة الخطر.

في وقت مبكر من يوم 17 كانون الأول، سجلت قراءة البارومتر[1] في المدمرة ديوي 29.70 درجة، مع رياح تصل إلى 20 عقدة، تبعد عنها حوالي 30 ميلاً إلى الشمال، أما على متن المدمرة نيوجيرسي، فقد كان البارومتر يقرأ 29.85 درجة مع رياح تصل إلى 25 عقدة. لم تكن الرياح التي تكون سرعتها خمسة وعشرين عقدة شيئاً مميزاً في منطقة المحيط الهادئ. في بعض المدمرات، ازداد وضع الوقود حرجاً. زادت الخزانات الفارغة من عدم استقرار السفن إلى حد كبير، لأنها تجعلها ترتفع عالياً

1- مقياس الضغط الجوي. المترجم.

فوق سطح الماء. وللتغلب على هذا العائق، قام القباطنة بملء خزانات الوقود الفارغة بمياه البحر، وهو إجراء لا يحبذه المهندسون كثيراً حيث يوجد هناك دائماً خطر تلوث مخزونات الوقود المتبقية.

عند الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق صباحاً، انخفض حجم الوقود في المدمرة يو أس أس سبينس، إلى 15 بالمئة فقط من طاقة خزاناته الاستيعابية. وكانت تلك هي المرة الأولى التي ترسو فيها بجوار المدمرة نيوجيرسي لتملأ خزاناتها بالوقود. تمَّ مد الخراطيم عبر المدمرة وبدأ التزود بالوقود. في هذه الأثناء، كانت الرياح تنشط إلى ما يصل إلى 45 عقدة وأصبحت العملية خطيرة تماماً. بسبب التمايل المستمر للمدمرة الصغيرة، كان هناك خطر حاد من الاصطدام. لم يكن التزود بالوقود على المدمرات الأخرى والسفن المرافقة أفضل من ذلك، وتم وقف العملية.

عند الساعة الثانية ظهراً، عندما تراجع مؤشر البارومتر إلى 29,58، درجة أبلغت شاشة المدمرة الخارجية قيادة فرقة مهام النقل السريع للأسطول الثالث TF38 أنها تعتقد أنها قد دخلت إلى الحافة الخارجية لإعصار استوائي. وبالاستناد إلى الجداول المتاحة في ذلك الوقت، تم حساب أن مركز العاصفة كان يبعد حوالي 250 ميلاً إلى الجنوب الغربي. كان هذا الحساب خاطئاً بشكل سيئ، لأن عين الإعصار كانت على بعد 120 ميلاً فقط.

«ما هي أحدث التوقعات؟» سأل «الأدميرال».

«إنها تتحرك أسرع من المتوقع، سيدي الأدميرال. بقوة 1,006 مليبار، وتهوي مثل الحجر».

«والاتجاه؟».

«بالتوازي تقريباً مع سفن فرقة المهام، يا سيدي».

«وماذا تقترحون؟».

«أن نتجه إلى الجنوب الغربي، يا سيدي».

«حسناً». التفت إلى مسؤول الاتصال. «أرسل إشارة لغلق جميع الفتحات وتأمين كل شيء فوق سطح السفن».

صدرت الأوامر إلى أطقم السفن لتأمين حبال الإنقاذ، وإزالة أي معدات عاطلة، وخزن الذخيرة الحية، مع اهتمام خاص بالرفوف التي تحوي قذائف الأعماق[1] القاتلة.

بعد ظهر يوم 17 كانون الأول، انحرفت العاصفة بشكل مفاجئ نحو الغرب. وإذا استمرت في هذا الاتجاه العام، فإنها ستقطع طريق الأسطول. لكن يمكن أن تكون الأعاصير غير منتظمة، فهي تغير مسارها باستمرار. سرعان ما كانت «هبة هواء» تتحول إلى نوبة عادية. انكب موظفو الأرصاد الجوية على متن السفينة الحربية يو أس أس نيو جيرسي على تفحص الخرائط والجداول الزمنية. لم تكن آخر الأخبار من مكتب الأرصاد الجوية المركزي مشجعة: قوة العاصفة كانت 940 مليبار، وهناك فرصة لتساقط الأمطار.

أصبحت السماء سوداء اللون بفعل الغيوم التي كانت تحوم فيها، وكانت تتمزق إلى قطع صغيرة بفعل الأضواء البنفسجية والبرتقالية مثل نيران تشتعل بعيداً في السماء. ذاب البحر في السواد. وفجأة، من خارج هذا السواد، كان هناك خط أبيض رقيق يظهر على الشاشة الخارجية للمدمرة، يمتد إلى أبعد ما يمكن للعين رؤيته، وكان البحر من خلفه مثل مرجل من الماء المغلي. كان البحارة على سطح السفينة يؤدون واجبهم، بعيون نصف مغلقة بسبب الرياح ورذاذ المطر المندفع نحوهم، كان الأمر جميلاً مثلما هو مخيف. من باطن السفينة جاءت أول ضوضاء غريبة حيث بدأت صفائح هيكل السفينة تنثني بسبب ضغط المياه.

أصبحت إمكانية الإبحار في عاصفة كاملة في البداية واضحة لأولئك

1- هي نوع من سلاح الحرب المضادة للغواصات. الغرض منها هو تدمير الغواصة من خلال إسقاط قذيفة الأعماق في الماء. المترجم.

الذين كانوا على متن السفن الصغيرة في واجب مراقبة الشاشة، التي تضربها الرياح العاتية. انخفض مؤشر البارومتر بشكل يثير القلق بمقدار 07 بوصة في خلال عشر دقائق. وفي غضون ساعة انتقل المقياس من 1,006 مليبار إلى أقل من 900 مليبار! كان ذلك جحيم حقيقي أعلى بكثير مما يمكن «لقانون المغني» الذي يدعو للهروب مجاراته. بدأت صافرات الإنذار تطلق أصواتاً عالية، وبدأ البحارة الذين كانوا يستريحون خارج أوقات العمل يتعثرون بالأراجيح الشبكية ويتشبثون بها، لتنقذ حياتهم، أو يسحبون أنفسهم إلى الأعلى نحو السلالم.

غمرت البحر سلسلة من الأمواج الشعواء، كان ارتفاع بعضها نحو عشرين قدماً. وكانت بالكاد ملحوظة على السفن الكبيرة، بالنظر إلى حجمها، فهي تمثل حاملات الطائرات الضخمة والسفن الحربية التابعة للأسطول الحربي الأمريكي في المحيط الهادئ. ولكي يكون على الجانب الآمن، أمر الأدميرال هالسي بإيقاف عمليات التزود بالوقود وإنشاء نقطة التقاء جديدة على بعد 160 ميلاً إلى الشمال في الصباح التالي. وبسبب الافتقار للوقود، كانت المدمرات سبينس، وهيكوكس، ومادوكس في وضع من الرسو غير المستقر، وتركت الشاشة الخارجية لتبقى في جانب السفن الكبيرة المحجوب عن الريح. كانت المدمرة سبينس، على وجه الخصوص، تتمايل وسط المياه؛ وأمر قائدها، الملازم جيمي أندريا، لوقف تمايل المدمرة أن يملأ خزان الوقود الخاص بها بالماء لجعلها صالحة للإبحار. وبغض النظر عن ارتفاع مخاطر تلوث إمدادات الوقود، فإن المدمرتين هيكوكس ومادوكس امتثلتا للأمر على الفور ومُلئتا خزاناتهما الفارغة بالماء. في هذه الأثناء، كان الطقس يزداد سوءاً مع مرور الوقت في حين قام قادة المدمرات بتفحص البارومترات بقلق. وأمروا بتغيير المسار لإبعاد قوة المهام عن مسار ما أصبح يُعرف الآن بأنه عاصفة استوائية كبرى.

راجع القائد كوسكو، مسؤول الأرصاد الجوية في المدمرة نيوجيرسي،

تقديراته لمركز العاصفة الذي كان أقرب كثيراً مما كان يعتقد في السابق... في غضون ساعة، تم تأكيد ذلك من قبل طائرة استطلاع جوي انطلقت من حاملة الطائرات البحرية شانديلور Chandeleur [1]، والتي حددت مركز العاصفة عند خط طول 13 درجة شمالاً، وخط عرض 132 درجة شرقاً، مع رياح تصل إلى 60 عقدة. ولأسباب غير مفهومة، لم يتم إرسال هذا التصحيح الجديد من السفينة نيو جيرسي إلى شاشة المدمرة. ولأغراض السلامة، اتصل القائد كوسكو بمجموعتين من فرقة المهام المتواجدة في مكان بعيد، وهما فريق الأدميرال ماكبين وفريق الأدميرال بوغان، اللذين أفادا أن المنخفض الجوي كان يتحرك باتجاه الشمال بسرعة 12 عقدة. نقل كوسكو هذه المعلومات إلى قائده، الأدميرال هالسي، لكن كان من الواضح في ذلك اليوم أن هالسي لم يدرك المدى الحقيقي لخطر الاقتراب. وهكذا، ودون إدراك للتغيرات السريعة في الطقس المتغير، فان 13 مدمرة[2] أعلنت أنها تعاني من نقص في الوقود بشكل خطير، وفي الساعة 05:00 من صباح يوم 18 كانون الأول، أمر الأدميرال هالسي مرة أخرى القافلة بخفض السرعة والشروع في عمليات إعادة التزود بالوقود. ولكن الأوان كان قد فات بالفعل، وكان هذا التأخير باهظ التكلفة.

في الساعة السادسة وست عشرة دقيقة صباحاً، صدرت الأوامر بتغيير المسار بمقدار ثلاثين درجة، مما جعل القافلة بأكملها في طريق الإعصار! لم يمض وقت طويل قبل أن ترسل سفن مرافقة أخف وزناً، وهي نينها باي، وكيب إسبيرانس، ورروديرد باي، تقارير تفيد بأنها قد ارتطمت بأمواج عالية. أمرهم الأدميرال هالسي بأن يقرروا هم المسار الذي يختارونه.

في الساعة الثامنة و18 دقيقة، أرسل الأدميرال هالسي رسالة إلى

1- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

2- وكانت أسماؤها يارنال وويدربورن وستوكهام وويليس وموورو تاوسيغ وكولهان وبوش وفرانكس وكاشينغ وومادوكس وسبينس وهيكوكس.

الجنرال دوغلاس ماك آرثر يخبره فيها بأنه لن يتمكن من ضرب أهداف برية في جزيرة لوزون خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. وفي الواقع، ستكون المدة أطول من ذلك بكثير... كان للبحر نظرة متوحشة: أمواج متكسرة تمتد إلى الأفق، والسماء كتلة داكنة تخترقها خطوط مائلة ذات لون برتقالي. اندفعت أولى العواصف الممطرة باتجاه نوافذ منصة القيادة. فيما كانت الرياح تعول من خلال اهتزاز الأسلاك. تزايدت ضربات الأمواج على هيكل السفينة مع مرور كل ثانية، وتغير ضجيج العاصفة إلى عواء شيطاني.

أصبح الأفق حينها كتلة سوداء تتلوى وهي تغلف السماء والبحر. تسارع اندفاع رغوة الأمواج نحو المدمرات. كانت العواصف الرعدية تضرب والسفن تتمايل. بات البحارة الذين كانوا أثناء الواجب، ويمارسون الأعمال الروتينية المخصصة لهم على سطح السفينة، والذين كانوا مسحورين قبل لحظات بالمنظر الرائع من حولهم، يلجؤون نحو الأبواب التي تؤدي إلى داخل السفينة مثل حفنة من الأرانب المذعورة. انزلق العديد منهم عبر سطح السفينة المنحدرة وبقي على سطح السفينة فقط أولئك الذين تمكنوا من التعلق بشيء ما، فيما اختفى الباقون في المياه المظلمة. أولئك الذين نجحوا في الوصول إلى فتحات الأبواب المؤدية إلى داخل السفينة كانوا يتمايلون في الداخل، نتيجة هبوب عاصفة هائلة من الرياح ورذاذ الموجات التي كانت تصطدم بجوانب السفينة. البرق، الذي كان يومض باستمرار، أضاء مشهداً غير عادي - كان هناك أسطول حربيٌّ ضخم يمخر عباب البحر وسط غضب الإعصار. ازداد هدير العاصفة. كان أولئك الذين على سطح السفينة مصدومين في سكون تام، وكانوا يتشبثون بأي دعامات أو سلم كان على مقربة منهم. وفجأة، كانت أولى موجات الوحش تلوح في الأفق بسبب زوبعة قوية من المطر والرذاذ.

كانت أرضية قمرة القيادة ترتفع وتنخفض وكان القبطان يترنح

وكأنه شخص مخمور على كرسيه الدوار المرتفع. في كل مكان، كان البحر يغلي بالرغوة البيضاء، كان زجاج نافذة قمرة القيادة تحجبه طبقة من الماء. ارتفعت السفينة وصعدت عالياً فوق الأمواج، ثم هبطت بعد ذلك، وغطست مقدمتها عميقاً في المياه.

كان وجه الأدميرال مجهداً ومرهقاً. كان يعلم أنه كان يحمل عبئاً ثقيلاً من المسؤولية.

«إلى ماذا تشير قراءات الجهاز؟».

«958 مليبار وزخات مطر تتساقط مثل الرصاص. يظهر مقياس شدة الريح قوة الرياح بين 50 و60 عقدة، وهي تخفي الكثير وراءها».

أصدر قبطان السفينة مونتيري أوامره «يجب تأمين جميع الفتحات، ودعم المرتخية منها»، رداً على إشارة تم تمريرها من سفينة القيادة. «دعونا نرَ ما إذا كان بإمكاننا تجاوزها». تحطم الصمت الذي كان مخيماً تحت سطح السفينة بسبب حدوث ثلاثة انفجارات جراء دوي العاصفة ووقع الرجال من أسرّتهم.

في 18 كانون الأول، كان على الأدميرال هالسي أن يقدم تقريراً إلى القاعدة البحرية في ميناء بيرل هاربور يشير فيه إلى أن فرقة المهام التي تعمل تحت إمرته على وشك أن تصبح وسط الإعصار، فمركزه الآن كما هو واضح على شاشة الرادار على بعد خمسة وثلاثين ميلاً فقط. بعد دقائق، ضربهم الإعصار! كانت الأمواج تتوالى الواحدة بعد الأخرى على الأسطول الحربي. لقد أصبحت القوة التدميرية للمنخفض الجوي الآن بدرجة 938 مليبار. اجتاحت العاصفة سطح السفينة، محدثة هديراً يهز البوابات المقفلة، وترتطم بألواحها المعدنية، فيما ازداد تفكك المدافع. بالنسبة إلى الرجال في قمرة القيادة، وكانوا معظمهم قد عاش وسط البحر لفترة كافية لفهم قوته، فقد تجاوزت قوة الإعصار أي شيء كانوا قد مروا به في أي وقت مضى على الإطلاق.

كان الدمار الذي لحق بالمدمرات هو الأسوأ، وتحطمت نوافذ غرفة

القيادة، واقتلعت الأبواب من مفاصلها. ولأجل إدارة دفة المدمرة كان يتعين الاستعانة باثنين من البحارة الأشداء. وفجأة، ظهرت سفينة أخرى على الجانب الآخر وأصبحت أمام المدمرة هال. «اسحبها إلى هنا!» صاح القبطان وسط تلاطم الأمواج. أدار البحاران دفة السفينة بحماس. ولكن كان قد فات الأوان. ومع صوت تمزق بدن المدمرة المعدني انحنت مقدمتها وتحطمت عند اصطدامها بمؤخرة سطح سفينة شقيقة. تعرضت كلا المدمرتين إلى إصابة ولكنها لم تكن قاتلة. أصبح عنبر البحارة الأمامي كتلة متشابكة من الفولاذ والأشرعة والصواري المدمرة، فيما كانت أمواج البحر تتلاطم فوقها. كانت السفن تتمايل متخبطة وسط البحار، وكانت لا تتسلق قمة الموجات العملاقة إلا لكي تنزلق على المنحدر الآخر. كانت المياه ترتفع داخل السفن، وسرعان ما دخلت المضخات الكهربائية التي تشفط المياه في معركة خاسرة. ترنحت المدمرة إثر هجمة موجة عملاقة أخرى. كان هناك صوت مكتوم شديد للمحركات يتردد صداه في غرفة عمود دوران المحركات. كانت المحركات تدور بشكل وحشي، وتنفث الهواء فوق قمم الأمواج! وعلى أثر هزة عنيفة وسريعة انغرزت السفينة في الماء. كان هناك صراخ وصوت كأن شخصاً ما كان يتمزق في الداخل.

«أرسل تقريراً إلى غرفة القيادة حول إجراءات الحد من الأضرار».

انغرزت مقدمة المدمرة في البحر وتسارعت المياه للدخول من خلال الثقوب في هيكلها. كانت المياه ترتفع بسرعة مقلقة في غرف المدمرة الأمامية.

«هل ستطفو مع هذا القدر من الماء؟».

«ربما - ما لم ينهَر أحد الحواجز».

«وبعد ذلك؟».

«ثم تنقسم إلى أجزاء صغيرة».

بالنسبة لأولئك الذي كانوا في غرفة القيادة في المدمرة موناغان، كان الطقس حينها قاسياً جداً، وكانت الأجواء من حولهم ضبابية لا يمكن

الرؤية من خلالها لدرجة أنهم لم يتمكنوا من الحصول على أدنى لمحة عن بقية الأسطول البحري الضخم. وحينما تمايلت المدمرة فوق قمة موجة هائلة شاهدوا فجأة، على بعد 100 ياردة فقط، أن البرج الرمادي للسفينة الحربية كان يتجه إليهم مباشرة.

«من الصعوبة تحويل الدفة إلى اليمين»، صاح ضابط غرفة القيادة. لقد انحرفت السفينة التي كانت عالقة في الأمواج ببطء شديد جداً بالنسبة لأولئك الذين كانوا يراقبونها. «اسحبها، لوجه الله، اسحبها...». ثم تبع ذلك ارتطام هائل، أعقبه صوت مزعج حينما اصطدم فولاذ المدمرة بفولاد السفينة الأخرى. وقع جميع البحارة الذين كانوا على ظهر السفينة.

«تقرير الضربة»، صاح القبطان، وهو يزحف إلى الوراء على أقدامه.

تبعه صمت طويل، حتى جاء صوت عبر جهاز الإرسال الداخلي: «تحطمت مقدمة المدمرة، لكن حواجز الغرف بقيت متماسكة». تنفس الجميع الصعداء. الحمد لله على مهارة الحرفيين الأمريكيين القدماء.

لم يكن لدى الرجال داخل السفينة أي فكرة عن قوة الرياح الحقيقية، فهم لم يكونوا بحارة، بل كانوا مجموعة من النجارين والمحاسبين وسائقي سيارات الأجرة والمزارعين، لبوا نداء حمل السلاح للدفاع عن بلدهم. لم يجربوا أبداً مواجهة عاصفة محيطية تزيد سرعتها عن 130 عقدة وأكثر، لذا لم يكونوا على علم بما يجري في الخارج. كان هذا أفظع شيء، كانوا يسمعون، ولا يرون، كونهم سجناء داخل تابوت فولاذي، غير قادرين على تقييم ما كان يحدث في الخارج. كانت حركة السفينة تبعث على الغثيان، مهما حاولوا التعلق بأمل بالحصول على الدعم، كانوا يشعرون باهتزاز السفينة داخل أجسامهم. غطى عويل الريح على أية أصوات أخرى، كما حدث مع الماء الذي يدق على ألواح هيكل السفينة الفولاذية. امتلأ بهو السفينة بالخوف ورائحة القيء النتنة.

بدأت تصل تقارير من السفن الكبيرة في القافلة تتحدث فيها عن مشاكلها. أولاً كان زورق السحب غيكاريلا لديه مشكلة في المحرك.

وكانت حاملة الطائرات إندبندنس تحمل على متنها رجلاً تائهاً، ونشب حريق في حاملة الطائرات «مونتيري» في منصة حظيرة الطائرات حين أقلعت إحدى الطائرات. ومع ذلك، ففي رسالة بعث بها إلى مقر قيادة أسطول المحيط الهادئ، لم يصنف الأدميرال هالسي ما حدث سوى أنه مجرد «اضطراب استوائي». بينما كانت حاملة الطائرات مونتيري تقلل من سرعتها وهي تكافح النيران. أدرك هالسي أخيراً أن ما يواجهه هو إعصار منتظم وأمر بالتحول إلى مسار جديد. في تلك الأثناء، كانت الرؤية منخفضة إلى حد الصفر، فيما غاص الجزء الأكبر من حاملة الطائرات مونتيري في الماء، مما يشكل تهديداً لأية سفينة أخرى. عند الساعة العاشرة ودقيقتين صباحاً، نفذت المدمرة نيوجيرسي مناورة قوية لتجنب التصادم مع حاملة طائرات مجهولة الهوية. في الساعة العاشرة وعشر دقائق صباحاً، صدمت المدمرة ديوي على الأغلب مدمرة أخرى. بعد دقيقتين، فقدت حاملات الطائرات ويسكونسن وميامي وبوسطن طائرات الاستطلاع الجوي ونشب حريق تحت سطح حاملة الطائرات يو أس أس كوبينز.

قبل الظهر بفترة قصيرة، أمر الأدميرال هالسي بإحداث تغيير جديد في مسار القافلة وأرسلت حاملة الطائرات كيب اسبيرانس برقية تفيد بنشوب حريق في منصة الإقلاع. وردت المزيد من الأنباء السيئة من حاملة الطائرات سان جاسينتو حيث انزلقت أربع طائرات مجهزة بالكامل بالوقود على سطح حظيرة الطائرات الخاصة بها، وهي على وشك الانفجار في أية لحظة.

انقطع الاتصال بين سفينة القيادة والوحدات المختلفة، وكذلك فيما بين السفن ذاتها. كان الأسطول الحربي يكافح بأكمله من أجل استعادة الاتصالات بأفضل ما يمكن وبقاء الجميع في مسار موحد، لكن هذا كان مستحيلاً. فقدت المدمرة ديوي القدرة على التحكم في دفة القيادة، وخلال ساعة، كان يقود السفينة العديد من البحارة من تحت سطح السفينة، والذين كانوا يستلمون إشاراتهم من غرفة القيادة من خلال أنبوب صوتي، ثم يضطرون إلى تسيير الدفة الثقيلة من خلال التحريك اليدوي! كان الأسطول

الحربي الأكثر حداثة الذي شهده العالم يعود إلى عصر السفينة الشراعية. تم إغلاق جميع الأبواب المانعة لتسرب الماء، وهذا من شأنه أن يمنع أي محاولة هروب سريع للرجال الذين كانوا تحت سطح السفينة. وفي نهاية المطاف، تمكن الميكانيكيون من إصلاح دفة القيادة في المدمرة ديوي، ولكن بعد ذلك توقف رادار السفينة عن العمل. مع مجال رؤية أقل من 300 ياردة، كان القبطان يقود سفينته كالأعمى على أمل أنه لا يوجد شيء أمامه. إلى أن رأى وحشاً في طريقه، إنها حاملة الطائرات مونتيري!

«الدفة اليسرى صعبة» صرخ القبطان. انحنت المدمرة، وتحطم كل شيء لم يكن مثبتاً بهيكل السفينة. لقد تمكنت للتو من المرور أسفل منصة الطيران التابعة لحاملة الطائرات التي كانت تلوح في الأفق قبل أن تنزلق في الدخان الأسود الناجم من النيران التي اشتعلت في حاملة الطائرات مونتيري. لا بد أن تكون تلك الحركة العنيفة قد كسرت عتلة في آلية التوجيه الخاصة بـالمدمرة ديوي *Dewey*، لأنها لم تعد تستجيب للدفة.

«نداء من أخيل أنا فاقد للسيطرة، أقوم بالعبور من خلال التشكيل من الجانب الأيمن إلى الأيسر». أصدر القبطان كالهون توجيهاته إلى القافلة: «ابتعد!». تحولت الرحلة في الدقائق التالية إلى كابوس بينما كانت المدمرة ديوي تتمايل من جانب إلى آخر عبر مسار دزينة من السفن.

«فجأة كانت تلوح في الأفق أمامنا كتلة سوداء. وحالما ارتفعنا عالياً بسبب الموج الذي اعترض طريقنا، بدا لي أننا سنذهب إلى أعلى قمته، ولكن عندما نزلنا إلى الأسفل، فإن باخرة نقل الوقود التي حملتها الموجة التالية على قمتها. أصبحت تعلو فوقنا الآن، كان من المستحيل مقاومة زخمها، بالإضافة إلى قوة الريح والبحر القادمة من خلفها، ... لم يكن يبدو أن من الممكن أن نتجنبها، أو أسوأ من ذلك، أن نتعرض لضربة من واحدة من تلك السفن الضخمة»[1].

كان مؤشر البارومتر عند درجة 28. 84 وكان ينزل بقوة شديدة! في

1- راجع: Captain C. R. Calhoun in Typhoon: The Other Enemy.

تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً، وصل إلى 28. 10 وبلغت سرعة الرياح أكثر من 125 عقدة. وكانت المدمرة ديوي قد اتخذت الاحتياطات اللازمة لملء خزانات الوقود المستنفدة بمياه البحر بحيث تسير السفينة بشكل منخفض في المياه، وما زال ميلانها بعيداً عن علامة الخطر البالغة 60 درجة. كان القبطان كالهون يعرف أن 70 درجة هي الحد الأقصى المطلق، قبل أن تغوص. في أسوأ وقت ممكن، توقفت جميع أجهزة السيطرة في غرفة القيادة عن العمل. وقبل أن يتوقف جهاز الرادار بلحظات، كان قد لاحظ وجود إشارة ضوئية على بعد حوالي 5000 ياردة. اعتقد قبطان المدمرة ديوي أن هذه هي المدمرة موناغان، حيث كان قائدها، بروس غاريت، قد أرسل قبل دقائق فقط برقية تفيد أنه فقد السيطرة، حيث غمرتها الأمواج الهائلة.

بدأت الأمواج تضرب بقوة شديدة، وسرعان ما أصبح ميلان المدمرة ديوي عند 70 درجة! ثم ارتفع إلى 75 درجة!! وصلى الجميع، من القبطان ونزولاً: «يا ربنا ندعوك أن تنقذها!» وكان لهم ما أرادوا، ولكن بعد أن تحطم جزء من مكونات السفينة فوق السطح. كان الجميع مقتنعاً بأنهم سينزلون إلى القاع، وسأل «بوتسوان ميلر» القبطان «كالهون»: «هل سنترك السفينة؟» ورد عليه كالهون قائلاً: «ليس إن استطعت المساعدة. طالما أن ديوي لم تتخلَ عنا، فلن نتخلى عنها». وما إن قال ذلك، حتى جاءت موجة جعلت السفينة تميل، وفلتت الأحمال التي في العمق وتدحرجت إلى الخارج، ولحسن الحظ دون أن تضرب أشياء تنفجر. استمرت محنتهم: تمزقت دعامات الصواري، ووقعت على سطح السفينة، وتهشمت المدخنة الأمامية وسقطت، وتحطمت قوارب النجاة، وتمزق أنبوب البخار الموصل بغرفة الإطفاء. تسرب البخار الساخن مطلقاً صوتاً شديداً. ربما كانت المدخنة المنهارة هي التي أنقذت المدمرة ديوي، لأنه بعد سقوطها مباشرة تناقص تمايل السفينة. ومع هذا لا يزالون يغرقون في المحيط المجنون وكانوا مثل ألعوبة

يتسلى بها عملاق. كانت قوة ارتطام العواصف تضرب على فترات غير منتظمة. كانت الحواجز تصدر صريراً خطيراً، ولكن بقيت ثابتة في مكانها. اختفت هوائيات الإرسال وأجهزة الاستقبال، وأنابيب التهوية، والمداخن. ومع ذلك، ورغم كل هذا الدمار، سادت روح «القدرة على التغلب على المصاعب» وسط كل تلك الفوضى.

وكان الوضع على متن المدمرات الأخرى أسوأ من ذلك، فكل موجة هائجة كانت تميل السفن إلى حد ينذر بالخطر. وقف بيل روجرز ورجاله على سطح المدمرة ألوين متمسكين بالبقاء فيها حتى النهاية، وعاشوا فيها، على الرغم من أن صاري المدمرة تحطم وأحدث سقوطه حفرة عميقة في السفينة.

فقدت المدمرة هيكوكس كل قوتها عند الساعة 10:30 صباحاً، بعد قيامها بمناورة مفاجئة لتجنب الاصطدام مع سفينة أخرى، وبدأت تغرق وسط غور عميق. وبعد كفاح امتد لساعات، تمكنت أخيراً من المرور.

لم يكن الأمر كذلك مع المدمرة هال. في الساعة العاشرة والنصف من صباح ذلك اليوم، ضربتها عاصفة تبلغ قوتها قرابة 200 عقدة. غطى عويل العاصفة على أي صوت آخر، وأغرقت مياه البحر غرفة الإطفاء حيث دخلت من خلال فتحات التهوية. في غرفة المحركات، سمعوا صوتاً عنيفاً كأنه صوت انفجار، عندما بدأت المشابك التي تحت أقدامهم تترنح فجأة، بسبب صوت الماء المندفع بقوة ليملأ المقصورة. كان الميكانيكيون مستلقين وهم باسطون أذرعتهم وأقدامهم على مشبك معدني، وقد تخدرت حواسهم بسبب صوت الأمواج التي تخبط السفينة، صوت ممل مزق أجزاء السفينة. شعروا أن السفينة بدأت تنزلق من تحتهم. برقت عدة أضواء، ثم انطفأت. صاح أحدهم: «إنها أضواء الطوارئ». أصيب وقّاد السفينة بجرح خطير في رأسه، وبدأت قطرات الدم تتساقط على الصفائح المعدنية. ثم زحف على ركبتيه للوصول إلى سلم معدني عمودي. بدأ يتسلقه بجنون، تبعه كل أولئك الذين لا يزالون

يستطيعون التحرك. كانوا غافلين عن أي شيء إلا الفرار. اصطدم تيار شديد من الماء ببعضهم وجرفهم من السلم. ثم جاءت أضواء الطوارئ. من خلفهم، من خلفهم كان هناك صرير أبواب. ضرب أحد البحارة بعنف الباب الأخير من أبواب القبو وانفتح الباب. وهرع الجميع عبر الممر الضيق والداكن، محدثين ضجة قوية في الأرفف والأنابيب.

في الأعلى في غرف المعيشة لم يكن الأمر مختلفاً كثيراً. كان هناك أنين، وصراخ، وتحطم المعدات جعل أجزاءها تتناثر في الأرجاء وتصطدم بالجدران. كان هناك هاتف يتدلى من سلكه. تحطمت مضخات ثقيلة داخل أماكن النوم، هوت على البحارة، سحقتهم وشوّهتهم خلال رحلتهم في أرجاء السفينة. فقد الرجال قدرتهم على المشي وزحفوا للأمام على اليدين والركبتين. جعلتهم موجة أخرى يرتدون إلى الخلف، وأمسك بعضهم بالبعض الآخر من الأرجل والأحزمة إلى أن يصلوا إلى السلالم لكي يتسلقوها. ووصلوا إلى بهو السفينة فوجدوه غارقاً في المياه إلى حد الركب، واعتماداً على الجهة التي كانت تميل إليها السفينة، فإن الماء كان يعلو فوق الطاولات. لم يكن هناك أي طريق من خلال البهو، فقد تكوم عند بابه مزيج من الأثاث الممزق وأكياس الطحين المشبعة بالماء.

نجح البعض في الصعود إلى سطح السفينة. ثم وقعت الدراما، مالت المدمرة جانباً وبقيت على هذا النحو. وقد تهشمت معدات الإجلاء الخاصة بحالات الطوارئ بواسطة الحطام المتساقط. لم يكن هناك أي داع لركوب القوارب، لأن ذلك قد يرقى إلى مستوى الانتحار. وبينما كانت القوارب لا تزال تتدلى من الرافعات، فإنها تهشمت عندما اصطدمت بجوانب السفينة الفولاذية. بقي القبطان جيم ماركس في ممشى غرفة القيادة، منتصباً مثل شاهد القبر، ويراقب طاقمه، ويتأكد من أن الجميع كانوا يرتدون سترة نجاة. اندفعت موجة عاتية وهادرة وجرفت كل من كان على سطح السفينة دون حبل نجاة، تبعتها موجة

أخرى، قبل انقلاب السفينة قفز جيم ماركس في البحر. أولئك الذين تمكنوا من الفرار تشبثوا بأي قطعة من الحطام يمكنهم العثور عليها. لكن معظمهم كانوا محاصرين تحت سطح السفينة ولم ينجحوا في الخروج منها أبداً. من بين 263 ضابطاً وجندياً كانوا على متن المدمرة هال، من أولئك الذين عانوا ليلة أخرى من الرعب على العوامات في البحر المفتوح، تم إنقاذ 41 فرداً.

لا بد أن يكون بروس غاريت، ربان المدمرة موناغان، قد تعرض لمصير مشابه. تعطلت محرّكات التوجيه فيها وبدأت تزأر بشدة، وتُركت تحت رحمة البحر. كانت السفينة تتمايل وتصدر صريراً. طار مقود القيادة عالياً في الهواء. أما طواقم الطوارئ، المربوطة بحبال الأمان إلى السلالم، بحيث لا يتم جرفها عن ظهر السفينة، ركبت الحبال إلى مستوى الورك بين الدعامات والبوابات لاستخدامها كحبال نجاة. في كل مكان من حولهم كانت أجزاء السفينة التي فوق السطح ملتفة وملتوية، وتم حجب سلالم السفينة بواسطة الحطام. وسمع هناك صوت تمزق آخر عندما انهار أحد الحواجز.

كان مجموعة من الرجال يرتدون سترات النجاة البرتقالية متخفين وراء حجرة مدير الدفة بحثاً عن أمان مخادع، كان كل واحد منهم يدعو صامتاً: «يا رب، أرسل علينا رحمتك لإيقاف البحر الصاخب»... بدأت تنجرف صفائح كبيرة من الخشب الأخضر الداكن من بداية السفينة إلى المؤخرة، وتصطدم عند هيكل غرفة القيادة بقوة مدمرة. كانت السفينة تتسلق أحد جوانب الموجة لتهوي في الحضيض مع خبط وحشي بلا رادع لمراوحها التي تخفق بقوة لتفسح لها ممراً في الماء. تمايلت السفينة مرة أخرى بشكل يثير الغثيان، ويبدو أنها كانت معجزة أنها في كل مرة تنجح من جديد.

وفي الأسفل عند غرفة المحرك، رفض رئيس الميكانيكيين الاستسلام للخوف. أطفأ التوربينات التي كانت تدور بشكل وحشي عندما ضربه سيل جارف من الماء ودفعه إلى جانب السفينة، ثم مات وحيداً.

لم تصل تقارير جديدة، ولا نداء للمساعدة، ولم يبقَ أي ضابط على قيد الحياة إثر فاجعة المدمرة موناغان. وصف مكراين أحد الناجين الستة، ما حصل قائلاً: «ما عرفناه فيما بعد أننا كنا سوية، واندفعنا إلى الخارج، أما أولئك الذين قفزوا في البحر فقد دفعتهم الأمواج بقوة ليرتطموا بشدة بأحد جوانب السفينة - عندها طرت أنا في الهواء. وسمعت زميلي غيو يقول: «مهلاً، جو، التقط طوافة النجاة تلك»[1] ثم استدارت الطوافة وكان علينا انتشال الجميع. توفي غولو في وقت لاحق على متن تلك الطوافة ودفناه في البحر.

في حوالي الساعة 11:00. صباحاً انقلبت المدمرة سبنس، تصاعدت موجة هائلة ثم تكورت واجتاحت سطح السفينة. عندما تلاشت الموجة، اختفت السفينة أيضاً. لقد حدث الأمر بشكل مفاجئ للغاية ولم ينج سوى أربعة وعشرين شخصاً فقط.

عند منتصف نهار يوم 19 كانون الأول، حصل الأشخاص المتعبون والمرضى الذين كانوا في داخل السفينة، على الشيء الذي يريح رؤوسهم وهو الإحساس بالسكون. وقد تراجعت الضوضاء إلى أن تلاشت على شكل همهمة بعيدة. ما كان كابوساً صاخباً تحول الآن إلى سكون وهدوء. كانت الأشياء الوحيدة التي أبقتهم على قيد الحياة هي الملابس الجافة والحساء الساخن. كان الناجون يتحركون بصعوبة على سطح السفينة وسط مشاعر من الحيرة والاغتراب. وكان ضوء الشمس الساطع يقتحم مقل عيونهم. وكانوا مصدومين، كأنهم يحدقون في كابوس، ولا يرون سوى ما كان أمامهم مباشرة، كأنه مشهد من ساحة المعركة. كان هناك ثقب كبير في سطح السفينة عند موضع المدفع الأمامي، وكانت هناك رافعة فقدت دعامتها، وتدلى ذراعها على شكل زاوية وهو يترنح في الهواء. ارتطمت قطع منبعجة من أجزاء سطح السفينة، بجوانب خزانات الذخيرة. كانت تطفو فوق الماء صناديق، وبالات تحوي أشياء

1- زميل السلاح جوزيف غويو.

متنوعة، وسترات النجاة البرتقالية اللون. ثم اختفت. كان هناك الكثير من الأمواج ومن السفن البحرية المتضررة. تناثرت في المحيط قطع الأسطول الحربي التي تكبدت خسائر فظيعة.

انطلقت بسرعة الرياح التي كان اليابانيون يطلقون عليها اسم كاميكازي - الريح الإلهية -، كانت أكثر عنفاً وتدميراً من أي شيء يمكن أن يتصوره أي إنسان. ومن عاشوا تلك اللحظات حكوا لأطفالهم وأحبائهم عن اليوم المرعب الذي عاشوه.

في 19 كانون الأول 1944، وفي الساعة 09:22 صباحاً، أرسل قائد الأسطول الثالث، الأدميرال هالسي، برقية غاية في السرية إلى قيادة أسطول المحيط الهادئ في بيرل هاربور:

كان مركز الإعصار يتحرك على بعد ثلاثين ميلاً عن السفينة التي ترشد الأسطول عند منتصف اليوم الثامن عشر من هذا الشهر، تعرض الأسطول إلى ضربة شديدة أشار التقرير الوارد من السفينة تابرير إلى أن المدمرة هال قد انقلبت بعد إرسالها إشارة تحذيرية قصيرة عند الساعة العاشرة والنصف... نجا فقط عشرة مجندين. لا يزال هناك عدد لا يحصى من التائهين.

ممن لايعرف شيئاً عنهم تقوم السفينة ماتاكو بسحب المدمرة المعطلة إلى جزيرة يوليثي. تم إرسال السفن مونتيري وكاوبنيس وسان جوسينتو وجيكاريلا إلى جزيرة يوليثي لغرض تصليحها، أما السفن دايسون ولوس وبينهام وهيكوكس وألوين وديوي وتابرير فقد تعرضت إلى أضرار مختلفة وستنضم إلى السفن المعطلة.

لم يكن الأدميرال يعلم حتى ذلك الحين بفقدان المدمرتين مونوغان وسبينس، أما الوحدات الرئيسية التي تطلّب الأمر إجراء تصليحات طارئة عليها فقد كانت حاملات الطائرات كاوبن، وكابوت، وليكسينغتون، وتيكونديروجا، وإسكس، ولانجلي، والبارجة أيوا. وسيتم فقدان هذه الوحدات الرئيسية في معركة الفلبين القادمة.

ما فشلت أسراب الطائرات الانتحارية اليابانية (الكاميكازي) في تحقيقه، تمكنت الريح المقدسة من إنجازه. منحت هذه الحقيقة قوة دفع هائلة لمعنويات المقاتلين اليابانيين. كانوا يعتقدون، كما حدث قبل سبعة قرون، أن الرياح الإلهية قد أنقذت بلادهم من الغزو.

بعد التحقيق الذي أجراه مجلس البحرية الأمريكي في مأساة بحر الفلبين، وقع الأدميرال «بول» هالسي على بيان[1]، اختتمه بالتالي:

لا أرغب في تجنب مسؤوليتي في هذه الظروف. ومع ذلك، أود أيضاً أن أذكر بشكل لا لبس فيه أنه في كل من كانون الأول 1944، وحزيران 1945، لم تقدم خدمات الإنذار بالأعاصير الجوية معلومات دقيقة وفي الوقت المناسب والتي كانت ضرورية لتمكيني من اتخاذ إجراءات تجنب تلك الظروف في الوقت المناسب. وبسبب هذا التقصير أطلب إعفائي من المسؤولية.

دبليو. ف. هالسي

كان هناك تعديل أصدره قائد البحرية الأمريكية، الأدميرال كينغ، مصدقاً وموافقاً عليه من قبل وزير البحرية[2].

أنا أرى أن إجراءات ونتائج وتوصيات محاكم التحقيق والسلطة الممنوحة لا يمكن تعديلها بأي شكل من الأشكال، وأن المسؤولية الأساسية عن الأضرار والخسائر الناجمة عن العواصف... تقع على عاتق قائد الأسطول الثالث، الأدميرال ويليام ف. هالسي.

اي. ج. كنغ

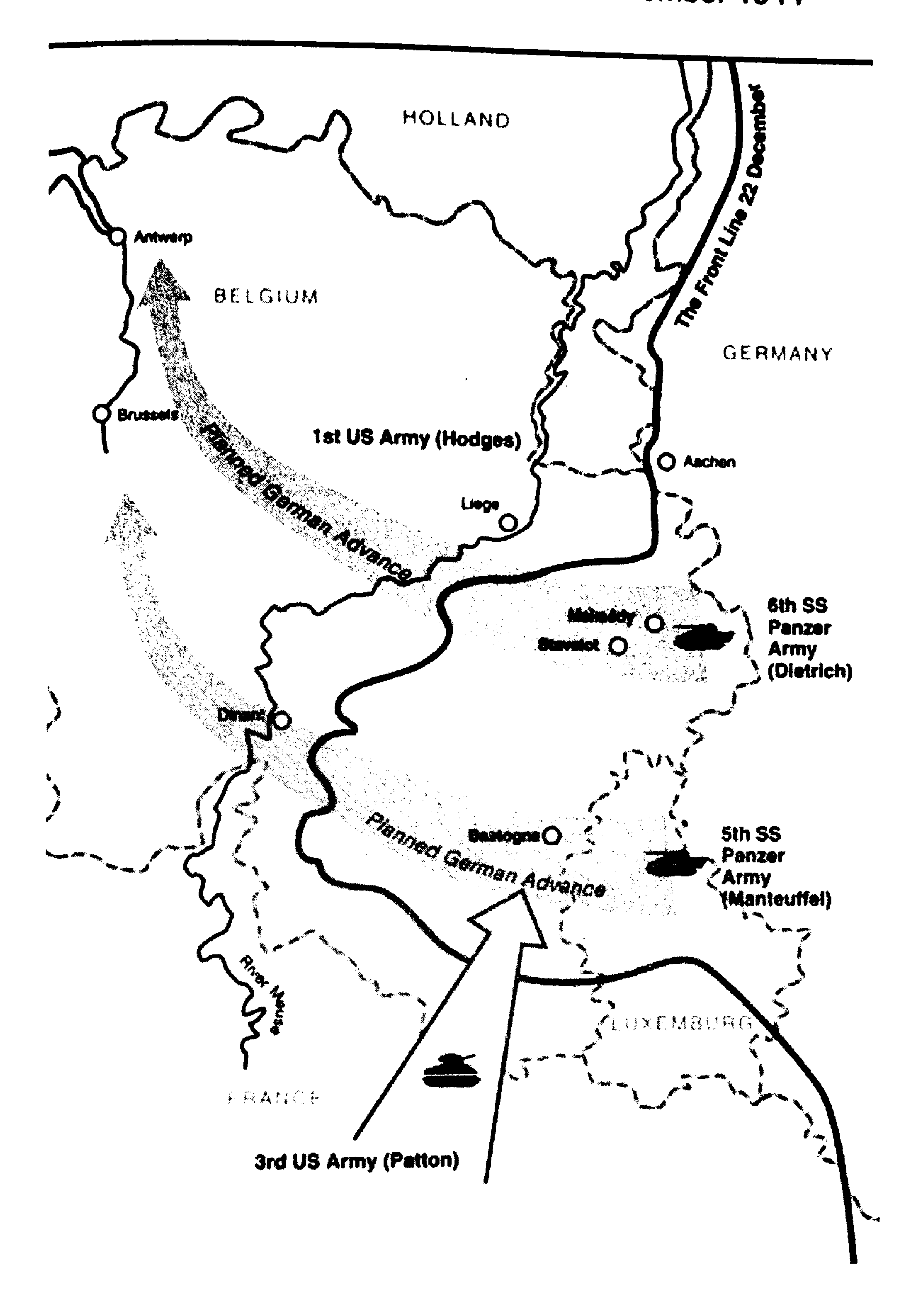
خسر 790 فرداً من البحارة الأمريكيين حياتهم.

أما أولئك الذين نجوا من الإعصار فنظروا إلى الأمر على أنه معجزة.

1- موافقة البحرية رقم 12 بتاريخ 29 أيلول 1945.

2- موافقة البحرية رقم 14 بتاريخ 23 تشرين الثاني 1945.

Battle of the Bulge, situation at 22 December 1944



طوفان من النار
24 كانون الأول 1944

أيها الأب القادر الرحيم، إننا نتضرع
إليك بعظيم فضلك، أن توقف هذه
الأمطار الغزيرة التي اضطررنا لمواجهتها.
امنحنا طقساً صاحياً من أجل المعركة.

• قسيس الجيش الأمريكي جيمس أونيل،
من «دعاء الجنرال باتون».
22 كانون الأول 1944.

«لم يتبق سوى تسعة أيام فقط لعيد الميلاد، والعد مستمر»، هتف ديفيس جيمس وهو مظلي شاب في الجيش الأمريكي يحمل الرقم المتسلسل EM 37554T43-44 من حي برونكس في مدينة نيويورك.

«بحلول عيد الميلاد، سنكون في المنزل»، أجابه زميله، جون د. فورد، الذي يحمل الرقم 016332T43-44، وهو جندي في فرقة السلاح المجوقل الأمريكية 101، قبل دقائق من صعودهم على متن شاحنة، حدث ذلك في يوم السادس عشر من كانون الأول 1944.

«أراهن أنهم سيجعلوننا نقوم بإنزال في برلين».

لم يكونوا متوجهين إلى برلين، بل إلى مكان ذي منظر ثلجي لم يسمعوا به قط، باستون وهي بلدة صغيرة تقع عند سلسلة جبال أردين[1]

1- وهي منطقة غابات تقع بين بلجيكا ولوكسمبورغ وفرنسا. المترجم.

قتل الجندي جيمس في 20 كانون الأول، أما صديقه جوني فقد قتل بعد يوم واحد.

في الثامن عشر من كانون الأول 1944.

كان الليفتنانت كولونيل (*Obersturmbannfuehrer*)[1] يواكيم يوخين بيبر، وهو في التاسعة والعشرين من العمر من أصغر القادة الميدانيين في فرقة النخبة الألمانية (*Kampfgruppe*) الحرس الشخصي لهتلر التابعة لمنظمة الأس أس(Waffen SS) الجناح العسكري للحزب النازي يسابق جميع الوحدات الأخرى المهاجمة من فوج الحرس الخاص لهتلر(*SS Leibstandarte Adolf Hitler Division*) كان الهدف هو السيطرة على خطوط السكك الحديدية والجسور المقامة على نهر الميز...

خاطبه أحدهم قائلاً: «ليفتنانت كولونيل لا بد أن تكون الجسور الحجرية التي أمامنا ملغمة».

صاح بيبر: «لتذهب إلى الجحيم، سوف نتوجه إليها!» وهو متأكد من أن النصر في قبضته. وقد تم اختيار رجاله خصيصاً لهذه المهمة، وجميعهم من ذوي الخبرة في القتال القريب. فالدبابات التي كانت بحوزته، هي من أفضل ما أمكن لألمانيا أن تنتجه، فهي تسحق الأسوار وتشق طريقها من خلال جدران الطوب. ولقد انتهى بهم المطاف في السوق المهجور «Place du Marché»[2] في بلدة ريفية صغيرة. وقد كان ذلك هو المكان الذي فتحت فيه قاذفة الصواريخ الأمريكية البازوكا التابعة لكتيبة الجيش الأمريكي تحت قيادة الرائد سوليس نيرانها كانت تسبب من الضوضاء أكثر مما تسببه من الأذى. كان سائق إحدى الدبابات من طراز تايغر *Tiger II* [3] مرتبك للغاية بسبب الدوي الذي يتردد داخل

1- بالألمانية في الأصل.. المترجم.

2- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

3- أحدث نسخة من دبابة القتال الرئيسية الألمانية، بانزر 6، أو تايغر 2. كانت أقوى مما كل ما تمتلكه قوات الحلفاء.

بدن مركبته الفولاذي لدرجة أنه فقد السيطرة ودخل في أحد المنازل. سقط المبنى بأكمله على الدبابة. تراجعت الدبابة التي يبلغ وزنها 60 طناً، وهي مغطاة بالغبار والطوب. اندفعت دبابة أخرى إلى الأمام وهرست وحدة البازوكا تحت عجلاتها. تعالت أصوات إطلاق النار من المدافع الرشاشة في أبراج الدبابات. كان الأمريكيون يصابون ويتعثرون. وكان البعض الآخر منهم يهرع إلى الأزقة، يلاحقهم وابل من الرصاص يطلقه متتبعوهم وحينما يقفز جندي أمريكي في إحدى الحفر التي خلفتها القذائف يجد فيها ثلاثة من زملائه الموتى. حشرت مجموعة أخرى من الجنود الأمريكيين أنفسهم في أحد الخنادق وراء مدفع رشاش ثقيل. كانت رصاصاتهم ترتد من الوحش الفولاذي وتدور في السماء يصحبها أنين حاد. تدور الدبابة تايغر على محورها ويزأر المدفع الرشاش. تهتاج المزيد من الدبابات الضخمة في الشارع الرئيس حتى تصل إلى حاجزها النهائي، وهو عبارة عن صف من الألغام المضادة للدبابات. أما مشاة الدبابات فقد اندفعوا إلى الأمام لإزالة العقبات الموجودة. فسلط عليهم وابل قاتل من الرصاص من مدفع رشاش ثقيل آخر. تحول وجه الكولونيل بيبر إلى حجر حينما أمر اثنين من دباباته بتفجير الألغام المضادة للدبابات الموضوعة في طريقه. تقدمت دبابتان من نوع تايغر تزن كل واحدة 60 طناً. وسط كرة من نار، توقفت الدبابتان في الطريق، وانفجرت جنازيرها. لكن الطريق أصبح سالكاً، وتحركت القوة الهائلة ذات الجنازير الفولاذية التي يقودها بيبر.

أما الرائد في الجيش الأمريكي، الذي كان متحمساً للقتال مع الجيش الألماني بأكمله، فإنه سحب أخيراً رجاله في اتجاه آخر، لمطاردة دبابات بيبر. كان هناك شيء يعرفه الرائد سولس، وليس للألمان علم به. وهو أن في مشارف مدينة ستافيلو، تكدست آلاف البراميل من الوقود كانت مخبأة بشكل جيد تحت مظلة من الأشجار، كانت تحوي: 13 مليون لتر من مادة البنزين الثمينة، الذي يمثل غذاء الدبابات! الله وحده يعلم ما

الذي سيحدث إذا تمكن الألمان من الحصول على هذا الكنز. لا يمكن لأحد أن يوقفهم في تلك اللحظة. كان يعرف ما يجب عليه فعله. وعلى النقيض من خصومهم الألمان، حيث تتم مكافأة المبادرة الشخصية في كثير من الأحيان بطلقة في الرقبة، كثيراً ما يتخذ الضباط الأميركيون القرارات على الفور، دون الحاجة إلى الرجوع إلى آمرهم الذي يكون متواجداً في المقر الرئيس للقيادة

أصدر سوليس أوامره: «خذوا دزينة من البراميل، اسكبوا البنزين عبر الطريق، ثم قوموا بضرب هذه الحاويات اللعينة لتشتعل عالياً في السماء بمجرد أن يشم أول ألماني رائحة منها». وقد أخذ بنظر الاعتبار، أن يضع وحدتين من وحدات قذائف البازوكا بعيداً بما يكفي لسلامتهما، ولكنهما قريبتين بما يكفي لإشعال ثقب في أكوام براميل الوقود.

كانت هناك أربع عشرة دبابة على رأسها بيبر تسير على بعد ميلين من أكبر مستودع للبنزين في الجبهة الغربية. ركنت الدبابة الأولى مقدمتها الحادة قرب منعطف في طريق الغابات.

عندما اشتعلت النيران في إسفلت الشارع الذي أمامها. اضطر رتل مكون من أربع عشرة دبابة إلى التوقف المفاجئ. لماذا تسير وسط حجاب من النار إذا كان هناك طريق آخر قريب؟ تراجعت الدبابات، وقررت الابتعاد عن الطريق الذي اشتعلت فيه النيران.

كان الوقت ظهراً. وقد فات على الهجوم الألماني على منطقة آردين 50 ساعة. لم يحدث أبداً من قبل أن كان هناك جيش أمريكي غير مستعد تماماً هكذا لهجوم ألماني.

«يجب أن يكون هدفنا الوحيد هو تحسين الوضع في الغرب... الشيء الوحيد الذي ليس في صالحنا هو الموقف في الجو. لذلك، نحن مضطرون لتحقيق أقصى استفادة من الطقس السيئ، والشتاء».

هكذا نصت الأوامر السرية التي أصدرها أدولف هتلر إلى قادة

الجيش في 12 كانون الأول 1944 [1]. منذ تطويق جيوشه في بلدة فاليز الفرنسية، واختراق الحلفاء لقواته في أفرانش (تموز- آب 1944). كان هتلر يخطط «للهجوم النهائي والحاسم». كانت جيوش الحلفاء قد حررت باريس (في نهاية آب 1944). أعقب ذلك بفترة قصيرة تنفيذ خطة الجنرال مونتغمري التي عرفت بالاسم الرمزي «عملية ماركت غاردن *Operation Market Garden*» والتي كانت تقضي بأن تتقدم مجموعة من الجيوش البريطانية بعملية خاطفة، بمساعدة فرق من المظليين، للاستيلاء على الجسر المقام عبر نهر الراين ويؤدي إلى بلدة أرنهم الهولندية، ومن هناك، إلى ألمانيا عبر هولندا. يبدو أنه لم يكن هناك أي شيء يوقف عربات القوات المتحالفة. ثم، فجأة، بدأ تقدمهم الشديد في التراجع. وقد أقنع هذا القائد العام لقوات الحلفاء الجنرال آيزنهاور، بناء على نصيحة الجنرال عمر برادلي، بإعادة الجنرال باتون للخدمة لتولي قيادة الجيش الأمريكي الثالث. تم وضع باتون في حالة انتظار، وصدرت اليه الأوامر بدعم الجهود البريطانية في أرنهم عن طريق القيام بهجوم تضليلي في جنوب بلجيكا. تحولت عملية «ماركت غولدن» إلى كارثة: لقد تم القضاء على كتائب المظليين البريطانية وبولندا الحرة، ولم تنجح محاولة اقتحام قلب ألمانيا عبر هولندا.

في خريف عام 1944، قررت القيادة العليا الألمانية أن نقطة انطلاق الهجوم ستكون من الأراضي المرتفعة الممتدة من الحدود الألمانية إلى لوكسمبورغ وبلجيكا، عبر جبال أردين، ومن إيشترناخ في الجنوب إلى سانت فيث في الشمال. منح هتلر هذه العملية اسماً مناسباً، حماة الراين «*Die Wacht am Rhein*» [2] (The Guard on the Rhine)[3]. تم تغييره في اللحظة الأخيرة إلى «عملية هربستنبل»، أو «ضباب الخريف»،

1- راجع: Warlimont، Im HQ der Deutschen 2.

2- أغنية ألمانية شعبية خلال الحرب العالمية الأولى.

3- قصيدة للشاعر ماكس شنيكنبيرغر (1819-1849) بعنوان الحارس عند نهر الراين.

وهو الاسم المناسب منذ أن بات تقدم القوات الألمانية يعتمد على سوء الأحوال الجوية.

في مواجهة الألمان كانت هناك مجموعة من الجيوش البرية تحت قيادة الجنرال برادلي: الجيش الأمريكي الأول تحت قيادة الجنرال هودجز، التاسع تحت قيادة الجنرال سيمبسون، والثالث تحت قيادة الجنرال باتون. وكان الأكثر مدعاة للقلق هو الأسطول الجوي الضخم للحلفاء: 4700 طائرة مقاتلة، و4000 طائرة استطلاع، و6000 قاذفة متوسطة وثقيلة. وقد فرض هذا العامل شن هجوم بري خلال فترة يكون فيها سوء الأحوال الجوية أمراً مؤكداً ويستمر لفترة طويلة[1]. بدأ خبراء الأرصاد الجوية الألمان، تحت إشراف الدكتور شوستر، بالعمل. بعد دراسة الظروف الجوية السائدة لعدد من السنوات، استقروا على أن يبدأ الهجوم في كانون الأول

لم يكن الجنرال باتون المتهور سعيداً على الإطلاق في تكليفه بواجب الإسناد؛ لم تكن هذه طريقته في خوض الحروب. اتصل بالجنرال أيزنهاور وتوسل إليه وتجادل معه حتى أعطاه الإذن لدفع الجيش الثالث حتى نهر الراين قبل بداية فصل الشتاء. كان الفيلق الثاني عشر التابع لجيش باتون، تحت قيادة الجنرال إيدي، يتقدم نحو مدينة نانسي الفرنسية، في حين أن الفيلق العشرين الذي كان بإمرة الجنرال ووكر كان من المقرر أن يستولي على مدينة متز الفرنسية. تم تعيين موعد الهجوم في 7 تشرين الثاني، وعندما طلب الجنرال إيدي تأجيله بسبب الظروف الجوية السيئة، نظر إليه الجنرال باتون شزراً بطريقته المعهودة وخاطبه قائلاً: «إذا كنت لا تستطيع الهجوم، أرجو أن تقترح اسم قائد يخلفك». شن الجنرال إيدي هجومه في 8 تشرين الثاني، وكانت دباباته

1- عندما يرتفع الهواء الدافئ ويبرد إلى درجة حرارة نقطة الندى، فإنه يتحول إلى تراكم مرئي من قطرات الماء الصغيرة أو بلورات الجليد الدقيقة، والتي تبقى بعد ذلك نشطة في الغلاف الجوي. نحن نسميها سحابة، أو ضباب. ويمكن أن تبقى معلقة هناك لفترة طويلة.

غارقة في الوحل ووسط حقول الألغام، ولم يتمكن من أن يستولي على ميتز حتى 22 تشرين الثاني. كان باتون غاضباً، لكن هذا لم يحل مشكلته. طالما لم يتحسن الطقس، فقد اضطرت دباباته إلى التوقف.

في 16 تشرين الثاني، وبدعم من 2500 قاذفة قنابل ثقيلة، بدأت أربع فرق من الجيش الأمريكي الأول والثاني بالقيام بعمليات قتالية في بلدة آخن الحدودية الألمانية وتلتها معركة مريرة استهدفت السيطرة على نهر الرور. لأول مرة، كان الألمان يقفون وحدودهم وراء ظهورهم وقد توضحت فكرة عن نوع المعركة التي ستحدث من خلال القتال الذي جرى لأجل السيطرة على فوسناتش، وهي قرية صغيرة تعتبر مفترقاً للطرق. تركها المشاة الألمان، ثم استعادوها، ثماني وعشرين مرة! نجاحهم في تأجيل تفوق الحلفاء البري الذي كان بنسبة ثمانية إلى واحد في الدبابات، مهد الطريق لمعركة الثغرة القادمة[1]. كل ما استلزمه الأمر هو توافر فترة تحجب فيها الغيوم السماء. كان من المتوقع حصول ذلك في الأسبوع الثاني من شهر كانون الأول. تم تأجيل الهجوم مرتين، ولكن في 12 كانون الأول، تم تحديد موعد الهجوم عند الساعة 05:30، من صباح يوم 16 كانون الأول 1944. وقد أعطى هتلر أوامر محددة تبعث في الجندي الألماني روح فريدريك الثاني ملك بروسيا. الذي عبر عنها بكلماته عشية معركته في قرية ليتوين البولندية في 2 كانون الأول 1757 [2]:

«لقد حانت ساعتك، كل شيء أصبح على المحك».

«ممتاز، ممتاز»، تمتم المشير غيرد فون روندشتيدت ذو الوجه المتجهم، وهو يدرس أحدث تقارير الطقس، «تشير التوقعات إلى استمرار الأجواء السيئة». نعم، كان الطقس السيئ أخباراً جيدة، لأنه

1- يسمونه الألمان هجوم أردين.

2- حقق فريدريك الكبير، وسط ظروف صعبة، نصراً في اللحظة الأخيرة على النمساويين الذين كانوا على وشك غزو بروسيا. عندما سار رجال الشرطة البروسيين إلى المعركة، وهم يغنون، سأل أحد الضباط الملك: «هل أوقفهم عن الغناء؟» كلا أبداً، مع هؤلاء الرجال سيضمن لي الله النصر اليوم بالتأكيد.

سوف يبقي طائرات قوة الحلفاء الجوية جاثمة على الأرض. يمكن للألمان مواجهة دباباتهم واحدة مقابل واحدة، ولكن لا شيء يمكن لقوتهم الجوية أن تفعله للتغلب على التفوق الجوي للعدو. كان بإمكان الجنرال باتون وجيشه الثالث استدعاء أكثر من 1300 قاذفة قنابل ثقيلة من طراز الحصن الطائر *Flying Fortresses* ومن طراز ليبراتور *Liberator* كان روندشتيدت يدرك ماذا يمكن أن يقع لو سيطرت طائرات الحلفاء على الأجواء فهي ستجعل دباباته لحماً مفروماً. حتى توجيه هتلر العملياتي شدّد على «الاستفادة من تأثير عنصر المفاجأة وشن الهجوم خلال الفترة التي تكون فيها الظروف الجوية غير مواتية لطيران العدو».

تحت القيادة الكاملة من المشير جيرد فون روندشتيدت، تكونت قوات الهجوم الألمانية من مجموعة الجيش بي (نموذج المشير)، والتي تتألف (ابتداءً من الشمال إلى الجنوب) من الجيش الخامس عشر وجيش الدبابات السادس التابع لمنظمة الحزب النازي تحت قيادة أوبرغروبن فوهرر *SS Obergruppenfuehrer* [1] سيب ديتريش وكان هدفه الاستيلاء على مدينة لياج البلجيكية، وجيش الدبابات الخامس بقيادة الجنرال هاسو فون وكانت مدينة أنتويرب الهولندية هي الهدف، والجيش السابع، والجيش الأول، مع مجموعة الجيش H بقيادة الجنرال بلاسكوفيتز لتأمين الجناح الجنوبي. كان من المقرر أن يتم تنفيذ حملة الحرب الخاطفة من قبل جيش الدبابات السادس التابع لمنظمة الحزب النازي SS وجيش الدبابات الخامس وفي جلسة الإحاطة النهائية في القيادة العليا الألمانية، تم التأكيد على أن مفتاح الاختراق الألماني هو السيطرة على الجسور المقامة على نهر الميز دون أن يمسها الأذى، وأن يتم ذلك خلال ثمان وأربعين ساعة. واستدعى هذا التغلب السريع على مراكز القوة الرئيسية للحلفاء في سانت فيث وباستوجن. وبمجرد تحقيق ذلك، ستتجه جيوش الدبابات شمالاً وتقطع الطريق بالكامل على قوات

1- راجع: General Westphal, Heer in Fesseln.

الحلفاء في بلجيكا وهولندا (بقيادة الفيلد مارشال مونتغمري) في حركة تطويق مشابهة لتلك التي تم تنفيذها بنجاح في حزيران 1940. لكن لم يعد هذا هو الجيش الألماني في عام 1940؛ كانت أرض الآباء (*Vaterland*)[1] في عامها السادس من الحرب، وقد عانت الأمة من الحرمان الرهيب والخسائر التي لا يمكن تعويضها. في مساء جلسة الإحاطة النهائية، كان جميع المشاركين يعرفون أن هجوم آردين كان آخر صيحة ابتهاج يمكن أن تعيشها ألمانيا. إذا لم يتمكنوا من الوصول إلى أهدافهم خلال ثمان وأربعين ساعة، سينتهي كل شيء[2].

استعد حماة الراين(The Wacht am Rhein)[3]. وكان 250 ألف جندي ألماني ينتظرون أمر التقدم. تم الانتهاء من التحضيرات النهائية. أمر الجنرال بايرلين، قائد فرقة الدبابات من النخبة(*Panzer Lehr*) بخزن احتياطيات مادة البنزين الثمينة داخل نفق للسكك الحديدية بالقرب من مدينة كوتشيم لإبعادها عن طريق الأذى. كانت الثلوج تتساقط خلال الليل، والريف كان يذروه غبار أبيض مثل السكر وتعلوه طبقة من اللون الأبيض النقي، غطت أهوال الأسابيع السابقة التي شهدت أعمال قتل متذبذبة والتي ما كانت تنتهي حتى تعود مرة أخرى.

في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحاً، يوم السادس عشر من كانون الأول 1944، اهتزت الأرض جراء سقوط القذائف حيث كانت أعداد كبيرة من قاذفات في *V-1 Flying Bombs* تزأر في السماء، فيما كان تشكيل من الدبابات الألمانية يتقدم وسط مشاهد حلول فصل الشتاء.

اندفعت طليعة دبابات وحدات فرقة الـ أس أس *SS* السادسة وهي المنظمة العسكرية التابعة للحزب النازي بقيادة الجنرال ديتريش نحو مواقع بالقرب من مدينة مونشاو الألمانية، التي كان قد استولى عليها

1- بالألمانية في الأصل. المترجم.

2- فرقة تدريب الدبابات General Westphal, Heer in Fesseln.

3- بالألمانية في الأصل. المترجم.

الفيلق الخامس للجيش الأمريكي بقيادة الجنرال جيراو الذي أرسل، وقد استولت عليه المفاجأة بشكل كامل، كتيبتين لمساندة وحدات فرقة المشاة التاسعة والتسعين. التي باتت تتعرض لضغوط شديدة في وادي لوسهايم، تسارعت وحدات من المجموعة القتالية (*Kampfgruppe*) التي يقودها يواخيم بيبر نحو مواضع فيها تسع مئة رجل من فوج الفرسان الرابع عشر بقيادة الكولونيل مارك ديفاين من الفيلق الثامن لجيش الولايات المتحدة. قدّر لوحدة أمريكية صغيرة تحت قيادة الملازم بوب ريبا والرقيب جون بانيستر أن تكون أول من يصطدم مع دبابات بيبر. لقد كان أسبوعاً هادئاً. لأول مرة منذ فترة طويلة غسل الجنود أجسادهم وغيّروا جواربهم. تم نصب مدفعهم الرشاش الثقيل في الطابق الثاني لبيت ريفي يقع على حافة قرية كروينكل. من هناك، يمكن أن يمطروا بالرصاص أي جندي مشاة ألماني قد يجرؤ على الهجوم مرة أخرى. لكن الجميع كانوا يعرفون أن الألمان كانوا منهارين. كان ذلك بالأمس. وهم الآن يجلسون القرفصاء خلف أسلحتهم ويطلقون النار إلى أن تتوهج البراميل. كانت هناك صفوف من الألمان الذين يرتدون ملابس بيضاء تتقدم عبر الحقول المفتوحة وراء المركبات المجنزرة. وفي غضون دقائق، لم يعد بونيستر يرى سوى القتلى الراقدين في الثلج، وكان الجرحى يزحفون إلى الخلف. كان على يقين من أنهم لم يواجهوا سوى هجوم طفيف، ونجحوا في إيقافه.

«سيدي الرقيب إنهم يهاجموننا»، صرخ أحد رجاله.

«إلى الجحيم نحن باقون». حدث ذلك قبل ظهور خمس دبابات ألمانية ضخمة من طراز «بانثر»، ومزقت قذائفها القرية.

«قم بتحريك المركبات حرّكها -صاح ريبا-. لنذهب إلى هولشايم».

أنشأ ريبا موضعاً جديداً في هولشايم. ووجد هناك شيئاً أفزعه وهو أن السكان المحليين كانوا قد تخلصوا من أي شيء يربطهم بالأمريكيين بإلقائه في النار.

«أنذال» تمتم أحد رجال ريبا، ما إن مرت بضع دقائق حتى رفعوا العلم النازي.

وجاءت نحو أحد أجنحتهم، مجموعة قوية من جيش الدبابات الخامس بقيادة الجنرال مانتيفيل كانت متجهة إلى سانت فيث حيث كان يخشى من أن فرقة المشاة الأمريكية 106 كانت في خطر، في حين كان هدف الألمان الرئيس هو التوجه نحو مدينتي كليرفو وباستون. تم تسليم هذا الهدف إلى الجنرال فريهرر فون لوتفيتز وفيلق دباباته السابع والأربعين، الذي يتكون من فرقة الدبابات الثانية، وفرقة المشاة الألمانية السادسة والعشرين من قوات النخبة وفرقة الدبابات من قوات النخبة.

خاطب الجنرال فريتز بايرلين قائد فرقة الدبابات من قوات النخبة[1] رجاله قائلاً: «هدفنا هو نهر الميز. هذه هي المعركة الحاسمة في الحرب بأكملها، وأتوقع من كل واحد التضحية والمبادرة. لننطلق». بهذه الكلمات قفز ليصعد إلى الدبابة التي في الطليعة وعندما حاول مساعده الشخصي ثنيه عن الأمر، لم يقل له سوى جملة واحدة: «ماذا يهم إذا تم قتلي اليوم... ؟».

في القيادة العامة للحلفاء، حيث كان الوضع الذي يتطور بسرعة غير واضح، استدار الجنرال بيديل سميث نحو الجنرال عمر برادلي. قائلاً «حسناً يا براد، لقد كنت تريد دائماً القيام بهجوم مضاد. على ما يبدو، لقد حصلت على ذلك».

«حسناً نعم»، أجاب برادلي، ولكني لست مجنوناً وأريده أن يكون بهذا الحجم[2].

بعد أن تلقى أخيراً البريغادير جنرال في الجيش الأمريكي بروس

1- جون تولاند معركة الثغرة.

2- وفقاً لما ذكره العقيد أوتو سكورزيني في محاكمته، فإن بيبر، رغم أنه اتهم فيما بعد بالجريمة، لم يكن قريباً من مكان الحادث، ولكن كان مع وحدة أخرى على بعد عدة أميال.

كلارك إذناً لقضاء بضعة أيام من الراحة كان يستحقها تماماً في باريس رن جرس الهاتف. كان قائد الفرقة، الجنرال هازبروك على الخط «تم إلغاء إجازتك بأمر من الجنرال براد، اصطحب فرقتك السابعة للدبابات إلى مدينة باستون».

«لماذا؟ ما الأمر؟».

«لا تسألني، لا أحد لديه أدنى فكرة».

لم يصل بروس كلارك أبداً إلى باستون. بأمر من الجنرال ميدلتون قائد الفيلق الثامن، تمت إعادة توجيه دباباته نحو سانت فيث. ما وجده هناك كان جحيماً.

أثناء ليلة 16–17 كانون الأول، صعد 1200 فرد من المظليين الألمان من النخبة بإمرة القائد فون دير هايدت *Kommando* إلى طائراتهم *JU-52*. كان هدفهم: مفترق الطرق باراك ميشيل بالقرب من مدينة مالميدي. وكانوا يريدون الاستيلاء عليها مع وصول دبابات Peiper الوحدة القتالية التي يقودها بيبر. قام اللفتنانت كولونيل فريدريش أوغست فون دير هيدت بطلعة اعتيادية فوق الهدف في الساعة 03:30، صباحاً ولكن معظم الطائرات الأخرى حلقت بعيداً عن مسارها بسبب الظروف الجوية السيئة وأخطاء في الملاحة. أنزلت خمس عشرة طائرة من طراز JU–52 المظليين – فوق مدينة بون! هبط 200 فرد فقط فوق الهدف، بما في ذلك قائدهم، الذي أصيب بجروح بالغة وأسرته دورية أمريكية قرب مدينة مونشاو في 22 كانون الأول. أصبح القائد فون دير هيدت ضحية المعركة حتى قبل أن يشارك فيها.

في اليوم نفسه، 17 كانون الأول، وفي حوالي الساعة الواحدة ظهراً، وقعت واحدة من حوادث الحرب التي كانت سمعتها سيئة للغاية في الغرب وأشدها انتشاراً. غطى ضباب كثيف الوديان المغطاة بالثلوج، وارتفعت الغيوم الخفيفة إلى المرتفعات. حجب الضباب المنخفض ما كان يوجد أمام طليعة قوة بيبر القتالية التي كانت تدمدم على طول طريق

ثانوي نحو بلدة ماليدي البلجيكية. زحفت الدبابات عبر الضباب، كانت بنادقها جاهزة لإطلاق النار على أي شيء يتحرك أمامها. كانت طواقم الدبابات تحدق فيما حولها من خلال الشقوق الصغيرة في الفولاذ. كانت هناك مدرعتان نصف مزنجرة تسيران كدورية استكشاف أمام الدبابات المتعثرة في سيرها. وقف ضابط في المركبة الأمامية، وهو يمسك بالجزء العلوي من زجاجها الأمامي. ما حدث بعد ذلك لم يتم توضيحه بالكامل.

ما إن بدأت المدرعتان نصف المزنجرة تطهر الطريق حتى ظهر فجأة، من وسط الضباب، رتلاً من المركبات التي تعود إلى وحدة البطارية B من كتيبة المراقبة الميدانية الأمريكية رقم 285. توقفت المدرعتان نصف المزنجرة الألمانيتان تدريجياً عن الحركة، وبدأت مدافعهما الآلية بالدوران، وأرسلتا زخة من الرصاص نحو رتل الشاحنات. تكوم الأميركيون التعساء خارج مركبتهم ورفعوا أيديهم في الهواء وهي العلامة المتفق عليها دولياً للاستسلام.

أمر ضابط ألماني من وحدات الأس أس (ذلك الذي كان في المدرعة لكنه بالتأكيد ليس «بيبر الذي نعرفه») الأمريكان بالتوجه إلى الحقل الذي على جانب الطريق. وفجأة، سمع إطلاق عدة أعيرة نارية[1]. «استل الضابط مسدسه الآلي وأطلق النار علينا»، على حد قول أحد الناجين لاحقاً، وهو اللفتنانت في الجيش الأمريكي فيرجيل تي لاري. «طلقته الأولى قتلت سائقي. وأعقب ذلك على الفور عدة رشقات نارية من أسلحة آلية».

ألقى الأمريكيون بأنفسهم على الأرض، لكن جنود قوات الأمن الخاصة

1- بعد الحرب، واجه اللفتنانت كولونيل بيبر و74 من رجاله محاكمة بتهمة ارتكاب جرائم حرب من قبل الحلفاء في داخاو. وحكم على بيبر و43 من جنود الكوماندوز التابعين له بالإعدام. أدت الضرورة السياسية (الحرب الباردة) وكذلك الجدل القانوني إلى وقف عمليات الإعدام. تم إطلاق سراح بيبر من السجن في عام 1956. توفي خلال حريق غامض في شقته بباريس في عام1967.

المُوجودين ظلوا يرشونهم بالرصاص. توفي العديد من الأمريكيين الذي كان يبلغ عددهم واحد وثمانين فرداً هناك. لكن ليس جميعهم. وعندما توقف إطلاق النار، دار رجال الأمن الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية حول الجرحى وسألوا عما إذا كان بإمكانهم المساعدة. ثم تم الرد على الذين كانوا يجيبون بطلقة مسدس في رؤوسهم. تم قتل واحد وأربعين جريحاً. في غضون دقائق بعد إطلاق النار، قامت الوحدة الألمانية بتسريع دوران محركاتها وباشرت بالتحرك. ثم اختفت الدبابات في الضباب.

نجح اللفتنانت لاري وهو يتعثر في مشيته، مع بعض الناجين المحظوظين، في أن يعود في النهاية إلى الخطوط الأمريكية. كان لا يزال في حالة من الصدمة، وقدم تفاصيل للفظاعة التي ارتكبت. ووفقاً لروايات أخرى، أطلقت بعض قوات الأمن الخاصة النار على الموتى والجرحى، الذين كانوا مستلقين في الميدان. إطلاق النيران العشوائي هذا الذي أعقب موجة القتل وفر القاعدة التي بنيت عليها المحاكمة اللاحقة للمتورطين بإصدار الأمور عن عمد لارتكاب مذبحة مالميدي[1].

من خلال عدد من الروايات المختلفة المتاحة، لم تروِ ولا واحدة منها القصة نفسها. زعم الألمان أن إطلاق النار بدأ بمجرد ظهور الرتل الأمريكي - الذي اعتادوا عليه أن يكون مسلحاً - من وسط الضباب. أما الرواية التي أجمع عليها الناجون الأمريكيون فتقول: إنهم قفزوا من سياراتهم للاستسلام، ثم أمرهم ضابط وحدة الأمن الخاصة أس أس بالتحرك إلى الميدان قبل بدء إطلاق النار. وما إن وصلوا إلى الميدان، حتى تم إطلاق النار عليهم بدم بارد. لم ينكر أحد النتيجة. لقي واحد وثمانون جندياً أمريكياً مصرعهم في ذلك الصباح[2].

1- أظهر فيلم أنتجته هوليوود أن الأسرى كانوا يُحضرون إلى الميدان في شاحنات ألمانية مغطاة بالقماش المشمع. هذه القصة لم يتم تأكيدها أبداً. تم انتشال الجثث، التي تُركت في الميدان أثناء التقدم الألماني، خلال الهجوم المضاد الأمريكي. وتظهر الصور التي التقطها مصور في الجيش الأمريكي بوضوح أن أياً من الضحايا لم يكن مسلحاً.

2- راجع: Kurovski, Von den Ardennen.

ومع هبوط ليل اليوم الثاني، وصلت فرقة نخبة الدبابات إلى موقع يبعد 16 كيلومتراً شرقي مدينة باستون. وقد تعرقل تقدمها بسبب سوء حالة الطرق الريفية المحلية. مشكلة الجنرال بايرلين أصبحت أسوأ بسبب إحدى فرق المشاة، والتي سلكت الطريق نفسه وتوقفت شاحناتها عند تقاطعات حيوية. عند فحص خريطته، وجد الجنرال بايرلين أمامه ثلاث طرق للاختيار من بينها. وقد تم اتخاذ القرار من خلال لقاء جمع بين فلاح محلي وجنرال ألماني ودار الحوار التالي بينهما.

«ما هو أفضل طريق للوصول إلى باستون؟».

لم يكن المزارع، الذي أمضى بضعة أشهر في معسكر الأسرى، يشعر بالود تجاه أي شيء له علاقة مهما كانت بعيدة بألمانيا. في اللحظة التي قال فيها: «الطريق الذي يمر في قرية مغيريت»، كان قد أرسل الألمان إلى أسوأ طريق ممكن أن يتخذه أحد ما. بعد مسافة كيلومترين فقط، انتهت الطرق المعبدة وبدأت الوحدات المتقدمة الثقيلة تختض وسط أوحال الممرات الريفية حيث غرزت عميقاً في الطين. علقت مركبات الدعم، وتعطلت أخرى واضطر الألمان إلى دفعها لإخلاء الطريق. تقلصت الحرب الخاطفة لفرقة الدبابات النخبة إلى مجرد دبيب على الأرض. استغرق الأمر حتى 19 كانون الأول، حتى وصلت الوحدات الألمانية الأولى إلى قرية ميغريت، وبعد يومين من الموعد المحدد كانت لا تزال على بعد خمسة كيلومترات من الهدف. كان لتساقط الثلوج والظروف الجوية السيئة التي أبقت طائرات الحلفاء جاثمة على الأرض، التأثير نفسه على الألمان. فقد أبطأت حركة دباباتهم وبدون أن يعلم، أنقذ ذلك الفلاح قوات الحلفاء: كان الطريق الريفي غير المعبد عنصراً أساسياً في صمود الأمريكيين في باستون.

دخل الكولونيل بيبر من وحدات الأمن الخاصة *SS* والليفتنانت الأمريكي ريبا إلى هونسفيلد في الوقت نفسه تقريباً، وإن كان من اتجاهين متعاكسين. كان بيبر يمتلك الدبابات، وكان ريبا لا يملك منها

شيئاً. قبل أن يتمكن الأمريكيون من الخروج من الطريق الخلفي، طرق رجال وحدات الأمن الخاصة *SS* على باب مخبئهم.

«أنتم الذين في الداخل اخرجوا رافعين أيديكم فوق رؤوسكم».

«Ihr da drinnen, heraus mit erhobenen Händen».

صاح الرقيب لوفلوك، مساعد ريبا، وهو يفتح الباب: «يا رفاق»، رافعاً يديه فوق رأسه[1].

اندفع بيبر بدباباته قدماً. بدون أدنى توقف كان مصدر قلقه الأكبر هو توافر الوقود لدباباته. على بعد أميال قليلة من هونسفيلد، دخلت وحدة بيبر المتقدمة إلى حاجز نصب على عجل على يد وحدة مشاة تابعة للفرقة الأمريكية الثانية. قرر الأمريكيون الصمود، ونجحت صواريخهم من نوع البازوكا في إصابة بعض المركبات الألمانية المسرعة. وبينما كانت تجري تلك العمليات الاستباقية، اقتربت إحدى الوحدات الاحتياطية للفرقة المدرعة الأمريكية السابعة من قرية بوغنتز واصطدمت إحدى دبابتها من طراز شيرمانز بالقوة الرئيسية لدبابات بيبر. لم يكن باستطاعة البنادق الأمريكية مواجهة القوة الضخمة للمدفع الرشاش من طراز *88 S* الذي تحمله الدبابات الألمانية القتالية، والتي كانت تشق طريقها عبر القرية، ومن هناك توجهت نحو قرية لينيوفيل.

وفي مدخل لينيوفيل، كان هناك حارس واحد، ودبابة واحدة من طراز شيرمان. لقد تم تركها لأن أحد جنازيرها يحتاج إلى إصلاح. وفي خطوة بطولية، أطلقت النار، وبضربة حظ، أشعلت النيران في دبابة ألمانية من طراز تايغر كانت في المقدمة، قبل أن تقوم ثلاث من الدبابات الألمانية بتوجيه مدافعها الرشاشة من طراز *88 S* على الدبابة البطلة وتسحقها. بعد وقت قصير من تلك المعركة القصيرة، اعتقل رجال بيبر ضابط أمريكي كان يقود سيارته الجيب ومر من أمامهم.

1- راجع: Kurovski, Von den Ardennen.

بعد استجواب سريع، قفز بيبر إلى سيارة جيب الكولونيل في الجيش الأمريكي وقادها إلى وحداته الأمامية، لمنعهم من إطلاق النار. لم يرغب في إعطاء تحذير مسبق إلى وحدة مقر القيادة الأمريكية في مدينة ستافيلو البلجيكية القريبة.

كان بيبر يتفحص المكان من خلال نظاراته الميدانية. تم نشر مدفعان مضادان للدبابات مقاس 57 ملم على جانبي جسر حجري، مما منع دخوله إلى المدينة. اتصل بمساعده الثاني في القيادة شتاينباتز «أنت تصيب الذي على اليسار، وأنا الذي على اليمين». انطلقت رشتان طويلتان من اللهب من فوهات المدافع، ولم يعد هناك وجود للمدفعين المضادين للدبابات. تم الاستيلاء على الجسر لعدم وجود شحنات متفجرة عليه. قبل أن يدرك الأمريكيون ما يجري، انقضت دبابات التايغر عليهم. بدأت الدبابات الألمانية الضخمة تزمجر في المدينة. وصلت اثنتان منها إلى سوق مدينة لياج البلجيكية عندما تعرضت كل منهما إلى إصابة مباشرة بقذائف مدفع آخر عيار 57 ملم، وضعه هناك سولس الرائد في الجيش الأمريكي. توقفت الدبابتان عن الحركة وخرج الدخان الأسود من برجيهما. ألقى طاقم الدبابة بأنفسهم من مركباتهم المحترقة وتدحرجوا على الأرض لإخماد ألسنة اللهب التي اشتعلت في بذلاتهم الملطخة بالزيت.

قامت أربع عشرة دبابة تايغر تحت إمرة القائد كورفكين بسحق المدافع من عيار 57 مم تحت جنازيرها، في حين نجح الناجون من وحدة الرائد سوليس في الانسحاب سريعاً، تطاردهم دبابات كورفكين بحماس. تأرجحت الدبابات في طريق الغابة ووصلت إلى منحدر خفيف عندما تصاعد اللهب فجأة في الطريق الذي أمامهم بأكمله. لقد منع البنزين المحترق حركتهم إلى الأمام. ولم يدرك أحد ذلك في ذلك الوقت، فلم تكن تفصل الألمان سوى بضع دقائق ونصف ميل عن «الجائزة الكبرى»، مستودع تخزين البنزين للجيش الأمريكي في ستافيلو

الذي يحوي 13 مليون ليتر من الوقود، وهو ما يكفي ويزيد عن حاجة جيوش دبابات هتلر للإسراع نحو، بروكسل وباريس[1].

كان الوقت المناسب لواحدة من أشهر الوحدات في القوات الأمريكية لتكلل نفسها بالمجد. بعد تنفيذ إنزالها الليلي في نورماندي في الخامس من حزيران، تم تغيير قائد الفرقة 101 المحمولة جواً في الجيش الأمريكي. كان قائدها الجديد هو البريغادير جنرال أنتوني مكوليف. بعد وقت قصير من بداية الهجوم الألماني، تلقى رسالة مشفرة ليسرع بفرقته لتقديم المساعدة الفورية للجيش الأمريكي الأول بقيادة اللفتنانت جنرال كورتني هودجز. في صباح يوم 18 كانون الأول، تم تحميل جنود القائد مكوليف البالغ عددهم أحد عشر ألف فرد في 380 شاحنة وتوجهت بسرعة 180 كيلومتراً في الساعة نحو مدينة غامضة في منطقة تلال تغطيها الأشجار في الطرف الجنوبي الشرقي لبلجيكا: وهي باستون. كان عليهم أن يعززوا الفرقة الأمريكية الثامنة والثلاثين التي هوجمت بشراسة، تحت ضغط من وحدتين عسكريتين ألمانيتين جوالة، هما فرقة الدبابات من النخبة، والفرقة المدرعة الألمانية الثانية. في سباق مع الزمن، وصلت الفرقة 101 إلى باستون قبل ساعات فقط من تمكن فرقة الدبابات من النخبة من تخليص دبابتها من الطين الذي علق بها. في قرية ماغيريه أمر القائد مكوليف الفوج 501 بقيادة الكولونيل إيويل بإنشاء موضع دفاعي على طول التلال شرق باستون. وجه فوجه 506 للتحول إلى الشمال وفوجه 327 للسيطرة على الجنوب الشرقي. عندما ظهرت دبابات فرقة النخبة في النهاية، كان الأميركيون مختبئين بشكل جيد. تأخر الجنرال بايرلين عن موعده مع التاريخ ساعة واحدة.

كانت ليلة ضباب كثيف عندما شن الجنرال بايرلين هجومه في الساعة 5:30 من صباح يوم 19 كانون الأول، بدبابات مدعومة بالمشاة.

1- بدأ الهجوم الألماني بثلاثة جيوش لم تكن تملك سوى 7,150,000 لتراً من الوقود. مذكرات الجنرال جودل.

كان الأمريكيون قد نصبوا مدافعهم الآلية في وضع مسار ناري ثابت، فيما كانت نيرانهم المتقاطعة تتخلل الضباب. دوت أصوات القذائف الأمريكية وحولت انفجارات الكبريت الضباب إلى غطاء أصفر اللون. وسط إرباك تقدمهم من خلال الضباب الكثيف، وتساقط القذائف وإطلاقات الرصاص من المدفعية الأمريكية غير المرئية، تشظت الفرقة الألمانية 901 والفوج 902 بشكل كبير. كان على بايرلين أن يوقف الهجوم على التلال المحيطة بالمدينة. كان قلقه الكبير هو الطقس. كان الجنرال الألماني يركز عيناً على باستون وأخرى على السماء، كل شيء على ما يرام ما دام الطقس سيئاً. سرت شائعة بين طواقم الدبابات، أشارت إلى أن الأميركيين مستعدون للاستسلام، فيما ذكرت أخرى أن دبابات الجنرال باتون في طريقها إليهم. سواء جاء باتون أم لا، كانت قوة دبابات القتال الألمانية الرئيسية قوة كاسحة للغاية بالنسبة للرجال من الفرقة 101 المحمولة جواً. في سلسلة من الضربات الخاطفة، التفت الدبابات الألمانية حول الوحدات الأمريكية. بحلول 21 كانون الأول، أصبحت المدينة معزولة تماماً عن بقية قوات الحلفاء. وأصبحت باستون حجر عثرة في طريق تقدم الدبابات الألمانية وتصدر المدافعون عنها عناوين الأخبار.

كانت المعنويات والمزاج في مقرات الطواقم في القواعد الجوية لقوات الحلفاء في جميع أنحاء أوروبا عند مستوى الصفر. وكان الإحباط يتناوب مع اليأس. أرادت طواقم القاذفات الاندفاع إلى مساعدة القوات البرية المحاصرة، لكنها لم تستطع. لعدة أيام وعد رجال الأرصاد الجوية أن هناك احتمال أن الغيوم قد تنشقع فعلاً ولكن في تلك اللحظة لم يكن هناك أي احتمال على الإطلاق أن يكون الطقس مناسباً للتحليق. لم تكن المشكلة فقط في الغيوم، ولكن في الارتفاع أيضاً. كانت أجهزة تحديد الارتفاع القياسية - المعيارية - غير دقيقة تماماً وسط المناطق التي يكسوها الثلج؛ انقطع تردد نبضات أعمدتها المثبتة على الأرض

بسبب كتلة الثلوج العميقة. كان من المستحيل عملياً تقييم الارتفاع أو تحديد المسافة. ومما زاد من المشكلة، أن الغيوم والأرض اندمجت في شكل رمادي. وعلاوة على ذلك، كانت الاتصالات اللاسلكية بين وحدات الاستطلاع الأرضي والقادة الجويين ضعيفة وغير متماسكة. لم يكن هناك طريقة لتخبرهم من الأسفل، من هو الصديق ومن هو العدو. فقد كان من المحتمل أكثر أن يقصفوا وحداتهم. وهكذا جلس الطيارون وطواقم الطائرات ينتظرون يوماً بعد يوم.

دخل العقيد أوتو سكورزيني من فرقة وحدات الأمن الخاصة *Waffen-SS* . وقد تركت ست سنوات من القتال بصماتها على وجهه. وكزعيم لوحدة كوماندوز، عاش حياة مليئة بالمخاطر. لكن ذلك كان بالضبط ما رسمه له القدر (وهتلر) - وهو أمر فريد من نوعه. الرجل الذي حرّر موسوليني من سجنه الجبلي، قائد رجال الكوماندوس الذي كان يدعى «ذو الندبة » (كانت لديه ندبة على خده إثر مشاجرة خاضها في شبابه)، قرر الاشتراك بحماس في عملية (غريفون). وكان على رجاله الكوماندوز وهم يرتدون ملابس أفراد الشرطة العسكرية الأمريكية، أن يتسللوا إلى خطوط العدو ويقوموا بالتشويش على الاتصالات وتعطيل حركة المرور. حصلوا على زيهم من معسكرات الأسرى، لكنهم واجهوا مشكلة كبيرة: فقد كان كل الأسرى يرتدون ملابس كبيرة مكتوب عليها بأحرف كبيرة: *KG, Kriegsgefangener* ومعناها أسير حرب.

وقد أجاز هتلر شخصياً عملية الكوماندوز هذه. قسّم سكورزيني رجاله إلى فرق قتالية فردية وتم تزويد كل فريق بسيارة جيب أمريكية. بدأت العملية بشكل سيئ. في 21 كانون الأول، أثناء اقترابهم من مدينة مالميدي، انفجرت قذيفة أمام سيارة قيادة سكورزني. حطمت الشظايا الزجاج الأمامي وتدلى العقيد من مقعد الراكب وغطى الدم وجهه وسترته القتالية. سحبه رجاله قبل لحظات من انفجار خزان الوقود في السيارة. بدا ميتاً، لكنه لم يكن كذلك، وبدلاً من السماح بنقله إلى

مستشفى ميداني، أمر الطبيب المعالج بأن يعطيه زجاجة من الكونياك، بينما أزال طبيب الوحدة شظايا العظام وضمّد جراحه. أضاف «ذو الندبة» جرحاً آخر في الوجه إلى مجموعته السابقة من الندوب.

لم يوقف الجرح شخصاً مثل سكورزيني عندما لم يتمكن من الحصول على ما يكفي من الزي العسكري الأمريكي، حمل رجاله إلى شاحنتين أمريكيتين استطاع الألمان الاستيلاء عليهما، وغطاهما بقطعة من القماش المشمع، وجعل السائقين يرتديان بذلات «جنود أمريكيين». وهكذا أصبحوا مستعدين للانطلاق. مرت الشاحنات، التي تحمل نجومها البيضاء على مقصورة السائق، مسرعة من أمام حواجز الطرق الأمريكية وهي تلوح لمواضع المدافع الرشاشة الثقيلة. عندما توقفوا، قطعوا خطوط الهاتف، وقاموا بتحويل إشارات الطريق، وعلامات الطرق الملغومة. لقد انطلقت ست سيارات جيب، وهي كل ما كان يمكن لسكوريني وضع يده عليه، لخلق ازدحام مرور كثيف خلف خطوط الجبهة الأمريكية. حدث أكبر نجاح لديهم مع فوج دبابات أمريكي. عندما اقترب رتل دبابات أمريكي من طراز شيرمان من إحدى نقاط التقاطع، قام فريق سكوريني، الذي يرتدي زي الشرطة العسكرية، بإعادة توجيه خط سيرهم وتسبب في فقدانهم المسار الصحيح، ولم يتمكن مقر قيادة الفيلق الخامس في الجيش الأمريكي من تحديد موقع دباباته ليومين متتاليين.

كانت نهاية هذه المغامرة العجيبة ترتبط مع الهوس الألماني بالتوفير في المقاعد والمعدات. لم يكن الأمريكيون يضعون أربعة أفراد من الشرطة العسكرية في سيارة جيب واحدة. وبالتالي فإن اكتظاظ سيارة الجيب كان السبب في إيقافها وتم اكتشاف الألمان الذين يستقلونها. وقد أدرك رجال قوات الأمن الخاصة الألمان أنه بسبب ارتدائهم بذلات الجنود الأمريكان، فسيتم إرسالهم لامحالة إلى فرقة الإعدام باعتبارهم جواسيس.

« تستطيعون إطلاق النار علينا»، قال قائدهم دون أن يهتز له طرف، «لكن هناك الآلاف منا خلف خطوطكم».

ابتسم ضابط التحقيق الأمريكي قائلاً: «توقفوا عن المزاح معي. إذن، من هو قائدكم الشجاع؟».

العقيد سكورزيني. تركت الابتسامة وجه الأمريكان. كان هذا الاسم كافياً لإثارة الذعر بين جميع طاقم العسكريين. كان لا بد من اتخاذ ترتيبات أمنية خاصة، وأن تبطئ القوافل من سيرها، وحظيت مقرات القيادة العليا بالمزيد من الحماية[1]، تم تسيير دوريات على الطرق التي تسلكها القوات الموجودة في الجبهة، واعتقل ببساطة العديد من الأمريكيين الحقيقيين الذين كانوا يرتدون ملابس، مثل الأمريكيين، دون سبب سوى لأنهم يشبهون الألمان. قضى قبطان أمريكي، كان يرتدي حذاءً من نوع ألماني، أسبوعاً في السجن. وحتى أحد الجنرالات عانى من المصير المذل للاحتجاز. «أنا الجنرال بروس كلارك»، أعلن الجنرال عندما أوقفت سيارته الجيب عند إحدى التقاطعات. حدق رقيب الشرطة العسكرية في عينه وخاطبه ساخراً. «وأنا البابا. انزل، أنت رهن الاعتقال». لقد تمكن ثلاثة عشر من الرجال المتفانين من تحقيق ما لم يكن بمقدور فرقة عسكرية أن تفعله[2].

تم قطع الطريق على المجموعة القتالية التي يقودها بيبير بسبب جحيم الوقود المحترق، فاتجهت إلى الشمال، نحو قرية بلجيكية صغيرة تدعى تروا بونتس، استولت عليها وحدة صغيرة من المهندسين الأمريكيين لديها مدفع واحد من عيار 57 ملم، وضعوه عند مدخل القرية بالقرب من المعبر النهري الوحيد. اشتعلت النيران في الدبابة الألمانية الأولى إثر ضربة مباشرة، قبل قيام دبابة أخرى بإسكات المدفع. مع تقدم الدبابات الألمانية، تفكك الجسر وسط سحابة من الغبار. لقد تم قطع الطريق بشكل كامل، مما أجبر بيبر على الانعطاف.

«ما هو وضع الوقود لدينا؟» سأل بيبر أثناء معاينته لخريطته.

1- سرت شائعة بأنّ سكورزيني كان ينوي خطف الجنرال أيزنهاور.

2- من مقابلة للمؤلف مع أوتو سكورزيني جرت في مدريد 1959.

كان الجواب محرجاً.

ضغط بيبر بإصبعه على الخريطة. «ستومونت. نحن نمر عبر قرية ستومونت البلجيكية، وبحلول ليلة الغد نكون على الجانب الآخر من نهر الميز».

في فندق بريتانيكا، كان رجل آخر يحدق في خريطته. كان على الجنرال كورتني هودجز أن يوقف تقدم بيبر الصادم.

كان يخاطب قائد فيلقه السابع: «كولينز: هل هناك من تطورات؟».

«لا شيء حتى الغد».

« حسناً، دعنا نرسل بعض الطائرات».

«في هذا الطقس؟».

«اللعنة على الطقس»...

اخترقت بعض القاذفات المقاتلة من وحدات فرقة القيادة الجوية التكتيكية التاسعة الغيوم. وفجأة اكتشفت فتحة وسط الغيوم التي تغطي المكان، وهناك، أسفلهم مباشرة، كان يسير رتل دبابات بيبر. ولجت الطائرات من خلال تلك الفتحة وأضرمت النار في عشر دبابات ألمانية من نوع تايغر، بينما سارعت بقية الدبابات إلى الاحتماء بالأشجار. لقد أوقفت تقدم مجموعة القائد بيبر حتى حلول الظلام. وعلى الرغم من النجاح المحدود نسبياً الذي حققته، إلا أنها قدمت لمحة مسبقة عما يمكن أن تحققه الضربات الجوية الضخمة في الوحدات الأرضية المحرومة من النيران الجوية.

في ليلة 19 كانون الأول، قاد بيبر دباباته نحو قرية ستومونت. لقد نحوا جانباً الدفاعات الهزيلة عندما ظهرت وحدة متقدمة مؤلفة من أربع عشرة دبابة من طراز شيرمان وخمسة من «المدافع المضادة للدبابات» من طراز 90 ملم. لقد تبادر إلى ذهن الألمان أن هذه ليست مجرد دبابات ضالة، بل الوحدة المتقدمة لمجموعة أكبر من ذلك بكثير. إنه جيش

الجنرال باتون! أمر بيبر ثلاث دبابات أن تتدخل لفتح الطريق. اصطدمت إحدى الدبابات بمجموعة من الألغام المضادة للدبابات واستمرت تتدحرج في الميدان حتى انقلبت على ظهرها، وقتل طاقمها، وتقطعت رقابهم بسبب الانفجار. فيما انزلقت دبابتان كانتا في الخلف على الحقل الثلجي مثل الزلاجات ثم توقفت فجأة. ثم زمجرت محركاتها وبدأت ترمي العشب خلف جنازيرها أثناء تجاوزها الطريق الملغوم وتعرضت للهجوم.

هذا الهجوم المضاد المفاجئ، الذي عززته فرقة من جنود المشاة الآليين (*Panzergrenadiers*)، استطاع فيه جنود بيبر من اعتقال 133 رجلاً من الفرقة الثلاثين في الجيش الأمريكي، بما في ذلك قائدهم، الرائد هال ماكووين. بعد أن علم بمذبحة ماليميدي، تحول الضابط الأمريكي إلى قائد فرقة الدبابات الألمانية: «كولونيل، هل ستعطيني كلمتك أنه لن يحدث شيء لرجالي، وفقاً لاتفاقية جنيف؟».

بدا بيبر متفاجئاً من طلب الرائد (الذي كان مؤشراً جيداً على أنه لا يعرف شيئاً عن قضية ماليميدي). أجاب: «أعطيكم كلمتي، أيها الرائد». ومن المؤكد أنه حافظ على كلمته. وحرر جميع أسراه الأميركيين، باستثناء الرائد ماكووين الذي تمكن من الفرار أثناء الليل[1].

وصلت المزيد من الوحدات الأمريكية إلى ميدان المعركة وسرعان ما وجدت المجموعة القتالية (*Kampfgruppe*) نفسها داخل طوق. على الرغم من أن بيبر لا يزال يمتلك وقوداً كافياً ليحاول اختراق العدو، إلا أن هذا الخيار رفضته القيادة العليا الألمانية. أصبح وضعه يائساً، وبينما كانت دباباته تدور في حلقة فإنها سرعان ما خرجت من العمليات القتالية في

1- صرح ماكووين لاحقاً بأنه وجد أن بيبر ليس واحداً من «هؤلاء الهون (مجموعة من الرعاة الرحل، الذين ظهروا من وراء نهر الفولغا في روسيا وقاموا ببناء إمبراطورية قوية. المترجم) الأوغاد». تم استخدام هذه الحادثة من قبل هيئة الدفاع خلال محاكمة بيبر بتهمة ارتكاب جرائم حرب.

الميدان، وفقدت كل شيء، البنزين والذخيرة. قام بيبر بالاتصال لاسلكياً بقائد فرقته، جنرال قوات الأمن الخاصة SS، موهنك، الذي أخبره أنه لا يستطيع تقديم المساعدة وأن بيبر عليه أن يعمل بما تبقى عنده. لم يتبق له أي شيء، لا مؤونات لرجاله، يقاومون بها الجوع والبرد، ولا «أوتو» (الاسم الرمزي للبنزين) ولا «هيرمان» (ذخيرة).

حاول مرة ثانية: «أطلب الإذن بالانسحاب مع رجالي».

كانت إجابة القيادة العليا واضحة تماماً: «مرفوض، ما لم تعد مع دباباتك».

لقد تم إهدار الكثير من الوقت الثمين أثناء تدفق القذائف المستمر من مدافع الهاوتزر الأمريكية من عيار 155 ملم التي تسببت في هلاك المجموعة القتالية التي يقودها بيبر الذي أرسل المزيد من الصرخات طلباً للمساعدة، ولكن لبقية اليوم بقي جهازه اللاسلكي صامتاً. في الوقت الذي قرر فيه بيبر سحب رجاله، وبالتالي المخاطرة بالمثول أمام إحدى المحاكم العسكرية وفرق الإعدام، فإن الفرقة الأمريكية الثانية والثمانين المحمولة جواً كانت قد هبطت على ستافيلو وعززت الوحدات التي أحاطت بما تبقى من المجموعة القتالية التي يقودها بيبر.

«اللعنة على أولئك الأغبياء»، هكذا شتم القائد الشاب وحدة الدبابات. والتفت إلى جندي الاتصال اللاسلكي في وحدته قائلاً: «حطم هذا الجهاز اللعين. إنه غير مجدٍ. سنعود الليلة. سيراً على الأقدام». وقد فعلوا ذلك، بعد تفجير كل دباباتهم. كانوا ثمان مئة رجل، يغوصون في الثلج أحياناً حتى وركهم، ويصطحبون معهم جرحاهم. عندما تلاقوا بخط تطويق الأمريكان، أطلقوا النار. وأضيء ظلام الليل من خلال توهج مدافع الهاون وكانت توشحها رصاصات متتبعيهم. واجه الألمان المدفعية المتحصنة، والمدافع الرشاشة الثقيلة، ومدافع الهاون، وسرايا الدبابات. على الرغم من الظلام والارتباك، نسي الجنود الخطر الذي كانوا فيه، وباشروا بالفرار. سدت عليهم طريق الهروب طائرتان من نوع

ملك الكوبرا. زحف أحد أفراد طاقم مدمرة دبابات خلف إحداها، وألصق لغماً مضاداً للدبابات بالبرج وسحب دبوس اللغم، كان الانفجار مدمراً وأصبحت الدبابة كتلة ملتهبة من النيران. قفز رجلان من الدبابة وتدحرجا على الأرض، وأطفؤوا ألسنة اللهب المشتعلة في بذلاتهم في الثلج. الدبابة الثانية انفجرت مع مدفعها. اهتزت الأشجار من تأثير قذائفها الثقيلة. كان آخر مدفع مضاد للدبابات من طراز 88 ملم تمتلكه المجموعة القتالية التي يقودها بيبر قد اصطف إلى جانب الدبابة الذي اشتعل وميض بندقيتها. لسان من اللهب، وضربة مباشرة وبعدها أصبح الطريق سالكاً.

عندما حاول مقر قيادة فرقة بيبر الاتصال به عن طريق جهاز اللاسلكي، ومنحه الإذن بالانسحاب، بقي اتصاله دون إجابة. وعبر الجنرال موهنك عن اعتقاده قائلاً: «إنهم جميعاً ميتون، ماتوا بشرف». لكن لا، لم يكونوا كذلك. لقد عانوا من خسائر كبيرة، لكنّ بيبر ظلّ يسيطر على الوضع وجعل رجاله يجتازون المحنة. في ليلة عيد الميلاد، وصل أخيراً ما تبقى من مجموعة بيبر القتالية الذين كانوا في يوم ما فخورين بأنفسهم إلى الخطوط الألمانية، ولكن لم يكن لديهم شيء يحتفلون به[1].

قبل أسبوع مضى، أمر الجنرال باتون قسيس فرقته العسكرية، الكابتن جيمس أونيل، بالإعداد للصلاة، التي نقلها إلى قواته عبر راديو القوات المسلحة في 22 كانون الأول:

«أيها الأب القادر الرحيم، إننا نتضرع إليك بعظيم فضلك، أن توقف هذه الأمطار الغزيرة التي اضطررنا لمواجهتها. امنحنا طقساً صحواً من أجل المعركة».

انطلقت الدبابات الأولى لفرقة النخبة من وسط الغابة المظلمة وكان أمامهم سهل واسع تغطيه طبقة رقيقة من الثلج. بدا كما لو أن الله قد نشر

1- نجا بيبر من الحرب، ومات في حريق، اندلع في منزله في فرنسا في ذكرى يوم اقتحام الباستيل، عام 1967. على الرغم من تأليف مسرحية سخيفة، أعقبها تحقيق قصير، لم يتم العثور على الجناة أبداً.

كفناً. خلال الليل، كانت الرياح قد أخفت كل علامات الطريق السابقة. كانت الوحدات الألمانية لوحدها في العالم الأبيض. كان الضوء أكثر إشراقاً بكثير مما كان عليه في الأيام السابقة العامة. كان الجنرال بايرلين ذا مظهر قلق. كانت عيناه ثابتة على السماء. وقد زادت الرياح من قوتها. كانت طبقة الغيوم لا تزال كثيفة، ولكن على طول الحواف العليا فقط، وارتفعت السحب مثل ستارة رائعة.

لم يكن هناك شك، أن الطقس على وشك أن يتغير.

بعد ظهر يوم 22 كانون الأول، تغير الطقس لمدة ساعة وذاقت القوات البرية الألمانية للمرة الأولى طعم الضربات الجوية لقوات الحلفاء.

سمعها أول مرة رقيب في وحدة اللفتنانت هينترهولزر من فرقة الدبابات النخبة فصاح قائلاً: «الطائرات قادمة!».

«لا تقلق، هذه طائراتنا».

«كلا، سيدي الليفتنانت، إنها قادمة من الغرب!». صوت الرقيب أغضبه. كان يعرف جيداً مثل أي شخص في مجموعته أن تلك لم تكن طائرات ألمانية. كل الوعود بالدعم الجوي القريب التي أطلقها المارشال غورنغ قائد سلاح الطيران الألماني قد تحولت مثل كل الذي قاله من قبل إلى، مجرد وعود فارغة. لم يكن لدى هرمان غورنغ البدين أي طائرات يمكن أن تطير.

زأرت دزينة من القاذفات المقاتلة من طراز ثندر بولت بي 47 *P-47 Thunderbolt* فوق رؤوسهم في هجوم منخفض المستوى وأفرغت حمولتها المميتة في وحدة مجاورة.

«ابقوا في أماكنكم لا تتحركوا، لم يرونا». ثم أضاف الملازم بصمت: لم يحن الأوان بعد. لم تأتِ تلك الطائرات اللعينة لمنعهم فحسب، ولكن لتحطيمهم أيضاً. فقط عندما خفت الضوضاء، أصبحت لديهم الجرأة على المضي قدماً.

كان الجنرال باتون يسير على أرضية غرفة عملياته. اللعنة، لا توجد إلى الآن إشارة رسمية للتقدم لكي تشترك دباباته في القتال. سواء صدرت الأوامر أم لم تصدر، فهو كان سيفتح الخناق الذي شدّده الألمان أكثر من أي وقت مضى حول مكوليف وأولاده الشجعان. اتخذ باتون قراراً وأمر جيشه الثالث بالكامل بالتقدم وسط العاصفة الثلجية. توجهت فرقته المدرعة الرابعة إلى باستون، وشنّت الفرقة السادسة والعشرون هجوماً باتجاه مدينة فيتز، بينما قامت الفرقة الثمانون بعملية التفاف حول الجناح الأيمن للعدو. في الليالي غير المقمرة فقدت الوحدات الاتصال مع بعضها البعض، ازدادت الاختناقات المرورية عند التقاطعات، وتم رمي الدبابات المحطمة ببساطة في الخنادق لتكون الطرق سالكة. كان الجنرال باتون يأمر قواته بالمسير قدماً بلا هوادة. وأمر قواد وحداته «توجهوا نحو أصوات مصادر إطلاق النار». كانوا يسمعون القرقعة البعيدة لقصف المدفعية الألمانية الكثيف لمدينة باستون. لم يكن على باتون إخبارهم، لقد عرفوا جميعاً أن عليهم الوصول إلى هناك بسرعة. لا يمكن أن يصمد هؤلاء الرجال من الفرقة 101 لفترة أطول.

كانت عيون العالم الغربي مركزة على مكان صغير في آردين. هل يمكن لأولادهم الصمود، أولئك الذين غادروا مدنهم ومزارعهم في الولايات المتحدة، وأبحروا عبر المحيط الأطلسي العاصف، ثم ساروا على الطرق في عز الشتاء لمواجهة الهجوم الألماني؟

كان 22 كانون الأول يوماً من القصف العنيف والانفجارات المستمرة. سقطت القذائف وانفجرت في عدة مواقع في جميع أنحاء مدينة باستون وعلى بيوتها. لم تكن لدى المدفعية الألمانية من خيارات أخرى، وبقوة لا تعرف الرحمة، قصفت المدينة وحولتها إلى ركام. امتلأ الهواء برائحة الكورديت[1] اللاذعة والكريهة. وأصبحت مدينة

1- المادة الدافعة المستعملة في القذائف الصاروخية والمدافع والأسلحة النارية. المترجم.

باستون وعاء كبيراً من القذائف المحطمة والنار والغبار وقطرات اللهب الشريرة والشظايا المحترقة من الفولاذ الساخن. وهم يسيرون وسط غبار الطوب، ويمرون من أمام البيوت المحترقة، وجد القادة أنه من المستحيل إجراء اتصالات مع وحداتهم. أصبحت «باستون» المطوقة فخاً للصبيان المنهكين الذين دوختهم القذائف من مينيسوتا، ونيو جيرسي، وأيوا. رقدت جثث المدنيين والجنود على حد سواء تحت أنقاضها. وبحلول الليل، أصبحت المدينة أرضاً قاحلة من الأخشاب المحترقة والطوب المتفحم.

بينما كانت عيناه مثبتتين على قرص جهاز الاتصال، وكان يربط سماعات الأذن بأذنيه، نظر فجأة إلى مشغل الجهاز في مخبأ القيادة التابع للجنرال ماكوليف بتعبير مثير للاستفسار ثم صرخ على نائب الجنرال.

«رسالة من الألمان، سيدي».

بعد ساعة، سار أربعة ضباط ألمان يحملون الراية البيضاء وسط باستون، وتم اقتيادهم إلى مقر قيادة الجنرال ماكوليف. طلب قائدهم، الجنرال فون لوتويتز، استسلاماً فورياً. استقطع الجنرال ماكوليف وقتاً كافياً من اجتماعه لمعرفة ما الذي كان من يدور حوله بحق الجحيم[1].

«يطلبون منا الاستسلام، إنه هراء».

دون أن يكلف نفسه عناء قراءة رسالة الألمان أدار ظهره للألمان وقال كلمة سيسجلها التاريخ: «المكسرات»!

جعلت دوامة الثلج من الصعب على الأولاد في الخنادق أن يميزوا الصديق من العدو. وجعل الطقس السيئ المخططين الاستراتيجيين في حيرة من أمرهم. «الطقس، هذا الطقس الملعون»، هكذا كان يشتم رجال طواقم الطائرات، وكانوا جالسين جميعهم في غرف طاقمهم. وعدهم رجال الاستطلاعات الجوية بحدوث تغير في الطقس، لكن في الوقت

1- لم يكن الجنرال فون مانتوفيل على علم بطلب الاستسلام، وعندما اكتشفه، شعر بالغضب.

الحاضر، كان غطاء السحاب لا يزال كثيفاً إلى حد جعل الحمام يمشي.

مع أول شعاع ضوء في يوم 23 كانون الأول، وعلى الرغم من الغيوم الكثيفة وتساقط الثلوج، استيقظ الرجال في الخنادق التي حول مدينة باستون على صوت هدير مرعب. فقد اخترقت السحب مئتي قاذفة قنابل من طراز ثندربولت بي 47 (*P-47 Thunderbolt*)، وبدأت ترعد وهي تحلق فوق المدينة بمستوى سطوح مبانيها. وجعلت حركة مراوحها الضباب ينقشع. كانت تسقط من داخلها حاويات كبيرة، برفق على الأرض من خلال المظلات الصفراء والحمراء المتموجة في الهواء. وكانت تلك الحاويات تحوي المؤونة والوقود والذخيرة للقوات المحاصرة. بالنسبة للأميركيين، كان الأمر أشبه ببابا نويل وهو يهبط من المدخنة. بالنسبة للجنود الألمان، الذين كانوا يعانون من نقص في كل شيء، كان هذا العرض لوفرة المواد مشهداً مذهلاً. هنا كانت كتيبة عسكرية، طوقت من جميع الجهات، وتم تزويدها بجميع البضائع التي لم يتمكن نظام النقل الألماني من الوصول إليها على طول الطرق المفتوحة. وبالنسبة للقادة الألمان، كان الضغط من أجل أن تصل الأمور إلى النهاية يتعزز. إذا كان بإمكان قاذفات ثندربولت *Thunderbolt* الطيران في مثل هذه الظروف الجوية وتحقق أهدافها، فما الذي يمكن توقعه منها بمجرد أن تصبح السماء صافية؟ وقبل أن يحدث ذلك، كان لا بد من الاستيلاء على باستون! أمرت القيادة العليا الألمانية (*OKW*) القادة الميدانيين بشن «هجوم دون تراجع» وأن يكسروا الطوق المفروض عليهم. قاموا بتغذية كتيبة بعد أخرى في القطاع، وما تبقى لديهم من احتياطي من الدبابات. وبعد تزويدهم بالذخيرة بالكامل، صمد رجال ماكوليف وقاتلوا وماتوا.

اتخذ الطاقم الوحيد من المدافع المضادة للدبابات من قياس 57 ملم موضعاً دفاعياً له خلف بناء متهالك توجهت سرية من الدبابات على الحافة واندفعت على نحو مهدد، وهي تنشر نيرانها. أطلق طاقم المدفع عيارين ناريين قبل أن تسكتهم ضربة مباشرة إلى الأبد. اكتسحت الدبابة

تايغر وكانت مثل الوحش حيث يبلغ وزنها 60 طناً خط الدفاع الأمريكي الأول، وسحقت موضع المدفع الرشاش جاعلة الغبار يتطاير منه. فيما ألقى الجنود القنابل المضادة للدبابات تحت جنازيرها. اهتزت الأرض من جراء انفجارات خزانات الوقود وصناديق الذخيرة. اشتعلت النيران في الدبابة ذات الستين طناً، ولكن أخذت مكانها دبابة أخرى. وتبعت الدبابات بشكل لصيق كتيبة من جنود المشاة الآليين *Panzergrenadiers*، مسلحين بقاذفات اللهب ومسدسات آلية. كانت قذائف الهاون تتساقط من حولهم. قامت دبابتان أمريكيتان من طراز شيرمان باستطلاع ما كان موجوداً حول أحد المنازل. سرعان ما تعرضت إحداها إلى ضربة من قذيفة من عيار 88 ملم أطلقتها دبابة من طراز تايغر ألمانية الصنع، أما الأخرى فقد اصطدمت بزميلتها المتوقفة. استمرت النيران تنطلق من المدافع المضادة للدبابات الأمريكية، وقد وصلت نيرانها المتقاطعة القاتلة إلى مديات مخيفة. انفجرت دبابة أخرى من طراز تايغر. حاول طاقمها الخروج من البرج ولكن تقطعت أوصالهم بفعل شظايا قذيفة بازوكا. لقد جن جنون العالم. التحم جنود المشاة الألمان والجنود المظليين الأمريكان في قتال بالسلاح الأبيض، لم يكن أحد يعرف من هو الصديق ومن هو العدو. في هذا القتال الفردي، تعطلت كل مستويات القيادة، وتحول كل شيء إلى مذبحة دون خطة أو توجيه. كانت الموجات البشرية الألمانية تهجم في النهار وتتعرض للهجوم ليلاً. وسقطت مدينة باستون.

في القواعد الجوية لقوات الحلفاء المنتشرة في جميع أنحاء أوروبا، كشف خبراء الأرصاد الجوية عن تنبؤاتهم للطقس في صباح اليوم التالي، 24 كانون الأول: «الأجواء صحو، ومدى الرؤية يتراوح بين 5 إلى 8 كيلومترات...» اجتاحت موجة السكون صيحات الهتاف من أطقم القاذفات. غداً سيكون بإمكانهم التحليق بطائراتهم...

«في الليلة السابقة لليلة عيد الميلاد»... في الواقع، كان ذلك قبل

بضعة أيام من عيد الميلاد، في 22 كانون الأول، عندما أقيمت صلاة قسيس جيش الجنرال باتون وبدأ المدافعون المتعبون عن باستون يتوقون إلى أن تصبح السماء زرقاء وصافية تماماً. بدأت تنشط الحركة في القواعد الجوية، من جنوب إنجلترا إلى بلدة باد كاليه في شمال فرنسا، ومن إيطاليا إلى جنوب فرنسا. في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، شعر الناس في جميع أنحاء فرنسا المحررة برعيد يهز الأرض، حيث بدأت أسراب مقاتلات وقاذفات الحلفاء، التي تم تزويدها بالوقود وتم تجهيزها للإقلاع على مدار عدة أيام، تحلق في السماء لتسيطر على الأجواء. كان هناك الكثير من التكتلات على طول الممرات الجوية مما توجب على أسراب المقاتلات أن تحلق وكل جناح منها بجانب جناح مقاتلة أخرى. توجهت جميعها إلى الوجهة نفسها، في النقطة التي يبرز فيها نهر الميز من خلال الجبال. حلقت مقاتلات من نوع لايتنغ وثندربولت وموستانغ، وبي 17، وليبراتورو، وأمطرت الدبابات الألمانية بطوفان من القنابل. واحترقت وحدات كاملة من قوات الفافن اس اس *Waffen-SS* [1] المرعبة بمادة الفوسفور. من اللحظة التي صفا فيها الطقس، وتمت إزاحة الحماية التي كانت توفرها الغيوم للألمان، بدأت أسراب الأسطول الجوي العملاق عمليات القصف الجوي ورمي القذائف على القوات البرية الألمانية.

حلقت طائرات *B-17* الكبيرة ذات الأربعة محركات مسافة أعلى من حاجب القتال الواقي. راقب طياروها وأطقمها ولكن بشكل غير واضح القصف الذي كانت تقوم به طائرات أصغر ولكن بشكل أسرع. لقد أعجبوا بشجاعة طياري المقاتلات لايتنغ وموستانغ وثندربولت، فقد كانوا يعاودون هجماتهم وسط النيران المضادة للطائرات. منذ اللحظة التي يدفع بها الطيارون مقبض القيادة إلى الأمام وتنخفض مقدمة الطائرة وتبدأ تتمايل مؤشرات مقاييس شاشة القيادة، فإن الأمر يستغرق ما بين

1- الجناح العسكري للحزب النازي. المترجم.

اثنتي عشرة إلى خمس عشرة ثانية لرمي القذائف. خمس عشرة ثانية من الجحيم، من الفولاذ المتشظي والذي يقتفي الأثر. إلى أن تسقط صواريخها على الأرض. على حافة إحدى الغابات، اختفى رتل كامل من المركبات في انفجار واحد ضخم.

كان سرب من طائرات موستنغ بي *P-51 Mustangs* يحلق على ارتفاع منخفض فوق خط الأشجار، كان طياروه على استعداد للقصف في اللحظة التي يكشف فيها الألمان مواقعهم عن طريق نيران مدافعهم المضادة للطائرات. ظهر خلف المقاتلين تشكيل كبير، مثل نقاط سوداء في سماء زرقاء. ولم يكن بالإمكان سماع صوت القاذفات ذات المحركات الأربعة، لكن قنابلها الأولى بدأت في قصف التلال، تبعته عاصفة من الانفجارات، غمرت أرض الوادي بالكامل. جلس الجنرال بايرلاين في دبابة قيادته وبدا عاجزاً عن فعل أي شيء وسط انفجار مجاميع من القنابل التي يبلغ وزنها 500 رطل بين رجاله. كانت حدة الانفجارات ترمي بالأشجار وتحطم المركبات وتقذفها في الهواء. في قلب المعاناة كان المحاربون في معارك الدبابات البطولية البارزة في كورسك في صيف عام 1943؛ فقد واجهوا حينها بشجاعة جحافل دبابات تي *T-34s* السوفييتية، ولكنهم كانوا بلا حيلة أمام هذا الهجوم الجماعي الذي قدم من السماء.

كان الجنود في كل صباح يحدقون في السماء ويتساءلون: متى سوف تفسح السحب الطريق إلى سماء صافية وأرواحنا تذوي تحت وابل من النيران. بالنسبة لرجال فرق الدبابات الألمانية، كانت المنافسة غير متكافئة في مواجهة أقوى قوة جوية في العالم. حاولت المدفعية الألمانية المضادة للطائرات تعقب أهدافها صعبة المنال، بينما سارع الرجال والمركبات إلى الاختباء بين الأشجار. لكنهم لم ينجحوا في مسعاهم أبداً. كانت الطائرات سريعة جداً وصواريخها مميتة جداً. لقد تحولت إلى كابوس. كانت طائرات الحلفاء تطرق مسامعهم طوال اليوم. في بعض الأحيان

كانت قريبة جداً، كان صوت محركاتها النشاز يدوي فوق خط الأشجار بارتفاع مئتين أو ثلاث مئة قدم. في أحيان أخرى، كانوا لا يسمعون سوى قرقعة سقوط قنابل صغيرة في أمكنة بعيدة. وكان أكثر ما يزعج أولئك الذين كانوا على الأرض هو عدم اليقين من أن ضوضاء المحركات البعيدة أصبحت أكثر قرباً منهم. هل سيكونون الأهداف القادمة؟

«متى سوف يسقطون هذا القرف علينا... *Jetzt sitzen wir in der Scheisse*» هكذا كان يتمتم جندي ذو وجه مليء بالبثور، وهو يغطي رأسه بذراعيه، كما لو أن ذلك يمكن أن يوقف سقوط القنبلة.

«*Deckung* انبطحوا». صرخ كارلي برينز، وهو رقيب ذو شعر أشيب من فرقة النخبة المدرعة، وأشار إلى نقطة سوداء تمثل طائرة تحلق فوق رؤوسهم، وهي تسرع نحو موضعهم. ومع هدير عالي النبرة مرت المقاتلة من فوقهم.

« *.Deck*انبط..». مع وقوع الانفجار الذي مزق أذنيه انقطعت الصرخة. وموهوماً بالسلامة، عانق الأرض، واجتاحته سحابة من الغبار. من مكان ما داخل سحابة الغبار الحمراء جاء ضجيج المذبح، الخليط المروع من الصرخات كان ينتهي بنحيب رقيق. سقطت القنبلة على أرض خالية حيث كان الجرحى ينتظرون إخلاءهم.

كان على الجنرال بايرلين أن يكتب في تقريره: «إن القصف الجوي استمر دون انقطاع. قصف الحلفاء كل شيء دون أدنى تمييز. بالقرب من بارييه وشامبليون، ظلت مركبات الفرقة تحترق حتى صباح اليوم التالي. من خلال نظارتي، يمكن أن أرى الطائرات الشراعية التي تستخدم للشحن الجوي المعادية القادمة بالعشرات وهي تهبط داخل محيط مدينة باستون في البداية، تم إنقاذ قواتي، ولكن لم يتم إنقاذ أرتال المؤن. حدثت أفدح خسائرنا عندما دمرت القنابل وحدتي إصلاح دبابات متحركتين. بما أن جميع مخزوننا من الوقود كان بعيداً عنا، في ترويسدورف، على الطريق الطويل إلى الجبهة، فقد فقدنا أكثر من ثلاثين شاحنة ناقلة للبترول.

عندما طلبنا الدعم الجوي للدفاع عن أرتال الإمداد الحيوية، لم تظهر طائرات مقاتلة واحدة من سلاح الجو الألماني.

كان هذا الكلام صحيحاً فقد كان سلاح الجو الألماني *Luftwaffe* شبه معدوم. في المرات النادرة التي كانت تحلق فيها طائرة ألمانية من طراز ميسرشميت *Messerschmitts* أو فوك وولف *Focke-Wulffs*، كانت أسراب الطائرات الأمريكية من طراز موستنغ *Mustangs* وثندربولت *Thunderbolts* تتفوق عليها في المناورة أو التسلح وتنقض عليها. كانت معدلات الاحتكاك آخذة في الارتفاع، وكان الأمر يستلزم توفر نوع خاص من الشجاعة لطيار مقاتل ألماني للعودة مرة أخرى لتنفيذ طلعات جوية. كان النقيب كارل كريتشمان الحامل لوسام الفارس الصليبي واحداً منهم. فقد حلق بطائرته من طراز ميسرشميت *Messerschmitt BF 109*، عندما انضم إلى سلاح الجو كطيار شاب، كانت هذه الطائرة أفضل آلة طيران في الحرب. كان المدفع المثبت على مقدمة الطائرة قد جعلها سلاحاً مخيفاً. كان ذلك في عام 1940، في حرب أخرى تماماً، أو، كما قال أحد طياري «الجيش الأمريكي» الذين تم أسرهم: «لعبة أخرى». ومضت خمس سنوات وهو لا يزال يطير بالمقاتلة القديمة نفسها. لكنه علمهم درساً. فخلال دقائق، كان قد أسقط طائرتين من طراز موستانغ بي 51 (*P-51 Mustangs*). لا بد أن يكون طياروها من الملتحقين الجدد بالخدمة. كان قد اصطف خلف الثنائي، وطائرته ترتجف مع سقوط القذائف. اصطدم بالطائرتين الأمريكيتين، وفجر بدنيهما. طوردت طائرته، التي كانت مثل طفل صغير خرج لتوّه من المدرسة التدريبية، من قبل اثنين من طائرات ثندربولت *Thunderbolts* خرج لهيب من مظلة المحرك. انتشر الهواء المدفوع من مروحة الطائرة إلى أن أحاطت النيران بالمقاتل. ثم تسارع سقوطه قبل أن يختفي تحت الأشجار.

حدق كريتشمان في كرة اللهب، وفجأة، نسي أن يتحقق من ذيل طائرته. لقد لمح شعاعاً من الشمس يومض على معدن الطائرة، وهذا ما أنقذه. كانت

طائرة موستانغ معلقة في ذيل طائرته. وبغريزة طيار محنك، دفع مقبض قيادة طائرته إلى الأمام في هبوط انتحاري، ثم سحب المقبض في اللحظة الأخيرة وترك صمام الخانق منساباً وهو على بعد 10 أقدام فقط من الأشجار. أخطأ طيار الموستانغ في تقدير خطوته وعلق جناحه بشجرة صنوبر. انفجرت الطائرة وسط كرة من اللهب، تخطى حطامها المحترق قمم الأشجار قبل أن تختفي في الغابة. دفع كريتشمان مقبض القيادة إلى الأمام، كان قد صعد إلى السماء. الدليل الوحيد على وجود سلاح الجو الألماني.

وأصبح صوت انفجار القنابل والقذائف قرقعة ثابتة، لا صدى لها. كان رجال الجناح العسكري للحزب النازي الفافون-إس إس (*Waffen-SS*) وفرق الدبابات يحدقون في السماء التي فوق رؤوسهم ورأوا أن خطاً نفاثاً أبيضَ صادراً من خلف طائرة يتقاطع مع زرقة السماء. لو لم تكن فترة حرب، لكانت تلك الخطوط الدقيقة شيئاً جميلاً. لكن الموت لم يكن جميلاً أبداً. وفي الأعالي كانت هناك قاذفات قنابل أميركية تحمل مجموعات من القنابل في أجوافها الضخمة، وهي جاهزة للإسقاط. بالنسبة للقادة البريين مثل سيب ديتريتش وهاسو فون مانتوفيل، تحولت الساعات والأيام التالية إلى نهاية العالم الأكثر دموية وكدراً.

«اتصل الجنرال فون» مانتوفيل «بالقيادة العليا الألمانية». وطلب الإذن بالتوجه إلى الشمال لتحقيق نجاح جزئي على الأقل. كان الجنرال جودل، رئيس القيادة العليا للفيرماخت[1]، على الخط الآخر. «يمنعك الفوهرر من الانسحاب متراً واحداً. *Vorwärts - niemals zurück* إلى الأمام ليس هناك تراجع أبداً».

كان الجنرال فون مانتوفيل يعلم أن الجدال معه وشرح وجهة نظره أمر ميؤوس منه. ومع ذلك فقد قام بتغيير وضع فرقه القتال حول باستون من الحالة العدوانية إلى حالة الترقب.

1- جهاز عسكري لإدارة شؤون الجيش وسلاح الجو وسلاح البحرية، وكانت لديه خصومة مستمرة مع القيادة العليا للجيوش الألمانية. المترجم.

وفي الوقت نفسه، اقتربت الوحدات المتقدمة من وحدات فرقة الدبابات بقيادة الجنرال باتون من باستون. وكانت في الصف الأول الكتيبة السابعة والثلاثين للدبابات بقيادة العقيد كريتون أبرامز. وعند وصوله إلى المرتفعات، وبينما أصبحت باستون أمامه، قام بالاتصال بمقر قيادة الجنرال باتون من دبابة قيادته... إلى ثندر بولت السادس[1] «اطلب الإذن بالتوجه مباشرة إلى باستون».

«انتظر يا كريغ»، جاء الرد من أحد مراكز المساعدة والدعم التي تحت إمرة الجنرال باتون، «سأسأل الرئيس». وذهب ذلك الشخص ليسأله وعندما علم الجنرال باتون بطلب العقيد أبرامز، زمجر قائلاً: «وهل أريد غير ذلك؟ هيا بنا!».

وقف العقيد أبرامز في دبابته. «الجميع جاهزون؟ حسناً، أغلقوا الأبواب ولنرحل! اليوم سنكون في باستون». وبينما كانت دبابات العقيد أبرامز تتسارع لفك الطوق الألماني، فتحت المدفعية الأمريكية الموجودة في باستون نيرانها ودمرت قرية أسينوي التي لا تبعد سوى ميلٍ واحدٍ فقط عن حدود المدينة والتي كان يسيطر عليها الألمان بقوة. كانت دبابات أبرامز تقترب من مواضع القصف المدفعي القاتل. وجاء صوت عبر جهاز اللاسلكي «سيدي العقيد، ستتعرض للقصف من أسلحتنا». كان ذلك صوت قائد وحدة دبابات كانت تزن الواحدة منها أربعين طناً من طراز ملك الكوبرا.

«تقدم تقدم!» صرخ أبرامز. وسارت تسع دبابات من طراز ملك الكوبرا بأقصى سرعة نحو القرية، وإلى داخلها، وخارجها على الجانب الآخر. في إعادة تمثيل باستخدام الدبابات لهجوم اللواء الخفيف[2]،

1- اسم رمزي للاتصال. المترجم.

2- هجوم شهدته حرب القرم، قامت به قوات الفرسان البريطانية الخفيفة بقيادة اللورد كارديغان ضد القوات الروسية أثناء معركة بالاكلافا في 25 تشرين الأول 1854. المترجم.

قامت دبابات العقيد أبرامز بسحق أي شيء في طريقها تحت جنازيرها أو تحويله إلى أشلاء. وبمجرد أن فتحت ثغرة في الطوق الألماني، اندفع جنود المشاة في الفرقة الثامنة والثمانين من خلالها. تسابقت الدبابات التي في المقدمة نحو الغابة. تم تدمير منزل حارس الغابة بواسطة قذيفة دبابة حيث تعالى الغبار منه. كانت الأرض أمامهم مغطاة بمظلات ملونة. هل كانت لهم؟أم لنا؟ كان قناصة الدبابات متحمسين جداً لدرجة أنهم كانوا مستعدين لإطلاق النار على أي شيء يتحرك، عندما ظهرت خوذة على شفا خندق، تبعها وجه وهيئة جندي حاملين غصن زيتون أخضر، يلوح بذراعيه بجنون وهو يتعثر وسط الثلج العميق الذي يصل حد الركبة نحو دبابة كانت في المقدمة من طراز الملك كوبرا. كان اللفتنانت ويبستر من الفرقة 101 المحمولة جواً. «الحمد لله، أنا مسرور لرؤيتكم رفاقي».

أدى رجال باتون مهمتهم. تم فك الحصار عن باستون.

لم تنته معركة الثغرة، ولكن لم يعد من الممكن عكس نتائجها، لقد أكدت نتيجتها القنابل والقذائف التي أسقطتها الآلاف من طائرات الحلفاء. كانت النار تسقط من السماء. وكانت حركة الناقلات على الطرق في ألمانيا، وهي تمتد على شكل ناقلة بعد أخرى من الحدود، قد تعرضت للقصف، وتم تدميرها، وإبادتها. كانت فرقة النخبة المدرعة فرقة بالاسم فقط. كان الألمان أثناء تراجعهم، يسيرون بمحاذاة القرى لتجنب الطرق الرئيسية وحافظوا على السير في مسارات الغابات بشكل رئيس. ومع ذلك كانت تلك الطائرات اللعينة تكتشفهم. كانت الفرقة تؤدي رقصة الموت الأخيرة وسط جحيم القنابل.

كان الحقل أمام الجنرال المتعب بايرلين خالياً من الحياة. أضاء ضوء القمر المنظر الثلجي الذي تنتشر فيه الحفر السوداء القبيحة حيث كانت الانفجارات قد صدمت الأرض. وتناثرت الدبابات والمركبات المحطمة والمدمرة بشكل عشوائي، وقد تشابكت قطع معدنية في شكل زوايا غريبة - سحقها وسواها بالأرض وابل من القنابل. كانت

فوهات البندقية الباردة تشير بشكل أعمى نحو سطح القمر. ومشاهد الدمار، دليل على ما استطاعت أن تفعله المئات من قاذفات القنابل. لفرقة دبابات البانزر، فرك الجنرال بايرلين عينيه. فرقته متمددة هناك في الميدان مسحوقة ومدمرة. كم من رجاله دفعوا ثمن شجاعتهم في تلك اللحظة القصيرة، عندما تفككت الغابة، عندما حلقت الأشجار والرجال نحو السماء، عندما انتهى العالم؛ عالمه[1]. دخلت فرقة النخبة المدرعة، الفرقة التي اقتربت من تحقيق الإنجاز، إلى المعركة مع 100 دبابة و11 ألف رجل، وانتهت في عام 1944 بـ 10 دبابات و400 رجل. وانتهى أمرها كفرقة عسكرية.

كانت الخسائر كبيرة في كلا الجانبين. كانت خسائر الأمريكيين 75600 جندي و733 دبابة و1200 سيارة. فقدت ألمانيا أكثر من 110ألف فرد ما بين قتيل، وجريح، أو أسير، ومعظم دروعها الثمينة. دمرت خمس مئة وخمسين دبابة، وكثير منها من طراز تايغر (النمر) وبانثر (الفهد). تركت خمسة آلاف مركبة أخرى أو قصفت حتى تحولت إلى أجزاء، وتم إسقاط 1280 طائرة. حاول سلاح الجو الألماني القيام بطلعة جوية. أمر مارشال الجو غورينغ بتنفيذ عملية الضربة الكبيرة (*Operation Grosser Schlag*). في وقت مبكر من يوم الأول من كانون الثاني 1945، أقلعت ألف ومئة طائرة مقاتلة ألمانية من قواعدها. كان هدفها: تدمير سلاح الجو التابع لقوات الحلفاء، بقصف المطارات، والقواعدالجوية وأقلعت نحو السماء طائرات من طراز فوك وولف *Focke Wulf*. وميسيرشميت *Messerschmitts*، ويونكرز *Junkers* ودورنيرز *Dorniers*، وأي شيء يمكن أن يطير. وبسبب خطأ فادح في التخطيط تم وضع العديد من الأسراب في ممرات الإطلاق الثابتة للصواريخ المضادة للطائرات الألمانية *V-1 Flying Bombs* ومباشرة وسط الستارة المضادة للطائرات الأكثر تركيزاً في أي مكان في مسرح العمليات الأوروبي. على الرغم من

1- أنهى الجنرال بايرلين الحرب برتبة قائد فيلق.

هذا الستار الدفاعي، دمر الألمان 27 من القواعد الجوية للحلفاء. لكن طلعاتهم أثبتت أنه انتصار باهظ الثمن. تم إسقاط ثلاث مئة وأربعة من الطائرات الألمانية في ذلك الصباح، وتعرض سلاح الجو الألماني إلى هزيمة ساحقة.

في 3 كانون الثاني 1945، بدأ الحلفاء هجوماً مضاداً واسعاً. قامت طائرات سلاح الجو الأمريكي بقيادة الجنرال هاب أرنولد «بعزل جبهة القتال» عن طريق القصف البساطي[1] وتحليق الطائرات على مستوى منخفض. مما أوقف وصول الإمدادات إلى وحدات الجبهة الألمانية. وبسبب نفاد الوقود والذخيرة، بدأ الألمان في تلغيم معداتهم. في 13 كانون الثاني، بدأ السوفييت مسيرتهم النهائية نحو برلين. لم يترك الألمان شيئاً ليقف في وجههم، حيث كانت دباباتهم متناثرة في تلال آردين وهي محطمة ومدمرة كافح هتلر لدفع القطعات الحربية إلى ساحة القتال حيث كانت هناك حاجة ماسة إليها. لكن، لم تكن لديه أية قطعات.

في الساعة 9:05 من صباح يوم 16 كانون الثاني، تقدمت عناصر من الجيش الأمريكي الأول والثالث والتقت بالقرب من هوفاليز. وانتهت معركة الثغرة.

وكان هجوم آردين هو آخر صدام كبير جرى خوضه على الجبهة الغربية، حيث خاضت أهواله آلاف الدبابات والطائرات ومليون رجل. ربما كان الجنود الألمان يؤمنون بالنصر، لكنهم بالتأكيد لم يصدقوا جنرالاتهم. لقد عرفوا الحقيقة.

في عام 1968، لخص هاسو فون مانتوفيل، قائد الجيش السابق الأحداث كالتالي:

«في 24 كانون الأول، تغير الطقس. كانت قوات الحلفاء تمتلك التفوق الجوي بحيث أصبحت كل حركة وحداتنا مستحيلة ولم يعد

1- عملية قصف كبيرة في منطقة كبيرة عادة عن طريق إسقاط كثير من القنابل غير الموجهة كالقنابل الجاذبية. المترجم.

بالإمكان نقل الإمدادات والوقود إلى الجبهة. لقد أثبتت فكرة كسب الوقت في الغرب، من خلال وقف الأميركيين، إنها كانت وهماً سيئاً. الوحيدون الذين استفادوا من هذا هو الروس.

ربما كان هتلر قد تصرف من وجهة نظر سياسية عندما أمر احتياطياته الأخيرة بإقامة موضع دفاعي على طول منطقة آردين. كانت الطريقة التي نظر إليها للأمور –وفي هذا الصدد، كان على صواب في تقييمه–، هو أنه لا يمكن للقوى الغربية أن ترغب في أن يحتل السوفييت ألمانيا بأكملها. تأتي الأدلة على ذلك من محادثة تمّ تسجيلها بين هتلر وغورينغ في المقر الرئيس لهتلر في 27 كانون الثاني 1945 [1].

هتلر: «هل تتخيل حقاً أن البريطانيين متحمسون حيال تقدم السوفييت».

غورينغ: «لقد دخلوا الحرب لمنعنا من التوجه إلى الشرق [أي بولندا 1939]، ولكن ليس للسماح للشرق بالوصول إلى شواطئ المحيط الأطلسي».

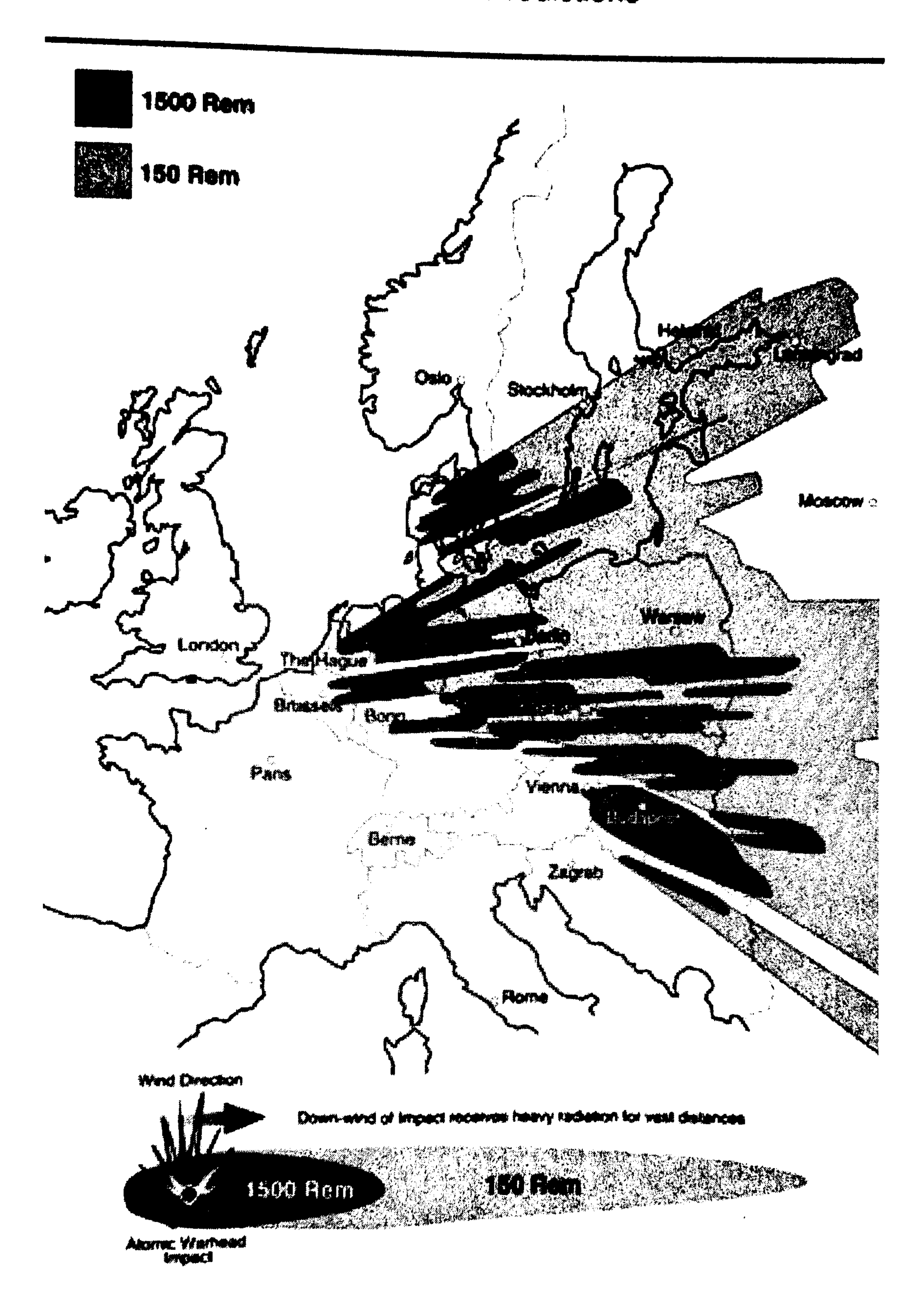
إذا استطاع هتلر أن يوقف الحلفاء الغربيين لفترة كافية، فإن تأخيرهم سيخلق حالة من الذعر في واشنطن ولندن بأن ألمانيا قد تحقق سلاماً منفرداً *Separatfrieden*، مع القوى الغربية.

الحقيقة المرة كانت مختلفة. إن أولئك الذين ما زالوا متمسكين بالأمل البائس «بالنصر النهائي» قد خاب أملهم. أصبحت معركة الثغرة هي المحرقة الجنائزية للقوات المسلحة الألمانية *Wehrmacht* . لقد تم توريط جيشين بريين من دون سبب معقول في معركة ضد أضخم تجمع للطائرات شهده العالم على الإطلاق.

وفي اليوم الذي فتحت فيه بوابة السماء، كانت جيوش هتلر ترعد غاضبة وسط الجحيم.

1- راجع: Frederick Gilbert, Hitler Directs the War, Oxford 1950.

Soviet Fallout Predictions



عامل الرياح
1970-1945

من أقوال شعب البوشمن[1]: «القصة مثل الريح، إنها تأتي من مكان بعيد جداً، لكننا نصدقها»

• من كتاب لورانس فان دير بوست،
قصة مثل الريح

لقد قرر الطقس تدمير المدينة.

علم قائد الطائرة من طراز سوبر فورترس بي- 29 (*Super fortress B-29*) بالأوامر الصادرة إليه.

... إلقاء القنبلة الأولى من نوعها في أقرب وقت يسمح به الطقس برؤية مجال القصف بعد 3 آب 1945، على أحد هذه الأهداف: كوكورا أونيغاتا أو هيروشيما أو ناغازاكي...

منذ إقلاعهم كانوا يحلقون فوق المحيط الهادئ المغطى بالغيوم. في الساعة 06:10، بدأت السُّحُب بالانفصال، ليحل محلها حجاباً رقيقاً من السحب عالية الارتفاع. في الساعة 07:00، رصد مراقب الأرصاد الجوية في طائرة الاستطلاع الجوي التابعة للقوة الجوية الأمريكية التي كانت تحلق فوق مدينة كوكورا اليابانية أن الهدف تغطيه السحب بكثافة. وكان

1- مجموعة عرقية بدائية تعيش في صحراء كالهاري التي تتوزع بين بتسوانا وناميبيا وجنوب أنغولا. المترجم.

تقرير طائرات الاستطلاع الجوي فوق مدينة نيجاتا مماثلاً له، فثماني أعشار المدينة مغطى بالغيوم. وأخيراً، في الساعة 07:15 تصل الرسالة المشفرة من مراقب الطقس في الطائرة التي تحلق فوق مدينة هيروشيما.

عشرا مساحة المدينة تغطيها الغيوم على ارتفاع منخفض بقياس 15 ألف قدم.

«لقد حصلنا على هدف»، يعلن العقيد بول تيبيتس، وبعد فترة توقف قصيرة، يضيف: «هيروشيما».

انزلق طاقم الطائرة في بذلاتهم الضخمة المضادة للاحتراق. في الساعة 07:40، دوى صوت المحركات الأربع الضخمة وارتفعت الطائرة الكبيرة ذات اللون الرمادي الفضي إلى علو 31 ألف قدم. وبعد عشر دقائق، بلغت اليابسة فوق واحدة من الجزر اليابانية الصغيرة وتدعى، شيكوكو. وبسرعة 328 ميلاً في الساعة، اتجهت أينولا غاي Enola Gay [1] إلى مدينة لاحت في الأفق، توضحت بالكاد في شمس الصباح. هدفهم الدقيق هو مفترق الطرق في نهر أوتا، الذي يمتد إلى جسر أيوي في وسط المدينة.

تفتح أبواب القنبلة... يسقط وعاء أسطواني أسود اللون زنته أربعة أطنان من كوة القنبلة المفتوحة... يتم سحب أسلاك التفجير من مزلاج الأمان... ومع انعطاف شديد، يحول تيبتس الطائرة بعيداً عن الهدف في حين كان يرى أسفله ثلاث مظلات مفتوحة تحمل وحشاً ذا قوة مدمرة لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل...

الساعة 08:15 يوم السادس آب 1945. العالم يدخل العصر النووي مع منظر توهج شديد. من الآن فصاعداً، سيبقى شبح سحابة الفطر مخيماً على البشرية[2].

1- وهو الاسم الذي يطلق على قاذفة القنابل سوبر فورترس بي 29. المترجم.

2- صدر أول رد فعل من مساعد الطيار، الكابتن روبرت لويس. «يا إلهي، ماذا فعلنا».

عندما نظر بافل كولنكوف إلى السماء من نافذة شقته في إحدى ضواحي كييف، في تلك الليلة في عام 1962، لم يكن يعرف مدى قربه من الهلاك. كانت هذه اللحظة ذروة مواجهة دراماتيكية بين القوتين العظميين. بعد ظهر ذلك اليوم، ألقى الرئيس الأمريكي، جون ف. كينيدي، خطاباً للأمة أوضح فيه تماماً نواياه لوقف نشر الصواريخ في كوبا. وبانتظار رد فعل الاتحاد السوفييتي بدأ العد التنازلي للحرب النووية. ففي ذلك الوقت، كانت الصواريخ السوفييتية من طراز *SS4* و*SS5* وكان كل منها مزوداً برأس حربي يبلغ حجمه ميغا طنين جاهزة للإطلاق على أهداف في جميع أنحاء أوروبا الوسطى. حتى لو لم تكن المدن الرئيسية هدفاً أساسياً، فإن السكان المدنيين سيعانون بالتأكيد من هجوم يستهدف الأهداف العسكرية. (في المصطلحات العسكرية، كانت تسمى هذه علاوة إضافية). لم يكن الهدف من الضربة الذرية هو «تعطيل، أو إهانة، أو تدمير»، بل «إبادة».

إن شبح الهجوم المفاجئ السوفييتي المرعب، كان أمراً غير متوقع في وسط أوروبا، وكان يظهر مراراً وتكراراً، استناداً إلى فكرة أن «المفاجأة هي المبدأ الأساس للحرب وهذه الفكرة تنتمي إلى مجال علم النفس». لقد فشل السياسيون الغربيون في ذكر حقيقة أن الاتحاد السوفييتي قد بدأ في تبني «صيغة التعايش» كمحدد لسياسته الخارجية التي اعتمدت على الضرورة العملية لتجنب حرب نووية حرارية. وكانوا يعرفون السبب.

كان الخبراء النوويون في كلا المعسكرين يدركون تماماً أن أي هجوم نووي سوفييتي على أوروبا الوسطى سيؤدي إلى الانتحار الجماعي لروسيا. لا يرجع ذلك إلى الانتقام النووي من الغرب، والذي لا يمكن تجنبه، ولكن بسبب نمط الطقس السائد بشكل دائم. وبسبب عامل الرياح. إن اتجاه الرياح السائد - من الغرب إلى الشرق - بالتوافق مع دوران الأرض، قد يجعل من السحابة الإشعاعية الناتجة من انفجار قنبلة وزنها اثنين ميغا طن، فوق الترسانة النووية الفرنسية في جبال بروفانس،

تمتد سريعاً إلى كييف في أوكرانيا... أو إن سلاحاً نووياً مشابهاً، يتم إسقاطه على تجمعات قوات الناتو في فولدا غاب في ألمانيا، سيقوم بتلويث موسكو بالإشعاع في غضون أربع وعشرين ساعة[1]. وكانت هذه هي العدالة التي يطبقها الطقس على الجميع بالتساوي. بالطبع، يمكن للمرء أن يتوقع حدوث تغييرات مفاجئة قصيرة في اتجاه الرياح، ولكن من ذا الذي يجرؤ على الاعتماد على ذلك؟

والحقيقة هي أن من يسيطر على الريح سيسيطر على الحرب النووية القادمة. هذا الأمر جعل القوى النووية تقوم ببدء برامج بحوث مكثفة. أشار العلماء إلى أن تحفيز ردود الفعل على نطاق واسع في نظام الطقس في الأرض أمر ممكن. ولكن لتحفيز عدم استقرار المناخ، فإن الأمر يحتاج إلى تعديل مستويات التفاعل بين الهواء والأرض والمياه. فجأة، أصبح العالم واعياً بهشاشة البيئة وسط عمليات تطوير أسلحة أكثر تطوراً وتنوعاً. وهناك فئة جديدة من الأسلحة في الأفق، وربما تكون تلك الأسلحة أكثر ضرراً ومدمرة من الأسلحة النووية، فهي مصممة لإحداث تغييرات في أنماط الطقس الحالية وستصبح سلاح الإرهاب في الألفية القادمة. ووضعت مسألة تجنب هذا الخطر في مقدمة جدول أعمال الاجتماع الذي عقد بين الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ونظيره السوفييتي، ليونيد بريجنيف، في تموز 1974. وقد وردت العبارة الرئيسية التالية في ديباجة مسودة البيان الختامي للاجتماع. «ستقوم قوتانا بإجراء مفاوضات حول سبل إحباط محاولات تعديل البيئة للأغراض العسكرية التي يمكن أن تكون لها تأثيرات وخيمة واسعة النطاق وطويلة الأمد تضر برفاهية البشرية».

أصدر اجتماع المنظمة العالمية للأرصاد الجوية في واشنطن في

1- صحح السوفييت سوء تقديرهم بصواريخ SS20 وSS21 الجديدة، التي حملت رؤوساً حربية أصغر بكثير وبدقة أكبر. كان هذا يمثل خطراً حقيقياً، حيث كان تأثير «شمعة الرياح» ضئيلاً للغاية. (من الدراسات التي أجراها الجنرال بيير غالوا، أحد أهم الخبراء الاستراتيجيين العسكريين).

تشرين الثاني 1974 تعزيزاً لهذا البيان، حيث أصدر إعلاناً تضمن تقييماً أكثر تفصيلاً لتقنيات تعديل الطقس المختلفة. أدى ذلك إلى حظر الأمم المتحدة لأعمال تغيير الطقس في الحرب، وهو اقتراح شاركت في رعايته الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في 3 أيلول 1976 وتم توقيعه في جنيف من قبل رؤساء خمس وعشرين دولة في 18 أيار 1977 [1]. والذي دعا بصورة محددة لتحسين البيئة والاستخدام السلمي لها. لكن كيف نحدد ما هو سلمي وما هو عسكري؟ فالتشتيت الاصطناعي للضباب فوق المطارات للمساعدة على هبوط الطائرات المدنية أمر سلمي، ولكن إذا كان هناك عدو بحاجة إلى رؤية الأهداف التي يريد قصفها، فإن تشتيت الضباب عمل عسكري وضار. يقول ألبرت أينشتاين: «إن المطر الاصطناعي الذي يساعد «بلداً جافاً» على إطعام شعبه هو أمر إنساني، ولكن غمر البلاد نفسها بهذا المطر وإغراقها في الوحل، عمل غير إنساني».

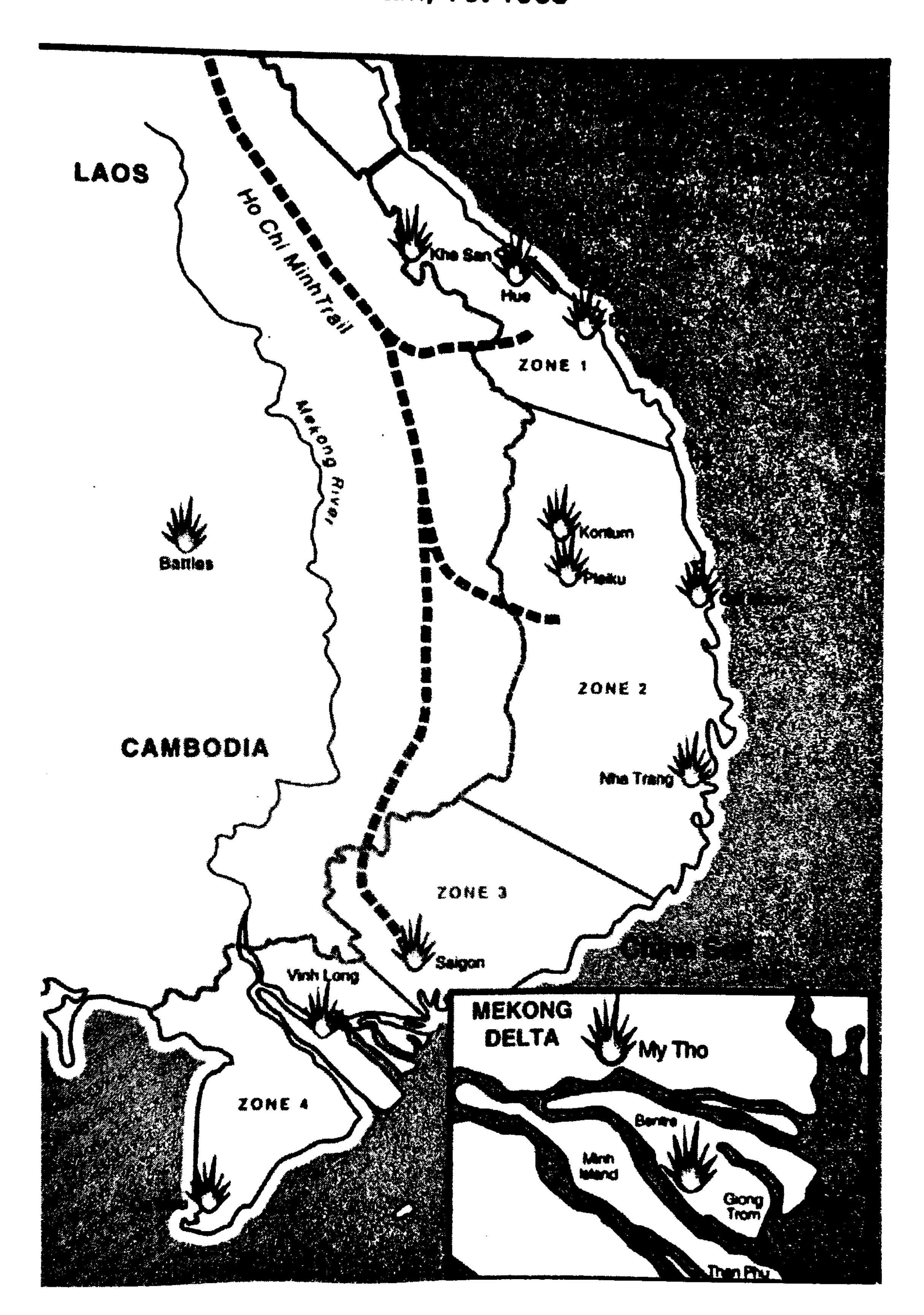
ويقول أينشتاين أيضاً:

«لا يمكن أن أصدق أن الله يلعب بالنرد مع الكون».

إن الإنسان وليس الله هو من يلعب بالنرد مع الكون.

1- كان وزير خارجية أمريكا هو سايروس فانس والاتحاد السوفييتي هو أندريه غروميكو.

Vietnam, Tet 1968



الموت في الدلتا
الثاني من آب 1965

في الليلة الماضية، سقط النيزك الكبير
وأصبح الجميع مسعورين وقبيحين.

• من رسالة جندي أمريكي
في دلتا الميكونغ تموز 1965.

إنها فيتنام، عشيقة دلتا ميكونغ العظيم المثيرة، ولؤلؤة جنوب شرق آسيا، حيث أمضى السكان الأصليون ستة أشهر كحد أدنى في الوحل، وفي اللحظة التي توقفت فيها الأمطار الموسمية أو الأعاصير، أشعلت الشمس أدمغتهم المختبئة تحت قبعاتهم المخروطية. بالإضافة إلى هذه الظروف المناخية السعيدة كانت هناك غابة خضراء نضرة مليئة بطنين الحشرات التي تمتص أو تلسع أو تمضغ أو تلتهم ببساطة. تحت الخيمة المظلمة التي تضم النباتات المتسلقة، والأشواك، والأوراق المتعفنة التي تغطي جزءاً كبيراً من هذه الجنة الغريبة يمكن أن نجد أعداداً وفيرة من النمل الأحمر، والنمل الأسود، والنمل البرتقالي، والقمل، والبراغيث، والعناكب المكسوة أرجلها بالشعر، والثعابين، وذلك الكيس الأرجواني، إنه حيوان العلقة[1].

أظهر أولئك الذين اضطروا للعيش هناك اختلافاً كبيراً في المصالح، ولم يكن أياً منهم معافى.

1- جنس من الحيوانات التي تتبع شعبة الديدان المقسمة. يلتصق بجسم الإنسان ويمتص دمه. المترجم.

كان هناك الجنود النظاميون الفيتناميون ومقاتلو الفيتكونغ، والسكان الأصليون من المرتفعات الوسطى في فيتنام وعملاء المخابرات الأمريكية والسوفييتية، وزارعو نبات الخشخاش اللاويون، وأمراء الحرب من الخمير وتجار المخدرات الفيتناميون، والمبشرون الكاثوليكيون، والرهبان البوذيون، والتجار الصينيون، والمزارعون الفرنسيون، وجيش من العاهرات اللواتي ينشرن مرض السيلان بدون قيود، والمصابون بمرض التهاب الكبد الوبائي والزهري.

كانت هناك الشراك الملغومة، والفخاخ المتكونة من الأعواد، والألغام المضادة للأفراد، ونيران المدفعية العشوائية، وبنادق الكلاشينكوف، والعامل البرتقالي[1]، وسلاح البازوكا الذي يُباع في السوق السوداء، والجثث المتعفنة، وصبيان وجوههم مليئة بالبثور من أوكلاهوما ووايومنغ، وإنديانا ونيوجيرسي، وهم يهيمون على وجوههم بلا غرض واضح عبر هذا المشهد.

أمضيت عشر سنوات تقريباً في فيتنام. ليس كجندي، ولكن كمراسل ومصور لإحدى الشبكات التلفزيونية. رأيت الكثير من البؤس والكثير من الموت. لقد واجهته خلال تجوالي في حقول الدلتا، وأنا أسير في طرق مليئة بالحشرات في المرتفعات الوسطى. كلنا عانينا. الأشرار مثل الأخيار. وكان علينا فعل الكثير مع الطقس. والمعادن الصدئة، وغشاوة العدسات بسبب الضباب والرطوبة، والفطريات الجلدية، والأحذية المتعفنة. عندما كانت تهطل الأمطار، تصبح أجسامنا رطبة، وعندما لا تمطر، تظل أجسامنا منقوعة بسبب الرطوبة. الماء الذي شربناه والطعام الذي أكلناه جلب لنا المرض.

كنت دائماً مع «الناس الأخيار» لأن الخير يكون دائماً حيثما تكون أنت. قرأت ذات مرة حكمة كتبها المؤرخ، السير مايكل هوارد. كانت

1- هو الاسم الحركي لمبيد أعشاب يجرد الأشجار من أوراقها استخدمه الجيش الأميركي أثناء حرب فيتنام كجزء من برنامج الحرب السامة. المترجم.

تدور حول الاصطفاف مع أي جانب بينهما نزاع. «أولاً: لا تصطف إلى جانب أحد. ثانياً؛ إذا قمت بذلك، اختر جانباً. ثالثاً: اختر الجانب الذي سيفوز، ثم تأكد من ذلك». حسناً، كنا نحن الأخيار، أليس كذلك. كنا نحن الأبطال نحن مقاتلو الفييت كونغ[1] الذين انتصروا في النهاية[2].

يعود أصل كلمة Monsoon إلى اللغة العربية وتعني الموسم، وهي تشير بشكل خاص للموسم الذي تمطر فيه السماء. وفي مناطق الغابات والجبال في جنوب شرق آسيا، كانت الرياح الموسمية تستمر من بداية نيسان حتى منتصف أيلول. ومن الجوانب المهمة للحفاظ على قوة القتال الفعالة هي الحفاظ على النظافة بشكل مناسب. والطين والمطر يحول دون ذلك.

اكتشف الفرنسيون ذلك عند خسارتهم معركة ديان بيان فو. لم يكن بنيتهم أبداً البقاء في فيتنام إلى بداية الرياح الموسمية، كانوا يبحثون عن انتصار سريع وحاسم. لكنهم لم يحسنوا اختيار مواقعهم بشكل جيد، فقد كانت على بعد 300 كيلومتر من قاعدة إمدادات هانوي، في وادٍ مسطّح محاطٍ بالتلال المرتفعة، المغطاة بغابة كثيفة ومتشابكة. «لا يمكننا أن نستولي على هذه التلال، ولا يستطيع الفيتناميون السيطرة عليها كذلك»، هكذا كان يقول منطقهم. لكن نغوين جياب الجنرال في قوات اتحاد تحرير فيتنام أثبت خطأهم. لم يقتصر الأمر على محاصرة الأراضي المرتفعة، بل أحكم الحصار عليهم وتم اصطياد الفرنسيين في مصيدة الفئران الخاصة بهم. عندما سقطت الأمطار، فاض نهر نام يوم وغمر بمياهه المعسكر الفرنسي وأزاله. غمر المطر الخنادق والتحصينات بالإضافة إلى انهيال أنهار من الطين، مما تسبب في مشاكل صحية حادة. أصبح الإسهال والتيفوئيد قتلة متسلسلين؛ حتى المصابون بجروح بسيطة في المعركة ماتوا بسبب التقرحات الملتهبة والغرغرينا.

1- مقاتلو حركة المقاومة المسلحة الفيتنامية. المترجم.

2- كان الأمريكان يطلقون عليهم لقب Victor Charley. المترجم.

في هذا الوضع، حيث كانت العمليات العسكرية تعتمد بشكل كامل في إمداداتها وإخلاء المصابين على الجسور الجوية، لم تصل أي إمدادات إلى وحدات القتال. كان موسم الأمطار قد غطى الوادي بستارة، هي عبارة عن غطاء سحابي دائم. كانت الحفر التي تسبب بها القصف المدفعي قد دمرت مواقع هبوط الطائرات، وعلى أي حال، كانت الأرض رطبة جداً إلى حد لا يمكن أن تهبط عليها أي طائرة كبيرة. في حين كان على الفرنسيين المحاصرين الاعتماد كلياً على وسائل النقل الحديثة، استخدمت القوات الفيتنامية الحمالين لإيصال المؤن والإمدادات إلى وحداتها. بعد معاناة شهر من القصف المتواصل من مدفعية القائد جياب (كان على كل حمال أن يجلب قذيفة مدفع على ظهره)، وصل الحصار إلى نهايته. كان على الحامية الفرنسية المكونة من 7000 رجل والذين كانوا مرضى إلى الحد الذي لا يستطيعون فيه القتال وضعفاء إلى الحد الذي لايستطيعون فيه المشي أن تستسلم. لم ينج الكثير منهم من الأسر.

قبل أي نزاع، تكون وظيفة القائد العسكري هي التخطيط للأسوأ. ربما سمع الجنرالات الأمريكيون عن الكارثة الفرنسية في ديان بيان فو، لكنهم لم يقرؤوا الكتاب، ولا سرد أحداث المعركة التي كتبه الفرنسيون، ولا ما كتبه عدوهم المستقبلي، الجنرال نغوين جياب، الذي سرد تفاصيلها. لكن لا بد أن يكونوا قد سمعوا بحملات الأدغال التي كان على قواتهم خوضها خلال الحرب العالمية الثانية في المناطق المدارية[1] مثل بورما وغينيا الجديدة. وكما كان الحال هناك، كان الطقس أكبر خصوم الولايات المتحدة. بعد بعض التحركات الأولية، وللمرة الأولى في تاريخهم اللامع، كانت تستشرف أمريكا إمكانية حقيقية لتعرضها للإذلال. ومع ذلك، تمكنوا من تحقيق بعض الانتصارات من خلال بعض الضربات الشديدة.

عندما تورطت الولايات المتحدة مثل الأعمى في المستنقع

1- تعني المناطق المدارية عموماً المنطقة الواقعة بين مدار السرطان ومدار الجدي.

الآسيوي، استمر قادة الحرب بإخبار الرأي العام بشيء واحد بينما كانوا يعرفون أن الصورة الفعلية مختلفة تماماً. في 8 آذار 1965، نزل أول جنود مشاة البحرية الأمريكية على الشاطئ في دا نانج، في ما وصفه الجنرال ويستمورلاند بإعادة تمثيل لمعركة إيو جيما[1] لم يكن الأمر يشبهها بشيء وبدلاً من أن يقابلهم القرويون بالرصاص، كانوا يحدقون بفضول بهولاء الرجال ذوي الأجسام الضخمة والبدينة الذين يسيرون على الشاطئ حاملين أعلام سريتهم. قام ضابط العلاقات العامة في البحرية، الذي نزل قبل دقائق من نزول القوات الرئيسية، بتوزيع أعلام أمريكية صغيرة على الأطفال من السكان المحليين[2].

كان الأولاد ذوو قصة الشعر القصيرة الذين جاؤوا، مباشرة من معسكرات التدريب في مكان ما من الولايات المتحدة، قليلي الخبرة وسذجاً للغاية، ودودين بطبيعتهم، التي تكمن داخلها جدية الأمريكان، وتزيد من حماسهم الهرمونات الذكورية وقد أحضروا معهم شرائح اللحم المجمدة وموسيقى الروك والكوكا كولا. حول معسكراتهم التي تم تجميعها على عجل، نمت البلدات المبهرجة العادية، حيث كان بوسع الفتيان أن ينسوا كل شيء عن الحرب في بيوت الدعارة المؤقتة. كان هناك صوت إذاعي نسائي، يلقب بـ «هانوي هانا *Hanoi Hannah*»، تقدم دعاية مملة. ورد الأمريكيون عليها من خلال بث موسيقى وأغاني الروك أند رول في إذاعة القوات المسلحة الأمريكية في فيتنام.

لم تكن حركة العصابات الناشئة، والمعروفة باسم الفيت كونغ، أي شيء سوى آلة قتل فعالة. في البداية، كانت أسلحتهم تتكون في بعض الأحيان من أنابيب معدنية مثبتة بالأسلاك إلى إطار خشبي، مع مسمار إشعال مطاطي. تعلموا بسرعة وتحولوا إلى خبراء محترفين في

1- هي معركة نشبت في 19 شباط 1945 بين الولايات المتحدة وإمبراطورية اليابان، انتهت المعركة في 26 آذار 1945. كانت نتيجتها انتصار الولايات المتحدة. المترجم.

2- لا زال المؤلف حياً وقد اشتهر على نطاق واسع فيلمه التلفزيوني الوثائقي The Mills of the Gods.

صنع الكمائن. نادراً ما كان مقاتلو الفييت كونغ يحتفظون بالأرض، ولكنهم كانوا يسعون إلى شن الضربات، وإلحاق أكبر قدر من الخسائر، ويسارعون بالانسحاب قبل أن يصل العدو. كانوا يتجولون في الريف، ويلقون المحاضرات على القرويين التي تتحدث عن المستقبل الشيوعي المجيد وقتلوا بعض الزعماء الذين لم يرغبوا في الاستماع. وهو ما أزعج كثيراً السلطات في سايغون، لدرجة أنهم أرسلوا قوات الأمن القاسية لتذبح المزيد من القرويين، بتهمة أنهم من أنصار الفيكونغ. خلفت هذه العمليات المزيد من القتلى والمشردين، ومن الذين أصبحوا لعبة في أيدي الفيكونغ. انضم المزيد من الناس إلى الحركة إلى أن بدأ «التهديد الشيوعي للمنطقة» يتوهج على شاشة الرادار في البيت الأبيض. بدأت مراكز البحوث في وزارة الخارجية الأمريكية بالشعور بالقلق من أن قوة بعض حلفائهم الإقليميين يمكن أن تبدأ في التراجع تحت الضغط الأحمر. كان ذعرهم رمزاً لمشكلة التعامل مع الحرب الباردة، لأنه لم يكن سراً أن الفيت كونغ تلقوا دعماً ضمنياً من الشمال الشيوعي. عندما ازداد الضغط السياسي، وجهت سايغون نداء استغاثة للحصول على مساعدة خارجية و«تلقت» بعض المساعدة من قوات العالم الحر، أي الولايات المتحدة الأمريكية.

دخل الجيش الأمريكي حرب فيتنام وهو يمتلك واحدة من أفضل القوات المجهزة في العالم. وكان ابتكاره الجديد هو فرقة سلاح الجو، المزودة بـ435 طائرة هليكوبتر[1]. وعلى الرغم من حالة الاستعداد القتالية المرتفعة نسبياً، فإن الانتقال من السلام في تكساس أو ميتشيغان أو إيداهو إلى الحرب في أدغال جنوب شرق آسيا يمثل مشكلة خطيرة للجيش. كان الضعف الرئيس هو افتقار الجيش إلى الاستعداد لنوع الحرب التي كان على وشك الدخول فيها. وقد جعل

1- أنشئت قبل ثلاثة أشهر فقط وحدة مستقلة، تم إنزال الفرقة في كوي نهون في 28 أيلول 1965.

المطاف للإصابة بالإسهال، أو ما هو أسوأ من ذلك. ومع ذلك، فإن ما كان ينتظرهم لم يكن نزهة تحت المطر، فسرعان ما كان يصادفهم مقاتلو الفيتكونغ المتحمسون.

كان الخروج مع الدوريات أمراً مخيفاً للغاية، مع سقوط كل هذا المطر لا يمكنك سماع أي شيء. سوف تتعود عليه بعد حين هكذا أخبرني جندي شاب من ولاية ألاباما، سألته «هل تعودت أنت عليه؟».

فأجابني بوجه متعب: «ليس تماماً».

تذكرت الرقيب البارع فرانكلين، وكان من المحاربين القدامى الأقوياء الذين شاركوا في الحرب في كوريا وكان شديد الاهتمام بأبنائه، وقد حزن بالفعل على الخسائر التي من المحتمل أن تتعرض لها قواته، بمجرد أن ينتهي «الأولاد اللطفاء من تدريباتهم».

في اليوم الذي تمّ تحديده للذهاب إلى الدلتا، قدم لهم إيجازاً للعمليات: «تحتوي كل وحدة على عشرة رجال على الأقل، عليك أن تتأكد من تأمين جناحك. سيتم إنزالنا هنا - هنا». وقام بالتأشير على بقعة حمراء على الخريطة، بجوار قرية صغيرة. «لا تعيروا اهتماماً للقرية، فسوف تسمعون الكثير من الضوضاء فيها - لكنها قرية صديقة».

لم يكن هناك أحد على الإطلاق يتطلع إلى العمل في دلتا نهر ميكونغ بسبب انتشار الأوحال فيه، والحشرات التي تتطفل على دم الإنسان، ومقاتلي الفيتكونغ المراوغين. أضف إلى ذلك التضاريس التي جعلته مشبعاً بالرطوبة إلى درجة جعلت من الصعوبة السير فيه بسبب الأمطار الموسمية الغزيرة، وبهذا كان البؤس مكتملاً. ربما سمع الأولاد عن سانت ماري إيغليز أو أيوا جونا، لكنهم كانوا أصغر من أن يعرفوا أين تقع هذه الأماكن. ولم يكونوا صغاراً جداً إلى الحد الذي لم يكونوا قد ذاقوا بالفعل إطلاق النار - فقبل يوم واحد فقط قتل اثنان من رفاقهم أثناء عبورهم ما يفترض أنها قرية صديقة. تعلموا بسرعة أن لا يفترضوا أبداً. كان من الصعب تمييز مقاتلي الفيتكونغ عن غيرهم.

كانت أوامر العمليات القتالية تقتضي القيام بإنزال جوي مفاجئ على جزيرة باو، وهي جزيرة مليئة بأشجار المانغروف الثقيلة، مع سهل خصب يحتوي على حقول الأرز وأشجار الفاكهة وجوز الهند. وقد أشارت المراقبة الجوية إلى وجود عدد كبير من قوات الفيتكونغ العاملة في المنطقة بالقرب من مدينة بن تري. دعت الأوامر إلى إجراء عملية منسقة بين جنود المغاوير الفيتناميين والأمريكيين. وكانت مهمة كل منهم حماية جناح الآخر في حركة ثلاثية الاتجاهات على- قاعدة فتش ودمر أو -باللغة العامية للجنود- تخلص منه وارمه وسط النفايات. لهذا الغرض كانوا يحملون بنادق أوتوماتيكية، وقاذفات قنابل يدوية، وسلاح البازوكا، وصواريخ مربوطة بأعمدة من الخيزران، ومشاعل إشارة ملونة، وأكياس الدم، ومعظمهم، يحمل تعويذة لجلب الحظ في رباط خوذاتهم. لقد قاموا بإخفاء شارات رتبهم بصبغ الأحذية. وتم تغيير موضع ساعات اليد وأبازيم الحزام لتجنب انعكاس الضوء عليها. اصطف أفراد السرية جنباً إلى جنب على طول شريط من العشب. تم التخطيط لتنفيذ العملية عند الثالثة مساء. وكان الوقت الآن 4. 30 مساء. جلسوا وانتظروا وطردوا الذباب. كان الشخص النشط الوحيد هو كاهن الكتيبة، الذي يمكن التعرف عليه من الصليب الموجود على خوذته. كان يحمل أيقونة للمسيح مصنوعة من البلاستيك ويمنح الغفران لأولئك الذين يحتاجونه أو يطلبونه.

ثم طال انتظارهم وبدأت تصلهم أصوات الصراصير. كان أحد الأولاد قد فتح عينيه على مصراعيهما، كان مجنداً جديداً، لا يعرف ماذا ينتظره. وكان جندياً آخر، قد أغمض عينيه، وسبق له أن شاهد مناظر الموت من قبل وكان يعاني من معاودة مجيء تلك الصوَر المرعبة في خياله. كان كل واحد فيهم يفكر بعائلته أو حبيبته، والذي حرك فكّيه كان يفكر فقط في لوح من شوكولاتة هيرشي. آخرون كانوا يحدقون فقط فيما هو أمامهم، عقولهم كانت بالفعل هناك، في المستنقعات.

استلقيت على ظهري، وقد مسحت وجهي بطبقة سميكة من غسول مضاد للبعوض، وضعت ذراعي خلف رأسي، أراقب زوجاً من طائر مالك الحزين الرمادي اللون وهما يلتقطان الحشرات من الماء. وبكسل كانت الطيور الرشيقة تمشي الهوينى أمامنا على ركائز مثل السيقان. لا يمكن أن يكون هناك من هو أكثر اطمئناناً منها. ثم سرت في المشهد همهمة خافتة. ظهر سرب من العقارب الطائرة من وسط الغبار الحار. تصاعدت الحركة عبر الميدان، وبدأ الرقباء بتشكيل فصائلهم. حدث هذا عندما بدأ المطر يتساقط وهبّت الرياح الموسمية الشديدة التي تأتي دائماً في أوقات لا يتوقعها أحد، وفي الدلاء كان المطر يتساقط بمعدل بوصة واحدة في الدقيقة.

«هيا يا أصحاب، ارفعوا مؤخراتكم عن الأرض وانهضوا». خضنا في المياه العميقة التي كانت تغطي كاحل أقدامنا. كانت ريش المروحيات التي تدور ترمينا بقطرات المطر، التي تشبه الحبوب التي تتطاير عندما تهب عليها عاصفة رملية. وباعتباري «مراسلاً معتمداً»، مُجهّزاً ببطاقتي الصحفية البلاستيكية الخضراء، تم تنسيبي في فصيل في التشكيل الثاني. قام الجندي المسلح بالرشاش في المروحية والذي يضع على أذنيه سماعات مثبتة على خوذته بضم كفيه وصاح ليخبرنا أن التشكيل الأول قد لحقت به إصابات. ورأيت جنود المغاوير الفيتناميين بخوذهم الملونة الزاهية وهم يطلقون النار في المستنقع عندما اقتربوا من الهدف. لم أتمكن من تحديد موقع العدو، لم أرَ سوى الأرز الأخضر اللامتناهي وعلامات الرذاذ التي تتكون عندما تضرب الرصاصات الماء. قبل أن أقفز، بدأت تشغيل الكاميرا وأغلقت زر الأمان حتى لا تتوقف عن طريق الخطأ. بقيت ملتصقاً برقيب الفصيل، الذي يشبه عملاقاً خرج من حفرة رمل في مكان ما في ولاية يوتاه. تعرضنا إلى رشات من المياه، ليس لدينا غطاء يقينا من الماء، وكنا اثنين من الأهداف المفتوحة في أرض منبسطة. انتفخت ساقاي، علق حذائي في الوحل. شعرت بأنني أتحرك

ببطء وأن كل خطوة تصبح كابوساً. شتمت مقاتلي الفيتكونغ، ولعنت الحرب، ولكن أكثر من أي شيء آخر، فقد لعنت اللزوجة التي منعتني من الوصول إلى جدار أو حفرة للاختباء فيها. كنا على وشك الوصول إلى حافة قناة الري التي تؤدي إلى قرية صغيرة عندما بدأ يطاردنا حشد من المتعقبين. «تفرقوا... تفرقوا!» صاح الرقيب، جاء التحذير متأخراً جداً. بالنسبة لأحد الأولاد ربما كان قد سمعه للتو، ولكن بسبب الوحل، الذي جعله يسير منتصباً أصبح صيداً سهلاً. انطلقت صرخة ألم حادة، فيما ترنحت ذراعيه وهما يحاولان التشبث بالهواء بحثاً عن دعم ما. خفضت رأسي بشكل غريزي ووقعت في الوحل. بقي الجندي الأمريكي يئن. سحبه أحد رفاقه خلف سد ترابي منخفض، كان في الواقع جداراً يفصل ما بين حقول الأرز. لم يكن هناك أي مؤشر على خروج وميض من فوهة بندقية لكننا عرفنا أن القناصين لم يكونوا بعيدين جداً. على بعد عشرين ياردة أمامنا كانت هناك حافة لحفرة قنبلة. زحفت نحوها، وتجاوزت الحافة ونزلت في الحفرة وغمرني الماء حتى رقبتي. انزلق عريف الفصيل وصبي كان في مهمته القتالية الأولى بجانبي.

«إنهم مقاتلو الفيتكونغ[1]»، صاح الصبي، وقد وضع مسدسه فوق الحافة وأرسل رشة من الطلقات النارية على صف من أكواخ القصب.

«هذا ليس وقت للمزاح - تمتم الرقيب- من المؤكد أننا لسنا في أعياد الميلاد».

بأصابع هادئة، قمت بتغيير لفة الفيلم. كنت قد أغلقت الغطاء لتوي عندما دوّى صوت انفجار هائل مسبباً طوفاناً من الوحل البني. اصطدمت قذيفة صاروخية بالحافة الخارجية لحفرة القنبلة. سببت الرائحة النتنة لمادة الكورديت حرقة في عيني.

كان هناك شيء واحد مؤكد: على حين غرة بدأ عنصر المفاجأة يعمل. وانخفضت حدة الهجوم القادم من السماء بشكل مفاجئ للغاية

1- Charlie في الأصل وهو الاسم العامي الذي كان يطلقه الأمريكان عليهم. المترجم.

حتى ذاب الفيتكونغ المتشددين في الحقول وأشجار المانغروف. حينها وجدوا أنفسهم محاصرين في قرية صغيرة وحولها، وكانوا على استعداد للقتال حتى النهاية.

«اخفضوا رؤوسكم». صاح الرقيب بصوت عال؛ «جهزوا التغطية النارية».

تم وضع مدفع رشاش ثقيل في الحاجز ذي اللون البني رمادي، مما أدى إلى تمزق مجموعة كثيفة من أشجار الخيزران. وتم الرد على الانفجار من خلال فرقعة شديدة صدرت من بندقية هجومية من طراز *AK-47*.

أدار الرقيب رأسه نحوي قائلاً: «نحن في مأزق أصبحنا وسطهم».

من الجزء العلوي من الحفرة التي كنا فيها وصلنا ضجيج صوت غرغرة، شبيهة بصوت أحذية يتم سحبها بالقوة من الوحل. كان جندي المغاوير الفيتنامي قد شق طريقه عبر الجانب الآخر من السد الترابي. قبل أن يتمكن من الوصول إلى حفرتنا، جاء صوت فرقعة من نهاية حقل الأرز. ألقى الجندي ذراعيه وترنحت ركبتيه وألقى بنفسه على الأرض دون حراك أو نفس.

همس جاك القادم من ولاية يوتا: «يجب أن نخرج من الحفرة» وتسلق الحفرة بخفة مثل القطة. وحمل نفسه فوق السد الترابي المنخفض. ارتفع صوت طلقة أخرى، أقرب بكثير هذه المرة. ثم دوّى صوت واحدة أخرى. تصاعدت في الأعالي موجة من نيران المدافع الرشاشة، لكنها كانت مرتفعة للغاية وسقط علينا وابل من الأغصان والأوراق. كان من المستحيل معرفة ماذا كان يحدث بالفعل، وأصبح عدم اليقين هذا لا يطاق. مع تفجير قاتل آخر تمزقت شجرة جوز الهند التي أمامنا. رأيت اثنين من طائرات سكاي رايدر *A-1 Skyraiders* تحوم فوقنا وتتجه نحو مجموعة من أشجار جوز الهند بالقرب من حافة المياه. اهتزت الأرض عندما أسقطت الطائرات قنابلها. تحول كل ما تبقى من أشجار الخيزران

التي أمامنا إلى سحابة سوداء، فيما كانت أوراقها تتطاير وتتناثر. بعد الضربة البسيطة للقنابل الثقيلة، استطعت أن أميّز بوضوح صوت رشاش ثقيل. ولكن هل كان يتبع قواتنا؟ أم قواتهم؟ ما الذي قاله لي الرقيب قبل أن يشرعوا في العمل؟ «أبق على رأسك منخفضاً. الطلقات غير مرئية. أنت لا تسمع الرصاصة إلا بعد أن تعود ولا تعني لك شيئاً».

تذكرت تلك النصيحة وأنا أمعن النظر وأنا على حافة الحفرة. انتشر أفراد فصيلنا، وكان مغمورين بالمياه إلى نصف أجسامهم في حقل الأرز، متخفين وراء حقول الأرز الضحلة. كنت قد ابتعدت للتو عن أحد تلك الحقول عندما حلقت بسرعة طائرة سكاي رايدر *Skyraider* أخرى فوقنا ويصدر منها هدير مرعب وكانت تحلق بارتفاع قريب من مستوى الأرز. ركضت بضع خطوات قبل أن تنهار الأرض من تحت قدمي وأختبأت خلف أحد الجدران. بدأت قطرات المطر تسقط على الأنقاض المتراكمة والأرض من السماء المظلمة. شعرت بفمي متيبساً من العطش. الماء - كنت بحاجة ملحّة لشرب حفنة منه. شربت بسرعة جرعة كبيرة من قنينة الماء التي كنت أحملها. تسابقت المروحيات نحو السحابة الشحمية، وقد توهجت بنادقها.

«إنها الساعة الحادية عشرة» صرخ الرقيب، وفتح بندقيته الخاصة. ارتفعت أصوات مثل بانغ بانغ - راتاتات، بانغ، راتاتا...

«ماذا يحدث ايها الرقيب؟ إنني لا أرى شيئاً».

«إنهم أصحاب البيجامات السوداء[1] أعتقد أننا أذقناهم المر أبناء الزنا هولاء».

توجه جندي كان مغطى بالوحل، وقد أحنى رأسه، وهو يسير بخط متعرج نحو الرقيب. «إنهم *Charlie* تشارلي[2] هناك» - وأشار إلى مجموعة من أشجار جوز الهند - «في الساعة الثانية، على بعد حوالي ثلاثمئة

1- يقصد مقاتلي الفيتكونغ. المترجم.

2- يقصد مقاتلي الفيتكونغ. المترجم.

باردة». حاول التقاط أنفاسه. «أبناء الزنا هولاء نجحوا في إبعادنا عن اللواء برافو[1]... إنهم لا يتحركون بثقة الآن... أعتقد أننا نستطيع القضاء عليهم».

«حسناً، شغّل جهاز الاتصال وأخبر كيرلي بأن يأتي إلى هنا ويقوم بالتغطية. سألقي نظرة».

«حاضر». قفز الجندي واستدار عائداً إلى موقعه. وبعد لحظات قليلة، لاحظت أن جندي المدفع الرشاش يشير إلى أنه مستعد. وكذلك كان بقية أفراد الفصيل جاهزين للاقتحام. اضطررت للذهاب معهم للحصول على ما جئت من أجله - الصور. «لا بد مما ليس منه بد»، فكرت مع نفسي، «دعونا فقط نأمل أنهم قد ماتوا جميعاً».

همس الرقيب: «من الأفضل أن يعرف كيرلي ما يجب عليه فعله».

رفع ذراعه، وأشار إلى الأمام. في إشارة إلى بدء الهجوم وصرخ قائلاً: «هيا بنا». كان مدفعنا الرشاش يقصف كالمطرقة ونحن نجتاز الحقول. وقفز شخص يرتدي ملابس سوداء إلى أعلى وانفصل جسمه وسقط وانقسم إلى نصفين جراء انفجار قذيفة مدفع آلي. اندفعت بسرعة إلى جدار آخر ووقعت بجوار جسم أسود، نصفه غارق في المياه الموحلة. كان الهواء محصوراً داخل الملابس السوداء مثل إطار سيارة داخلي منفوخ وكانت هناك بندقية قد غاصت في الوحل ويد متجمدة على الزناد. كان الجسد ممدداً ووجهه نحو الأرض، صرخت: «أيها الرقيب، تعال إلى هنا».

سرعان ما انقلب الجسد. تجمدت فقد كان جاك من ولاية يوتا هو من مات بالانفجار. تراجع الجسد إلى الوراء. أمسك الرقيب بقبضته العملاقة بالشعر الأسود المشبع بالماء وسحبه. ارتفع رأس من الماء، كان مشهداً مروعاً، لقد تهشم وجهه. لم يعد موجوداً، وسقط الرأس في الوحل. لقد ارتجفت كل أجزاء جسمي.

1- لواء تابع لجيش فيتنام الجنوبية. المترجم.

قال الرقيب: «الحق أقول لا يزال هناك الكثير لأتعلمه».

ركض ثلاثة جنود نحونا وألقوا نظرة سريعة على ما حل بمن كان منذ بضعة أيام صبياً في سن المراهقة. قال أحدهم: «كان يجب عليه أن يركض»، وكان حينها ينفخ بالوناً من العلكة الفقاعية، التي انفجرت وعلقت بشفتيه.

«أيها الرقيب» قال رجل اللاسلكي، «اللواء برافو يتحرك، سوف نقوم بتغطية جناحه الأيسر ونتحرك إلى جانبه».

«هل أصيب أحد؟».

«نعم، بيرت في الأسفل. وكذلك كيرلي وبيلي جو».

«وهل إصابتهم خطيرة؟».

«لا أعلم إنهم ينتظرون».

الإخلاء الطبي كان هناك مجموعة من الرجال متجمعون حول زملائهم القتلى، استدار الرقيب نحو أحد الجنود وأشار إلى الجثة قائلاً: «حسناً هذا يكفي، انقلها، خذ بندقية تشارلي[1] هذه، وليتبعني بقية رفاقك».

واصلنا الخوض في المياه، ثم دوى صوت انفجار قذيفة من مدفع آلي. لقد جاءت من مجموعة معزولة من الأكواخ على حافة القرية. زحف عريف الفصيل على بطنه على طول الخندق، نحو الكوخ الذي انطلقت منه النيران. رمى بصندوق عتاد كامل من خلال البناء المتداعي، ثم ألقى قنبلة يدوية من خلال ستارة مليئة بالخرز. حدث دوي شديد ثم توقف إطلاق النار. اقتحم الرقيب الستارة ليجد أربعة رجال يرتدون البيجاما السوداء[2] وهم مضرجون بدمائهم.

صاح الرقيب: «ليبتعد الجميع».

1- مقاتل الفيتكونغ. المترجم.

2- بذلات مقاتلي الفيتكونغ. المترجم.

توقف إطلاق النار لقد مرت عشر دقائق فقط منذ أن نزلنا المروحية. ولكن في هذه الدقائق العشر، فقد اللواء برافو سبعة رجال. وقد غطانا الطين والرطوبة، شقينا طريقنا من خلال الوحل العميق. بالقرب من مجموعة صغيرة من الأشجار وجدنا أربعة من مقاتلي الفيتكونغ صرعى ومدفعاً رشاشاً ثقيلاً صيني الصنع. عندما سقطت القنابل على مرتفع من الأرض انشقت أشجار الخيزران وتحولت إلى عائق لا يمكن اجتيازه. وسط فوضى متشابكة من أغصان الأشجار، لاحظت جثة نازفة لحيوان جاموس الماء اخترقتها سعفة شجرة جوز هند مهشمة. تركت قنابل النابالم بقعاً سوداء على الأشكال المتفحمة، والتي يمكن أن تكون أجساداً بشرية. وصلنا إلى الكوخ الأول في القرية وعثرنا على جندي مغاوير فيتنامي بدا وكأنه شبح. أمامه كانت ترقد جثة رفيقه الميت. خلف الكوخ كانت هناك بعض الجثث، وهي لعائلة كانت وجوه أفرادها ذات شفاه وجفون مزرقة، وقد حوصرت وسط وابل من النيران. بجانب الموتى كانت هناك امرأة تجلس منكمشة وترتعد من الخوف. بدا أن نحيبها يخرج من قلب الأرض نفسها. بدت بقية القرية مهجورة.

«أيها الرقيب، هناك شيء ما هنا».

داخل الكوخ وجدوا جسد رجل عجوز. تجلس بجانبه؛ امرأة عجوز أخرى لم تر الأمريكيين أبداً. وقد ملأت وجهها التجاعيد بسبب الخوف كان زوجها ينزف حتى الموت. وراء الموقد اكتشفوا حفرة، وفيها شاب مع طفل. وما دام أنه كان متخفياً فلا بد من افتراض أنه كان من مقاتلي الفيتكونغ. قاموا بجرّه من الكوخ، وهو يمسك بالطفل. أشار الرقيب إلى المرأة العجوز: «أعط الطفل للجدة، هيا، أعط الطفل للجدة».

لم يفهم الشاب شيئاً أو كان خائفاً للغاية. أخذ جندي الشيء الملفوف الذي كان يصرخ وسلمه إلى المرأة العجوز. ثم قاموا بتقييد معصمي الرجل ووضعوا بطاقة تعريف معدنية حول رقبته مذكور فيها مكان وزمن الاعتقال.

«سنُعيده أيها الجدة».

ارتمت المرأة العجوز على الأرض وأمسكت بسروال الرقيب. حاول الرقيب أن يتحرك، لكنها لم تتركه. قام رجلان بسحبها وحملها مع الطفل إلى الكوخ. فكرت مع نفسي «هل هذه هي الغاية من الحرب؟».

بالقرب من بستان النخيل وقفت مجموعة من الشباب أصغر عمراً، بلا حراك. ليس لديهم ما يخاف منه الجنود. قام بتجميعهم جنود المغاوير الفيتناميون وكانوا ينكزونهم بفوهات بنادقهم. صرخ ضابط عليهم وهو يلوح بغضب بمسدسه. انفصل عنهم أحد الشباب. دوى صوت إطلاق رصاصة بعدها سقط الصبي على الأرض.

«يا إلهي، هؤلاء هم مجرد أطفال فلاحين بسطاء».

«لا تخدع نفسك»، غمغم الرقيب وهو يكزّ على أسنانه.

«أيها الرقيب، انظر، ماذا وجدت». أشار جندي ببندقيته إلى امرأة عجوز أخرى وهي تجثم مرتعدة خلف إحدى جرار الأرز الكبيرة في القرية، وهي تحتضن طفلاً صغيراً. ورفع الجندي الشاب الغض، الذي يشعر بسعادة غامرة لكونه على قيد الحياة، بندقيته وفتش في جيوبه. فأخرج قطعة شوكولا. «أيها الجدة، إنها شوكولا؟».

ابتسمت العجوز المتعبة ابتسامة عريضة بوجهه من خلال أسنانها المصفرة وهي تلوك مضغة التنبول. ورفعت يدها المرتبكة برقة غير متوقعة. فجأة، تحطم الصمت، دوى صوت رصاصة وسقط أحد الأمريكيين وهو، يمسك بطنه. أما الباقون فقد تحركوا بسرعة ليختبئوا، وأطلقوا النار بشدة على القناص غير المرئي. لم يلق أي أحد أي اهتمام بالجدة التي أسقطت لوح الشيكولاتة، ومن تحت الولد الصغير المستمر في البكاء، أخرجت رمانة يدوية، وسحبت مسمارها، ورمتها في وسط مجموعة من الجنود كانوا يختبئون خلف الكوخ. قتل الانفجار الرقيب وأربعة رجال. دخل الناجي الوحيد إلى الكوخ وبكل غضب مزق العجوز الشمطاء إلى نصفين.

استغرق الأمر ساعتين إضافيتين من القتال، ودعم من ثماني طائرات كوبرا، قبل أن يتوقف إطلاق النار أخيراً. ولم تعد القرية الصغيرة سوى كومة من الأنقاض المدمرة التي يعلوها السواد[1].

استمر المطر طوال الليل. في صباح اليوم التالي شعرت بالمرض. قضيت الأيام العشرة التالية، في الفراش وأنا أعاني من حمى شديدة. كنت قد نجوت من الرصاص، ولكن لم أنجُ من الطفيليات الموجودة في الماء الذي كنت أبتلعه بشراهة لإرواء عطشي وتهدئة أعصابي.

في الواقع، يمكن القول إن الغابة الاستوائية تمثل واحدة من أكثر البيئات صعوبة في القتال. حطمت الحرارة الشديدة والرطوبة المستمرة المناعة الذاتية للجسم. وفرت الأمطار فرصة التكاثر لأعداد كبيرة من الحشرات القاتلة. تفشت الإصابات بأمراض الالتهاب الكبدي والملاريا وحمى التيفود وكانت الجروح الطفيفة تتلوث لتتحول إلى مرض الكزاز حيث تتشنج وتتقلص العضلات، وتتيبس الوجوه وتصبح كأنها تلبس أقنعة رهيبة.

كانت الطبيعة، هي العدو أكثر من كتائب الذين يرتدون البيجاما السوداء، في الغابات وفي حقول جنوب شرق آسيا، كانت الطبيعة هي المسيطرة.

1- هذا النص مأخوذ بالكامل من كتاب المؤلف القادم البوم الثلجي.

ما الذي سوف نراه في قادم الأيام:
«السيطرة على الطقس في عام 2025»

«إنهم يملكون الحاضر، أما المستقبل فهو لي».

• نيكولا تيسلا، رائد في علم الإلكترونيات (1857-1943)

إن الحلم بالسيطرة على أحوال الطقس قديم قدم الرجل البدائي الأول الذي صلى من أجل المطر، أو كانت له رغبة شديدة في إنزال غضب السماء على «عدوه». في أيام العصور القديمة، أوكلت هذه المهمة لساحر أو كاهن القبيلة. كان الشامان[1] يهزون الخشخيشات باتجاه السماء لاستحضار المطر، وكان الأطباء السحرة يلقون بعظام الدجاج المجففة في الهواء لكي ينتهي الجفاف، وكان السحرة يتمتمون بالكلمات المقدسة ويحرقون الغبار السحري لجعل خصومهم يموتون من العطش، وكان رجال الطب يرقصون حول أعمدة الطواطم لكي تستدعي السحر الذي يسدد ضربة إلى عدو القبيلة بصاعقة من البرق. حتى موسى لم يتورع عن سؤال الله أن يسوم أعداءه أسوأ المعاناة، وكان إلهه قاسياً ومنتقماً.

مرت بضعة آلاف من السنين قبل أن يقوم أحد الأشخاص بإطلاق

1- كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث عاش قسم منهم في سيبيريا وآسيا الوسطى ومناطق أخرى من العالم. المترجم.

قنابل بدائية على السحاب لتفجيرها لكي يسقط المطر. وإذا فشلت المحاولة، فإن أولئك الذين باعوهم البنادق والبارود المستخدم في العملية سيقولون ببساطة: «لقد كان التصويب سيئاً».

لا تزال جبهات الطقس حتى يومنا هذا غير متوقعة وغير متحكم بها كما كانت الحال خلال أيام النبي نوح. كان التقدم في فهم كيفية التحكم في الطقس بطيئاً بسبب تعقيد غلافنا الجوي الأرضي، المكون من طبقات مختلفة تسمى «الأحزمة». وتتألف من طبقة التروبوسفير (الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بمسافة 16 كيلومتراً فوق سطح الأرض)؛ وطبقة الستراتوسفير (التي تحتوي على طبقة الأوزون التي تحمي الأرض)، التي ترتفع من 16 إلى 48 كيلومتراً فوق سطح الأرض؛ وطبقة الأيونوسفير (من ارتفاع 48 كيلومتراً إلى الحاجز النهائي لحمايتنا من الأشعة الكونية)، وحزام فان ألين (على ارتفاع بمسافة 3200 كيلومتر)، والذي تم اكتشافه في عام 1958 أثناء التشغيل الأولي لأول قمر صناعي أمريكي، اكسبلورر 1 *Explorer I.*.

على مدى آلاف السنين التي لا عدّ ولا حصر لها، لم يجرؤ سكان الأرض على الاقتراب من عالم الآلهة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه لم تكن لديهم الوسائل. تغير هذا في عام 1944، عندما أطلقت ألمانيا صواريخ *V-2* وكانت مصممة بدقة لأغراض تدميرية. لقد قيل عن مؤسس برنامج الصواريخ، ويرنر فون براون، «قليلاً ما كان يستهدف ضرب لندن لأن طموحاته كانت أكبر من ذلك بكثير وهي استهداف الفضاء». بدأ الاهتمام بالبحوث الفضائية في أعقاب الحرب العالمية الثانية لنشر الصواريخ الموجهة ذات القدرة النووية. سار البحث في تكنولوجيا الأسلحة والبحوث في الغلاف الجوي جنباً إلى جنب. وقد أدى ذلك إلى اكتشاف الأحزمة الجوية المختلفة حول الأرض.

أدخلت الحرب الباردة القوى العظمى في سباق محموم من أجل السيطرة على الفضاء. أرعبت روسيا الغرب بإطلاقها القمر الصناعي

سبوتنيك، ثم أرسلت رائد الفضاء يوري غاغارين ليدور حول العالم في عام 1961. على سبيل المثال لا الحصر أطلقت الولايات المتحدة نفسها سلسلة من «برامج المجرة»[1].

في الفترة ما بين آب إلى أيلول 1958، بدأ مشروع آرغوس *Argus*، عندما قامت البحرية الأمريكية بتفجير ثلاث قنابل نووية من النوع الانشطاري فوق جنوب المحيط الأطلسي. بالإضافة إلى ذلك، تم تفجير قنبلتين هيدروجينيتين فوق جزيرة جونستون في المحيط الهادئ. وقد وصفها العسكريون بأنها «أكبر تجربة علمية على الإطلاق». وكان الغرض منها تقييم أثر التفجيرات النووية على ارتفاعات عالية على الإرسالات الراديوية، والضوابط الصاروخية وعمليات الرادار. وكانت خطتهم التالية هي إنشاء «درع اتصالات» في طبقة الأيونوسفير. وكان من المقرر تحقيق ذلك بزرع حزام من الإبر النحاسية التي تدور في الحزام الأيونوسفيري.

وقد تلا مشروع آرغوس مشروع ستارفيش *Project Starfish* وفي 9 تموز 1962 تم إجراء تجربة أخرى في طبقة الأينوسفير، وأدى انفجار «جهاز يزن ألف طن» إلى إحداث اضطراب خطير في حزام فان ألين *Van Allen* السفلي، مما أدى إلى تغيير شكله وشدته بشكل كبير. وقد أدت هذه التجربة إلى احتجاج أطلقه عالم الفلك وعضو الجمعية الملكية البريطانية السير مارتن رايل.

تلاه في عام 1968، مشروع *SPS* (مشروع الأقمار الصناعية التي تعمل بالطاقة الشمسية)، والذي يهدف إلى اعتراض الإشعاع الشمسي باستخدام الخلايا الشمسية الموجودة على الأقمار الصناعية ونقلها في

1- معظم المعلومات التالية مأخوذة من مقالة بقلم روزالي بيرتل، وهي حاملة شهادة دكتوراه، التي تم تعيينها في لجنة مراجعة SPS (مشروع الأقمار الصناعية التي تعمل بالطاقة الشمسية). المصادر الأخرى هي الفيزياء والمجتمع بقلم سي. أل. هرزنبرغ 1994وأخبار المايكروويف بقلم ب. ايستلوند 1994.

شكل طاقة عبر حزمة الموجات الميكروية إلى مجموعة ضخمة من هوائيات الاستقبال، تسمى ركتينا (*rectennae*) كانت التكلفة المتوقعة للكهرباء المنتجة أعلى بكثير من مصادر الطاقة التقليدية التي تم تعليق استخدام المشروع لها.

على الرغم من أن برنامج *SPS* كان ظاهرياً برنامجاً للطاقة، إلا أنه كان يحمل تطبيقات عسكرية مهمة. كسلاح نفسي، كان قادراً على التسبب في حالة من الذعر العام. بحلول عام 1978، أخذت بحوث برنامج *SPS* منعطفاً جديداً عندما أشار العالم مايكل. ج. أوزيروف إلى إمكانية تطوير سلاح شعاع يحمله القمر الصناعي لاستخدامه في الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية. وافق الرئيس كارتر على المشروع؛ ومع ذلك، رفض الكونغرس الأمريكي تمويله. عاد المشروع نفسه إلى الظهور، تحت اسم مختلف، بعد بضع سنوات تحت قيادة رونالد ريغان، الذي حوّله إلى الميزانية الأكبر في وزارة الدفاع. وأطلقت عليه تسمية «حرب النجوم».

في عام 1975، أدى حدوث خلل في صاروخ ساتورن 5 إلى إشعال «ثقب أيونوسفيري كبير» في الغلاف الجوي منع بشكل مؤقت جميع الاتصالات عبر المحيط الأطلسي. قاد هذا الاكتشاف بالمصادفة إلى نوع جديد من البحوث. بحلول عام 1981، قامت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا *NASA* بمشروع *Spacelab 3* الذي يتضمن قيام المكوك الفضائي بحقن الغازات من المكوك إلى طبقة الأيونوسفير من خلال نظام المناورة في المدار لإحداث «ثقوب أيونوسفيرية». في 29 تموز 1985، أحدث نظام المناورة المداري *OMS* خلال 47 ثانية أكبر فتحة في طبقة الأيونوسفير حتى يومنا هذا. وهناك تجربة أخرى أجريت في آب 1985، استمرت ست ثوان فقط في اختراق للغلاف الجوي طوله 68 كيلومتراً، أنتجت توهجاً ليلياً مرئياً، غطى أكثر من 400 ألف كيلومتر مربع فوق ولاية كونيتيكت.

أثناء عملية عاصفة الصحراء (1991)، وهو الاسم الذي أطلق على

الحرب ضد العراق، أفادت تقارير صحفية[1] أن الولايات المتحدة نشرت سلاح النبضة الكهرومغناطيسية المصمم لمحاكاة الوميض الصادر من قنبلة نووية. وكان مختبر سانديا الوطني قد أنشأ موقعاً في قاعدة كيركلاند للقوات الجوية الأمريكية (1989)، لإيواء مولد شعاع الإلكترون هيرميس الثاني القادر على إنتاج 20 تريليون واط من النبضات من أجل إحداث انفجارات تستغرق 20 مليار جزء من الثانية.

في عام 1994، تم إطلاق صاروخ من منصة بوكر فلات ريسيرش رينج لإطلاق الصواريخ *Poker Flat Research Range*، التي تقع على بعد 50 كيلومتراً شمال مدينة فيربانكس، في ولاية ألاسكا، لفهم التفاعلات الكيميائية في الغلاف الجوي المرتبطة بتغير المناخ العالمي. وقد أطلقت تجارب مماثلة من مدينة تشرشل، في مقاطعة مانيتوبا (كندا)، مثل تلك التي وقعت في آذار 1989، عندما أطلق صاروخان من طراز بلاك برانت اكس *Black Brant X* واروخان من طراز نيكي أوريون *Nike Orion* في سماء كندا، وأطلقت عنصر الباريوم على ارتفاعات عالية، ومن ثم تم زرع سحب اصطناعية.

وأخيراً جاء برنامج *HAARP* (برنامج الأبحاث الخاصة بالشفق القطبي النشط عالي التردد)، الذي بدأ في 18 تشرين الأول 1993 وشارك في تمويله سلاح الجو الأمريكي والبحرية الأمريكية، في موقع على طول طريق توك السريع بالقرب من مدينة غاكونا في ولاية ألاسكا. وتتمثل مهمته في «فهم ومحاكاة ومراقبة العمليات الأيونوسفيرية التي قد تغير من أداء أنظمة الاتصالات والمراقبة». وقد تم شرح المشروع بشكل مختلف للجمهور كمشروع غير عسكري، أو درع فضائي ضد الأسلحة الواردة، أو كآلية لإصلاح طبقة الأوزون في الأرض، ولكن برنامج *HAARP* هو بالتأكيد تجربة يمكن توسيعها، لأنها مرتبطة بشكل وثيق بخمسين سنة من الدراسات المكثفة لفهم الغلاف الجوي العلوي والتحكم فيه.

1- راجع: Defense news نيسان 1992.

أحد مجالات أبحاثه هو التحكم في الطقس أو، باستخدام تعبير عسكري مخفف، تعديل الطقس. إذا تمكن الفنيون في نهاية المطاف من إرسال إشارات لاسلكية إلى حزام فان آلن الإشعاعي *Van Allen Belt*، فيمكنهم استخدام تأثير الرنين المغناطيسي الذي اخترعه العالم نيكولا تسلا *Nikola Tesla* للسيطرة على الطقس العالمي من خلال إطلاق مصادر طاقة هائلة في مناطق معينة.

بدأ العصر الحديث لتعديل الطقس باكتشاف حدث عن طريق الصدفة. في عام 1946، اكتشف العلماء في شركة جنرال إلكتريك عن طريق الخطأ أن جزيئات الثلج الجاف (جزيئات ثاني أكسيد الكربون المجمد) التي تم إسقاطها في حجرة باردة خلقت بلورات ثلجية مماثلة لتلك الموجودة في السحب. وأطلق ذلك بحثاً مخصصاً أساساً للمناطق المنكوبة بالجفاف. التقطت الدوائر العسكرية هذه الفكرة بسرعة.

أثناء حرب فيتنام، قامت القوات الأمريكية بأول تطبيق جاد لتعديل الطقس أثناء حدوث نزاع مسلح. وفي محاولة لزيادة هطول الأمطار، استخدمت خدمة الأرصاد الجوية في الولايات المتحدة ثلاث طائرات شحن محورة من طراز *WC-130* من خلال رمي مشاعل تحتوي على مركبي يوديد الفضة ويوديد الرصاص من أجل استمطار الغيوم وتتسبب في حدوث زخات مطر فوق طرق مدينة هو تشي مينه[1]. كانت هذه المهمة السرية، التي أطلق عليها اسماً مشفراً هو «عملية بوباي»، تقتضي إطالة موسم الرياح الموسمية المعتادة، وأن تغمر الأرض بالمياه، وجعل الطين يملأ طرق الإمداد الحيوية وبالتالي لا يمكن السير فيها، مما يقلل من فاعلية خطوط اتصال العدو. أثناء إقلاعها من قاعدة أودورن الجوية في تايلاند، كانت طائرات عملية بوباي قد قامت بمئة واثني عشر نوعاً من مثل هذه الطلعات الجوية الخاصة بالاستمطار على فيتنام الشمالية، وكمبوديا، ولاوس، وفيتنام الجنوبية. بدأت العملية في عام 1967

1- عاصمة فيتنام. المترجم.

واستمرت حتى عام 1972. تباينت التقارير حول نجاح أو فشل مشروع تعديل الطقس المعروفة باسم بوباي *Popeye*، اعتماداً على الجانب الذي كان يصدر هذه التقارير.

انتهت محاولة التعديل هذه، وهي رش الملح من طائرات شحن من طراز *C-123* من أجل إزالة ضباب الصباح الذي يجثم على أرضية ممر الخروج لمشاة البحرية الأمريكية المحاصرين والمتمركزين في مدينة خي سان *Khe-San*، دون نتائج إيجابية. (في وقتنا الحاضر، أصبح تبديد الضباب البارد، المكون من قطيرات سائلة عند درجات حرارة أقل من درجة التجمد، تكنولوجيا روتينية لتعديل الطقس، تمارس في معظم المطارات الرئيسية).

في أوائـل السبعينيات، كشفت وسائل الإعـلام الأمريكية عن عمليات تعديل الطقس السرية[1]، والتي أثارت غضب الرأي العام. وأمر الكونغرس بإجراء تحقيقات. وأدى ذلك إلى صدور معاهدة الأمم المتحدة لعام 1978 التي حظرت «الحرب البيئية».

أظهرت عملية بوباي عن وجود إمكانية في المستقبل لتعديل الطقس في ساحة المعركة. لم يكن سبب فشل العملية يرجع فقط إلى المعرفة المحدودة بعملية استمطار السحاب، المتوفرة في ذلك الوقت. في عام 1965، في مرحلة التخطيط الأولي للعملية، كان طريق الإمداد الاستراتيجي *Truong San* الجبل الطويل -وهو الاسم الفيتنامي لمسار Ho Chi Minh- عبارة عن مسار ترابي باهت، استخدمته قبائل المرتفعات الوسطى للقيام بغارات صيد في الغابة. وكان استخدام «الطريق» يمثل رحلة تفوق حدود التحمل البشري. من أيلول إلى شباط، في ذروة الأمطار الموسمية، جرفت الفيضانات المسارات التي صنعها الإنسان والتي تحولت إلى أنهار هائلة، حتى إن حقائب الظهر غرقت في الماء لدرجة أن الرجال كانوا ينهارون تحت وزنها. كان الممر قابلاً

1- لا تتداخل عملية بوباي مع برنامج إزالة أوراق الشجر أورانج إيجنت.

للملاحة فقط خلال موسم الجفاف، حتى بالنسبة للدراجات الهوائية الشهيرة باسم العم هو التي يبلغ عددها 100ألف دراجة، والتي يتم دفعها باليد. حتى في موسم الجفاف، كان يجب على من يعبر جداول الماء أن يرفع شعره، وهو يتمايل فوق الجسور المصنوعة من أشجار الخيزران[1] لاحظ الفيتناميون الشماليون أهمية وجود طريق إمداد آمن وعملوا ليلاً ونهاراً لتحسينه[2]. تم تحويل الطريق الترابي إلى طريق يصلح لجميع الأحوال الجوية وتم إكسائه بطبقة من الصخور المسحوقة، وإذا لم يكن ذلك ممكناً، يقام طريق من جذوع الأشجار. وقد ضمن لهم نظام تصريف متطور إمكانية استخدام الطريق حتى أثناء هطول الأمطار الموسمية الأكثر غزارة. وقد أشار الكولونيل هافان لاو وهو مخطط استراتيجي لمدينة هانوي إليه بالقول: «كان نظام الطرق يمتد لمسافة 13 ألف كيلومتر على طول الحدود الجنوبية لفيتنام ثم يستدير وينحرف مثل نظام تجهيز السيارة بالوقود وكانت فيتنام الشمالية تمثل محطة تعبئة الوقود. وفي هذا السياق، حصلنا بالتأكيد على عدد أكبر من الإصابات بسبب الظروف الجوية مقارنة بما فعلته القنابل الأمريكية».

حلت عبارة «هاجموا الطريق!» محل عبارة «هاجموا مقاتلي الفيتكونغ!» على أنها العبارة الرئيسية للجيش الأمريكي. ألقت القاذفة الأمريكية *B52* ما مجموعه 2,235,000 طن من القنابل على الطريق، لكن هذا لم يكن يمنع من وصول ستين طناً من الإمدادات إلى الوحدات الفيتنامية الشمالية يومياً. كان الأميركيون يقصفون الطريق نهاراً، وكان الفيتناميون يردمون الحفر التي يصنعها انفجار القنابل ليلاً. عندما لم تؤدِ القنابل المهمة المطلوبة، عمل الأميركيون على استخدام خطة الحمم *Plan Lava*، لتحويل تربة الغابات الرطبة إلى ما يشبه الزيت الزلق. لكنها

1- ولفريد بورشيت، فيتنام وحرب العصابات 1965.

2- في عام 1979، التقى المؤلف مع العقيد الفيتنامي الشمالي المسؤول عن المشروع في هانوي، الكولونيل فان، الذي أوضح أن القصف تداخل مع الإمدادات التي وصلت إلى الوحدات الأمامية، ولكن سوء الأحوال الجوية حال دون ذلك.

لم تنجح، وكذلك فشل الحمام الزاجل الذي كان يخفي القنابل الصغيرة تحت جناحيه. حتى إنهم توصلوا إلى بعض الأفكار الحمقاء مثل إسقاط علب البيرة *Budweiser* من أجل جعل سائقي شاحنات العدو يسكرون. ولحسن الحظ، فإن هذه المشاريع لم تتعدَ مرحلة التخطيط[1]. ربما كان هذا «الطريق» هو آخر صراع عسكري مهم تفوق فيه الإنسان على التكنولوجيا. لسنوات، حاول الأميركيون، لسنوات إيجاد وسيلة لوقف حركة المرور على طول طريق هوشي منه. واضطروا أخيراً إلى الاعتراف باستحالة تحقيق ذلك.

تم إطلاق العديد من البرامج الأخرى. مثل بحث مشروع برايم آرغو *Prime Argus*، الذي تم تمويله من قبل وكالة مشاريع الأبحاث الدفاعية المتقدمة، والذي كان يستهدف إيجاد الوسائل لتكوين زلازل صناعية. اختبرت وزارة الدفاع الأمريكية دراسات لإجراء تغييرات في ظاهرة البرق من خلال مشروع سكايفاير *Project Skyfire* ثم بدأ برنامج آخر، وهو مشروع ستورمفوري *Stormfury*، كبرنامج تجريبي مشترك تابع للبحرية الأمريكية ومكتب الأرصاد الجوية في الولايات المتحدة في أوائل الستينيات. كانت لهذه البرامج تطبيقات سلمية، وكانت غايتها إجراء سلسلة من التجارب على الأعاصير لفهمها بشكل أفضل والتنبؤ بها، والتحكم في مسار هذه العواصف الشديدة. فأبدان طائرات ستورمتشيسر *stormchaser*، مثلاً قد تم تقويتها بشكل استثنائي لتتمكن من مواجهة الرياح التي تبلغ سرعتها 150 ميلاً في الساعة لتستطيع أن تتغلغل في «عين» الإعصار. وعلى الرغم من تعرض الطائرات وطواقمها لضربات شديدة من الرياح، إلا أنه تم بواسطتها جمع معلومات ثمينة ولم تفقد طائرة واحدة.

بحلول عام 1994 كشفت القوات الجوية الأمريكية عن خطة شاملة

1- واحدة من الأفكار المضطربة التي تم تجريبها، وفقاً لفرانك سنيب، مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

باسم *Spacecast 2020*، تتضمن السيطرة على أحوال الطقس، والالتزام بميثاق الأمم المتحدة الذي ينص على «حظر استخدام تقنيات التعديل البيئي لتدمير أو إلحاق الضرر أو التسبب بأذى لدولة أخرى».

يمكن لأنماط الطقس التي تم إنشاؤها بطريقة متأنية أن تؤثر ليس فقط على أنشطة العدو في ساحة المعركة، ولكنها تتمكن أيضاً من تغيير السلوك وأنماط المعيشة للسكان بأكملهم. الفكرة مخيفة، لكنها ليست جديدة. إن مسألة أنه من الممكن القيام بمثل هذه التأثيرات قد صدرت بشأنها نظريات قبل مئة عام، ولكن لم يكن أحد يمتلك الوسائل الكفيلة بوضعها موضع التنفيذ فتم وضعها على الرف. ناقش العلماء نظريات عالم الفيزياء اليوغوسلافي، نيكولا تيسلا (1857-1943)، التي ساعدت في اكتشاف (التيار المتناوب) ثم طبقت أفكاره على تطوير نظام انتقال عملي لموجات هيرتز. وشرح إمكانية تعديل الحالة العاطفية للناس[1]. منذ تلك الأيام الحالمة، تم إحراز تقدم هائل. في أقاصي وادي النحاس في ألاسكا يقف النموذج الأولي للسخان الأيونوسفيري العملاق الذي يجعل أفلام الخيال العلمي أمراً عفا عليه الزمن. إن طاقته المركزة الصادرة من مجموعة مؤلفة من ثمانية وأربعين هوائياً، والتي تعمل في تناسق مثل بعض مسدسات الأشعة المركزة، يتم بثها عند نقطة محددة في طبقة الأيونوسفير[2]. تصطدم الموجات المنبعثة مع نهر من الجسيمات المشحونة المحصورة في الأيونوسفير، مما يضطرها إلى أن تنفجر في الخارج في شكل فقاعة عملاقة، أطلق عليها اسم «الريشة»، في عملية تعرف باسم

1- يمكن استخدام هذا بطريقة أكثر إيجابية. لقد أثبت الدكتور ريخو ماكيلا بنجاح أن بعض المواد الكيميائية بالاشتراك مع موجات VLF يمكن أن تؤثر على الأمراض الموهنة للعزيمة. من ناحية أخرى، أظهر الدكتور خوسيه دلغادو تأثيرات الموجات الكهرومغناطيسية التي تعطل الدماغ البشري.

2- تم اكتشاف وجود الأيونوسفير لأول مرة بواسطة العالمين أبلتون وبارنت (من المملكة المتحدة) في عام 1925.

«*skybusting*» قاهر السماء. ويمكن استخدامها لدراسة تأثير ظاهرة الاحترار العالمي واستنفاد طبقة الأوزون وربما السيطرة عليها. وإن آثارها النهائية أو تطبيقاتها غير معروفة.

تقدم عالم الفيزياء بيرنارد ج. إيستلوند من تكساس، ببراءة اختراع، رقم 4,686,605: بعنوان «*طريقة وجهاز لتغيير منطقة في الغلاف الجوي للأرض، وطبقة الأيونوسفير/ أو الغلاف المغناطيسي*». وبقيت مغلقة لمدة عام بموجب تعليمات السرية الحكومية. ووفقاً لبراءة الاختراع، يمكن رفع المناطق الكبيرة من الغلاف الجوي إلى ارتفاع شاهق بحيث تواجه الصواريخ قوى إعاقة غير متوقعة وغير مخطط لها مع التدمير الناتج عن ذلك... وإن تعديل الطقس ممكن عن طريق تغيير أنماط الرياح في الغلاف الجوي العلوي، عن طريق إنشاء عمود واحد أو أكثر من جسيمات الغلاف الجوي، التي ستعمل كعدسة أو جهاز تركيز... يمكن أن تحدث تعديلات جزيئية في الغلاف الجوي بحيث يمكن تحقيق تأثيرات بيئية إيجابية[1]. وبعبارة أخرى، إذا ثبت نجاحها، فإن هذه التكنولوجيا يمكن أن تربك أو تعطل أنظمة التوجيه المتطورة للطائرات والصواريخ، وتملأ مناطق كبيرة من الأرض بالموجات الكهرومغناطيسية، وتقوم بتعديل بيئتنا.

منذ قرن مضى كتب نيكولا تيسلا هذه الكلمات النبوءة: «الحاضر هو ملكهم، المستقبل لي». لقد ثبت أنه على حق. واليوم، لم يعد التأثير على أنماط الطقس أو حتى تعديلها هو شكل من أشكال خيال بعض العلماء المجانين، فهو يتمركز في قلب قوة المجمع العسكري والصناعي لأي دولة تمتلك تكنولوجيا متقدمة. الإنسان هو آلة لصنع الأفكار، تتحرك بكامل قدراتها. ما يبدو اليوم فكرة، أو حلم، أو رؤية، يصبح واقعاً في

1- مقتبسة من كتاب «الملائكة لا تعزف بهذه القيثارة» HAARP من قبل الدكتور ن. بيغ و. ج مانينغ، عام 1995. ومع ذلك، فقد أكد متحدث باسم مشروع HAARP لهذا المؤلف أن التجربة لن يكون لها تطبيق عسكري.

الغد. تتم غربلة الأفكار وتتحول إلى برامج بحثية واسعة، والتي يمكن أن تساعد في تطوير حياتنا وحياة أولئك الذين يأتون بعدنا.

لا يزال التردد في التخلي عن الحكمة التقليدية واعتناق الأفكار الجديدة قائماً. قد يرحب الكثير منا بالتطورات المتوقعة باعتبارها تقدماً مهماً في معرفتنا وقدرتنا على تحسين نوعية حياتنا؛ وقد يعتبرها آخرون من جديد أمراً مشكوكاً فيه وأنها بمثابة ناقوس خطر. كما هو الحال مع المحاصيل المعدلة وراثيا، والبذور الغريبة، وتحضير نبات الذرة في أنابيب الاختبار على سبيل المثال. لا يوجد حد لما سيحلم به العلماء. للحصول على المزيد من الغذاء نحتاج إلى المزيد من أشعة الشمس والمزيد من المياه. بعبارة أخرى، يحتاج العالم إلى أشعة الشمس والأمطار لكي يمكن إنتاج الطماطم المحورة جينياً التي تكون بحجم القرع ومع جميع أعاجيبه فإن العلم ترك الإنسانية في مفترق طرق أخلاقي. السيطرة على الطقس هو أحد الاحتمالات. ما كان دوماً مجالاً يتحكم به الخالق قد يصبح قريباً مجالاً يتحكم به الإنسان.

لن تكون المرحلة التالية هي التنبؤ بأحوال الطقس بل لاستغلال الإمكانيات الكامنة فيه. ومع بداية الألفية القادمة، سيتحكم أولئك الذين يستطيعون السيطرة على الطقس في توزيع السحب وتوزع الأمطار في العالم بالإضافة إلى توزع كثافة الغطاء النباتي. سيفرضون درجة حرارة معينة على العالم ويكونون قادرين على وقف التصحر أو بدئه وكذلك تحديد الكثافة السكانية. وهذا قد ينتج ظاهرة مثيرة للقلق للغاية. إذا كان من الممكن ربط الزيادة الحالية في عدد الكوارث الطبيعية ارتباطاً مباشراً بالسخونة الزائدة في الغلاف الجوي، يمكن أن يؤدي استمرار تدخّل الإنسان في الطبيعة إلى حدوث تغييرات مناخية شديدة يمكن أن تؤدي إلى عواقب وخيمة [1].

في عصر المعلومات الذي نعيشه حالياً، ليس هناك من مكان على

1- ج. بيرتز، رئيس قسم البحوث البيئية، لشركة ميونيخ ري للتأمين.

الأرض بعيد المنال عن الأقمار الصناعية لأغراض التجسس ونظم الاستشعار عن بعد، والتي توفر العديد من المعلومات ليس فقط عن موقع العدو، ولكن أيضاً حول تطوير أنماط الطقس. يمكن أن تقوم الأقمار الصناعية والتحسينات في أجهزة الكمبيوتر بتحويل المناطق المليئة بالضباب، التي كان على السلاح الجوي لقوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية أن يتعامل معها خلال معركة الثغرة، أن يجعلها مناطق ريفية صافية جداً[1]. وتنبؤات الطقس الدقيقة هي أداة لا غنى عنها لأي نشر للقوات، وسوف يستفيد منها كثيراً أولئك الذين يمتلكونها. قام الجنرال آيزنهاور بمجازفة خطيرة عندما أمر بغزو شواطئ النورماندي الفرنسية، مستنداً كلياً إلى تخمين مدروس من قبل رئيس مكتب الأرصاد الجوية الأمريكي. في المستقبل، لن يكون المخططون العسكريون مقيدين بسبب أنماط الطقس الحالية. سيكونون قادرين على تصميم نمط الطقس الذي يرغبون في الحصول عليه أو يرغبون في أن يواجهه عدوهم. سوف يأمرون بتكوين عاصفة، وسيقوم الفنيون الخاصون بهم بتشغيل صنبور المطر وبالتالي إنشاء حاجز طيني اصطناعي لوقف الأرتال المدرعة للعدو. سوف يجعلون الثلج يتساقط، ثم يخلقون موجة حر ساخنة مفاجئة لإذابة الثلج المتراكم، وإغراق منطقة معينة بأكملها. سوف يدمرون المحاصيل الزراعية من خلال عواصف البَرَد، ويخلقون مجاعة لدى العدو بسبب الجفاف الذي يجعلوه يحل على أراضيه، أو بسبب احتراق غاباته بصواعق من صنع الإنسان.

ورغم أن العالم الغربي شهد استقراراً في فترات طويلة ما بين الحروب[2]، فإنه لن يفعل ذلك في حقبة تغيير غير مسبوق سيجري في نطاق حروب المستقبل. في المعارك الجيوفيزيائية القادمة في الألفية

1- خلال حرب الخليج (1991) والصراع في صربيا (1999)، لم يعق القصف الجوي وجود غطاء من السحب الكثيفة.

2- لم يأخذ في الحسبان «الحروب غير المعلنة» أو دور «شرطي العالم».

القادمة، قد نرى محاربين يرتدون ملابس مثل جنود الفضاء في أفلام الخيال العلمي وهم يطلقون صواعقهم من صناديق سوداء صغيرة على عدو لا يجب عليهم حتى رؤيته لكي يقتلوه.

وبقدر تعلق الأمر بما يصفه الجيش والعلماء بأنه خط دفاع جديد. فما الذي يمكن للعالم أن يتطلع إليه فيما يتعلق بالأسلحة المتطورة فائقة التكنولوجيا أثناء نشوب نزاع جيوفيزيائي؟

1 -الفيضانات الاصطناعية.

2 - تعديل التيارات المحيطية.

3 - تحويل العواصف الاستوائية.

4 - فتح الثقوب (ممرات للضوء في السماء) في الغلاف الجوي.

5 - توسيع الغطاء الجليدي فوق الأراضي القطبية.

6 - الزلازل التي يتم تكوينها اصطناعياً.

يعتقد خبراء الأرصاد الجوية العسكرية الأمريكان أنهم قادرون على الفوز بحرب الطقس في أوائل القرن المقبل. وستقوم هوائيات الأشعة التي بحوزتهم بتسخين طبقة الأيونوسفير لتقطع اتصالات العدو، وستطلق أسلحة الليزر البرق لإسقاط الطائرات المهاجمة، وسوف تنشر الطائرات غير المأهولة في الغلاف الجوي الغبار الأسود المجهري، مما يصنع المزيد والمزيد من الأمطار. وسوف يقومون بتحويل اتجاه المروحة السماوية لإعادة توجيه نمط التهاطل النووي[1]. ستغرق الصين، وستتجمد أوروبا، وتدمر كاليفورنيا. وستكون الاحتمالات إلى ما لا نهاية. عدونا في عام 2025، عليك الحذر!

«الطقس كمضاعف للقوة: السيطرة على الطقس في عام 2025»، هو العنوان التنبُّئي، وإن كان مخيفاً إلى حد ما، لدراسة حديثة أجريت على مدى عامين، تم تنفيذها نيابة عن كلية الحرب الجوية الأمريكية. وهي

1- ما يتبقى من الإشعاع الخطر الناتج عن الانفجارات النووية. المترجم.

توضح بقدر كبير من التفاصيل إمكانات تعديل حالة الطقس في البلاد في المستقبل.

من خلال تعزيز العمليات الصديقة أو تعطيل العمليات الخاصة بالعدو عبر تصميم أنماط الطقس الطبيعية على نطاق صغير لاستكمال السيطرة على الاتصالات العالمية والتحكم في مساحات الفضاء الشاسعة، يوفر تعديل الطقس للمقاتل الحربي مجموعة واسعة من الخيارات الممكنة لهزيمة الخصم أو إجباره على الاستسلام... بعض أدوات التدخل موجودة اليوم وستجهز غيرها ويتم صقلها في المستقبل[1] وتتمثل رؤية هذه الدراسة في أنه بحلول عام 2025 سيتمكن الجيش من التأثير على الطقس على نطاق هائل من أجل تحقيق قدرات تشغيلية مواتية. قد يُقال أيضاً إن حرب الطقس ستكون أقل تدميراً من نشوب محرقة ذرية. لا أعتقد أنه على البشرية أن تضعها على المحك.

المرة الأخيرة التي حاول فيها الجيش الأمريكي تغيير أنماط الطقس كانت في فيتنام. وقد أخفق. جهوده القادمة قد تتحول بشكل مختلف. سيتمكن قادة الحرب في الغد من الاعتماد على ترسانة جوية ذات أبعاد غير محسوبة. سوف يكون لدى الحواسيب العملاقة مراقبة متطورة للغلاف الجوي والتلاعب بالمناخ إلى أن تصبح ماهرة بها. سوف يتم تشكيل الطقس حسب الطلب. ولكي لا نبالغ في القول، فإنهم، بغض النظر عن جنسيتهم، سوف يمتلكون السماوات.

ولكن يمكن للبشرية جمعاء، لا سيما الأجيال القادمة التي يواجهها الانفجار السكاني. يمكنها تطبيق التكنولوجيا المتقدمة بطريقة أكثر سلاماً ومفيدة. على سبيل المثال للتغلب على النقص في إمدادات مياه الشرب لدينا. إن تزايد عدد سكان العالم سيضع ضغوطاً متزايدة على احتياجات المياه، ويمكن تعديل أنماط الطقس لتحفيز نمو الحبوب،

1- راجع: Weather as a Multiplier: Owning the Weather in 2025 Chapter 15 Volume 3,USAF.

وقد تؤدي عمليات الاستمطار إلى التخفيف من حدة الجفاف. في حين أن هناك الكثير من الماء على وجه الأرض، فإنه لا يوجد دائماً في الأماكن الصحيحة، أو في حالة صالحة للشرب. ويؤثر نقص المياه المزمن على نحو ثلث سكان العالم.

في عام 2025، سيصل عدد سكان العالم التقديري إلى تسعة مليارات نسمة، ولكن نسبة 0. 26 فقط من المياه الموجودة في كوكبنا ستكون صالحة للشرب، أما الباقي فهو إما ملحي أو ملوث بدرجة تجعله غير صالح للاستهلاك البشري. وفقاً لدراسة حديثة لمعهد أبحاث المياه، لم يعد بإمكان 623 مليون شخص في 26 دولة من الحصول على مياه الشرب النقية. حتى في أوروبا، هناك واحد فقط من كل سبعة أشخاص لديه «مياه شرب صحية». وفي إسرائيل، يندرج توزيع المياه تحت بند «الأمن الدفاعي» ويسيطر عليه الجيش[1].

وبما أن المياه لا تتقيد بحدود بشرية، فإنه غالباً ما تحصل نزاعات بين البلدان حول استخدامها. حدثت الكثير من الحروب في القرن الماضي حول النفط، وستكون النزاعات في القرن الحادي والعشرين على الماء. لا ينبغي أن نتوقع من التطبيق السلمي لبرنامج تعديل الطقس أن يحل كل شيء، ولكن يمكن أن يحدث تقدماً كبيراً في تحسين الحياة بشكل عام.

لا يؤيد الجميع الرأي القائل بأن التعديل السلمي للطقس سيحسن حياتنا. وتوقع البروفيسور توماس مالون، المتخصص في الأرصاد الجوية في معهد هولكومب للأبحاث، قبل عدة سنوات: «إن النتيجة البيولوجية لتعديل الطقس تميل لأن تكون مزيجاً من التأثيرات الجيدة والسيئة على النظم البيئية الصناعية للإنسان». والعلماء حذرون جداً في أن يطلعوا الرأي العام على أسرارهم. البديل يمكن أن يؤدي إلى غضب مشروع جراء اهتمام الرأي العام وحدوث سيناريوهات مفزعة وغريبة.

سواء كانت النتائج مدمرة، أو مفيدة، فإن التنبؤ بامتلاك الطقس في

1- راجع نغوين تيان دوك، لومانيتيه مورات إيل دي سويف، باريس1999.

2025 قد يصبح حقيقة واقعة. إن التحكم في الطبيعة هو رمز قوي، يربط بين مهارة الإنسان التكنولوجية الهائلة وعوامل دماره الذاتي. إنها تجربة عالمية ضخمة حيث الناس والبيئة هي فئران تجارب. يواجه عالم اليوم معضلة قديمة العهد: كيفية التأكد من تطبيق الأفكار التي تهم تعديل قوى الطقس الطبيعية بمسؤولية وبعد تفكيرعميق.

خلال عملية التطور، تطورت الطبيعة عبر ملايين السنين. تعديل الطقس هو خطوة عملاقة. فمن خلالها، يريد الإنسان أن يكون مايسترو قوى الـطبيعة البارعة ويمكن أن يتحول إلى صبي الساحر.

لا يمكننا إيقاف التقدم، ولكن علينا جميعاً أن نطيع قانون الطبيعة. كان «القدماء» يلقون باللوم في كل الشرور على الشيطان، ومن ضمنها الطقس. بطبيعة الحال، لا أحد يصدق بعد الآن أن الشيطان له أي علاقة بالطقس. لكن البعض منا لا يزال يشعر بالراحة من مشاهدة كاهن وهو يرش الماء المقدس في الهواء، على أمل أن يؤكد لنا أن الطقس خلال عطلة التزلج المقبلة - أو المعركة الجوية القادمة، إذا حدث أن تكون طياراً مقاتلاً - سيكون مشمساً وصحواً

وما زالت الجبهات السطحية لا يمكن التنبؤ بها كما كان الأمر خلال أيام نوح. يجب أن نتعلم العيش في وئام مع الطبيعة. سيكون من الحماقة أن يحاول الإنسان السيطرة على الطبيعة؛ هناك ببساطة عدد كبير من الأشياء التي لا يمكن قياسها وتقديرها.

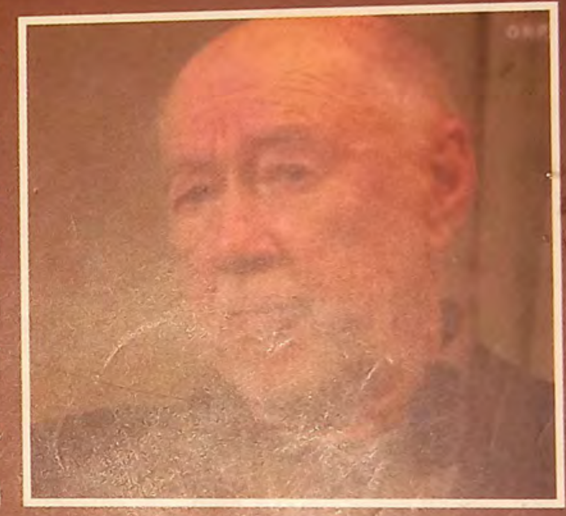
هناك شيء واحد فقط مؤكد:

لقد تمكن الإنسان من تسخير كل شيء تقريباً.

لكن الله لا يزال يسيطر على الطبيعة.

لا يعمل المؤلف، وهو يصف الأحداث الحقيقية، في فراغ. إن نقده للأحداث التي تتسبب في (أو أحياناً تمنع) حدوث نتائج مثيرة، يعتمد على أعمال من سبقوه، ابتداءً من الكتبة اللاتينيين القدماء إلى المراسلين الصحفيين في وقتنا الحاضر، على الرغم من تعرضهم إلى محاولات التقليل من شأنهم أو قمعهم في كثير من الأحيان. ومع ذلك، فقد تم سرد كل شيء جرى بعد الحدث!

يمكن مقارنة التأثير التاريخي الذي أحدثته بعض الأحداث، على الرغم من أنها كانت صغيرة نسبياً، بتأثير المعارك الضخمة التي لا تزال تختزنها الذاكرة الحديثة. وعلى سبيل المثال، في حين أن معركة غابة تويتوبورغ، الحاسمة بين الألمان والرومان التي جرت وقائعها في سنة ٩ م شهدت مواجهة بين حوالي أربعين ألف محارب قاتل بعضهم البعض الآخر، لكن معركة موسكو في عام ١٩٤١، شهدت تدمير أربعين ألف مدفع، وموت الملايين من الجنود. ومع ذلك، وسواء كانت تلك الأحداث كبيرة أم صغيرة، فإن كل واحد منها شكل منعطفاً تاريخياً.



لقد طلبت النصيحة من المؤرخين البارزين في الوقت الحاضر لتوجيهي في خياري. واعتمدت على أعمال أخرى، مثل أعمال المؤرخ الروماني تاسيتس، فهي محفوظة جيداً ويمكن العثور عليها في المكتبات الرئيسية. أود أن أعرب عن امتناني للكتاب الذين قدمت جهودهم أساساً مهماً لي وألهمتني في عملي، ولا سيما الجنرال الجيوستراتيجي بيير غالوا (الضابط المتقاعد من القوة الجوية الفرنسية،) والمؤرخ في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في وست بوينت، العقيد كين هامبورغر (ضابط متقاعد من الجيش الأمريكي)، وقائد الكوماندوز الألماني السابق، الكولونيل أوتو سكورزيني (المتوفى)، والخبير في التاريخ الأيرلندي، روبرت كي، الذي نجا من الإعصار الرهيب، وربان المدمرة الأمريكية ديوي، الكابتن ريمون كاهون، (ضابط متقاعد في البحرية الأمريكية). فقد كانت رواياتهم الشخصية حاسمة في جعل هذا الكتاب حقيقة واقعة.

ISBN 978-9933-6046-1-5

